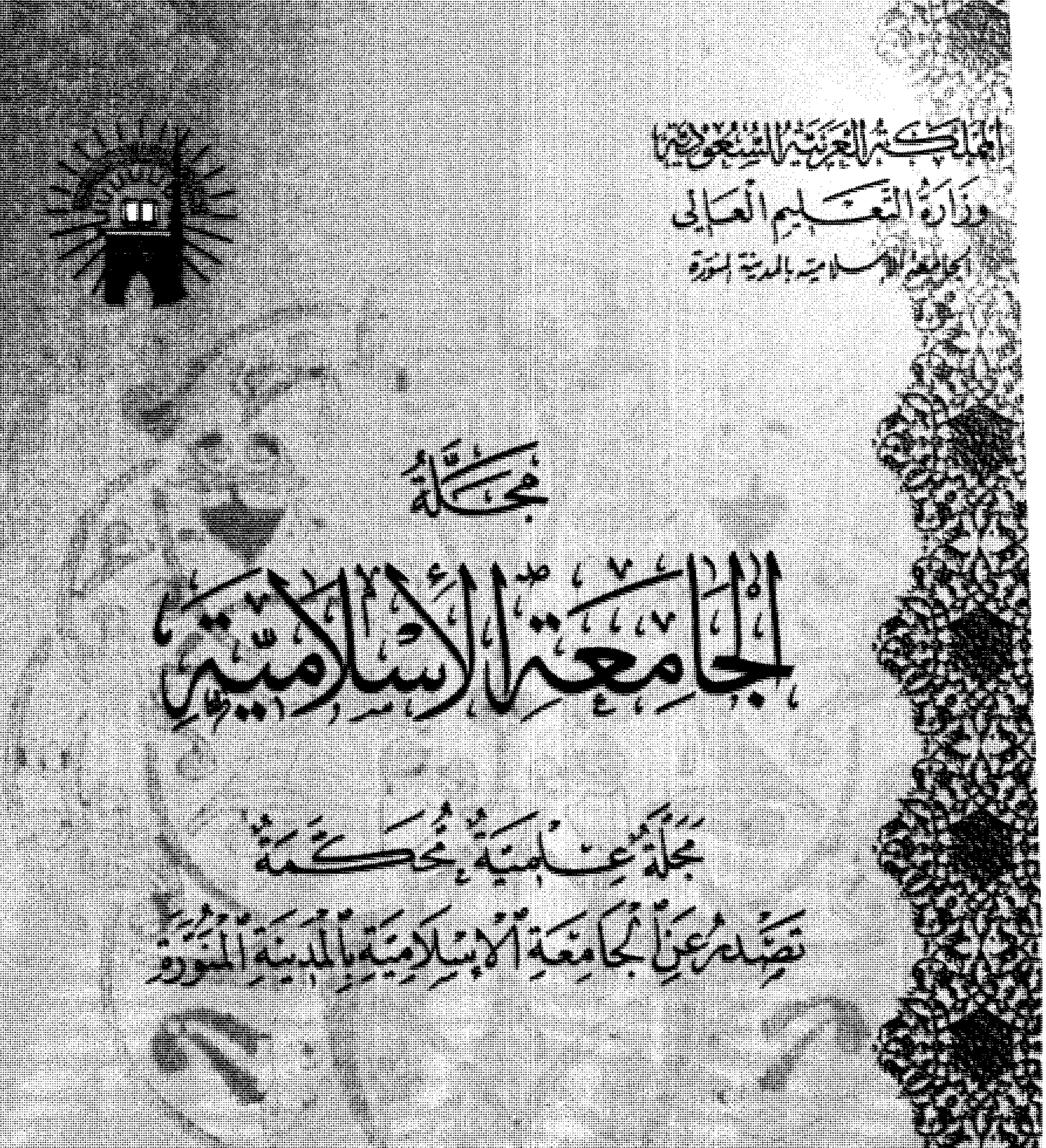


المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

مجلة الجامعة الإسلامية

مجلة علمية محكمة
تصدر عن الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

العدد ١١٩ - السنة ٣٥ - ١٤٢٣هـ

رقم الإيداع ١٤/٠٠٩٢
تاريخه ١٤١٤/١/٢٢هـ

موقع الجامعة الإسلاميّة www.iu.edu.sa
بريد الإنترنت iu@iu.edu.sa

بسم الله الرحمن الرحيم

قواعد نشر البحوث العلميّة في مجلة الجامعة

أ – أن تكون جديدة؛ لم يسبق نشرها.

ب – أن تكون خاصّة بالمجلّة.

ج – أن تكون أصيلة؛ من حيث الجدّة والابتكار والإضافة للمعرفة.

د – أن تراعى فيها قواعد البحث العلميّ الأصيل، ومنهجيّته.

هـ – أن لا تكون أجزاء من بحوث مستفيضة؛ قد تمّ نشرها للباحث، ولا أجزاء من رسالته العلميّة في (الدّكتوراه) أو (الماجستير).

و – أن لا يزيد عدد صفحاتها عن مائة للإصدار الواحد، ولا يقلّ عن عشر صفحات، ولهيئة تحرير المجلّة الاستثناء عند الضّرورة.

ز – أن تُصدّر بنبذة مختصرة – لا تزيد عن نصف صفحة – للتّعريف بها.

ح – أن يرافقها نبذة مختصرة عن صاحبها؛ تبيّن عمله، وعنوانه، وأهمّ أعماله العلميّة.

ط – أن يقدّم صاحبها خمس نسخ منها.

ي – أن تقدّم مطبوعة وفق المواصفات الفنيّة التّالية:

١ – البرنامج وورد ٢٠٠٠ أو ما يماثله.

٢ – نوع الحرف Traditional Arabic

٣ – نوع حرف الآية القرانيّة Decotype Naskh Special

٤ – مقاس الصّفحة الكلّي : ١٢سم × ٢٠سم (بالرّقم)

٥ – حرف المتن : ١٦ أسود.

٦ – حرف الهامش : ١٤ أبيض.

٧ – رأس الصّفحة : ١٢ أسود.

٨ – العنوان الرّئيسيّ : ٢٠ أسود.

٩ – العنوان الجانبيّ : ١٨ أسود.

١٠ – الأقراص تكون من النوعيّة الجيّدة، ويكون حفظ الملفّات على نظام DOC .

ك – أن يُقدَّم البحث – في صورته النّهائيّة – في ثلاث نسخ ؛ منها نسختان على قرصين مستقلّين ، ونسخة على ورق .

ل – لا تلتزم المجلّة بإعادة البحوث لأصحابها ؛ نشرت أم لم تنشر.

عنوان المراسلات: تكون المراسلات باسم مدير التّحرير:
(ص.ب ١٧٠ ــ المدينة المنوّرة ــ هاتف وفاكس ٨٤٧٢٤١٧
البريد الإلكتروني iu@iu.edu.sa).

مجلة
الجامعة الإسلامية



الموادّ المنشورة في المجلّة تعبّر عن آراء أصحابها

مُحْتَوَيَاتُ العَدَد

المَوْضُوعُ	الصَّفْحَةُ
• تَسْبِيحُ اللهِ ذاتَه العَلِيَّةَ في آياتِ كِتَابِهِ السَّنِيَّة : للدُّكتور عِماد زُهَيْرْ حافِظ	١١
• المَنْهَــجُ الصَّحيــحُ وأَثَرُه في الدَّعْوَةِ إِلىٰ اللهِ تَعَالَىٰ: للدُّكتور حَمُود بْنِ أحمد الرُّحَيْليِّ	١٢٥
• طَالِبُ الْعِلْمِ بَيْنَ أَمَانَةِ التَّحمُّلِ وَمَسْؤُولِيَّةِ الأَدَاءِ: للدُّكتور مُحَمَّد بْنِ خَلِيفَة التَّمِيميِّ	٢٠٥
• البَرَكَةُ في الرِّزْقِ والأسبابُ الجَالِبَةُ لَهَا في ضَوْءِ الكِتَابِ وَالسُّنَّة : للدُّكتور عبد الله مَرْحُول السَّوَالمه	٢٤٧
• الاشْتِراكُ المُتَعَمَّدُ في الجِنَايَةِ عَلَىٰ النَّفْسِ بِالْقَتْلِ أو الجَرْحِ : للدُّكتور عبدِ الله بْنِ مُعتِق السِّهْليِّ	٣٣٩
• مَسَائِلُ (إِذَنْ) : للدُّكتور أحمد بْنِ مُحمَّد بْنِ أحمد القُرَشِيِّ	٤٠٧
• حَرَكَةُ حُرُوفِ المُضَارَعَة : للدُّكتور عبدِ اللهِ بْنِ نَاصِر القَرْنيِّ	٤٥١



تَسْبيحُ اللهِ ذَاتَهُ العَلِيَّةَ فِي آياتِ كِتَابِهِ السَّنِيَّةِ

إعْـدَادُ :

الدُّكتور عِماد زُهَيْر حَافِظ

الأسْتاذِ المُسَاعِدِ فِي كُلِّيّة القُرْآنِ الكَرِيم في الجامِعَة



المقدّمة

الحمد لله الذي سبّح ذاته العليّة؛ قبل أن يسبّحه المسبّحون، وأشهد أن لا إله إلا الله؛ شهدت بعظمته السموات والأرضون، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمداً عبد الله ورسوله الصادق المأمون، صلّى الله وسلّم عليه وعلى آله وصحبه عدد ما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون .

وبعد؛ فلقد يسّر الله – تعالى – بفضله وكرمه أن أطالع كتابه الكريم متأملاً آياته،فلفتت انتباهي ونظري مواضع يُسَبّحُ الله – عزّ وجلّ – فيها ذاته المقدسة، فعزمت – متوكلاً على الله – في تتبُّع هذه المواضع وحصرها؛لما أنّ تسبيح الله ذاته يدلّ على أهمية ماينــزّه الله ذاته عنه فيها ،كما أنّ في ذلك إشارة إلى أنه تنــزّه خاصّ به مبالغٌ فيه لائق بجلاله وعظمته . ومن ثمّ جمعتُ هذه المواضع فوجدها خمسة وعشرين موضعاً. ثمّ صنّفتها؛ حسب موضوعاتها؛ التي جاءت فيها، فكان عشرة مواضع منها في تسبيح الله ذاته عن الإشراك به ،وأحد عشر موضعاً في تسبيح الله ذاته عن اتخاذه الولد، والأربعة الباقية كانت في موضوعات مختلفة: (أحدها) عند الحديث عن معجزة الإسراء و(ثانيها) إثر الوعد والوعيد و(ثالثها)في معرض ذكر نعمه وآياته و(رابعها)في معرض بيان عظمته وقدرته .

- ولقد بينت كلّ موضع منها عبر مبحث خاصٍ به .
- وعلى ما سبق فقد قسمت البحث إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تسبيح الله ذاته عن الإشراك به .

الفصل الثاني : تسبيح الله ذاته عن اتخاذه الولد .

الفصل الثالث : تسبيح الله ذاته في شؤون مختلفة أخرى .

– هذا وقد مهدّت لهذا البحث بتمهيد في معنى التسبيح وأصله اللغوي واشتقاقاته . ومن بعدُ ختمتُه بخاتمة بيّنت فيها أهم النتائج والمقترحات.

أمّا منهجي في بيان هذه المواضع: فإني أذكر وجه الحكمة في مجيء التسبيح في موضعه بين الآيات وغاية إيراده ،وهذا يُلزمني أن أبيّن ما قبل الموضع وما بعده في أغلب الأحيان؛ لكشف وجه الصلة والمناسبة، وأذكر من كلام المفسرين في ذلك ما أراه مناسباً وراجحاً وقريباً من المعنى الظاهر؛ دون اللجوء إلى مناسبات بعيدة في التأويل ومتكلّفة .

كما أني أعمد إلى ذكر بعض اللطائف – حول الآيات التي أتناولها بالبيان – أرى من المناسب ذكرها لما فيها من زيادة إيضاح أو تأكيد لمعنى أو كشف لسرّ بلاغي أو لغوي يبين جمال النصّ القرآني الكريم .

– ثمّ إني أذكر في الهامش القراءات المتواترة؛ والتي من شأنها إضافة معنى إلى الآية المطلوب بيانها .

– وقد أذكر في الهامش –أيضاً– بعض الاستطرادات التي أرى أنه ليس من المناسب إدخالها في متن الفقرات الأصلية للبحث ؛ ولكن إيرادي لها بسبب ما أخشاه من لبس عند القارئ أو وهم؛ يزول بها .

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يتقبل بحثي هذا في ميزان حسناتي يوم ألقاه وأن يغفر لي ما كان فيه من خطأ أو نسيان .آمين .

التمهيد

في معنى التّسبيح وأصله اللغوي واشتقاقاته

يحسن بي وأنا أتعرّض للحديث عن تسبيح الله تبارك وتعالى أن أمهِّد له ببيان معنى التسبيح استناداً إلى أصله اللغوي ،ومن ثمّ أذكر مااشتُقّ منه من كلمات أصبحت منتسبة إلى حقيقته الشرعية .فأقول والله المستعان سبحانه :

التسبيح : مصدر سَبَح ،وأصل معنى سَبَح في اللغة : إذا أَبْعَدَ وذهب – على وجه السرعة والخفّة– في الماء أو الهواء أو الأرض . والسَبْحُ : التباعد(١).

وتُوسِّع في استعماله فجيء به في معنى مرّ النجوم في الفلك . ومثاله قوله تعالى: ﴿ وكلٌّ في فلك يسبحون ﴾ (٢) واستعمل أيضاً لمعنى جري الفرس،ومثاله قوله تعالى: ﴿ والسَّابحات سبحاً ﴾ (٣) ومنه : فرس سبُوح أي واسع الجري . وجاء أيضاً بمعنى التصرّف في المعاش والإبعاد في العمل ومثاله قوله عزّ وجلّ : ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ (٤) .ومن تلكم الاستعمالات ما أنا بصدد بيانه وهو التسبيح للّه تعالى على أنّه يراد به –على ما سبق من بيان الأصل اللغوي إبعاده عمّا لا يليق به (٥)

---

(١) انظر : لسان العرب لابن منظور ج٢ ص٤٧٢؛ تفسير أبي السعود ج٥ ص١٥٤ ؛ تفسير الخازن ج٤ ص١٢٧؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١ ص٤٠٥ .

(٢) سورة يس : الآية (٤٠) .

(٣) سورة النازعات : الآية (٣) .

(٤) سورة المزمل :الآية (٧) .

(٥) انظر : لسان العرب لابن منظور ج٢ ص٤٧١_٤٧٢؛ ترتيب القاموس المحيط للطاهر الزاوي ج٢ ص ٥٠٦_ ٥٠٧.

وفيه قال الراغب[1] في مفرداته :«وأصله المرّ السريع في عبادة الله تعالى ، وجُعل ذلك في فعل الخير كما جُعل الإبعاد في الشر فقيل : أبعده الله. وجُعل التسبيح عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نيّة »[2].وبمثله في لسان العرب قوله :«وجماع معناه بُعده تبارك وتعالى عن أن يكون له مِثْل أو شريك أو ندّ أو ضدّ » [3].

- وتبعاً لهذا التوسُع في استعمال معنى التسبيح كما ذكر الراغب في عبارته السابقة «وجُعل التسبيح عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نيّة»؛ فإنّه قد أطلقت كلمات عدّة اشتقت من هذا المصدر وأصبحت معلومة مشهورة ، منها : أنّه يطلق التسبيح ويراد به الدعاء والذكر والصلاة . وفيه يقول القائل : قضيت سُبْحتي . والسُبْحة:الدعاء والذكر وصلاة التطوع والنافلة [4].

وعليه فسّر البعض قول الله تعالى: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ [5] على أنّه يأمرهم الله بالصلاة في هذين الوقتين [6].

---

(١) هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني أو الأصبهاني المعروف بالراغب : أديب،من الحكماء العلماء،من أهل «أصبهان» سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، توفي ٥٠٢هـ، من أشهر مؤلفاته : المفردات في غريب القرآن،محاضرات الأدباء، الذريعة إلى مكارم الشريعة.(انظر : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ص ٣٩٦ ؛ كشف الظنون لحاجي خليفة ج١ ص٣٦؛ الأعلام للزركلي:ج٢ ص٢٥٥).

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني : ص٢٢١.

(٣) انظر :لسان العرب لابن منظور ج٢ ص٤٧١.

(٤) المرجع السابق : ج٢ ص٤٧٣ .

(٥) سورة الروم : الآية ١٧ .

(٦) انظر :تفسير أبي السعود ج٧ ص٥٥ ؛ والآية في سورة الروم رقم (١٧) .

أقول : ولا ريب إنما سميت الصلاة والذكر كذلك لكونهما يتضمّنان تنـــزيهاً لله وتعظيماً له من كل سوء ونقيصة .

– ومنها يُقال : السُبُحات ويراد بها مواضع السجود.ويقال أيضاً :سُبُحات وجه الله أي أنواره وجلاله وعظمته .وسُبحة الله :جلاله . والسُبْحة:خرزات للتسبيح تعدّ [١].

واستناداً إلى ما سبق ذكره من أصل كلمة التسبيح في اللغة واستعمالاتها اللغوية والشرعية يمكن أن يُعرَّف التسبيح لله تعالى بأنّه : قول أو مجموع قول مع عمل يدلّ على تعظيم الله تعالى وتنـــزيهه وبراءته من كل سوء ونقيصة ومما لا ينبغي أن يوصف به فيما لا يليق بجلاله وكماله [٢].والله أعلم .

– ومما يجدر الإشارة إليه أنّ هذا اللفظ (التسبيح) بمعناه الشرعي لا يصلح إلا لله تعالى ولا يصحّ إطلاقه على غيره ؛إذ إنّ من صفاته عزّ وجلّ«سُبُّوحٌ قُدُّوس» كما جاءت به السنة المطهرة[٣].

---

(١) انظر :لسان العرب لابن منظور ج٢ ص٤٧٣ ؛ترتيب القاموس المحيط للطاهر الزاوي ج٢ ص٥٠٧ .

(٢) انظر :تفسير البغوي ج٣ ص٩٢؛التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٠ ص١٤٦؛ تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٠٤ ؛فتح القدير للشوكاني ج٣ ص٢١١ ؛أضواء البيان للشنقيطي ج٣ ص٣٩٧؛ التحرير والتنوير لابن عاشورج١٥ ص٩_١٠ .

(٣) انظـــر :الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج١٠ ص٢٠٤. وقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في ركوعه وسجوده «سُــبُوح قُدُوس ربُّ الملائكة والرُّوح » وقال النووي في شرحه له : معنى (سبوح) المبرأ مـــن النقائص والشريك وكل ما لايليق بالإلهية .(كتاب الصلاة :باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث ١٩٥ج٣ ص١٢٤) صحيح مسلم بشرح النووي .

أمّا كلمة (سُبحان) على وزن فُعلان فهي عند أكثر النحويين اسم عَلَم للتسبيح يقوم مقام المصدر مع الفعل. قال الفخر الرازي[1]. في تفسيره الكبير:«قال النحويون : سبحان اسم علم للتسبيح يقال :سبحت الله تسبيحاً وسبحاناً.فالتسبيح هو المصدر ،وسبحان اسم علم للتسبيح ، وتفسيره تنــزيه الله من كل سوء» [2].

–كما أنّ هذه اللفظة (سبحان) تدلّ على المبالغة في تنــزيه الله عزّ وجلّ من عدّة وجوه ذكرها أبو السعود [3] إذ قال :«وفيه ما لا يخفي من الدلالة على التنــزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السَّبْح الذي هو الذهاب والإبعاد في

---

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري،أبو عبد الله،فخر الدين الرازي،الإمام المفسر،قرشي النسب،أصله من طبرستان ومولده في الريّ وإليها نسبته ويقال له (ابن خطيب الري)،رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان،وتوفي في هراة،من المتكلمين،وكان واعظاً بارعاً،أشهر مؤلفاته مفاتيح الغيب في التفسير،والمحصول في علم الأصول،ولد عام ٥٤٤هـ وتوفي عام ٦٠٦هـ (انظر : لسان الميزان لابن حجر ج٤ص٤٢٦ ؛طبقات الشافعية للسبكي ج٥ ص٣٣ ؛ البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ص٦٠؛ الأعلام للزركلي ج٦ ص٣١٣) .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي :ج٢٠ ص١٤٥ .وفي لسان العرب قال ابن جنّي «سبحان اسم علم لمعنى البراءة والتنــزيه بمنــزلة عثمان وعمران،اجتمع في سبحان التعريف والألف والنون وكلاهما علّة تمنع من الصرف» لسان العرب ج٢ ص٤٧١.

(٣) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي،المولى،أبو السعود :مفسر وشاعر،من علماء الترك المستعربين .ولد بقرب القسطنطينية،ودرس ودرّس وتولى القضاء في بلاد متعددة وأضيف إليه الإفتاء عام ٩٥٢هـ، من أهم مؤلفاته تفسيره إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم .ولد عام ٨٩٨هـ وتوفي عام ٩٨٢هـ . (انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ج٨ص٣٩٨؛ الأعلام للزركلي ج٧ ص٥٩).

الأرض ،ومن جهة النقل إلى التفعيل ،ومن جهة العدول من المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصَّة ،وهو علم يشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن ،ومن جهة قيامه مقام المصدر مع الفعل » (١).

– هذا وقد تطلق العرب هذه الكلمة لما يُتعَجَّبُ منه ،فيقولون: سبحان من كذا، يريدون التعجّب من ذلك الشيء (٢).

– وأختم كلامي حول هذه الكلمة بما ذكره الفيروز آبادي (٣) **في بصائره من أنّها جاءت في القرآن الكريم في خمسة وعشرين موضعاً في ضمن كل واحد منها إثبات صفة من صفات المدح ونفي صفة من صفات الذمّ** (٤)**وهي ما سأفصل فيها القول – بإذن الله تعالى – في الصفحات القادمة وأسأل الله التوفيق والسداد.**

---

(١) تفسير أبي السعود :ج٥ ص١٥٤ .

(٢) انظر :لسان العرب لابن منظور ج٢ ص٤٧١؛ترتيب القاموس المحيط ج٢ ص٥٠٦.

(٣) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر،أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي :من أئمة اللغة والأدب،ولد بكارِزين من أعمال شيراز، وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام،ودخل بلاد الروم والهند،ورحل إلى زبيد عام ٧٩٦هـــ فسكن بها وولي قضاءها وتوفي بها،من أشهر مؤلفاته : القاموس المحيط ـــ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. وكان شافعياً،وكان قوي الحافظة يحفظ مائة سطر كل يوم قبل أن ينام،ولد عام ٧٢٩هـــ وتوفي عام ٨١٧هـــ (انظر : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ج٢ ص٢٨٠؛ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي ج١٠ص٧٩؛ بغية الوعاة ص١١٧؛ مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده ج١ص١٠٣؛ الأعلام للزركلي ج٧ ص١٤٦ـ١٤٧) .

(٤) انظر : بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ج٣ ص١٧٦ .



الفَصْل الأوَّل:

تَسْبِيحُ اللهِ ذَاتَه العَلِيَّة عن الإشراكِ به



المبحث الأول

في آية سورة التوبة :

قال الله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (١).

مطلب : في بيان ما قبل التسبيح .

– الكلام في هذه الآية الكريمة عن اليهود والنّصارى حيث إنّهم اتخذوا أحبارهم – وهم علماء اليهود – ورهبانهم –(٢)وهم عبّاد النصارى – أرباباً من دون الله عزّ وجلّ ،والمراد أنّهم يحلّون لهم ما حرّم الله فيحلّونه ؛ويحرّمون لهم ما أحلّ الله فيحرِّمونه ،ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الله فيتبعونهم عليها (٣) أي جعلوهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كلّ شيء ؛ومنه قوله تعالى: ﴿ قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً ﴾ (٤)أي كالنار(٥).

---

(١) سورة التوبة : الآية (٣١) .

(٢) قال القرطبي : الأحبار جمع حَبر، وهو الذي يحسِّن القول وينظِّمه ويتقنه بحسن البيان عنه. ومنه ثوب محبَّر أي جمع الزينة . وقد قيل في واحد الأحبار حِبر بكسر الحاء، والمفسرون على فتحها،وأهل اللغة على كسرها.قال الفرّاء :الفتحَ والكسر لغتان . والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة،وهو الذي حمله خوف الله تعالى على أن يخلص له النية دون الناس ويجعل زمانه له وعمله معه وأنسه به .(انظر : تفسير القرطبي ج٨ ص١١٩_١٢٠).

(٣) انظر : تفسير الطبري ج١٠ ص٨٠_٨١ ؛تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٩ ؛ تفسير محاسن التأويل للقاسمي ج٨ ص١٨٤_١٨٥ ؛تفسير السعدي ج٣ ص٢٢٣ .

(٤) سورة الكهف ، الآية:٩٦ .

(٥) تفسير القرطبي :ج٨ ص١٢٠ .ومستند المفسرين في هذا تفسير رسول الله ﷺ فقد روى الترمذي وغيره عن عَديّ بن حاتم رضي الله عنه قال : «أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقالَ : يا عَدِيّ اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في =

– وأما قوله تعالى : ﴿والمسيح ابن مريم﴾ فتخصيص المسيح بالذكر لأنّ تأليه النصارى إيّاه أشنع وأشهر (1).

– وجملة ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ في موضع الحال من ضمير {اتخذوا} وهي محطّ زيادة التشنيع عليهم وإنكار صنيعهم بأنهم لا عذر لهم فيما زعموا ، لأنّ وصايا كتب الملّتين مليئة بالتحذير من عبادة المخلوقات ومن إشراكها في خصائص الإلهية (2).

– وقوله ﴿لا إله إلا هو﴾ صفة ثانية لـ ﴿إلهاً واحداً﴾وهو توكيد لاستحقاقه تعالى للعبودية والطاعة دون سواه . فلا يعبد إلاّ هو ،وإذا حرّم شيئاً فهو الحرام؛ وما حلله فهو الحلال؛ وما شرعه فهو المتبع ؛وما حكم به هو النافذ(3).

مطلب : في بيان موضع التسبيح وغايته وصلته بما بعده :

– لّما بيّن الله تعالى اتخاذ اليهود والنصارى لأحبارهم ورهبانهم أرباباً من دونه ، واتخاذهم المسيح ابن مريم إلهاً مع الله وافترائهم عليه في ذلك كلّه نـــزه الله ذاته العليّة عن شركهم وافتراءاتهم. قال ابن جرير الطبري:«تنـــزيهاً وتطهيراً لله عما

= سورة براءة ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئاً استحلّوه،وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه» [كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ حديث ٥٠٩٣ (تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي ج٨ ص٤٩٢_٤٩٣) وقد حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ج٣ص٥٦].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور :ج١٠ ص١٧٠ .

(٢) المرجع السابق : ج١٠ ص١٧٠ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ج٢ ص٣٤٩ ؛التحرير والتنوير ج١٠ ص١٧١ ؛ تفسير السعدي ج٣ ص٢٢٣_٢٢٤.

يشرك هؤلاء في طاعته وربوبيته القائلون عزير ابن الله والمسيح ابن الله المتخذون أحبارهم أرباباً من دون الله» [١].

وبما يشابه كلام الطبري قال السعدي :«أي تنـــزه وتقدّس وتعالت عظمته عن شركهم وافتراءاتهم فإنهم ينتقصونه في ذلك ويصفونه بما لا يليق بجلاله . والله تعالى في أوصافه وأفعاله عن كل ما نُسب إليه مما ينافي كماله المقدّس»[٢].

– ولمّا تبين أنّه لا حجة لهم على ما قالوه ولا برهان لما أصّلوه ،وإنّما هو مجرد قول قالوه وافتراء افتروه أخبر سبحانه وتعالى – بعد أن نـــزه نفسه الكريمة – بما يزيد ويؤكّد تنـــزيهه وتعظيمه وتبرئته عمّا لا يليق به مبيناً حقيقة حالهم ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ [٣].

---

(١) تفسير الطبري :ج١٠ ص٨٢ .

(٢) تفسير السعدي :ج٣ ص ٢٢٤ .

(٣) انظر : تفسير السعدي :ج٣ ص٢٢٤،والآية في سورة التوبة رقم (٣٢) .

المبحث الثاني

في آية سورة يونس (عليه السلام) :

قال الله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (1).

مطلب : في بيان ما قبل التسبيح :

- في هذه الآية الكريمة يبيّن الله عزّ وجلّ - حال المشركين في عبادة غيره وافترائهم عليه ، وينكر من بعد عليهم ذلك ؛ ويبطل دعواهم بالحجة والبرهان، فتفنيد الدعاوى الباطلة والردّ عليها هو أسلوب قرآني فريد غايته بيان الحق وردّ الناس إليه وتثبيت القائمين عليه ؛ ودحض الباطل ونقض عراه وصدّ الناس عنه.

- وتبتدئ هذه الآية الكريمة التي ينــزه الله تعالى ذاته العلية في خاتمتها بمقدّمة وتمهيد معطوفة بالواو على ما قبلها من قوله عزّ وجلّ عن المشركين: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ الآية(2) وذلك لما فيها من حكاية جناية أخرى من جناياهم نشأت عنها جنايتهم الأولى (3).

---

(1) سورة يونس عليه السلام : الآية(18) . وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب في (عما يشركون). وقرأ الباقون بالغيبة (عما يشركون. انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج2ص282.

(2) سورة يونس : الآية (15) .

(3) انظر : تفسير أبي السعود ج4 ص131 ؛ فتح القدير للشوكاني : ج2 ص449 ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج11 ص125 .

ويجوز أن تكون معطوفة على الآية قبلها مباشرة ﴿ فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذب بآيته . . . ﴾ الآية [١].

إذ إنّ عبادتهم ما لا ينفع ولا يضر وادّعاءهم أنهم شفعاء لهم عند الله هو من ضمن افترائهم على الله سبحانه [٢].

– قال الله تعالى : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولاينفعهم ﴾ أي عبدوا متجاوزين الله تبارك وتعالى إلى عبادة غيره ما ليس من شأنه الضرر ولا النفع ، فإنّ من حق المعبود أن يكون مثيباً لمن أطاعه معاقباً لمن عصاه[٣].

وإنّما قدّم نفي الضرر لأنّ أدنى أحكام العبادة دفع الضرر الذي هو أوّل المنافع ، كما أنّ العبادة أمر حادث مسبوق بالعدم الذي هو مظنة الضرر ، فحيث لم تقدر الأصنام على الضرر لم يوجد لإحداث العبادة سبب [٤].

وهذه أوّل حجة في الآية على نقض وإبطال دعوى شركهم بالله تعالى ؛ فإنّ الذي لا يملك ضراً ولا نفعاً لا يستحق أن يُعبد ؛ بل الذي يملكهما هو الذي ينبغي أن تصرف العبادة إليه ، وما ذاك إلاّ الله –عزّ وجلّ – وهي حجة جدّ قوية في بابها . ألا نسمع لقول إبراهيم – عليه السلام – محاجاً قومه في عبادتهم للأوثان من دون الله ﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ [٥].

---

(١) سورة يونس : الآية (١٧) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١١ ص١٢٥ .

(٣) انظر فتح القدير للشوكاني ج٢ ص٤٤٩ .

(٤) تفسير أبي السعود : ج٤ ص١٣١ .

(٥) سورة الأنبياء : الآيتان (٦٧،٦٦) .

– وحكاية لفرط ضلالهم وجهلهم بالله مع عبادهم غيره ، وتسفيهاً وتحقيراً لرأيهم قال الله عنهم : ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ زعموا أنهم يشفعون لهم عند الله فلا يعذبهم بذنوبهم إنْ كان هناك يوم آخر يرجعون فيه إليه فيحاسبهم بما قدّموا. وهذا غاية – بلا شك – في الجهالة والافتراء حيث إنّهم ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرّ في الحال [1]هذا مع اعترافهم في مقالتهم – هذه – بأنّ المتصرّف هو الله تعالى وحده ؛ حيث جعلوا لهم شفعاء عنده[2].فدعواهم تحمل في طيّاتها ماينقضها بسبب تناقضها واعتمادها على أساس غير صحيح ولا مقبول عقلاً ولا واقعاً .. ولذلك جاء التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿ويعبدون﴾ و ﴿يقولون﴾ لاستحضار حالتهم العجيبة في استمرارهم على عبادتهم غير الله وافترائهم عليه تعجيباً من تصميمهم وعنادهم على ضلالهم الذي لا يقوم على دليل ولا حجة بل هو ينقض بعضه بعضاً [3].

– وبعد تلك المقدمة المفيدة للتدرّج في نقض شركهم ودعواهم يأتي الأمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بالردّ عليهم ومحاجّتهم . ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ أي أتخبرونه أنّ له شركاء في ملكه يُعبدون كما يُعبد ، أو أتخبرونه أنّ لكم شفعاء عنده بغير إذنه ؛ والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في أرضه وسمائه .

فلمّا كان كلامهم الباطل شيئاً اخترعوه وهو غير واقع جعل الله اختراعه بمنـــزلة أنهم أعلموه به .

---

(١) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٢ ص٤٤٩ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١١ ص١٢٥ .

(٣) انظر : المرجع السابق ج١١ ص١٢٥ .

وهذا الردّ حاصله وغايته عدم وجود من هو كذلك أصلاً ، إذ لو كان لعلمه الله– تعالى – وهو علام الغيوب .

ولا ريب أنّ في الردّ والإنكار عليهم بهذه الصورة تقريعاً لهم وتهكماً بهم وبما يدعونه من المحال الذي لا يكاد يدخل تحت الصحة والإمكان (١).

● لطيفة : أعيد حرف النفي بعد العاطف في قوله ﴿ولا في الأرض﴾ وذلك لزيادة التنصيص على النفي وتأكيده (٢).

مطلب : في بيان موضع التسبيح وغايته :

ومن بعد الردّ على المشركين بما يبطل شركهم وينقض دعواهم وافتراءاتهم وبما يثبت إلاهيته سبحانه ووحدانيته ينــزّه الله تعالى ذاته العليّة عمّا يفعله هؤلاء المشركون في عبادتهم مالا يضر ولا ينفع ، أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءهم عند الله (٣).وتنـــزيهه تعالى ذاته بعد إثبات حجته وبرهانه على لسان رسوله ﷺ لهو دليل على شناعة مقالتهم من جهة وعلى عظيم الإنكار عليهم من جهة أخرى . وكما يدلّ على أنّ قضية التوحيد له هي أسّ

---

(١) انظر : تفسير البغوي ج٢ ص٣٤٨ ؛ تفسير ابن كثير ج٢ ص٤١١ ؛ تفسير أبي السعود ج٤ ص١٣١ ؛ تفسير زاد المسير لابن الجوزي ج٤ ص١٦ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٢ ص٤٤٩ ؛ تفسير النسفي ج٢ ص١٥٧ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١١ ص١٢٦.

(٢) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١١ ص١٢٦ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ج١١ ص٦٩ ؛ تفسير أبي السعود ج٤ ص١٣٢ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٢ ص٤٤٩.

القضايا وعمادها ، وهو – سبحانه – الذي يتولّ تنـــزيه ذاته بذاته من كل ما لايليق بها ، ومع تنـــزيه رسله وأوليائه وملائكته ؛ والكون كلّه في أرضه وسمائه.

مطلب : في تأكيد ما بعد التسبيح لموضوعه وغايته :

يُتبع الله – تبارك وتعالى – الآية السابقة التي ختمها بتنـــزيه ذاته بما يؤكّد موضوع التنـــزيه وغايته أي أَمْرَ توحيد الله إذ قال تعالى : {وما كان الناس إلاّ أمّة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون}[1] فأخبر الله عزّ وجلّ – ههنا – أنّ التوحيد والإسلام لله ملّة قديمة أجمعت عليها الناس قاطبة فطرةً وتشريعاً؛ وأنّ الشرك وفروعه جهالات ابتدعها الغواة الضالون [2]وفي هذا تثبيت للمؤمنين ودعوة للمشركين للخروج من ربقة العبودية لغير الله تعالى وترك سبيل الغواة الضالين المنحرفين فطرة وشرعاً .

(١) سورة يونس : الآية (١٩) .

(٢) تفسير أبي السعود : ج٤ ص١٣٢ .

المبحث الثالث

في آية سورة الإسراء :

قال الله تعالى: ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾[١].

مطلب : في معنى الآية الأولى وصلتها بآية التسبيح :

– قوله تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ متصّل بقوله تعالى قبله ﴿ ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحوراً ﴾[٢].

ووجه الصلة أنّه عَوْدٌ وتتمّة في الردّ على المشركين عبّاد الأصنام وإبطال تعدّد آلهتهم طلباً لاستئصال عقائدهم من جذورها [٣].

– والمخاطب –في الآية – بالأمر بالقول هو النبي ﷺ وذلك لدمغهم بالحجة المقنعة والبرهان الجليّ بفساد قولهم . وافتتاحها به اهتماماً بها وتحضيضاً لهذا الأمر بالتبليغ ؛ وإن كان جميع القرآن مأموراً ﷺ بتبليغه [٤].

(١) سورة الإسراء : الآيتان (٤٢–٤٣) وقرأ ابن كثير وحفص على الغيبة (كما يقولون) ، وقرأ الباقون بالخطاب (كما تقولون) . وقرأ حمزة والكسائي وخلف على الخطاب في (عما تقولون) . وقرأ الباقون على الغيبة أي (عما يقولون) . (انظر : النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج٢ ص٣٠٧) .

(٢) سورة الإسراء : الآية (٣٩) .

(٣) انظر : تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٦٥ ؛ تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٥ ص١١٠ .

(٤) انظر : تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٦٥ ؛ تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٥ ص١١٠ .

– ثمّ إنّ قوله تعالى : ﴿كما يقولون﴾ جملة معترضة ، ويراد منها التنبيه والإشارة إلى أنّ تعدّد الآلهة لا تحقّق له وإنّما هو مجرد قول لا أساس له من الصّحة والواقع [(١)].

– ويأتي من بعدُ الجوابُ على ما افترض وجوده بقوله : ﴿ إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا﴾ ، فــ (إذاً) تدلّ على الجواب والجزاء وتؤكّد معناهما الذي دلّت عليه اللام المقترنة بجواب (لو) الامتناعية الدالّة على امتناع حصول جوابها لأجل امتناع وقوع شرطها.وبهذه الإجابة يكون الاستدلال على انتفاء إلهية الأصنام والملائكة الذين جعلوهم آلهةمع الله تعالى[(٢)].

وهذا الاستدلال يحتمل معنيين ذكرهما المفسرون، وما دام أنّ كليهما يؤديان إلى غاية الاستدلال، فلا مانع من إبانتهما زيادة في الحجة والبرهان وهما على ما يلي :

المعنى الأول : وهو الذي ذهب إليه عمدة المفسرين ابن جرير الطبري[(٣)] وتبعه فيه ابن كثير[(٤)] (رحمهما الله) وحاصله أنّه لو كان الأمر كما يزعمون من

---

(١) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٥ ص١١٠ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٥ ص١١٠ـ١١١ .

(٣) هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، أبو جعفر : المؤرخ المفسر الإمام ، ولد في آمل طبرستان عام ٢٢٤هـ واستوطن بغداد وتوفي بها عام ٣١٠هـ ، عرض عليه القضاء فامتنع والمظالم فأبى ، من أشهر مؤلفاته : أخبار الرسل والملوك ، جامع البيان في تفسير القرآن ، اختلاف الفقهاء (انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي ج٢ ص٣٥١؛ البداية والنهاية لابن كثير ج١١ص١٥٦-١٥٨ ؛ لسان الميزان لابن حجر ج٥ ص١٠٠-١٠٣؛ سير أعلام النبلاء للذهبي ج١٤ ص٢٦٧ -٢٨٢ ؛ الأعلام للزركلي ج٦ ص٦٩) .

(٤) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي ثمّ الدمشقي ، أبو الفداء، عماد الدين : حافظ مؤرخ ومفسر وفقيه . ولد في قرية من أعمال بصرى الشام عام ٧٠١هـ ، وانتقل مع أخ له إلى دمشق عام ٧٠٦ هـ ، ورحل في طلب العلم وتوفي في دمشق عام ٧٧٤هـ . من أشهر مؤلفاته : البداية والنهاية ، تفسير =

أنّ مع الله آلهة أخرى إذاً لابتغت تلك الآلهة سبيل القربة منه والتمست الزلفة لديه والمرتبة عنده لأنهم دونه ؛ وهم قد اعتقدوا أنّها تقربهم إلى الله زلفى ؛ فإذا علموا أنّ هذه الآلهة هي ذاتها محتاجة إلى الله تعالى ؛ فقد بطل بذلك أنّها آلهة [١] وفي هذا المعنى يقول ابن كثير : « لو كان الأمر كما يقولون وأنّ معه آلهة تُعبد لتقرب إليه وتشفع عنده لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه .. »[٢].

المعنى الثاني : أن يكون المراد بالسبيل طريق السعي إلى الغلبة والقهر ، أي لطلبوا مغالبة الله ذي العرش . ووجه هذا المعنى أنّ من شأن أهل السلطان أن يسعوا لتوسعة ملكهم وسلطانهم ؛ ويكون ذلك بمغالبة ومقاتلة ومنازعة غيرهم من السلاطين والملوك ، فلو كان مع الله آلهة لسلكوا عادة أمثالهم . وتمام هذا الدليل محذوف للإيجاز ، ويدلّ عليه ما تستلزمه المغالبة والمدافعة من اختلال العالم وفساده لانشغال مديريه بمقاتلة بعضهم بعضاً . وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين [٣].

= القرآن العظيم ، الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث ، الفصول في اختصار سيرة الرسول . (انظر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامن لابن حجر ج١ ص٣٧١؛ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج٩ ص٢٩٢؛ طبقات الشافعية للسبكي ج٦ ص ٨٤؛ الأعلام للزركلي ج١ ص٣٢٠).

(١) انظر : تفسير الطبري ج١٥ ص٦٤ ؛ تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٦٦ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج٣ ص٤١ .

(٣) انظر: تفسير البغوي ج٣ ص١١٦ ؛ تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٦٥ ؛ تفسير أبو السعود ج٥ ص١٧٤؛ تفسير الخازن ج٤ ص١٦١؛ تفسير الألوسي ج٥ ص٨٢_٨٣ ؛ تفسير زاد المسير ج٥ ص٣٨؛ تفسير محاسن التأويل للقاسمي ج١٠ ص٢٣١ ؛ تفسير فتح =

●لطيفة : إنّ في استحضار الذات العليّة بوصف ﴿ ذي العرش ﴾ دون اسمه العلم لما تتضمّنه الإضافة إلى العرش من الشأن الجليل الذي هو مطمع الآلهة في ابتغاء القربة والزلفى من سعة ما عنده تعالى على المعنى الأول ، أو الذي هو مثار حسد الآلهة إياه وطمعهم في انتزاع ملكه تعالى على المعنى الثاني [1].

مطلب : في بيان آية التسبيح وغايته :

– لّما أقام الله – عزّ وجلّ – الدليل القاطع على كونه منـــزهاً عن الشركاء؛ وعلى أنّ القول بإثبات الآلهةقول باطل ، أتبعه بما يدلّ ويؤكّد على تنـــزيهه عن هذا القول وتلكم الفرية والبهتان فقال منـــزهاً ذاته وممجّدها ومقدّسها عمّا لا يليق بها ﴿سبحانه وتعالى عمّا يقولون علواً كبيراً﴾ [2].

– ولم يقتصر التنـــزيه على لفظة ﴿سبحانه﴾ وإن كانت تؤدي إلى المعنى المراد ؛ ولكنّما جيء بعدها بقوله : ﴿ وتعالى عما يقولون علواً [3] كبيراً ﴾ ، وذلك لمزيد التأكيد لمعنى تنـــزيه الله عزّ وجلّ عن قولتهم الشنيعة في حقّه العظيم وشأنه الجليل .

= القدير للشوكاني ج ٣ ص٢٣٦؛ تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٥ ص ١١١؛ أضواء البيان للشنقيطي ج٣ ص٥٩٤ .

(١) انظر : تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور : ج١٥ ص١١٢ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ج١٥ ص٦٥ ؛ تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٦٦ ؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٠ ص٢١٧ ؛ تفسير ابن كثير ج٣ ص٤١ ؛ تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج ١٥ ص١١٣ .

(٣) (علواً) مفعول مطلق عامله (تعالى) جيء به على غير قياس فعله للدلالة على أنّ التعالي هو الاتصاف بالعلوّ بحقّ لا بمجرد الادّعاء (التحرير والتنوير لابن عاشور ج ١٥ ص١١٣) .

ومبالغة في النــزاهة -أيضاً- وصف العلّو بالكبر ؛ وليدلّ على أنّ المنافاة بين ذاته وصفاته – عزّ وجلّ- وبين نسبة الشريك له بلغت في القوة والكمال بحيث لا يشوبها شيء من جنس ما نسبوه إليه[1].والمعنى : أي تعاظم عن ذلك -تعالى- تعاظماً كبيراً غاية في الكمال لايشوبه شيء من جنس ما نُسب إليه ، فإنّ مثل هذه الفرية والبهتان ممّا يتنــزه ويترفع عنه مقامه الأسمى [2].

● لطيفة : ذكر صاحب محاسن التأويل (القاسمي) [3] لطيفة بلاغية ههنا فقال : « قال الشهاب : وذِكْرُ العلّو بعد عنوانه بـــ(ذي العرش)-في الآية قبلها- في أعلى مراتب البلاغة»[4].

مطلـــب : في فـــائدة ذكر تسبيح السموات والأرض ومن فيهن بعد تسبيح الله ذاته :

– بعد تنـــزيه الله تعالى ذاته العليّة من تلك الفرية الزريّة يذكر سبحانه تسبيح السموات والأرض ومن فيهنّ له بقوله : ﴿ تسبح[5] له السموات السبع

---

(١) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٠ ص٢١٧؛ فتح القدير للشوكاني ج٣ ص ٢٣٦؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٥ ص١١٣ .

(٢) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج١٠ ص٢٣٢ .

(٣) هو جمال الدين أو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق ، من سلالة الحسين بن علي ــ رضي الله عنه ــ إمام الشام في عصره علماً بالدين وتضلعاً من فنون الأدب ، مولده ووفاته في دمشق . رحل إلى مصر، وزار المدينة . له مؤلفات أشهرها : محاسن التأويل في التفسير ــ موعظة المؤمنين . ولد عام ١٢٨٣هــ وتوفي عام ١٣٣٢هــ . (انظر : الأعلام للزركلي ج٢ ص١٣٥) .

(٤) محاسن التأويل للقاسمي ج١٠ ص٢٣٢ .

(٥) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف (تسبح) بتاء جماعة المؤنث ، وقرأ الباقون (يسبح) [انظر : النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج ٢ ص٣٠٧] .

والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ [1].

وفي ذكره لهذه الحقيقة العظيمة شهادة بصحة وقوة ما أورده الله من الاستدلال على ألوهيته ووحدانيته ؛ فالعوالم كلّها علويّها وسفليّها تقدّسه وتنــزهه وتعظمه عمّا يقوله هؤلاء المشركون وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وألوهيته [2]. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإيراد التسبيح لكل العوالم ـــ ههنا – فيه إنكار شديد على هؤلاء المشركين القائلين بما لا يليق به سبحانه . وفي هذا يقول الطبري : « أي تنــزهه السموات والأرض ومن فيهن أيها المشركون عمّا وصفتموه به إعظاماً له وإجلالاً ، وأنتم مع إنعامه عليكم وجميل أياديه عندكم تفترون عليه بما تفترون !! » [3].

ويدلّ على هذا الوجه ويؤيده ختام الآية بقوله عزّ وجل ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ إذ فيه تعريض بأنّ مقالتهم تقتضي تعجيل العقاب لهم في الدنيا ؛ ولكنّ الله عاملهم بحلمه وإمهاله، وفيه أيضاً تعريض لهم بالحث على الإقلاع عن شركهم وكفرهم ليغفر الله لهم [4].

---

(١) سورة الإسراء : الآية (٤٤) .

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٠ ص٢١٧ ؛ تفسير ابن كثير ج٣ ص٤١ ؛ محاسن التأويل للقاسمي ج١٠ ص٢٣٢ .

(٣) تفسير ابن جرير الطبري : ج١٥ ص٦٥ .

(٤) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٥ ص١١٥ ؛ محاسن التأويل للقاسمي ج١٠ص٢٣٥ .

المبحث الرابع

في آية سورة الأنبياء :

قال الله تعالى : ﴿ لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ (١).

مطلب : في بيان ما قبل التسبيح وصلته :

هذه الآية الكريمة الوارد –فيها تنــزيه الله ذاته العليّة – مبيِّنة للإنكار الذي في قوله تعالى قبلها ﴿ أم اتّخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾ (٢) ولذلك فُصِلَت عنها ولم تعطف عليها(٣).فالله – عزّ وجلّ– أنكر على من اتخذ من دونه آلهة أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟! والمراد أي لا يقدرون على شيء من ذلك ؛ فكيف جعلوها نداً لله وعبدوها معه ؛ إذ لا يستحق الإلهية إلاّ من يقدر على الإحياء والإيجاد من العدم (٤).ثمّ بيّن الله إنكاره هذا بإخباره أنّه لو كان في الوجود آلهة سواه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن؛ حيث يستلزم أن يكون كلّ واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتّصرف فيقع عند ذلك التّنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد أي الخراب والهلاك .

وهذا البيان من الله تعالى – هو في نفس الأمر – استدلال على بطلان عقيدة هؤلاء المشركين في اتخاذ آلهة سواه (٥).

---

(١) سورة الأنبياء : الآية : (٢٢) .

(٢) سورة الأنبياء : الآية : (٢١) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٧ ص٣٨ .

(٤) انظر : تفسير البغوي ج٣ ص٢٤١ ؛ تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧٥ .

(٥) انظر : تفسير الطبري ج١٧ ص١٠ـ١١ ؛ تفسير البغوي ج٣ ص٢٤١ ؛ تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧٥ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٣ ص٤٠٣ .

مطلب : في بيان ختم الآية بالتسبيح ووجهه :

●– بعد أن أبطل الله –عزّ وجلّ– بما ذكره من الاستدلال والبرهان عقيدة المشركين في اتخاذهم آلهة معه أعقبه بما يؤكد ذلك الاستدلال من تنـــزيه ذاته فقال : ﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ والفاء تقتضي التعقيب وترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان والدليل ، فنـــزه الله ذاته عمّا لا يليق به ممّا وصفوه من الأمور والأحوال التي يفترونها عليه والتي من جملتها أن يكون له شريك في الإلهية [(١)].

● لطيفتان :

الأولى : إنّ في إظهار اسم الجلالة في موضع الإضمار لإشعار بعلّة الحكم؛ إذ الألوهية مناط لجميع صفات الكمال لله تعالى التي من جملتها تنـــزهه تعالى عمّا لا يليق به ؛ ولتربية المهابة وإدخال الروعة [(٢)].

الثانية : إنّ في وصفه تعالى في موضع التسبيح بـــ (رب العرش) –ههنا– تأكيداً لتنـــزهه؛ إذ فيه تذكير بأنّه انفرد بخلق السموات وهو شيء لا ينازع فيه المشركون ؛ بل هو خالق أعظم السماوات وحاويها وهو العرش ، وبذلك يلزمون بلازم قولهم بانفراده بالخلق وهو انتفاء الشركاء له فيما دون ذلك[(٣)].

---

(١) انظر : تفسير الطبري ج١٧ ص١٠_١١ ؛ تفسير أبي السعود ج٦ ص٦٢ .

(٢) تفسير أبي السعود : ج٦ ص٦٢ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٧ ص٤٤ .

مطلب : في وصفه تعالى بقوله : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ بعد التسبيح :

– وصف الله تبارك وتعالى ذاته بعد أن نــزّهها عما لا يليق بها بأنه لا يُسأل عن أفعاله ولكن غيره من العباد يسألون عن أفعالهم وأعمالهم ، وفي هذا مزيد لتنــزيهه تعالى ؛ إذ يحمل هذا الوصف إبطالاً لآلهية المقرَّبين –التي زعمها المشركون الذين عبدوا الملائكة وزعموا أنها بنات الله– بطريقة انتفاء خاصية الإله الحق عندهم إذ هم يُسألون عما يفعلون وشأن الإله ألاّ يُسأل[1].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٧ ص٤٦ .

المبحث الخامس

في آية سورة المؤمنون :

قال الله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ [1].

مطلب : في بيان ما قبل التسبيح وصِلَته :

- تأتي هذه الآية الكريمة ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . . . ﴾ الآية .. في ختام حملة طويلة متتابعة قوية الحجج والدلالات ضدّ المشركين بالله في شركهم وإنكارهم للبعث .وكأني ألحظ بداية هذه الحملة من قوله تعالى : ﴿أفلم يدّبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ [2] إذ يجول معهم القرآن فيفنّد شبههم ويردّ عليها ويبيّن حقيقة كفرهم وإعراضهم عن الحق وإن هو إلاّ استكبارهم وكرههم للحق وجهلهم به ، ثم يجول معهم أخرى يوقظ وجدانهم إلى دلائل الإيمان في أنفسهم وفي الآفاق من حولهم عسى أن يهتدوا ويرجعوا ويأخذوا من بعد بمسلّمَاقم التي يقرّون بها فيصحح لهم الاضطراب في عقيدقم ويردّهم إلى التوحيد الخالص [3].

- وفي الخاتمة لهذه الحملة المليئة بالجدل والحوار والحجة والبرهان يأتي التقرير الإلهي ليبيّن حقيقة ما جاءهم به الرسول ﷺ من التوحيد وبطلان ما يدّعونه من

---

(١) سورة المؤمنون : الآيتان (٩١-٩٢) .

(٢) سورة المؤمنون : الآية (٦٨) .

(٣) انظر : الآيات في سورة المؤمنون من (٦٨-٩٠) .

الشريك والولد إذ إنّ منهم من توهّم أنّه ارتقى عن عبادة الأصنام فعبدوا الملائكة وقالوا هم بنات الله فقال تعالى : ﴿ بل أتيناهم بالحق﴾ أي بالقول الصدق ﴿ وإنهم لكاذبون﴾ فيما ينسبونه إليه -تعالى- من الشريك والولد[١] .

- ثمّ نفاهما الله عن نفسه فقال : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ﴾ أي ليس له ولد ولا كان معه في القديم ولا حين ابتدع الأشياء من تصلح عبادته من إله إنّما هو الإله الواحد الحق لا إله إلاّ هو ، والإتيان بـــ (مِن) في نفي الأمرين لتأكيده [٢].

- ومن بعدُ بيّن الله تعالى ما يستلزمه ما يدّعيه الكفار من إثبات الشريك وهو في ذات الوقت الدليل على نفي الآلهة من دونه ﴿إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾. وفي الكلام حذف وتقديره :لو كان مع الله آلهة إذاً لاعتزل كلّ إله منهم بما خلق من شيء فانفرد واستبدّ به ولتغالبوا ووقع بينهم التطالب والتحارب فيغلب القويّ منهم الضعيف؛ لأنّ القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف وحينذلك لا يصلح الضعيف أن يكون إلهاً . وإذا تقرّر عدم إمكان المشاركة في ذلك وأنه لا يقوم به إلاّ واحد تعيّن أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه وتعالى [٣].

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ج١٢ ص١٤٦ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٣ ص٣٩٤ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ج١٨ ص٣٨ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٣ ص٣٩٤ .

(٣) انظر : المرجعين السابقين . والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبّروا عنه بدليل التمانع ، وهو لو فرض صانعان فصاعدا فأرادوا تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لايكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلاّ من فرض التعدّد فيكون محالاً ، =

● **لطائف :**

اللطيفة الأولى : يلاحظ في الآية أنه قدّمت الحقيقة والمطلوب على الدليل أي قوله تعالى ﴿ ما اتّخذ الله من ولد وما كان معه من إله ﴾ ولهذا التقديم علة وهي الإشارة إلى أنّ هذا المطلوب واضح النهوض لا يفتقر إلى دليل إلاّ لزيادة الاطمئنان [1].

اللطيفة الثانية : إنّ نفي الله تعالى للولد استقصاء للردّ على مختلف عقائد أهل الشرك من العرب إذ جعلوا الملائكة بنات الله فعبدوها من دون الله كما بينت سابقاً . كما أنّه قدم ذلك على نفي الشريك مع أنّ أكثر المشركين عبدة أصنام لا عبدة ملائكة نظراً إلى أنّ شبهة عبدة الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام لأنّ الملائكة غير مشاهدين فليست دلائل الحدوث بادية عليهم كالأصنام ، ولأنّ الذين زعموهم بنات الله أقرب للتمويه من الذين زعموا الحجارة شركاء لله [2].

اللطيفة الثالثة : أنّه –تعالى– لم يستدل في الآية على امتناع أن يتخذ الله ولداً وإن كان قد قدّمه وذكره ، وذلك لأنّ الاستدلال على ما بعده مغن عنه ؛ لأنّ ما بعده أعمّ منه وانتفاء الأعمّ يقتضي انتفاء الأخصّ ، فإنّه لو كان لله ولد لكان

= فأمّا إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً لأنّه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً . (قاله ابن كثير في تفسيره ج٣ ص٢٥٤) .

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور : ج١٨ ص١١٣ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٨ ص١١٣_١١٤ .

الأولاد آلهة لأنّ ولد كلّ موجود إنّما يتكونّ على مثل ماهية أصله [١].

مطلب : في بيان التسبيح وغايته :

لّما اقتضى هذا الدليل بطلان قولهم عقّبه الله تعالى بتنــزيه ذاته عن أقوالهم بقوله : ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ وهو بمنــزلة نتيجة لهذا الدليل [٢].

قال الطبري : « تنــزيهاً لله عمّا يصفه به هؤلاء المشركون من أنّ له ولداً وعمّا قالوه من أنّ له شريكاً وأنّ معه في القدم إلهاً يُعبد تبارك وتعالى»[٣].

مطلب: في غاية مجيء قوله تعالى: ﴿ عالم [٤] الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ [٥].

إن مجيء هذه الآية الكريمة بوصف الله تعالى في بدايتها بــ ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ هو تأكيد لتنــزيه ذاته وإتمام للاستدلال على تنــزهه عن الشريك في الآية قبلها . وذلك من وجهين :

أحدهمـــا : أنّه تعالى يصف ذاته بأنه عالمٌ بما غاب عن خلقه من الأشياء فلم يــروه ولم يشـــاهدوه وعالمٌ بما رأوه وشاهدوه ليخبر عن هؤلاء المشركين الذين عـــبدوا من دونه آلهة وزعموا أنّه اتخذ ولداً سبحانه أنّهم فيما يقولون ويفعلون

---

(١) المرجع السابق : ج١٨ ص١١٤ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ج١٨ ص١١٦ـ١١٧ .

(٣) تفسير الطبري : ج١٨ ص٣٨ .

(٤) قرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائي (عالمُ) بالرفع على الإستئناف ، وقرأ الباقون (عالمِ) بالجر ، على أنّه صفة لله .(انظر : حجة القراءات لابن زنجلة ص٤٩١) .

(٥) سورة المؤمنون : الآية (٩٢) .

مبطلون ومخطئون فإنّهم يقولون ما يقولون من قول في ذلك عن غير علم بل عن جهل منهم به ، فخبره وقوله بذلك هو الحق دون قولهم وخبرهم [١].

والثاني : أنّ قوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ هو دليل آخر على انتفاء الشرك بناء على اعتقادهم أنّ الله متفرِّد بعلم الغيب مع الشهادة ؛ لأنّ من دونه وإن كان عالماً بالشهادة فلا يعلم الغيب، ولذلك رتّب عليه بالفاء فقال: ﴿فتعالى عما يشركون﴾ فإنّ تفرّده تعالى بذلك موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك [٢].

والله أعلم بمراده .

---

(١) انظر : تفسير الطبري ج١٨ ص٣٨ .

(٢) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٣ ص٣٩٤ .

المبحث السادس

في آية سورة القصص :

قال الله تعالى : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ [١].

مطلب : في نـزول هذه الآية الكريمة :

قال الواحدي [٢] في أسباب النـزول : قال أهل التفسير : نـزلت جواباً للـوليد بن المغيرة حين قـال فيما أخبـر الله تعالى عنه أنّه لا يبعث الـرسل باختياره [٣].

– وتفصيلاً لكلام الواحدي أذكر كلام الخازن[٤] في تفسيره إذ يقول : « نـزلت هذه الآية جواباً للمشركين حين قالوا : ﴿لولا نزّل هذا القرآن على رجل

---

(١) سورة القصص : الآية (٦٨).

(٢) هو علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متُّوية، أبو الحسن الواحدي: مفسر، عالم بالأدب، نعته الذهبي بإمام علماء التأويل، كان من أولاد التجار، أصله من ساوة (بين الري وهمذان) ومولده ووفاته بنيسابور، من أشهر مؤلفاته : أسباب النـزول ــ البسيط ــ الوسيط – الوجيز في التفسير ـ شرح ديوان المتنبي وتوفي عام ٤٦٨هـ ـ (انظر : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ج٥ ص١٠٤؛ وفيات الأعيان لابن خلكان ج١ ص٣٣٣؛ مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ج١ ص٤٠٢؛ الأعلام للزركلي ج٤ ص٢٥٥) .

(٣) أسباب النـزول للواحدي : ص٢٥٥ـ٢٥٦. وانظر : جامع النقول في أسباب النـزول لخليفة عليوي ج٢ ص٢٦٢ .

(٤) هو علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي علاء الدين المعروف بالخازن : عالم بالتفسير والحديث، من فقهاء الشافعية، بغدادي الأصل، نسبته إلى شيحة من أعمال حلب، ولد ببغداد وسكن دمشق مدة، وكان خازن الكتب بالمدرسة السميساطية فيها، واشتهر بالخازن بسبب ذلك، أشهر كتبه لباب التأويل في معاني التنـزيل. ولد عام =

من القريتين عظيم﴾[1] يعني الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي. أخبر الله تعالى أنّه لا يبعث الرسل باختيارهم لأنّه المالك المطلق وله أن يخصّ ما يشاء بما يشاء لا اعتراض عليه البتة[2]».

أقول : ولعلّ سياق هذه الآيات الكريمة يؤيد ماذهب إليه أهل التفسير من أنّ الآية نـــزلت في شأن إرسال الرسل واختيارهم فإنّه قد قال تعالى قبلها في شأن المشركين : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين. فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾[3] وبعد هاتين الآيتين جيء بالاعتراض في قوله تعالى : ﴿ فأمّا من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ﴾[4] وهذه الآية التي نحن بصددها من تمام الاعتراض ووجه عطفها أنّ الله بيّن قبلها بأنّ الأمر موكلٌ إليه بحكمته في خلق قلوب قابلة للهداية وقلوب قاسية صمّاء، وهو الذي يختار من بين مخلوقاته لما يشاء ممّا يصلح له جنس ما من شأنه الاختيار، ومن ذلك اختياره للرسالة من يشاء إرساله وهذا في معنى قوله تعالى:﴿ . . . الله أعلم حيث يجعل رسالته. . .﴾ الآية[5]. وأن ليس ذلك لاختيار الناس ورغباتهم .

= ٦٧٨هـــ وتوفي ٧٤١هـــ (انظر : الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر ج٣ ص٩٧ ؛ الأعلام للزركلي ج٥ ص٥).

(١) سورة الزخرف : الآية (٣١).

(٢) تفسير الخازن : ج٥ ص١٨٠ ؛ وفي لباب النقول للسيوطي حول نـــزول هذه الآية الكريمة عن قتادة قال الوليد بن المغيرة : لو كان ما يقول محمد حقاً أنـــزل عليّ هذا القرآن أو على مسعود الثقفي. فنـــزلت الآية (لباب النقول في أسباب النـــزول ص١٨٨).

(٣) سورة القصص : الآيات (٦٥_٦٦).

(٤) سورة القصص : الآية (٦٧).

(٥) سورة الأنعام : الآية (١٢٤).

- ولكن مع ما ذُكر أقول : إنّ الله - تبارك وتعالى - قد أجاب عن قول المشركين في آية سورة الزخرف : ﴿ لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ في ذات الموضع في الآية بعدها وبنفس السورة بما يدحض قولهم ويبيّن بطلانه وقد تكون آية سورة القصص ههنا تتمة لذلك الجواب بأسلوب آخر وفي موضع آخر ناسب الردّ عليهم مرة أخرى لبيان شناعة قولهم ذلك، وكان الجواب عليهم آنذاك هو قوله تعالى : ﴿ أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون ﴾ [١] والمعنى أنّه لّما قسم الله تعالى بين الناس معيشتهم فكانوا مسيرين في أمورهم على نحو ما هيأ لهم من نظام الحياة، وكان تدبيره ذلك ببالغ حكمته فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج فسخر بعضهم لبعض في أشغالهم على حسب دواعي حاجة الحياة، ورفع بعضهم فوق بعض، وجعل بعضهم محتاجاً إلى بعض .. فإذا كانوا بهذه المثابة في تدبير المعيشة الدنيوية، فكذلك الحال في إقامة بعضهم دون بعض للتبليغ فإنّ ذلك في أعظم شؤون البشر، ولّما كان الاصطفاء للرسالة رحمة لمن يصطفى لها ورحمة للناس المرسل إليهم، جعل تحكّمهم في ذلك قسمة منهم لرحمة الله باختيارهم من يختار لها وتعيين المتأهّل لإبلاغها إلى المرحومين .. وهو ما لا يملكونه ولا يستطيعونه[٢].

وعلى ما ذكرته فقول من قال إنّ هذه الآية : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار .. ﴾ الآية نــزلت جواباً فيما قاله الوليد بن المغيرة هو قول يحتاج إلى كثير من الدّقة والتحري .. والأولى أن يقال إنّ هذه الآية الكريمة كانت مّما نــزل جواباً على

(١) سورة الزخرف : الآية (٣٢)

(٢) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٥ ص٢٠١.

مثل ما قاله الوليد بن المغيرة وغيره في هذه الدعوى وذلكم الاقتراح. وإضافة إلى ذلك فإنّ هذا النصّ يفيد العموم وإن كان السياق يوجّه إلى موضوع إرسال الرسل، والعبرة في مثله بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والله أعلم .

مطلب : في بيان ما قبل التسبيح :

– يخبر الحقّ – تبارك وتعالى – في مطلع هذه الآية الكريمة مخاطباً نبيه محمداً ﷺ أنّه المنفرد بالخلق والاختيار، وأنّه ليس له في ذلك منازع ولا مزاحم ولا معقّب ﴿وربك يخلق مايشاء ويختار﴾ فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والأمور كلّها خيرها وشرها مرجعها إلى تقديره وحكمته في خلقه [1].

وكذلك هو سبحانه الذي يختار لخلقه من التشريع ما يشاء ولا اعتراض على اختياره وحكمه البتة ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . .﴾ الآية[2].

– وإنّما ابتدأت الآية بإثبات أنّ الخلق لله تعالى – وإن كان معلوماً لدى المشركين – ليمهّد للمقصود وهو قوله بعده (ويختار ما كان لهم الخيرة) .

والمراد: كما أنّ الخلق له تعالى ومن خصائصه فكذلك الاختيار [3].

– و (ما) في قوله (ما كان لهم الخيرة) نافية على الأصّح .

وهذه الجملة الكريمة استئنافية مؤكّدة لمعنى ما قبلها من قصر الاختيار لله وحده، وأنّه ليس لأحد أن يختار على الله أو أن يعترض على اختياره وحكمه .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج٣ ص٣٩٧ .

(٢)سورة الأحزاب : الآية (٣٦).

(٣) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٠ ص١٦٥ .

ثمّ إنّ المجيء بــ (كان) هنا للدلالة على نفي للكون وهو يفيد أشدّ مما يفيد لو قيل ما لهم الخيرة [١].

وأمّا (الخيرة) فهي اسم من الاختيار يقوم مقام المصدر، وهي اسم للمختار أيضاً كما يقال : محمد خيرة الله من خلقه [٢].

مطلب : في بيان موضع التسبيح وغايته :

– جاء تسبيح الله ذاته العليّة في ختام هذه الآية السنيّة بقوله : ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ وغايته ومقتضاه في عدّة أمور منها :

– أنه لّما كان المقام – ههنا – في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار وأنّه لا نظير له في ذلك نـــزه الله ذاته من أن يشرك به من الأصنام أو الأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً؛ إذ المشاركة توجب المساواة، ولا مساواة – بلاشك – بين مـــن خلق وقدّر واختار وبين من لايستطيع خلقاً ولا يمـــلك تقديراً ولا اختياراً [٣].

– ثمّ إنّه لّما كان الدافع لهؤلاء المشركين في اقتراحهم واختيارهم وإعراضهم عن اختيار الله هو شركهم به – تعالى – فإنّه سبحانه نـــزه نفسه عنه ؛ وليدلّ على أنّ غاية أمرهم في ذلك إنّما هو ما امتزجت به نفوسهم من ضلالات شركهم وأهوائهم وجهلهم بقدر الله وحقيقته [٤].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٩٧ ؛ محاسن التأويل للقاسمي ج١٣ ص١٢١ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٠ ص١٦٥ .

(٢) تفسير البغوي : ج٣ ص٤٥٢ـ٤٥٣ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ج٣ ص٣٩٧ ؛ تفسير المهايمي : ج٢ ص١٢٢ .

(٤) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج١٣ ص ١٢١ .

وليدلّ أيضاً على أنّه لم يجترئ أحد على أن يصف الله تعالى بما لايليق به – آنذاك– إلاّ أهل الشرك هؤلاء. فسبحان الله وتعالى عما يصفون [1].

● لطيفة :

يذكر ابن عاشور[2] لطيفة حول إضافة سبحان إلى اسم الجلالة العَلَم – مع أنّ المقام مقام إضمار بعد أن قال : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ دون أن يقول سبحانه فعلّل ذلك بقوله : « لأنّ اسم الجلالة مختص به تعالى وهو مستحق للتنـــزيه بذاته؛ لأنّ استحقاق جميع المحامد لما تضمنّه اسم الجلالة في أصل معناه قبل نقله إلى العَلَمية » [3].

مطلب : في صلة ما بعد التسبيح به وبما قبله :

– إنّ موقع هذه الجملة الكريمة التي يسبّح الله فيها ذاته المقدّسة معترضة بين المتعاطفين من قوله تعالى : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ وما جاء بعدها من قوله تعالى : ﴿ وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون. وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ [4].

---

(١) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٠ ص١٦٦ .

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، مولده ووفاته ودراسته بها، عُيِّن عام ١٩٣٢م شيخاً للإسلام مالكياً، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، ولد عام ١٢٩٦هـ وتوفي ١٣٩٣هـ، له مصنفات مطبوعة من أشهرها : مقاصد الشريعة الإسلامية، أصول النظام الإجتماعي في الإسلام، تفسير التحرير والتنوير. (انظر: الأعلام للزركلي ج٦ ص١٧٤) .

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور : ج٢٠ ص١٦٦ .

(٤) سورة القصص : الآيات (٦٩_٧٠) .

وهاتان الآيتان بعدها فيهما مزيد تنـــزيه لله -تبارك وتعالى- وثناء عليه ؛ فإنّه – عزّ وجلّ – بعلمه لما تخفيه صدورهم وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم فهو المستحقّ والمنفرد بأن يختار لهم ما يشاء دون سواه ، وبالتالي فهي أيضاً بمثابة علّة للاختيار .. والآية التي تتلوها كذلك هي في ذات موضوعها وتؤكّده ؛ وذلك بما جاء فيها من إثبات ألوهيته تعالى وأنّه المنفرد بالوحدانية، وأنّ جميع المحامد إنّما تجب له دون غيره، وأن لا حكم إلاّ له دون مشاركة فيه لغيره وإليه من بعد المرجع والمصير (١). والله أعلم بمراده.

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ج١٣ ص٣٠٧ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٠ ص ١٦٦.

المبحث السابع

في آية سورة الروم :

قال الله تعالى: ﴿ اللهُ الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [١].

مطلب : في بيان ما قبل التسبيح بالآية.

- في هذه الآية الكريمة يخاطب الله - عزّ وجلّ- المشركين معرّفاً لهم قبح فعلهم وخبث صنيعهم، وذلك بأن أثبت لوازم ألوهيته وخواصّها التي لا ينبغي أن تكون إلاّ له ؛ وهم يجعلون معه غيره ﴿ اللهُ الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾، ثمّ يقول مؤكّداً هذا المعنى بإنكار عليهم وتقريع لهم على جهة الاستفهام [٢] ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ ؟!. وهو في معنى النفي [٣]. ومعلوم أنّهم يقولون إجابة عن هذا الاستفهام : ليس منهم من يفعل شيئاً من ذلك، وبذلك تقوم عليهم الحجة بما دلّ عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق [٤] فإذن كيف يُعبد من دون الله من لايفعل شيئاً من ذلك؟!

---

(١) سورة الروم : الآية (٤٠)، وقرأ حمزة والكسائي ﴿ سبحانه وتعالى عما تشركون ﴾ بالتاء على الخطاب، وقرأ الباقون بالياء على الغيبة (انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص٥٥٩-٥٦٠) .

(٢) انظر : تفسير الطبري ج٢١ ص٣١ ؛ تفسير القرطبي ج١٤ ص٤٠ ؛ تفسير أبي السعود ج٧ ص٦٢ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٢٢٠ .

(٣) يقول ابن عاشور : « استفهام إنكاري في معنى النفي، ولذلك زيدت (من) الدالة على تحقيق نفي الجنس كلّه في قوله (من شيء) والمعنى : ما من شركائكم من يفعل شيئاً من ذلكم » (التحرير والتنوير : ج٢١ ص١٠٧) .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود ج٧ ص٦٢ .

● **لطيفة :**

أضيف (شركاء) إلى ضمير المخاطبين من المشركين في قوله تعالى : {هل من شركائكم} ؛ لأنّ المخاطبين هم الذين خلعوا عليهم وصف الشركاء لله تعالى؛ فكانوا شركاء بزعم المخاطبين وليسوا شركاء على الحقيقة، وهذا جارٍ أيضاً مجرى التهكّم بهم[1].

● **ولطيفة أخرى :**

ذكرت في هذه الآية الكريمة (مِن) ثلاث مرات، فالأولى في قوله (هل من شركائكم) بيانية، وهي بيان للإبهام الذي في قوله (من يفعل). أو هي تبعيضية صفة لمقدّر أي هل أحد من شركائكم ؟ .والثانية في قوله (من ذلكم) تبعيضية في موضع الحال. وأمّا الثالثة فهي في قوله (من شيء) مزيدة لتعميم المنفي واستغراق النفي له [2].

مطلب : في بيان موضع التسبيح وغايته :

بعد أن أقام الله تعالى الحجة على المشركين – بما ذكره من خوّاص إلهيته ولوازمها ومن الإنكار عليهم باستفهام معنيّ به النفي وهم يعلمون حقيقة ما فيه في أنفسهم وواقع حياتهم- نـزه سبحانه نفسه عن شركهم وأتبعه بمزيد التنـزيه من ذكر علوّها عنه وعمّا يفترونه عليه بزعمهم أنّ آلهتهم له شركاء إذ قال: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ [3].

---

(١) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢١ ص١٠٨ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ج٧ ص٦٢ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢١ ص١٠٧ـ١٠٨ .

(٣) انظر : تفسير الطبري ج٢١ ص٣١ .

– وعلى هذا فموقع التسبيح هنا موقع النتيجة لما قبلها .

يقول أبو السعود في تفسيره : « ثمّ استنتج منه تنــزهه عن الشركاء بقوله {سبحانه وتعالى عما يشركون} [1].

وقال ابن عاشور أيضاً بما يشير إلى هذه العلاقة عن جملة التسبيح أنها «مستأنفة لإنشاء تنــزيه الله تعالى عن الشريك في الإلهية، وموقعها بين الجملتين السابقتين موقع النتيجة من القياس»[2].

● لطيفة :

ذكر الآلوسي[3] لطيفة في وجه التعبير بالمضارع في قوله (عما يشركون) حيث قال : «والتعبير بالمضارع لما في الشرك من الغرابة، أو للإشعار باستمراره وتجدده منهم » [4]

---

(١) تفسير أبي السعود : ج٧ ص٦٢ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور : ج٢١ ص١٠٨ .

(٣) هو محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، شهاب الدين، أبو الثناء : مفسر ومحدث وأديب، من أهل بغداد مولده ووفاته بها، كان سلفي الاعتقاد مجتهداً تقلد الإفتاء ببلده عام ١٢٤٨هـ، وعزل فانقطع للعلم ثم سافر في ١٢٦٢هـ إلى الموصل فالآستانة ومرّ بماردين وسيواس ثم عاد إلى بغداد إلى أن توفي بها ،ونسبته إلى جزيرة (آلوس) في وسط الفرات. ولد عام ١٢١٧هـ وتوفي عام ١٢٧٠هـ من أشهر كتبه: روح المعاني، المقامات (انظر الأعلام للزركلي : ج١ ص١٧٦) .

(٤) تفسير الآلوسي (روح المعاني) : ج٢١ ص٤٧ ،

المبحث الثامن

في آية سورة الزمر :

- قال الله تعالى : ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾[١].

مطلب : في بيان ما قبل التسبيح :

- الواو في أوّل الآية لعطفها على ما قبلها ؛ ذلك أنّه لّما جرى الكلام على أنّ الله تعالى خالق كل شيء وأنّ له مقاليد السموات والأرض وهو ملك عوالم الدنيا، وجاء من بعد التذييل بأنّ الذين كفروا بالله هم الخاسرون ؛ انتقل الكلام – هنا – إلى ذكر عظمة ملكه –تعالى– في العالم الأخروي ؛ وأنّ الذين كفروا بآيات الله الدالة على ملكوت الدنيا قد خسروا بترك النظر ؛ فلو اطّلعوا على عظيم ملك الله في الآخرة لقدّروه حقّ قدره [٢].

- فقوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حقّ قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ أي ما عظّموه حقّ عظمته، ولا عرفوا جلاله حقّ معرفته؛ إذ جعلوا له شركاء وسوّوا بينهم وبينه ووصفوه بما لايليق به وبشؤونه الجليلة، وكيف يكون ذلك منهم والحال[٣] أنّ الله – عزّ وجلّ – هو العظيم

(١) سورة الزمر : الآية (٦٧) .

(٢) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور : ج٢٤ ص٦٤ .

(٣) قال الشوكاني في فتح القدير : (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة) في محل نصب أي ما عظموه حق تعظيمه والحال أنّه متصف بهذه الصفة الدالة على كمال القدرة (والسموات مطويات بيمينه) حال كالتي قبلها (ج٤ ص٤٥٨) .

الذي لا أعظم منه، وهو القادر على كلّ شيء. وكلّ شيء تحت قهره وقدرته وإرادته، وهذا ما بيّنه قوله تعالى : ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾ إذ فيه تنبيه على غاية عظمته وكمال قدرته[1].

– وإنّ السبيل في بيان وإيضاح هذا النّص الكريم هو الالتزام بمذهب السلف بإمراره والإيمان به كما جاء من غير تكييف ولا تأويل ولا تحريف ولا تمثيل، وتفويض حقيقة معناه إلى الله تبارك وتعالى. هذا وقد رويت أحاديث عديدة في معنى هذا النصّ الكريم منها ما رواه البخاري[2] في صحيحه عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إنّا نجد أنّ الله عزّ وجلّ يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع فيقول : أنا الملك. فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه (أضراسه)

---

(١) انظر : تفسير الطبري ج٢٤ ص١٧ ؛ تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٧٧ ؛ تفسير ابن كثير ج٤ ص٦٢ ؛ تفسير أبي السعود ج٧ ص٢٦٢ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٤٥٨ ؛ محاسن التأويل للقاسمي ج١٤ ص٢١٧ ؛ تفسير السعدي ج٦ ص٤٩٣.

(٢) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله، صاحب الجامع الصحيح ـ التاريخ ـ الضعفاء ـ الأدب المفرد. ولد في بخارى ونشأ يتيماً، وقام برحلة طويلة (سنة ٢١٠هـ) في طلب الحديث، فزار خراسان والعراق ومصر والشام، وسمع من نحو ألف شيخ، وجمع نحو ست مائة ألف حديث اختار منها في صحيحه ما وثق برواته، وأقام في بخارى فتعصّب عليه جماعة ورموه بالتهم فأخرج إلى خرتنك (من قرى سمرقند) فمات بها. ولد عام ١٩٤هـ وتوفي ٢٥٦هـ. (انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي ج٢ ص١٢٢ ؛ تهذيب التهذيب لابن حجر ج٩ ص٤١-٤٧؛ طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج١ ص٢٧١-٢٧٩؛ الأعلام للزركلي ج٦ ص٣٤).

تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ : ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ [١].

ومنها ما رواه البخاري (أيضاً) بسنده أنّ أبا هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول : أنا الملِك، أين ملوك الأرض؟» [٢].

وهذان الحديثان الشريفان وغيرهما مما ورد في معناهما وبما يقارب نصّهما نؤمن بما جاء فيها ونمرّها كما جاءت على مثل ماهو الشأن في نصّ الآية الكريمة. وهذا هو ما عليه مذهب أهل السنة والجماعة. والله أعلم بمراده .

●لطيفة : تأكيد الأرض بقوله (جميعاً) [٣] لأنّ المراد بها الأرضون السبع مطابقة لما قال بعدها (والسموات)، أو المراد جميع أبعاضها البادية والغائرة[٤].

مطلب : في وجه ختم الآية بتسبيح الله ذاته :

– ختم الله هذه الآية الكريمة بتسبيح ذاته العليّة لما فيه من التأكيد لمعنى ما جاء فيها من قوله تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ فإنّه تبارك وتعالى ينـــزه ذاته عن المعبودات التي

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري : كتاب التفسير ـباب (وما قدروا الله حق قدره) حديث ٤٨١١، ج٨ ص٥٥٠ـ٥٥١ .

(٢) فتح الباري : كتاب التفسير ـباب (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) ـحديث (٤٨١٢)، ج٨ ص٥٥١ .

(٣) في التحرير والتنوير لابن عاشور : (جميع : أصله اسم مفعول مثل قتيل، وبذلك استعمل توكيداً مثل (كلّ) و (أجمعَ) [ج٢٤ ص٦١] .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود ج٧ ص٢٦٢ـ٢٦٣ .

يجعلونها شركاء له أو عن شركهم مع كونه سبحانه صاحب القدرة العظيمة والحكمة الباهرة، أي فما أبعد وما أعلى من هذه قدرته وعظمته عن إشراكهم أو عمّا يشركونه من الشركاء [١].

– ثمّ إنّ ما جاء بعد التسبيح من قوله تعالى: ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله . . . ﴾ الآيات [٢].

يدلّ على معنى التأكيد المراد وذلك لما فيها من الانتقال من إجمال عظمة القدرة الإلهية يوم القيامة إلى تفصيلها [٣].. ولا ريب أنّ هذا داعٍ إلى مزيدٍ من تنـــزيهه سبحانه عما يشركون. والله أعلم .

(١) انظر : تفسير أبي السعود ج٧ ص٢٦٣ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٤٥٨ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٤ص ٦٤ .

(٢) سورة الزمر : الآيات (٦٨_٧٥) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير ج٢٤ ص٦٤ .

المبحث التاسع

في آية سورة الطور :

قال الله تعالى : ﴿أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون﴾[١].

مطلب : في بيان الآية ووجه الصلة بما قبلها :

هذه الآية الكريمة بما جاء في خاتمتها من تسبيح الله ذاته العليّة تأتيَ في ختام حملة متلاحقة قوية –ضد المشركين– تدحض كلّ ما يقابلها من شبهة واهية تشبثوا بها أو حجة تمسّكوا بها.. وابتدأت هذه الحملة في جولاتها بــ (أم) الاستفهامية التي يقصد منها التوبيخ والإنكار[٢]. وكانت هذه الآية هي الجولة الثالثة عشر التي اتسمت بهذا الأسلوب في هذه السورة، وبها جُرِّد المشركون من كلّ شبهاتهم وحججهم التي لا أساس لها من الصحة والواقع. يقول ابن عاشور : « هذا آخر سهم في كنانة الردّ عليهم، وأشدّ رمي لشبح كفرهم، وهو شبح الإشراك، وهو أجمع ضلال تنضوي تحته الضلالات وهو إشراكهم مع الله آلهة أخرى..»[٣].

وهذه الجولة الخاتمة تعتبر المقصود الأعلى لهذه الآيات المتلاحقة إذ هي في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية .

وإنّ المتأمِّل في الآيات السابقة من قوله تعالى : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾[٤] يجدها قد جاءت مرتبة متدرجة تفضي كلّ منها إلى ما بعدها لتحقيق المقصود، ولسامعها المتأمّل الطالب للهدى والحق سبيلاً واضحاً مبرهناً للإيمان

---

(١) سورة الطور : الآية (٤٣) .

(٢) انظر : تفسير البغوي ج٤ ص٢٤٢ ؛ تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٤٤ ؛ حاشية الجمل على الجلالين ج٤ ص٢٢١ .

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور : ج٢٧ ص٧٨ .

(٤) سورة الطور : الآية (٣٠) والمراد إلى آية (٤٣) .

بالله. ولذلك ورَد أنّ جبير بن مطعم رضي الله عنه كان من سبب دخوله في الإسلام سماعه لهذه الآيات ورسول الله ﷺ يقرؤها. وفيه ما روى البخاري في صحيحه بسنده إلى جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلمَّا بلغ هذه الآية: ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون. أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ﴾ كاد قلبي أن يطير» [1].

– وحاصل معنى قوله تعالى: (أم لهم إله غير الله) نفي الحصول من أصله أي ليس لهم في الواقع إله غير الله [2].

مطلب: في بيان موضع التسبيح وغايته:

تنــزيه الله ذاته الكريمة ههنا بمثابة الإتمام والتنهية للمقصود الأعلى الذي تصدّرت به الآية. وبه يكمل فضح حال المشركين وإلزامهم الحجة والبرهان وأن لم يبق لهم من بعد عذر [3].

قال ابن كثير في تفسيره: «ثمّ نــزه الله نفسه الكريمة عمّا يقولون ويفترون ويشركون فقال (سبحان الله عمّا يشركون)» [4].

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: كتاب التفسير، حديث (٤٨٥٤) ج٨ ص ٦٠٣. وقوله (كاد قلبي أن يطير) قال فيه الخطابي: كأنّه انــزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه. ثمّ قال في آخر كلامه: ومال إلى الإسلام أي بسببها .(فتح الباري ج٨ ص٦٠٣) وعند ابن كثير: أنّ هذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق عن الزهري به، وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى وكان إذ ذاك مشركاً فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام من بعد ذلك (ج٤ ص٢٤٤).

(٢) انظر: حاشية الجمل مع الجلالين ج٤ ص٢٢١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٧ ص٧٨؛ فتح القدير للشوكاني ج٥ ص١٠٢.

(٤) تفسير ابن كثير: ج٤ ص٢٤٤.

المبحث العاشر

في آية سورة الحشر :

قال الله تعالى : ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾ [(١)].

مطلب : في بيان ما قبل التسبيح وصلته :

الذي يلاحظ في هذه السورة الكريمة أنّه قد جاء في خاتمتها ثلاث آيات تضمنت ذكر عدد من أسماء الله وصفاته الحسنى بصورة متتابعة لم تذكر في مثلها من آيات القرآن الكريم. ولعلّ المتأمل يسأل عن سرّ ذلك. وقد اجتهد صاحب التحرير والتنوير في بيان هذا الأمر وأرى أنّه قد أصاب في اجتهاده وأجاد، والله أعلم بالمراد، فقال رحمه الله تعالى : «لمّا تكرر في هذه السورة ذكر اسم الله وضمائره وصفاته أربعين مرّة، منها أربع وعشرون بذكر اسم الجلالة وست عشرة مرة بذكر ضميره الظاهر أو صفاته العليّة، وكان ما تضمّنته السورة دلائل على عظيم قدرة الله وبديع تصرّفه وحكمته، وكان ممّا حوته السورة الاعتبار بعظيم قدرة الله إذ أيد النبي ﷺ والمسلمين ونصرهم على بني النضير ذلك النصر الخارق للعادة، وذكر ما حلّ بالمنافقين أنصارهم، وقوبل ذلك بالثناء على المؤمنين بالله ورسوله الذين نصروا الدين، ثمّ الأمر بطاعة الله والاستعداد ليوم الجزاء والتحذير من الذين أعرضوا عن كتاب الله ومن سوء عاقبتهم وختم ذلك بالتذكير بالقرآن الدالّ على الخير والمعرّف بعظمة الله المقتضية شدّة خشيته عقّب ذلك بذكر طائفة من عظيم صفات الله ذات الآثار العديدة في تصرفاته المناسبة لغرض السورة زيادة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد

---

(١) سورة الحشر : الآية (٢٣) .

من خشيته، وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبته، وزيادة في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته..»[1].

- وإنّما تعرّضت لذكر هذه المقدمة باعتبار أنّ هذه الآية الكريمة التي ختمت بتسبيح الله ذاته متعلّقة بما قبلها في ذكر سلسلة من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا. فكان لا بدّ من الوقوف على وجه الحكمة في ذلك، ولارتباط غاية مجيء التسبيح بذكر أسماء الله تعالى ههنا.

- وتبدأ هذه الآية الكريمة كسابقتها بقوله (هو الله الذي لا إله إلا هو) وهذا التكرار للاستئناف لأنّ المقام مقام تعظيم وهو من مقامات التكرير، وفيه - أيضاً- اهتمام بصفة الوحدانية له تعالى. أي هو الإله المعبود الذي لا تصلح العبادة إلاّ له.

ثم يجيء بعد هذا ذكر أسماء وصفات له أخرى غير ما ذكر في الآية قبلها (الملك) أي المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة (القدوس) أي المبارك (السلام) أي من جميع العيوب والنقائص (المؤمن) أي الذي أمن خلقه من أن يظلمهم (المهيمن) أي الشاهد على خلقه بأعمالهم (العزيز) أي الذي قد عزّ كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه (الجبار) أي المصلح أمور خلقه المتصرّف فيهم بما فيه صلاحهم (المتكبِّر) أي عن كلّ شرّ وسوء[2].ومن بعد هذه الأسماء الحسنى والصفات العليا يسبح الله نفسه الكريمة وهو ما سأبينه في المطلب القادم .

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور : ج٢٨ ص١١٧_١١٨ .

(٢) انظر : تفسير الطبري ج٢٨ ص٣٦_٣٧ ؛ تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٣ .

مطلب : في بيان التسبيح وغايته :

– ينـــزه الله تعالى ذاته العليّة عن شرك المشركين وعمّا اتخذوهم من شركاء له سبحانه، وذلك إثر تعداد بعض صفاته وأسمائه الحسنى التي لا يمكن أن يشاركه في شيء منها شيء أصلاً مما يدّعونه شركاء له عزّ وجلّ .. وفي هذا إشارة للتعجيب من حالهم في إثبات شريك لله بعد ما عاينوا هذه الأسماء والصفات بآثارها وحقائقها ودلائلها ،وبمعنى آخر مقارب أنّه لّما تقرّر بما ذكر الله تعالى من أسمائه وصفاته كمال عظمته وجلال كبريائه مما ينتج عنه تنـــزهه وتعاليه عن شوب نقص لا سيما عن الشرك ؛ نـــزه الله ذاته عنه داعياً عباده بذلك إلى تنـــزيهه وتعظيمه ؛ ومتعجباً من حال من أشرك به وهو المنفرد بصفات الكمال والجلال [١].

– وللفخر الرازي كلام في بيان غاية مجيء التسبيح ههنا، ولكني أرى أنّه قد حصر ذلك في جانب واحد بقضية معيّنة، والأوْلى ما ذُكِر سابقاً لإفادته العموم وهو الأنسب والله أعلم. وذلك قوله :« كأنّه قيل : إنّ المخلوقين قد يتكبّرون ويدّعون مشاركة الله في هذا الوصف –أي المتكبر– لكنّه سبحانه منـــزه عن التكبّر الذي هو حاصل للخلق لأنهم ناقصون بحسب ذواتهم، فادّعاؤهم الكبر يكون ضمّ نقصان الكذب إلى النقصان الذاتي، أمّا الحق سبحانه فله العلوّ

(١) انظر : تفسير أبي السعود ج٨ ص٢٣٤ ؛ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ج٧ ص٥٤٢ ؛ تفسير روح البيان للبرسوي ج٩ ص٤٦٦ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٨ ص١٢٣ .

والعزّة، فإذا أظهره كان ذلك ضمّ كمال إلى كمال، فسبحان الله عما يشركون في إثبات صفة المتكبرية للخلق »[١].

– وبهذا ينتهي الكلام حول هذا الموضع وبه يتم هذا الفصل والحمد لله رب العالمين .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي : ج٢٩ ص٢٩٤ .

الفَصْل الثّاني:

تَسْبِيحُ اللهِ ذَاتَه العَلِيَّة عن الوَلَد



المبحث الأول

في آية سورة البقرة :

قال الله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون. بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [(١)].

مطلب : في بيان موضع التسبيح وغايته :

ينــزّه الله تعالى ذاته الكريمة إثر إخباره عن قول اليهود والنصارى ومشركي العرب بأنّه اتخذ ولداً. فاليهود قالوا عزيز ابن الله، والنصارى قالت المسيح ابن الله، ومشركو العرب قالوا إنّ الملائكة بنات الله. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. فأكذب الله جميعهم منــزهاً ذاته العليّة عن دعواهم باتخاذه الولد بقوله : (سبحانه) وفيه إشارة إلى أنّ الولديّة نقص في حق الله تعالى وكمال شأنه ؛ وإن كانت كمالاً في حقّ غيره من حيث إنّها تسدّ بعض نقائصه عند عجزه وفقره وتسدّ مكانه عند اضمحلاله وذهابه، والله منــزه عن جميع ذلك، ولو كان له ولد لآذن بالحدوث والحاجة والعجز [(٢)].

● لطيفة : إنَّ في الإتيان بلفظ (اتخذ) تعريضاً بالاستهزاء بهم بأنّ كلامهم لا يلتئم لأنّهم أثبتوا ولداً لله ويقولون اتخذه الله ؛ والاتخاذ الاكتساب وهو ينافي الولدّية؛ إذ الولديّة تولّد بدون صنع، فإذا جاء الصنع جاءت العبودية لامحالة[(٣)].

---

(١) سورة البقرة : الآيتان (١١٦-١١٧) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ج١ ص١٦٠ ؛ تفسير الخازن ج١ ص١٠٠ ؛ فتح القدير للشوكاني : ج١ ص١٩٨ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١ ص٦٨٥ .

(٣) التحريرر والتنوير لابن عاشور : ج ١ ص٦٨٤، وانظر روح المعاني للآلوسي ج ١ ص٣٦٨.

● ولطيفة بلاغية :

يُلاحظ أنّ متعلّق (سبحانه) محذوف ههنا ؛ وذلك لدلالة الكلام عليه، وفيه من الإيجاز ما لا يخفى. وقد أظهر في غيرها لما يقتضيه السياق مثل قوله تعالى في آية سورة النساء : ﴿سبحانه أن يكون له ولد . . . ﴾ الآية[1].

مطلب : في بيان ما بعد التسبيح وصلته :

بعد أن نـــزه الله ذاته العليّة عن اتخاذ الولد شرع في الردّ عليهم بأربع حجج يتبع بعضها بعضاً، وابتدأه بحرف (بل) الدالّ على الإضراب عن مقالتهم الشنيعة تمهيداً لإبطالها والردّ عليها وعلى ما تقتضيه من التشبيه بالمخلوقات المحدثة في تناسلها وحاجتها إلى الولد، وفي ســـرعة فنائها اللازم لتلك الحاجة[2].

– أمّا الحجة الأولى فهي في قوله تعالى : {له ما في السموات والأرض}؛ ذلك أنّ الله تعالى بيّن – ههنا– أنّ جميع ما في السموات والأرض مملوك له ؛ ومن جملتهم من ادّعوا أنّه ولد لله، والولادة تنافي الملكية لأنّ الوالد لايملك ولده[3].

---

(١) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٤ ص٢٣ ؛ روح المعاني للآلوسي ج١ ص ٣٦٨. والآية في سورة النساء رقم (١٧١) وهي قوله تعالى ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنّما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾.

(٢) انظر : روح المعاني للآلوسي ج١ ص٣٦٨_٣٦٩ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١ ص٦٨٥ .

(٣) انظر : البحر المحيط لأبي حيان ج١ ص٣٦٣.

والحجة الثانية في خاتمة الآية ﴿كل له قانتون﴾ و لقد فصلت لقصد استقلالها بالاستدلال حتى لا يُظنّ أنّها مكمّلة للدليل والحجة من قوله تعالى قبلها ﴿ له مافي السموات والأرض﴾ [١].ودليل هذه الحجة على انتفاء الولد من حيث أنّ القنوت – وهو لزوم الطاعة مع الخضوع – هو من شعار العبيد، أمّا الولد فله إدلال على الوالد ؛ وإنّما يبرّ به ولا يقنت، فكان إثبات القنوت لله – تعالى – نفي للولد عنه من هذا الوجه [٢].

وتأتي الحجة الثالثة في الآية الثانية بقوله تعالى :﴿ بديع السموات والأرض ﴾ ومعنى هذه الجملة الكريمة أنّ الله خالق السموات والأرض على غير مثال سابق، ووجه الحجة – ههنا– أنّه لّما كان الله عزّ وجل مبدع السموات والأرض وخالقهما، كان أحرى أن يكون ما فيهما من مخلوق من مبدعهما سبحانه، ولكن ذكرهما للتنبيه على عظمة خلقهما كما قال تعالى : ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس . . . ﴾ الآية[٣]. وعلى هذا فكيف يُجعل له شبيه من خلقه ؟! لأنّ الولد مستخرج شبيه بما استخرج من عينه، والله سبحانه ليس له نظير ولا شبيه ولا مثيل، وما جعلوه ولداً له إنّما هو داخل في ما خلقه وأوجده ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [٤].

(١) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١ ص٦٨٥.

(٢) انظر : تفسير الخازن ج١ ص١٠٠ ؛ التحرير والتنوير ج١ ص٦٨٥.

(٣) سورة غافر : الآية (٥٧).

(٤) سورة الشورى : الآية (١١). وانظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ج١ ص٢٢٩ ؛ البحر المحيط لأبي حيان ج١ ص٣٦٤ ؛ تفسير الخازن ج١ ص١٠٠ ؛ فتح القدير للشوكاني ج١ ص١٩٨ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١ ص٦٨٧.

وأمّا الحجة الرابعة والأخيرة فجاءت في قوله عز وجلّ : ﴿ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ ووجه الاستدلال ههنا على أنّه سبحانه لا يتخذ ولداً ما بينته هذه الجملة الكريمة أنّه تعالى إذا أراد أمراً وقدّره من أمر الكائنات كلها أو أحكمه وحتّمه فإنما يقول له كن فيكون ذلك الأمر على ما أراد الله تعالى وجوده، أي يكوّن الكائنات كلها بتكوين واحد وكلّها خاضعة لتكوينه سبحانه [1].

وفي هذه الحجة كشف لشبهة النصارى حيث توهموا أنّ مجيء عيسى – عليه السلام – من غير أب دليل على أنه ابن الله، فبيّن الله أن تكوين أحوال الموجودات راجع إلى التكوين والتقدير سواء في ذلك ما وجد بواسطة تامّة أو ناقصة أو بلا واسطة. قال الله تعالى : ﴿ إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [2] فليس تخلّق عيسى عليه السلام من أمّ دون أب بموجب كونه ابناً لله تعالى [3].

وأختم كلامي في هذا المبحث بما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ قال : «قال الله تعالى : كذّبني ابن آدم ولم يكن

---

(١) انظر : تفسير الخازن ج١ ص١٠٠ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج١ ص٦٨٧ .

(٢) سورة آل عمران : الآية (٥٩). والظاهر في قوله ﴿كن فيكون﴾ المعنى الحقيقي، وأنّه تعالى يقول هذا اللفظ (كن) فيكون ما أراده، وليس في ذلك مانع، ولا جاء ما يوجب تأويله، ومن قوله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ – سورة يس الآية (٨٣). وهذا هو الصحيح والله أعلم. (انظر : فتح القدير للشوكاني ج١ ص١٩٨) .

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور : ج١ ص٦٨٧ .

له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّاي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأمّا شتمه إيّاي فقوله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً » [1].

قال ابن حجر في شرحه للحديث :«إنّما سمّاه شتماً لما فيه من التنقيص لأنّ الولد إنما يكون عن والدة تحمله ثم تضعه، ويستلزم ذلك سبق النكاح، والناكح يستدعي باعثاً له على ذلك، والله سبحانه منـــزه عن جميع ذلك»[2].

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري. كتاب التفسير (٢) سورة البقرة (٨) باب (وقالوا اتخذ الله ولداً) حديث رقم (٤٤٨٢) .ج٨ ص١٦٨ .

(٢) فتح الباري : ج٨ ص١٦٨ .

المبحث الثاني

في آية سورة النِّساء :

قال الله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحق إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنّما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾[1].

مطلب : في بيان ما قبل التسبيح :

– في هذه الآية الكريمة ينهى الله – عزّ وجل– أهل الكتاب من النصارى خاصة عن الغلوّ والإطراء ومجاوزة الحدّ، وهذا كثير فيهم حيث رفعوا عيسى عليه السلام فوق المنـــزلة التي أعطاه الله إيّاها، فنقلوه من حيّز النبوة إلى الألوهية، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه فادّعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه وذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾. ونهاهم أيضاً ألاّ يفتروا عليه ويجعلوا له صاحبة وولداً وهو قوله : ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحقّ ﴾، ولهذا قال بعده ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ أي إنّما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه قال له كن فكان، رسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربّه عزّ وجلّ، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنـــزلت حتى ولجت فرجها بمنـــزلة لقاح الأب والأم والجميع مخلوق لله عزّ وجلّ فهو مخلوق من روح مخلوقة، وإضافة الروح إلى الله على وجه التشريف .

---

(١) سورة النساء : الآية (١٧١) .

– وبعد أن بيّن الله حقيقة عيسى عليه السلام أمرهم بالإيمان به وبرسله {فآمنوا بالله ورسله}أي فصدقوا بأنّ الله واحد أحد لا ولد له ولا صاحبة، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله، ولهذا قال تعالى بعد ذلك ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين .

ومن جهل النصارى وكفرهم أنهم اختلفوا على طوائف في شأن عيسى عليه السلام فمنهم من يعتقده إلهاً، ومنهم من يعتقده شريكاً ومنهم من يعتقده ولداً .. فهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أجاد أحد المتكلمين حيث قال : لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشرة قولاً .

– ثمّ أكد الله تعالى نهيه بقوله : ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ أي اتركوا وتخلوا عن اعتقاداتكم الباطلة وادّعاءاتكم الفاسدة يكن خيراً لكم .

– ونــزه الله تعالى من بعد ذلك ذاته عن قول النصارى بالتثليث فأثبت وحدته في الإلهية بأسلوب القصر ﴿ إنما اللهإلهواحد ﴾ [١].

مطلب : في بيان موضع التسبيح وصلته بما بعده :

– وبعد أن نــزه الله نفسه عن الشريك بقوله {إنما الله إله واحد } نــزه نفسه عن الولد الذي هو منشأ التثليث عند النصارى فقال : ﴿ سبحانهأنيكون لهولد ﴾ ومع ما تفيده كلمة (سبحانه) من قوة التنــزيه لله تعالى، فإنها تدلّ أيضاً على غلط من قال بأنّ لله ولداً[٢].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ج١ ص٥٨٩-٥٩١ ؛ تفسير القرطبي ج٦ ص٢٥ ؛ تفسير الخازن ج١ ص٦٢٧-٦٢٨ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج٦ ص٥٨ .

والتعبير بهذه الجملة في التنــزيه عن الولد ﴿سبحانه أن يكون له ولد﴾ يشعر باستحالة هذا الأمر على الله عزّ وجلّ، فإنّ الإلهية تنافي الكون أباً واتخاذ ابن لاستحالة الفناء والاحتياج والانفصال والمماثلة للمخلوقات عن الله تعالى. والبنوة تستلزم ثبوت هذه المســتحيلات لأنّ النسل قانون كوني للموجودات لحكمة استبقاء النوع، والناس يتطلبونه لذلك، وللإعانة على لوازم الحياة، وفيها انفصال المولود عن أبيه، فأبوه مماثل له لا محالة [١]. وفي معنى هذا قال البغوي[٢]: «واعلم أنّ التبنيّ لا يجوز لله تعالى ؛ لأنّ التبني إنما يجوز لمن يتصور له ولد»[٣].ومن ثم تنوعت الحجج في نفي الولد عن الله ودارت حول هذه الأمور.

- وههنا تتكرر الحجة التي سبق ذكرها في آية سورة البقرة، وهي في موضع التعليل لجملة التنــزيه : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ فمادام أنّ له ما في السموات وما في الأرض فإنه قد استغنى عن الولد، ولأنّ من يزعم أنّه ولد له هو مما في السموات والأرض كالملائكة أو عيسى عليه السلام فالكل عبيده وليس الابن بعبد ؛ إذ الولادة تنافي الملكية كما بينا في المبحث السابق[٤].

- وختمــت الآيــة بحجة ثانية وهي ما جاءت في قوله تعالى : ﴿ وكفى بالله وكيلا﴾ وذلــك أنّ الذي بيده حفظ السموات والأرض وما فيهما ؛ وإليه تصريف أمورهما وتدبيرهما، والخلق كلّهم أمورهم إليه، وهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ..

---

(١) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج٦ ص٥٨ .

(٢) هو الحسين بن مسعود بن محمد، الفرّاء، أبو محمد، ويلقب بمحيي السنة (٤٣٦-٥١٠هـ) : فقيه، محدث، مفسر، نسبته إلى "بغا" من قرى خراسان، ومن أشهر كتبه : " شرح السنة - لباب التأويل في معالم التنــزيل". (انظر : وفيات الأعيان ج١ ص١٤٥ ؛الأعلام للزركلي ج٢ ص٢٥٩) .

(٣) تفسير البغوي : ج١ ص٥٠٢ .

(٤) انظر : المرجع السابق ج٦ ص٥٨ .

فمـن كـان شأنه ذلك هل يحتاج إلى ولد يعينه، بل الخلق العاجزون عن كفاية أمرهم هم الذين يحتاجون إلى من يعينهم ويساعدهم. وهذه الحجة التي عبّر عنها النسفي في تفسيره موجزاً حيث قال : « {وكفى بالله وكيلاً} حافظاً ومدبراً لهما ولما فـيهما، ومن عجز عن كفاية أمر يحتاج إلى ولد يعينه ؟!» [١]. ولله الحمد والمنّة .

(١) تفسير النسفي : ج١ ص٢٦٥ .

المبحث الثالث

في آية سورة الأنعام :

قال الله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكلّ شيء عليم ﴾ [1].

مطلب : في بيان موضع التسبيح وغايته :

- الشاهد في آية التسبيح - ههنا - قوله تعالى حكاية وإخباراً عن المشركين : ﴿وخرقوا[2] له بنين وبنات بغير علم ﴾ ومعنى : (خرقوا) أي اختلقوا وافتعلوا وكذبوا على الله تعالى . ومنه يقال : اختلق الإفك واخترقه وخرقه . أو أصله من : خرق الثوب : إذا شقّه ، أي اشتقوا له بنين وبنات[3].

وقوله : (بغير علم) أي بحقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، بل رمياً بقول عن عَمى وجهالة وضلالة من غير فكر ولا رَوِيَّة . أو بغير علم بمرتبة ما قالوه وأنّه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادر قدره [4].

- وبعد أن أخبر الله عمّا نسبه إليه المشركون من الولد نـــزه الله ذاته العليّة عمّا نسبوه له ووصفوه به فقال : ﴿سبحانه وتعالى عمّا يصفون﴾.

قال أبو السعود : « ﴿سبحانه ﴾ استئناف مسوق لتنـــزيهه عزّ وجلّ عمّا

---

(١) سورة الأنعام : الآيتان (١٠٠-١٠١) .

(٢) قرأ الجمهور (وخرقوا) بتخفيف الراء ، وقرأ نافع وأبو جعفر (وخرّقوا) بالتشديد على التكثير . (انظر : النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج٢ ص٢٦١) .

(٣) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٢ ص١٥٣ .

(٤) انظر : تفسير أبي السعود ج٣ ص١٦٨ .

نسبوه إليه»[١].

مطلب : في بيان الآية بعد التسبيح :

جاءت الآية بعد التسبيح بأربعة استدلالات تنـــزه الله عن الولد فهي بمثابة التعليل للتنـــزيه .

– أما الاستدلال الأول فقد سبق الحديث عنه في المبحث الأول (آية سورة البقرة) وهو ما حواه قوله تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض﴾ وأضاف البيضاوي[٢] في تفسيره وجهاً آخر للاستدلال من هذه الجملة الكريمة حيث قال : «أنّه من مبدعاته السموات والأرض وهي مع أنّها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدّتها فهو أولى بأن يتعالى عنها»[٣].

– والاستدلال الثاني يؤخذ من الجملة الثانية في الآية وهي قوله تعالى : ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ وابتدأت هذه الجملة باستفهام ليفيد الإنكار لقول المشركين ؛ والاستبعاد والاستحالة لاتخاذه ولداً . أي كيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟! فقوله : ﴿ولم تكن له صاحبة ﴾ حال مؤكّدة للاستحالة

---

(١) تفسير أبي السعود : ج٣ ص١٦٨ .

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي أبو سعيد ، أو أبو الخير ، ناصر الدين البيضاوي : قاضي ، مفسر ، علامة ، ولد في المدينة البيضاء (بفارس قرب شيراز) ، وولي قضاء شيراز مدّة ثم صرف عن القضاء ، فرحل إلى تبريز فتوفي بها عام ٦٨٥هـ ، من أشهر مؤلفاته : أنوار التنـــزيل وأسرار التأويل وهو تفسيره وطوالع الأنوار في التوحيد، ومنهاج الوصول إلى علم الأصول . انظر: (البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ص٣٢٧ ؛ بغية الوعاة ص٢٨٦؛ طبقات الشافعية للسبكي ج٥ ص٥٩؛ الأعلام للزركلي : ج٤ ص١١٠).

(٣) تفسير البيضاوي : ج٢ ص٢٠١ .

المذكورة في الاستفهام فإنّ انتفاء أن يكون له تعالى صاحبة مستلزم لانتفاء أن يكون له ولد ضرورة استحالة وجود الولد بلا والدة ؛ وإن أمكن وجوده بلا والد ، وانتفاء الأول مّما لا ريب فيه لأحد ؛ فمن ضرورته انتفاء الثاني . وذلك أنّ الولد إنّما يكون متولّداً بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه . فيستحيل أن يكون له صاحبة ، والصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد [1].

– والاستدلال الثالث هو في قوله تعالى : ﴿وخلقَ كلَّ شيءٍ﴾؛ فهذه الجملة الكريمة إمّا جملة مستأنفة أخرى سيقت لتحقيق ما ذكر من الاستحالة أو حال أخرى مقررّة لها ، وذلك لأنّ من كان خالقاً لكل شيء استحال منه أن يتخّذ بعض مخلوقاته ولداً ، وكيف يُتَصَوّر أن يكون المخلوق ولداً لخالقه؟![2].

– وأمّا الاستدلال الرابع على انتفاء الولد لله تعالى فهو ما جاء في خاتمة الآية بقوله تعالى : ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ إذ إنّ هذه الخاتمة استئناف مقرر لمضمون ما قبلها من الدلائل القاطعة ببطلان مقالتهم الشنعاء التي اجترءوا عليها بغير علم ، وبيان الاستدلال ههنا أن علمه تعالى بكل شيء ذاتيّ له ، ولا يعلم كل شيء إلاّ الخالق لكل شيء ، ولو كان له ولد لكان هو أعلم به ولهدى العقول إليه بآيات الوحي ودلائل العلم ، ولكنه عزّ وجلّ كذّب الذين خرقوا له بنين وبنات بوحيه المؤيد بدلائل العقل [3].

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ج٢ ص١٦١ ؛ تفسير القرطبي ج٧ ص٥٤ ؛ تفسير أبي السعود ج٣ ص١٦٩ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٢ ص١٥٣ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ج٣ ص١٦٩ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٢ ص١٥٣.

(٣) انظر : تفسير أبي السعود ج٣ ص١٦٩ ؛ تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ج٧ ص٦٥٠ .

المبحث الرابع

في آية سورة يونس – عليه السلام :

قال الله تعالى : ﴿ قالوا اتّخذ اللهُ ولداً سبحانه هو الغنيّ له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾[١].

مطلب : في بيان التسبيح وصلته بما قبله وبما بعده :

لّما أخبر الله –عزّ وجلّ– عن قول مشركي العرب[٢] باتخاذ[٣] الله ولداً نـــزه ذاته العلية عمّا قالوا فقال : ﴿سبحانه﴾ ، ثم برهن عن ذلك بثلاثة براهين على ما يلي :

– البرهان الأول : قوله تعالى : ﴿هو الغنيّ﴾ أي الموصوف بالغنى المطلق ، ذلك أنّ الإلهية تقتضي الغنى المطلق عن كلّ احتياج إلى مُكمِّل نقص في الذات أو الصفات أو الأفعال . فالله سبحانه وتعالى له الغنى المطلق ؛ وأنواع الغنى

---

(١) سورة يونس : الآية (٦٨) .

(٢) الضمير في قوله : ﴿ قالوا ﴾ راجع إلى المشركين من أهل مكة والعرب الذين قالوا إنّ الملائكة بنات الله ، وليس المراد من الضمير غيرهم من النصارى لأنّ السورة مكية والقرآن المكي لم يتصدّ لإبطال زيغ عقائد أهل الكتاب . (انظر تفسير البغوي ج ٢ ص٣٦١) .

(٣) الاتخاذ : جعل شيء لفائدة الجاعل ، وهو مشتق من الأخذ لأن المتخذ يأخذ الشيء الذي يصطفيه ، فالاتخاذ يصدق على أخذ شيء موجود للاستئثار به ، ويصدق على تكوين شيء للانتفاع به ، وهو هنا صالح للمعنيين لأنّ منهم من يعتقد تولّد الولد عن الله ، ومنهم من يعتقد أنّ الله تبنّى بعض مخلوقاته (التحرير والتنوير ج١١ ص٢٢٩) .

كلّها مستغرقة فيه ، وله الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه ، فإذا كان غنياً من كلّ وجه فلأي شيء يتخذ الولد ؟! [1].

– ومن جهة أخرى لهذا النصّ الكريم في إثباته انتفاء الولد لله يقول صاحب محاسن التأويل (القاسمي) : « ﴿ هو الغنيّ ﴾ أي الذي وجوده بذاته ، وبه وجود كلّ شيء ، فكيف يماثله شيء؟ ومن له الوجود كلّه فكيف يجانسه شيء؟!»[2].

والبرهان الثاني في قوله تعالى : ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾. وقد تقدم الكلام عنه فيما قبل بما فيه الكفاية والحمد لله .

أما البرهان الثالث فهو خطابه تعالى لهم بقوله : ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ ؟ .

والمراد : هل عندكم من حجة وبرهان على أنّ الله تعالى ولداً . فلو كان لهم دليل لأظهروه . فلمّا تحدّاهم وعجّزهم على إقامة الدليل عُلم بطلان ما قالوه ، وأنّه قول بلا علم . ولهذا وبّخهم عزّ وجلّ بقوله بعد ذلك : ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ فالاستفهام – هنا – مستعمل في التوبيخ والتقريع لأنّ المذكور بعده شيء ذميم واجتراء عظيم وجهل مركّب كبير[3].

● لطيفة :

دلّت الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ على تسمية الحجة والبرهان سلطاناً ؛ وذلك لما يكسب المستدلّ بهما سلطة واقتداراً على مخالفيه ومجادليه .

والذي يلحظ من كلام المفسرين أنّ أكثر ما جاء في القرآن في معنى السلطان فهو الحجة والبرهان [4].

---

(١) انظر : تفسير الطبري ج١١ ص٩٨ ؛ تفسير السعدي ج٣ ص٣٧١ ؛ تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج١١ ص٢٣٠ .

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص٦٢ .

(٣) انظر : تفسير السعدي ج٣ ص٣٧٢ ؛ التحرير والتنوير ج١١ ص٢٣٢ .

(٤) انظر : نـزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي ص ٣٤٤–٣٤٥ ؛ قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر للدامعاني ص ٢٤٢–٢٤٣ ؛ محاسن التأويل للقاسمي ج٩ ص٦٢–٦٣ .

● **لطيفة أخرى : في قوله : ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ .**

قال أبو السعود : «فيه تنبيه على أنّ كلّ مقالة لا دليل عليها فهي جهالة، وأنّ العقائد لابدّ لها من برهان قطعيّ ، وأنّ التقلّيد بمعزل من الاعتداد به » [١].

(١) تفسير أبي السعود : ج٤ ص١٦٣ .

المبحث الخامس

في آية سورة النحل :

قال الله تعالى : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾[1].

مطلب : في بيان الآية وموضع التسبيح منها :

يخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن شيء من قبائح المشركين أنهم جعلوا الملائكة إناثاً وجعلوهم بنات الله فعبدوها معه ، وبذلك هم قد ارتكبوا عدة أخطاء عظيمة في مقامات ثلاث إذ نسبوا إليه أنّ له ولداً ولا ولد له ، ثمّ أعطوه أخسّ القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ثمّ عبدوها مع الله تعالى [2].

والذكر – ههنا – للمقام الثاني من ضلالهم {يجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون} فيه إشارة إلى بقية ضلالهم في اعتقادهم بالملائكة كما بينت في بداية الكلام .

– فلما أخبر الله عنهم ذلك نـــزه ذاته العلية بقوله { سبحانه } وهو في محل جملة معترضة وقعت جواباً عن مقالتهم السيئة التي تضمّنتها حكاية {يجعلون لله البنات} إذ الجعل فيها جعل بالقول [3].

– وفي ذكر التسبيح – ههنا – أيضاً تعجيب من جراءتهم على التفوّه بهذا المنكر العظيم من القول ومن مقاسمتهم لجلاله تعالى بالاستئثار للبنين [4].

---

(١) سورة النحل : الآية (٥٧) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ج٢ ص٥٧٢_٥٧٣ .

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٤ ص١٨٢ .

(٤) انظر : محاسن التأويل للقاسمي ج١٠ ص١١٨ .

وإنّما قدّم ﴿سبحانه﴾ على قوله : ﴿ولهم ما يشتهون﴾ ليكون نصاً في أنّ التنـــزيه عن هذا الجعل لذاته وهو نسبة البنوة لله تعالى ؛ لا عن جعلهم له خصوص البنات دون الذكور الذي هو أشدّ فظاعة كما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿ولهم ما يشتهون﴾ لأنه زيادة في التفظيع ، فقوله تعالى : ﴿ولهم ما يشتهون﴾ جملة في موضع الحال [1].

(١) التحرير والتنويز لابن عاشور ج١٤ ص١٨٣ .

وهذا الاعتقاد هو لخزاعة وكنانة من قبائل العرب ، حيث زعموا أنّ الملائكة بنات الله من سروات الجنّ وإنّما أطلقوا عليهم لفظ البنات لاستتارهم عن العيون كالنساء أو لدخول لفظ التأنيث في تسميتهم . (انظر: تفسير الخازن ج٤ ص٩٦؛ التحرير والتنوير ج١٤ ص١٨٢) .

المبحث السادس

في آية سورة مريم :

قال الله تعالى : ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [(١)].

مطلب : في بيان الآية السابقة لآية التسبيح وصلتها :

- جاءت هذه الآية الكريمة أي قول الله تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم. . .﴾ الآية بعد بيان الله تعالى لحقيقة عيسى عليه السلام من قوله عزّ وجلّ: ﴿ قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبراً بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا . والسلام عليّ يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّاً﴾ [(٢)].

والمراد من قوله : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾. أي ذلك الذي ذكرناه هو عيسى ابن مريم لا كما تزعم اليهود إنّه لغير رشدة وأنه ابن يوسف النجار، ولا كما تقول النصارى إنه إله أو ابن الإله [(٣)].

﴿قول الحقّ ﴾ [(٤)] من قرأ برفع اللام على أنّه نعت لعيسى عليه السلام كما سمي كلمة الله ، والحق هو الله عزّ وجلّ . وقيل : التقدير : هذا الكلام قولُ الحق .

---

(١) سورة مريم : الآيتان (٣٤_٣٥) .

(٢) سورة مريم : الآيات (٣٠-٣٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٥ .

(٤) قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنصب اللام ﴿قولَ الحق ﴾ وقرأ الباقون برفعها (انظر : النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج٢ ص٣١٨) .

ومن قرأ بالنصب فعلى المصدر أي أقول قول الحق [١].﴿الذي فيه يمترون﴾ فمن قائل إنه ابن الله ومن قائل إنه هو الله وغير ذلك من الأقوال التي اختلفوا فيها وتجادلوا وناقض فيها بعضهم بعضاً .

مطلب : في بيان موضع التسبيح وآيته :

- لمّا ذكر الله عز وجل فيما قبل حقيقة عيسى عليه السلام وأنّه خلقه عبداً نبياً نفى عن ذاته الكريمة اتخاذ الولد ردّاً على النصارى الذين قالوا ببنوّته – عليه السلام – تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً –فقال عزّ وجلّ : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ أي ما يصحّ ولا يليق ولا يتأتّى ولا يُتصوّر في حقه جلّ وعلا أن يتخذ ولداً [٢]. وكما قال الجمل[٣] في حاشيته على الجلالين: «والمعنى أنّ ثبوت الولد له محال » [٤].وهو كقوله تعالى : ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ [٥].

وهذه الجملة الكريمة تفيد انتفاء الولد عنه تعالى بأبلغ وجه ؛ وذلك لأنّ لام الجحود تفيد مبالغة النفي ، وأنّه مّما لايلاقي وجود المنفي عنه ولأن في قوله :

---

(١) انظر : تفسير البغوي ج٣ ص١٩٥ ؛ تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٥ ؛ حجة القراءات لابن زنجلة ص٤٤٣.

(٢) انظر : تفسير البغوي ج٣ ص١٩٥ ؛ تفسير القرطبي ج١١ ص١٠٦ ؛ تفسير الخازن ج٤ ص٢٤٥ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٣ ص٣٣٦ ؛ تفسير السعدي ج٥ ص١٠٤ ؛ أضواء البيان ج٤ ص٢٧٧ .

(٣) هو سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري الشافعي ، المعروف بالجمل : فاضل من أهل مدينة عجيل (إحدى قرى الغربية بمصر) انتقل إلى القاهرة . له مؤلفات منها : الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (حاشية على الجلالين) ، وفتوحات الوهاب (حاشية على شرح المنهج في فقه الشافعي ، توفي عام ١٢٠٤هـ (انظر: الأعلام للزركلي ج٣ ص١٣١) .

(٤) حاشية الجمل على الجلالين : ج٣ ص٦٢ .

(٥) سورة مريم : الآية (٩٢) .

﴿أن يتخذ﴾ إشارة إلى أنّه لو كان له ولد لكان هو خلقه واتخذه ؛ فلم يَعْدُ أن يكون من جملة مخلوقاته ، فإثبات البنوّة له خُلْف من القول ، وكذلك فإن الإتيان بـ (مِن) مزيدة قبل المفعول في قوله : ﴿من ولد﴾ يفيد تأكيد عموم النفي ومبالغته [١].

– وبعد أن نفى الله تعالى عن ذاته العليّة الولديّة أكّده – أي النفي– بتنزيهها عنه وعن كلّ ما لايليق بكماله وجلاله إذ قال : ﴿سبحانه﴾ ثمّ جاء بحجة تعدّ بمنزلة علّة لهذا التنزيه [٢] وهي قوله تعالى : ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾. وقد تقدم في المبحث الأول الكلام عن هذه الحجة بما فيه الكفاية ، والإتيان بها – ههنا – مع مافيها من عدّة التنزيه فإنّها تفيد –أيضاً– تبكيتاً للنصارى ببيان أنّ شأنه تعالى إذا قضى أمراً من الأمور أن يعلّق به إرادته فيكون حينئذ بلا تأخير ؛ فمن هذا شأنه كيف يتوهّم أن يكون له ولد [٣].

● لطيفة :

ذكر صاحب أضواء البيان [٤] فائدة لطيفة في لفظ ﴿ماكان﴾ الدالّ على النفي من جهة المعنى .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٦ ص١٠٢-١٠٣ ؛ أضواء البيان للشنقيطي ج٤ ص٢٧٧-٢٧٨.

(٢) انظر : حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص٦٢ .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود ج٥ ص٢٦٥ .

(٤) هو محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (١٣٢٥-١٣٩٣هـ) : ولد عند ماء يسمى (تنبه) من أعمال مديرية (كيفا) من القطر المسمى بشنقيط وهو دولة موريتانيا الإسلامية الآن . حفظ القرآن وعمره عشرسنوات ، وطلب العلم على عدد من علماء بلده ، خرج من بلاده لأداء الحج ومن ثمّ استقر في المدينة المنورة ودرّس بالمسجد النبوي الشريف وتلقى الناس عنه. له مؤلفات عدة أهمها : أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ، مذكرة الأصول على روضة الناظر ، دفع إيهام =

فقال : «اعلم أنّ لفظ ﴿ما كان﴾ يدل على النفي، فتارة يدلّ ذلك على النفي من جهة المعنى على الزجر والردع كقوله تعالى : ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله . . .﴾ الآية ، وتارة يدلّ على التعجيز كقوله تعالى :﴿آلله خير أمّا يشركون . أمّن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها . . .﴾ الآية .. وتارة يدلّ على التنــزيه كقوله تعالى : ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد . . .﴾ الآية » [1].

= الاضطراب عن آي الكتاب.(انظر: ترجمة الشيخ عطية سالم له في أول كتاب أضواء البيان ١/٧-٦٤).

(١) أضواء البيان للشنقيطي : ج٤ ص٢٧٧ .والآيات على الترتيب : سورة التوبة(١٢٠)، سورة النمل (٦٠)، سورة مريم (٣٥) .

المبحث السابع

في آية سورة الأنبياء :

قال الله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾ (١) .

مطلب : في بيان موضع التسبيح وآيته وصلته بما بعده :

– في آية التسبيح أخبر الله عزّ وجلّ عن مقولة المشركين باتخاذه ولداً ، ويقصدون بذلك الملائكة حيث جعلوهم بنات الله –كما سبق بيان ذلك فيما قبل– قال تعالى : ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ .

– وبعد ذِكْره تعالى لمقالتهم هذه نزه ذاته الكريمة عنها فقال : ﴿سبحانه﴾؛ استعظاماً لما قالوا وتبرّؤاً مما وصفوه به ، ثمّ ردّ عليهم بما يبطلها ويبيّن نـــزاهته عنها إذ قال عزّ شأنه : ﴿ بل عباد مكرمون﴾ .

–وابتداء الردّ عليهم بحرف (بل) لإفادة الإضراب عن مقالتهم تمهيداً لإبطالها بما سيأتي بعدها . وكأنّه قيل : ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد له –تعالى– مقرّبون عنده. وهذه حجة في انتفاء بنوّة الملائكة لله –كما سبق بيانها– ؛ لأنّ العبودية تنافي الولدية (٢).

قال الجمل في حاشيته على الجلالين : « قوله :(والعبودية تنافي الولادة) هذا إمّا بحسب المعتاد الذي لا يتخلّف عند العرب من كون عبد الإنسان لا يكون

---

(١) سورة الأنبياء : الآيات (٢٦-٢٩) .

(٢) انظر : تفسير الطبري ج١٧ ص١٢ ؛ تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧٦ ؛ البحر المحيط لأبي حيان ج٦ ص٣٠٧ ؛ أضواء البيان للشنقيطي .

ولده ، وإمّا بحسب قواعد الشرع من أنّ الإنسان إذا ملك ولده عتق عليه ، والأول في تقريره المنافاة أظهر ؛ إذ الكلام مع جُهَّال العرب وهم لا يعرفون قواعد الشرع » [(١)].

- ثمّ وصف الله تعالى ملائكته بخمس صفات تؤكِدّ وتبيّن تقرير ما ذكره من عبوديتهم له، وذلك في الآيتين بعد التسبيح. وفي ذكرها المزيد والتأكيد لتنـــزيهه – عزّ وجلّ – ذاته عن مقولة المشركين باتخاذهم ولداً .

وتلكم الصفات ما يلي :

الصفة الأولى : ﴿لا يسبقونه بالقول﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به وهذه الصفة تنبئ عن كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره تعالى .

الصفة الثانية : ﴿وهم بأمره يعملون﴾ أي أنّهم منقادون له تعالى في الأعمال كما أنهم منقادون له في الأقوال .

الصفة الثالثة : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي أنهم تحت علم الله وإحاطته بهم . والمقصود أي كيف يخرجون عن عبوديته مع إحاطته بهم .

والصفة الرابعة: ﴿ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى﴾ أي لا يستطيعون الشفاعة لأحد إلاّ لمن ارتضاه الله من أهل الإيمان والتوحيد. والمقصود أي كيف يخرجون – أيضاً– عن عبوديته وهم لا يقدرون على أدنى وجوه معارضته وهي الشفاعة عنده.

والصفة الخامسة : ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ وهذه الصفة الأخيرة تبيّن كمال عبوديتهم لله تعالى إذ هم يعظمونه تعظيم من يخاف بطشته ويحذر مخالفة أمره [(٢)].

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين : ج٣ ص١٢٥ .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ج٣ ص١٧٦ ؛ تفسير أبي السعود ج٦ ص٦٣-٦٤ ؛ تفسير القرطبي ج١١ ص٢٨١-٢٨٢ ؛ تفسير فتح القدير للشوكاني ج٣ ص٤٠٤-٤٠٥ ؛ =

– وبمناسبة تقرير عبودية الملائكة لله تعالى أخبر الله عزّ وجلّ بما يدلّ على نفي إلهيتهم التي زعمها المشركون لهم فقال تعالى : ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾ . والشرط ههنا على سبيل الفرض ، أي لو قاله أحد منهم مع العلم بأنهم لا يقولونه لأجل ما تقرّر من شدة خشيتهم لله . فالمقصود من هذا الشرط التعريض بالذين ادّعوا لهم الإلهية بأنّهم ادّعوا لهم ما لا يرضونه ولا يقولونه ، وأنّهم ادّعوا ما يوجب لقائله نار جهنم على حد قوله تعالى في شأن النبي ﷺ : ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ [1].

● لطائف :

– اللطيفة الأولى :

إنّ في الإتيان بصفة (الرحمن) لله تعالى في قوله : ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا﴾ تعرّضاً لعنوان الرحمانية لله –تعالى– المنبئة عن كون جميع ما سواه مربوباً له عزّ وجلّ بنعمه ومنعماً عليه برحمته العامة ، وذلك لإبراز كمال شناعة مقالتهم الباطلة [2].

– اللطيفة الثانية :

إنّ في وصف الله تعالى للملائكة بأنهم ﴿مكرمون﴾ تنبيهاً على منشأ خطأ وغلط المشركين باعتقادهم أنهم بنات الله حيث أنّهم بمعرفتهم أنّ الملائكة مقرّبون من الله لما هم عليه من الأحوال والصفات ، فذلك هو الذي غرّهم في شأنهم وادّعوا ولَديتهم لله تعالى عما يقولون علواً كبيراً [3].

= التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٧ ص٥١ ؛ محاسن التأويل للقاسمي ج١١ ص ٢٤٨-٢٤٩ ؛ تفسير المهايمي ج٢ ص٣٠-٣١ .

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور : ج١٧ ص٥٢ . والآية في سورة الزمر رقم (٦٥) .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود ج٦ ص٦٣ .

(٣) انظر : تفسير أبي السعود ج٦ ص٦٣ ؛ الكشاف للزمخشري ج٣ ص٩ .

- اللطيفة الثالثة :

إن الأصل في قوله تعالى : ﴿ لايسبقونه بالقول﴾ لا يسبق قولهم قوله عزّ وجل ، ولكنّه أسند السبق إليهم منسوباً إليه تعالى ؛ تنـــزيلاً لسبق قولهم قوله سبحانه منـــزلة سبقهم إيّاه؛ وذلك لمزيد تنـــزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرّض به للذين يقولون ما لا يقوله الله تعالى [١].

- اللطيفة الرابعة :

إنّ في تقديم ﴿بأمره﴾ على ﴿يعملون﴾ في قوله عز وجل ﴿وهم بأمره يعملون﴾ إفادةً للقصر أي لا يعملون عملاً إلاّ عن أمر الله تعالى ، فكمـــا أنهم لا يقولون قولاً لم يأذن فيه كذلك لا يعملون عملاً إلاّ بأمره [٢].

- اللطيفة الخامسة :

إنّ في قوله تعالى : ﴿ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى ﴾ تخصيصاً بالذكر لبعض ما شمله قوله من قبل ﴿ لا يسبقونه بالقول﴾ للاهتمام بشأنه لأنّه مّما كفروا بسببه إذ جعلوا الآلهة شفعاء لهم عند الله[٣].

(١) انظر : تفسير أبي السعود ج٦ ص٦٣ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٧ ص٥١ .

(٣) انظر : المرجع السابق ج١٧ ص٥١ .

المبحث الثامن

في آية سورة الزمر :

قال الله تعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ [1].

مطلب : في بيان موضع التسبيح وآيته وصلته بما بعده :

- هذه الآية الكريمة استئناف غايته تحقيق الحق وإبطال القول باتخاذ الله ولداً كما يقول المشركون بأنّ الملائكة بنات الله تعالى عما يقولون علواً كبيراً .

والذي يلاحظ في هذه الآية أنها تضمنت دلائل قاطعة على انتفاء الولد لله منذ بدايتها ثمّ توسّطها التسبيح ثمّ أُتبع بدلائل أخرى ، وكلّ ذلك في نسق قرآني مترابط البدء والوسط والختام. فسبحان من تكلّم بهذا القرآن الكريم فأحسنه وبيّنه وأدهش العقول والأفهام أمام إعجازه وعظمته .

- والدليل الأول في الآية والذي ابتدأت به جاء في صورة الشرط وهو قوله سبحانه : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ . هذا ولقد اختلف المفسرون في بيان هذا الشرط بدليله وأحسب أنّ أجود ما وقفت عليه من أقوالهم قول أبي السعود العمادي إذ قال : « أي لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاتخذ من جملة ما يخلقه أو من جنس ما يخلقه ما يشاء أن يتخذه ؛ إذ لا موجود سواه إلاّ وهو مخلوق له تعالى لامتناع تعددّ الواجب ووجوب استناد جميع ما عداه إليه ، ومن البيِّن أنّ اتخاذ الولد منوط بالمماثلة بين المتخِذ والمتَخذ وأنّ المخلوق لا يماثل خالقه حتى يمكن اتخاذه ولداً ، فما فرضناه اتخاذ ولد لم يكن اتخاذ ولد بل اصطفاء عبد ، أنّ ما يستلزم فرض وقوعه انتفاءه فهو ممتنع قطعاً»[2].

---

(١) سورة الزمر : الآية (٤) .

(٢) تفسير أبي السعود : ج٧ ص٢٤٢ .

– وتقريراً لما ذُكِر من استحالة اتخاذ الولد في حقه تعالى وتأكيداً له نــزه عزّ وجلّ ذاته عن ذلك تنــزهه الخاصّ به فقال : ﴿ سبحانه ﴾ [١].

–ثم جيء بعد هذا التنــزيه لذاته – عزّ وجلّ – بجملة استئنافية تحمل دلائل أخرى على انتفاء الولد عنه . وهذه الجملة هي بمنــزلة التعليل والبيان لتنــزهه تعالى ، وذلك بما اقتضته الصفات الإلهية الواردة فيها . وهي قوله تعالى : ﴿ هو الله الواحد القهار﴾ وأوّلها صفة الألوهية التي يدلّ عليها اسم الجلالة ﴿الله ﴾ وتستتبع هذه الصفة سائر صفات الكمال له – تعالى – النافية لكل سمات النقصان . واتخاذ الولد –كما سبق ذكره– من سمات النقصان والعجز ومناف لكمال الألوهية [٢].

وثانيها: صفة الوحدانية في قوله تعالى : ﴿ الواحد﴾ والتي توجب امتناع المماثلة والمشاركة بينه وبين غيره ، فهو متبرئ عن انضمام الأعداد متعالٍ عن التجزؤ والولاد [٣].

وثالثها: صفة {القهار} فكونه سبحانه ﴿ قهاراً ﴾ يمنع من ثبوت الولد ؛ لأنّ المحتاج إلى الولد هو الذي يموت فيحتاج إلى ولد يقوم مقامه ، وبذلك يكون مقهوراً بالموت ، أمّا الذي يكون قاهراً ولا يقهره غيره كان الولد في حقه محالاً؛ إذ من هو مستحيل الفناء قهار لكل الكائنات كيف يتصوّر أن يتخذ من الأشياء الفانية ما يقوم مقامه [٤].

---

(١) انظر : المرجع السابق : ج٧ ص٢٤٢ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ج٧ ص٢٤٢ .

(٣) انظر : المرجع السابق : ج٧ ص٢٤٢ ؛ تفسير النسفي ج٤ ص٥٠ .

(٤) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٦ ص٢٤٣ ؛ تفسير أبي السعود ج٧ ص ٢٤٢.

وبذكر هذه الصفات الإلهية المشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله عز وجل يتم الحديث عن هذا الموضع من مواضع تسبيح الله ذاته . ولله الحمد والمنة .

المبحث التاسع

في آية سورة الزخرف :

قال الله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين . سبحان رب السموات والأرض ربّ العرش عما يصفون ﴾[1].

مطلب : في بيان الآية السابقة للتسبيح :

– في الآية السابقة لتسبيح الله ذاته الشريفة يأمر الله رسوله محمداً ﷺ أن يقول قولاً للمشركين يلزمهم به الحجة في زعمهم أنّ لله ولداً فقال سبحانه : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد[2] فأنا أول العابدين ﴾ وقد اختلف المفسرون في معنى هذه الآية الكريمة المبنيّ على معنى (إن) فيها هل هي شرطية أم للنفي ؟ وأحسب أنّ ما رجحه ابن جرير الطبري – رحمه الله تعالى– هو أقوى الأقوال وأولاها بالصواب اعتماداً على أن (إنْ) للشرط لا للنفي ، ذلك أنّها لو كانت للنفي لم يكن للكلام كبير معنى لأنّه يصير بمعنى . قل ما كان للرحمن ولد ؛ وإذا صار بذلك المعنى أوهم أهل الجهل من أهل الشرك أنّه إنما نفى بذلك عن الله – عزّ وجلّ– أن يكون له ولد قبل بعض الأوقات ثمّ أحدث له الولد. (قاله الطبري)[3].

وعلى معنى (إنْ) للشرط ؛ فإن أقرب مُراد للآية وهو ما رجحه الطبري وغيره وهو الظاهر من الآية : أي إن كان له ولَد في قولكم وعلى زعمكم فأنا أول من عبد الله وحده منكم ؛ لأنّ من عبد الله وحده فقد دفع أن يكون له

---

(١)سورة الزخرف : الآيتان (٨١–٨٢) .

(٢) قرأ الجمهور : (وَلَد) وقرأ حمزة والكسائي : (وُلْد) جمع ولد . (انظر : النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج٢ ص٣١٩) .

(٣) تفسير الطبري : ج٢٥ ص٦١ .

ولد[1]. وفي هذا الكلام نفي للولد على أبلغ وجه وأتمّ عبارة وأحسن أسلوب وهو مثل قوله تعالى : ﴿ قل الله وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾[2] وقد علم أن الحق معه وأنّ مخالفيه في ضلال مبين .

ويشابهه -أيضاً- قول الرجل لمن يناظره : إن ثبت ما تقوله بالدليل فأنا أول من يعتقده ويقول به [3].

- وفي هذا الأسلوب القرآني الكريم ما لا يخفى من سلوك طريق المساهلة والإلطاف في الخطاب وإرخاء العنان وصولاً إلى تبكيت المجادلين والمعرضين عن الحق وإفحامهم [4].

مطلب : في بيان موضع التسبيح وصلته بما قبله :

- ولّما أقام الله - تبارك وتعالى - الحجة على المشركين الذين نسبوا إليه الولد- في الآية السابقة على ما بينته في أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بمهاجتهم ؛ نـــزه الله ذاته العليّة تنـــزيهاً تاماً عمّ يصفونه به من نسبة الولد إليه . وفيه معنى التذييل للآية السابقة .فقال عز وجل: ﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾.

- ثمّ إنّ في تسبيحه ذاته المقدّسة بذكر وصفه تعالى بربوبية السموات والأرض والعرش ﴿ رب السموات والأرض رب العرش ﴾ ما يشير إلى أمرين :

أحدهما : بيان عظمة شأنه -تعالى- وجلالة قدره ، فربّ أعظم المخلوقات وهي السموات والأرض والعرش جدير بالتنـــزيه عن الولد وعن كلّ ما لا يليق بكماله وجلاله[5].

---

(١) انظر : تفسير الطبري : ج٢٥ ص٦١ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٥٤٢-٥٤٣.

(٢) سورة سبأ : الآية (٢٤) .

(٣) فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٥٤٣ .

(٤) انظر : تفسير الطبري ج٢٥ ص٦١ ؛ تفسير الألوسي ج٢٥ ص١٠٤ .

(٥) انظر : أضواء البيان للشنقيطي ج٧ ص٣١٠ .

وثانيهما : إنّ في إضافة اسم الرب إلى أعظم الأجرام وأقواها من السموات والأرض تنبيه على أنّها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته ؛ فكيف يُتوهم أن يكون شيء منها جزء متولّد منه سبحانه ، والملكية تنافي الولدية كما سبقت بذلك الإشارة [١].

ففي هذا -إذن- إثبات حجة وبرهان على المشركين في زعمهم الولد لله، وبذلك يضمّ ما جاء في صيغة التسبيح ﴿ رب السموات والأرض رب العرش ﴾ حجة ثانية مع ما جاء من الحجة في الآية قبله .

- ولصاحب التحرير والتنوير كلام حول حجية هذه الصيغة التي جاء بها التسبيح ، وفيه زيادة على ما ذكر من قبل إذ يقول : «ووصفه بربوبية أقوى الموجودات وأعمّها وأعظمها ، لأنّه يفيد انتفاء أن يكون له ولد لانتفاء فائدة الولادة ، فقد تمّ خلق العوالم ونظام نمائها ودوامها ، وعلم من كونه خالقها أنّه غير مسبوق بعدم وإلاّ لاحتاج إلى خالق يخلُقه ، واقتضى عدمُ السبق بعدم أنّه لا يلحقه فناء فوجود الولد له يكون عبثاً» [٢].

●لطيفة :

إنّ في تكريـــر لفـــظ الربّ الجليل في قوله : ﴿ رب العرش ﴾ تفخيماً لشأن العرش [٣].

---

(١) انظر : تفسير الألوسي : ج٢٥ ص١٠٦ .

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٥ ص٢٦٦ .

(٣) تفسير الألوسي : ج٢٥ ص١٠٦ .

المبحث العاشر

في آية سورة الصافات :

المطلب الأول : في بيان الموضع الأوّل :

قال الله تعالى : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . سبحان الله عما يصفون . إلا عباد الله المخلصين ﴾ [(١)].

- يخبر الله تعالى في الآية الكريمة الأولى (قبل آية التسبيح) أنّ المشركين جعلوا بقولهم بين الله - عز وجل - وبين الجنة قرباً ومصاهرة تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً .

هذا وقد اختلف المفسرون في المراد بالجنّة والنسب اللّذين ذكرا في الآية. والأظهر أنّ المراد بالجنة أي الجماعة من الجنّ ، والنسب - وهو ما أشرت إليه في مبحث سابق - بأنّ الملائكة - على زعم المشركين- هم بنات الله من سروات الجنّ أي من فريق من نساء الجنّ من أشرافهم .

والكلام على حذف مضاف أي ذوي نسب لله تعالى ، وهو نسب البنوّة ويؤيِّدّ هذا القول سياق الآيات ، فإنّ هذه الآية الكريمة ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا.. ﴾ الواو فيها للعطف على ما يصلح العطف عليه مّما قبلها وهو قوله تعالى : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله وإنهم لكاذبون﴾ أي وشفعوا قولهم : ﴿ ولد الله﴾ فجعلوا بين الله وبين الجنّة نسباً بتلك الولادة ، أي بيّنوا كيف حصلت تلك الولادة بأن جعلوها بين الله وبين الجنّة نسباً .

ويؤيّده - أيضاً - تتمة الآية ﴿ ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾ أي والحال أنّ الجنة قد علمت أنّ الذين نسبوا إليهم ذلك القول من المشركين لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم وافترائهم في ذلك وقولهم الباطل بلا علم [(٢)].

---

(١) سورة الصافات : الآيات (١٥٨_١٦٠) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٣ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٣ ص١٨٥-١٨٦ تفسير السعدي ج٦ ص٤٠٢ .

- ولّما ذكر الله - عزّ وجلّ - قول المشركين وعرّض بالوعيد عليه أتبع ذلك باعتراض بين المستثنى منه والمستثنى يتضمّن إنشاء تنــزيه له تعالى عمّا نسبوه إليه من الولد وهو قوله: ﴿ سبحان الله عما يصفون﴾ فهو إنشاء من جانب الله تعالى لتنــزيهه ، وتلقين للمؤمنين بأن يقتدوا بالله في ذلك التنــزيه ؛ وتعجيب من فظيع ما نسبوه إليه [١].

- ومن بعد هذا التسبيح يأتي الاستثناء بقوله عز وجل : ﴿إلاّ عباد الله المخلصين﴾ وهو إمّا أن يكون استثناءً منقطعاً والتقدير : لكن عباد الله المخلصين بريئون عن أن يصفوا الله بشيء من ذلك . وإمّا أن يكون متصلاً إذا كان استثناء من المحضرين ، أي إنهم يحضرون العذاب إلاّ من أخلص[٢]. والله أعلم بمراده .

المطلب الثاني : في بيان الموضع الثاني :

قال الله تعالى : ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾ [٣].

- إنّ موضع التسبيح - ههنا - يأتي أوّل ثلاث آيات كريمات شكّلت بمجموعها خاتمة لسورة الصافات بأجمل وأبدع ما يكون من ختام في تناسق نظمٍ ومعنى وبيان [٤].

ولذلك سيكون بيان هذا الموضع على ما يلي :

---

(١) انظر : التحرير والتنوير ج٢٣ ص١٨٨ .
(٢) فتح القدير للشوكاني : ج٤ ص٤٠٠ .
(٣) سورة الصافات : الآيات (١٨٠-١٨٢) .
(٤) ومن اللطيف موافقة ختم هذه المباحث المتتابعة حول التسبيح بهذه الآيات العظيمة الخاتمة .

أولاً : مناسبة تسبيح الله ذاته لما قبله من الآيات .

- في مناسبة مجيء تسبيح الله ذاته الكريمة- ههنا-وجهان ذكرهما المفسرون: وجه نُظِر فيه إلى مجمل سورة الصافات حيث جاء التسبيح في خاتمتها، ووجه روعي فيه النظر إلى أقرب الآيات مكاناً لآية التسبيح . وكلا الوجهين هما في محلّ الاعتبار .

- أمّا بالنظر إلى أقرب الآيات فوجهه : أنّه بعد أن أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بالإعراض عن المشركين والإغماض عمّا يصدر منهم من الجهالات والضلالات ومنها ما ادّعوه من نسبة الملائكة لله بالبنوة ؛ مع التعريض لهم بالهلاك إن استمرّوا على شركهم وضلالهم وذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون . أفبعذابنا يستعجلون . فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتولّ عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون ﴾ [1]. بعد ذلك نــزه الله ذاته العلية عن قبيح ما يصدر منهم مما يصفونه من نسبة الولد ومن كلّ ما لا يليق بجلاله وكماله وعظمته [2].

- كما أنّ أسلوب الخطاب في تنــزيه الله ذاته للنبي ﷺ ﴿سبحان ربك﴾ يشير إلى مناسبة التذييل لخطابه تعالى المبتدأ قبله بقوله ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ﴾ [3]. «قاله ابن عاشور» [4].

---

(١) سورة الصافات : الآيات (١٧٤_١٧٩) . وتكرار قوله تعالى في الآيات ﴿فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ بقوله :﴿وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون﴾ للتأكيد وحذف مفعول (وأبصر) في المرة الثانية لدلالة ما في نظيرها عليه . (انظر: التحرير والتنوير ج٢٣ ص١٩٨) .

(٢) انظر : فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٤٠١ .

(٣) سورة الصافات : الآية (١٤٩) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٣ ص١٩٨ .

– وأمّا بالنظر إلى مجمل ما حوته السورة فإنّه لّما ذكر الله تعالى فيها كثيراً من أقوال المشركين الشنيعة التي وصفوا الله تعالى بها –ومنها وصفهم له بالولد– نــزه الله نفسه الكريمة عنها وعن كل ما لا يليق به سبحانه[١].

ثانياً : بيان آية التسبيح :

– تعدّ هذه الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي اقترن فيها تسبيح الله ذاته العليّة بخطاب رسول الله ﷺ إذ قال تعالى :﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾.

– ووصفه تعالى بــ ﴿رب العزة﴾ في مقام تنــزيه ذاته الشريفة مبالغة وتأكيد للتنــزيه . فمعنى ربّ العزة أي مالكها ، والمنفرد بالعزة الحقيقية التي لا يشوبها افتقار ولا نقص . وبالتالي فهي تشير إلى توصيفه بجميع صفات الكمال النفسية والمعنوية وهو الذي عزّ فقهر كلّ شيء واعتزّ عن كل سوء يصفونه به [٢].

ثالثاً : بيان وجه اقتران آية التسبيح بما بعدها .

– لّما نــزه الله ذاته عما لا يليق به مّما يصفه المشركون أثنى على عباده وملائكته المرسلين بسلام منه –تعالى– عليهم في الدنيا والآخرة وذلك لسلامتهم من الذنوب والآفات وسلامة ما وصفوا به ربّ العزّة والجلال .

وتنكير (سلام) للتعظيم والتفخيم ، وفيه إشارة إلى الثناء على كلّ من تبع المرسلين سلامة من الذنوب وقياماً بتنــزيه الله تعالى حقّ التنــزيه [٣].

– ولّما كان التسبيح – أيضاً – يتضمّن التنــزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال ، كما أنّ الحمد يدلّ على إثبات صفات

---

(١) انظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ج٢٣ ص٧٢ ؛ تفسير السعدي ج٦ ص٤٠٤ .

(٢) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٦ ص١٧٣ ؛ تفسير السعدي ج٦ ص٤٠٤ ؛ التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٣ ص١٩٩ .

(٣) انظر : تفسير السعدي ج٦ ص٤٠٥ .

الكمال مطابقة ويستلزم التنـــزيه من النقص قرن بينهما في هذا الموضع فقال بعده ﴿والحمد لله رب العالمين﴾ وهذا متكرر في مواضع أخرى من القرآن الكريم[1].

– ولابن عاشور كلام في وجه اقتران هذه الآيات الثلاث في خاتمة السورة بالنظر إلى مجمل ما حوته السورة ، وهو كلام وجيه حسن معتبر . إذ قال : «هذه الآيات فذلكة لما احتوت عليه السورة من الأغراض ، إذ جمعت تنـــزيه الله والثناء على الرسل والملائكة وحمد الله على ما سبق ذكره من نعمه على المسلمين من هدى ونصر وفوز بالنعيم المقيم » [2].

● لطيفة :

إنّ في الانتقال من الآيات السابقة إلى التسبيح والتسليم والحمد إيذاناً بانتهاء السورة على طريقة براعة الختم مع كونها من جوامع الكلم [3].

–وبهذه اللطيفة يتم الحديث عن آخر موضعي تسبيح الله ذاته في سورة الصافات ، وبه يتمّ الكلام عن هذا الفصل ولله الحمد والمنّة .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٥ .

(٢) التحرير والتنوير : ج٢٣ ص١٩٨ـ١٩٩ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير ج٢٣ ص١٩٩ .

الفَصْل الثّالث :

تَسْبِيحُ اللهِ ذَاتَه العَلِيَّة

فِي شُؤون مختلفة أُخرى



المبحث الأول

في تسبيح الله ذاته عند الحديث عن معجزة الإسراء :

قال الله تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[١]

مطلب : في بيان وجه الحكمة بمجيء التسبيح في هذا المقام :

إنّ لمجيء تسبيح الله ذاته العليّة في مقام الحديث عن معجزة الإسراء حكماً ودلالات منها :

- إنّه لّما صدر عن المشركين تكذيب الرسول ﷺ حين أخبرهم بحادثة الإسراء والمعراج وزعموا أنّ ما قاله لا يمكن له الحدوث البتة نـــزه الله ذاته العلية عن العجز والنقص في قدرته ، إذ هو القادر على كل أمرٍ ولا يعجزه شيء ، فما أخبر به نبيه ﷺ هو حق وصدق . وهو منـــزه أيضاً عن أن يتخذ رسولاً كذاباً ، بل إنّ ذلك – أيضاً – من نعمه تعالى على حبيبه وصفيّه محمد ﷺ[٢].

- وإنّ افتتاح هذه الآية الكريمة في أول سورة الإسراء بالتسبيح من دون سبق كلام يتضمّن ما يجب تنـــزيه الله عنه ما يؤذن بأن خبراً عجيباً يستقبله السامعون دالّ على عظيم القدرة من المتكلّم ورفيع منـــزلة المتحدّث عنه . وهذا على ما يدلّ عليه لفظ (سبحان) من معنى التعجب، وهو من استعمالاته

---

(١) سورة الإسراء : الآية (١) .

(٢) انظر : تفسير البغوي ج٣ ص٩٢ ؛ تفسير ابن كثير ج٣ ص٢ ؛ زاد المسير لابن الجوزي ج٥ ص٤ ؛ محاسن التأويل للقاسمي ج١٠ ص١٨٣ ؛ تفسير السعدي ج٤ ص ٢٥٨ .

عند العرب كما سبق وأن أشرت إليه [1]. وفي هذا يقول صاحب نظم الدرر:«وفيه إيماء إلى التعجب من هذه القصة للتنبيه على أنها من الأمور البالغة في العظمة إلى حدٍّ لايمكن استيفاء وصفه » [2].

– ثم إنّ من دلالات التسبيح – ههنا – أن الإسراء كان بروحه وجسده ﷺ لأنّه إنّما يكون التسبيح عند الأمور العظام ، فلو كان مناماً كما قال البعض لم يكن له كبير شأن حتى يتعجّب منه [3].

---

(١) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج١٥ ص٩ .

(٢) نظم الدرر للبقاعي: ج٤ص٣٢٨ .

(٣) انظر : أضواء البيان للشنقيطي ج٣ ص٣٩١ .

المبحث الثاني

تسبيح الله ذاته إثر الوعد والوعيد في آية سورة الروم :

قال الله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾ (١).

مطلب : في بيان مناسبة مجيء التسبيح في موضعه من السورة :

يأتي تسبيح الله ذاته العليّة (ههنا) بعد أن بيّن الله عزّ وجلّ في الآيات السابقة حال فريقي المؤمنين العاملين للصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما هما من الثواب والعقاب وهي قوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون. فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . وأمّا الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون﴾ (٢)؛ وذلك ليرشد عباده بما ينجيهم من العذاب ويفضي بهم إلى الثواب ، وهو تنــــزيههم له -عزّ وجلّ عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله ؛ وحمدهم له على ما أنعم به عليهم من نعمه العظيمة وآلائه الجليلة فقال : ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾ (٣).

- ويدلّ على هذه المناسبة اقتران التسبيح بالفاء وهي لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

---

(١) سورة الروم : الآية (١٧) .

(٢) سورة الروم : الآيات (١٤-١٦) .

(٣) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٥ ص١٠٤ ؛ تفسير أبي السعود ج٧ ص ٥٤؛ حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص٣٨٧ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص ٢١٢ ؛ محاسن التأويل للقاسمي ج١٣ ص١٧٠ .

– فقوله تعالى : ﴿ فسبحان الله ﴾ خبر في معنى الأمر بالتسبيح لخلقه . فإذا كان هو تعالى ينــــزه ذاته عن كلّ ما لا يليق بها فعباده مأمورون بلا ريب في تحقيق ذلك .

– وكذلك قوله : ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ فإنّ الإخبار بثبوت الحمد له تعالى على المميزين من أهل السموات والأرض في معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده [١].

مطلب : في بيان آية التسبيح ومابعدها :

﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾.

– هذا ولقد جيء بالحمد – كما ذكرت – بعد التسبيح، ووُسِّط بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه والإشعار بأن حقّهما أن يجمع مابينهما[٢].

وإنما قدّم عليه التسبيح لما أنّ التخلية (التنـــزيه) متقدمة على التحلية (الحمد) [٣].

– وأما تخصيص التسبيح والتحميد بتلك الأوقات ﴿ حين تمسون وحين تصبحون – وعشياً وحين تظهرون ﴾ . فللدلالة على أنّ مايحدث فيها من آيات عظمة سلطانه وقدرته؛ وأحكام رحمته؛ وتجدّد نعمته لهي شواهد ناطقة على تنـــزهه تعالى واستحقاقه الحمد وموجبة لتسبيحه وتحميده حتماً[٤].

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود ج٧ ص٥٤ .

(٢) انظر : تفسير أبي السعود:ج٧ص٥٤ . هذا ولقد أشرت إلى حكمة اقتران الحمد بالتسبيح في كثير من الآيات في الفصل السابق والحمد لله .

(٣) المرجع السابق ج٧ص٥٤ .

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ج٣ص٤٢٨؛ تفسير أبي السعود ج٧ص٥٤-٥٥ .

- كما أنّ صاحب التحرير أشار إلى أن هذه الظروف متعلقة بما في إنشاء التنـــزيه من معنى الفعل، أي يُنشأ تنـــزيه الله في هذه الأوقات وهي الأجزاء التي يتجزأ الزمان منها، والمقصود : التأبيد أي على الدوام، وإنما سلك به مسلك الإطناب لأنّه مناسب لمقام الثناء.

وهذا الذي أشار إليه لايتعارض مع ماذُكر سابقاً[١].

ثم إنّ تقديم ﴿ عشياً ﴾ على ﴿ حين تظهرون﴾ لمراعاة الفواصل وتغيير الأسلوب ولما أنه لايجيء منه الفعل بمعنى الدخول في العشي كالمساء والصباح والظهيرة [٢].

---

(١) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢١ ص٦٥.

(٢) تفسير أبي السعود :ج٢١ ص٦٥.

المبحث الثالث

في معرض ذكر نعمه وآياته بسورة يس:

قال تعالى :﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ [1].

مطلب : في بيان وجه حكمة مجيء التسبيح في موضعه ههنا :

هذه الآية الكريمة التي ابتدأت بالتسبيح جاءت معترضة بين آيات ينكر الله – تعالى – فيها على المشركين إعراضهم عن دعوة الرسل وكفرهم به ، ويوجّه فيه أنظارهم إلى عظيم نعمه وآثار قدرته ، وتلكم الآيات هي قوله تعالى: ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون . ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون. وإن كل لمّا جميع لدينا محضرون . وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النها ر فإذا هم مظلمون﴾ الآيات[2].

ووجه مجيء التسبيح في آيته ههنا بين هذه الآيات أنّه سيق لتنــزيه الله ذاته العليّة عمّا فعله المشركون من الشرك وترك شكره تعالى وعن كلّ ما لا يليق بإلهيته وعظمته ، وذلك مع ما يرونه ممّا ذكر في هاته الآيات من بدائع آثار قدرته وروائع نعمته الموجبة لتوحيده وشكره وإخلاص العبادة له [3].

---

(١) سورة يس الآية (٣٦).

(٢) انظر الآيات في سورة يس من الآية رقم (٣٠) إلى الآية رقم (٤٤) .

(٣) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٦ ص٦٩ ؛ تفسير القرطبي ج١٦ ص٢٧ ؛ تفسير أبي السعود ج٧ ص١٦٧ ؛ تفسير الألوسي ج٢٣ ص٩ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٣٥٧ ؛ التحرير والتنوير ج٢٣ص١٥ .

وفيه أيضاً معنى التعجب من إخلالهم ، أي : عجباً لهؤلاء في كفرهم مع ما يشاهدونه من هذه الآيات [١].

مطلب : في بيان صلة التسبيح :

– هذا وقد اتصل لفظ التسبيح بما يشير إلى علة من علل تنـــزيهه تعالى عن الشرك به، وذلك بيان أنّه المنفرد بالخلق ؛ ومن كان كذلك فلا ينبغي أن يشرك به. وهذا مع ما ذكر في الآيات من انفراده بالأنعام والرزق .

وذلك قوله تعالى : ﴿ الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ .

– وخصّ بالذكر أصناف النبات وأنواعها (من مختلف أنواعها وطعومها وأشكالها) لأنّ بها قوام الناس ومعاش أنفسهم ودوابهم، وخص كذلك أصناف أنفس الناس من ذكر وأنثى لأنّ العبرة بها أقوى ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[٢].ثمّ ذكر ما يعمّ المخلوقات ممّا يعلمه الناس وما لا يعلمون في مختلف الأقطار والأجيال والعصور في البر والبحر أو السماء والأرض [٣].

● لطيفة :

قُدِّمَ ذكر النبات في الآية إيثاراً له بالأهمية في هذا المقام ؛ لأنّه أشبه بالبعث الذي أومأ إليه قوله تعالى : ﴿ وإن كلٌّ لمّا جميع لدينا محضرون﴾ [٤].

---

(١) تفسير القرطبي :ج١٦ ص٢٧ .

(٢) سورة الذاريات : الآية ٢١ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٣ ص١٧ .

(٤) المرجع السابق : ج٢٣ ص١٧ .

المبحث الرابع

في معرض بيان عظمته وقدرته في خاتمة سورة يس :

قال الله تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ [1].

مطلب : في بيان حكمة مجيء التسبيح في موضعه ههنا :

– لّما تقررت وحدانية الله وقدرته على الإعادة بما ذُكر من دلائل قدرته وعظيم شأنه وأنّ ما أراده كائن لا محالة وذلك في قوله تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [2] بعد ذلك نــزه الله ذاته العلية عن أقوال المشركين المفضية إلى الشرك به ونسبة العجز إليه . وكان التنــزيه مقترناً بالفاء وهو قوله : ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾ والفاء إمّا جزائية تفريعية أي : إذا علم ذلك فسبحان الذي..، أو سببية لأنّ ما قبلها سبب لتنــزهه تعالى .

وهي على كل حال للإشارة إلى أنّ ما فُصّل من شؤونه تعالى موجب لتنــزهه وتنــزيهه أكمل إيجاب [3].

---

(١) سورة يس الآيتان (٨٢_٨٣) .

(٢) سورة يس : الآيات (٧٨–٨٢) .

(٣) انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٦ ص١١٢ ؛ تفسير القرطبي ج١٦ ص٦٠ ؛ تفسير أبي السعود ج٧ ص١٨٢ ؛ تفسير الألوسي ج٢٣ ص٥٧ ؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٣٧١ .

مطلب : في بيان آية التسبيح :

– هذا وقد عُدِل عن الضمير في تسبيح الله ذاته إلى وصف يؤكّد وحدانيته وقدرته على كلّ شيء بما يُشعر باقتضاء تنـزيهه أتمّ اقتضاء، وذلك هو قوله تعالى : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ﴾ والملكوت : مبالغة في المِلك ، فهو الملك التامّ . فمادام كلّ شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكاً . ومادام أنّه سبحانه بيده ملكوت كل شيء فهو القادر على كل شيء والمتصرّف فيه بما شاء . كما قال قتادة : ملكوت كل شيء أي مفاتح كل شيء(١).

– ثمّ ختمت آية التسبيح بقوله تعالى : ﴿وإليه ترجعون﴾ وهي جملة معطوفة على جملة التسبيح. والمعنى : قد اتضح أنكم صائرون إليه غير خارجين عن ملكه وذلك بإعادة خلقكم بعد الموت (٢).

لطيفة :في قوله تعالى: ﴿وإليه ترجعون﴾ قُدّم ﴿إليه﴾ على ﴿ترجعون﴾ للاهتمام ورعاية الفاصلة لأنّهم لم يكونوا يزعمون أنّ ثمّة رجعة إلى غيره ولكنهم ينكرون المعاد من أصله (٣).

– وبهذه اللطيفة يتم الكلام حول هذا المبحث وهو آخر المباحث في هذا الفصل وبتمامه نصل إلى ختام هذه الصفحات التي عرضتُ فيها مواضع تسبيح الله ذاته في كتابه ولله الحمد والمنة .

---

(١) انظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ج٦ ص٢٨٨ ؛ التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٦ ص١١٢ ؛ تفسير أبي السعود ج٧ ص١٨٢ ؛ تفسير الألوسي ج٢٣ ص٥٧؛ فتح القدير للشوكاني ج٤ ص٣٧١ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ج٢٣ ص٨٠ .

(٣) المرجع السابق ج٢٣ ص٨٠ .

الخاتمة

وبعد هذا التطواف في رحاب الآيات القرآنية الكريمة التي سبّح الله فيها ذاته العلية بأبلغ تسبيح وأعظمه، وبما تضمنتها من إثبات الألوهية له وكلّ صفات الكمال والجلال وتنزيهه عن الشريك والولد وعن كل ما لا يليق به سبحانه ، وبما تضمنته أيضاً من بيان عظمته وقدرته وإظهار نعمته على رسله وأنبيائه وخلقه .. من هذا وغيره يدرك المتأمّل أهمية هذه الدراسة ، وفضل البحث فيها ، إذ هي فيما يتعلّق بشأن الله تعالى وتوحيده وآثار أسمائه وصفاته ، وإنما يفضل العلم بشرف المعلوم .

هذا وإني أقترح بان يُتبع هذا المبحث بأمرين :

الأول : دراسة المواضع التي يذكر الله تعالى فيها تسبيح ملائكته ورسله وأنبيائه لذاته ، ومواضع أمره وإخباره بالتسبيح ، بل ومواضع ما ذكر في القرآن من تسبيح الحيوانات والجمادات له .

والثاني : دراسة مواضع حمد الله لذاته إذ الحمد قرين التسبيح كما أشرت من قبل . وكذا ما ورد من مواضع حمد رسله وأنبيائه وملائكته وسائر عباده ..

هذا وأرجوا أن أكون قد وفقت في هذه الدراسة المتواضعة لهذا الشأن العظيم ، وأسأله تعالى المغفرة والقبول .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

الفهارس

- فهرس المراجع .
- فهرس الموضوعات .

فهرس المراجع

- الإتقان في علوم القرآن : السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن . ٢ج . بيروت –لبنان: المكتبة الثقافية .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : أبو السعود : محمد بن محمد العمادي . ٩ج . بيروت – لبنان : دار إحياء التراث العربي .
- أسباب النزول : الواحدي : أبو الحسن علي بن أحمد . بيروت – لبنان : دار المعرفة .
- إصلاح الوجوه والنظائر : الدامغاني ، الحسين بن محمد . بيروت – لبنان : دار العلم للملايين ، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م .
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : الشنقيطي ، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني . ١٠ج . ١٣٩٣هـ /١٩٨٣م .
- الأعلام : الزركلي ، خير الدين . الطبعة السادسة . ٨ج . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٤م .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل : البيضاوي ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله ابن عمر بن محمد الشيرازي . ٥ج . بيروت : مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع .
- البداية والنهاية : إسماعيل بن كثير الدمشقي، الطبعة الأولى.٧ج. بيروت:دار الكتب العلمية. تحقيق : أحمد أبو ملحم – علي نجيب – فؤاد السيد – مهدي ناصر الدين.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: الشوكاني، محمد بن علي.٢ج. طبع بمصر ١٣٤٨هـ .

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : السيوطي، طبع بمصر ١٣٢٦هـ
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : الفيروزابادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب . تحقيق : محمد علي النجار . ٦ج . بيروت – لبنان : المكتبة العلمية .
- تبصير الرحمن وتيسير المنان : المهايمي ، علي بن أحمد بن إبراهيم ، الطبعة الثانية . ٢ج . بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م .
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي : المباركفوري ، أبو العلى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم : أشرف على طباعته : عبد الوهاب عبد اللطيف . الطبعة الثالثة . ١٠ج . بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- تذكرة الحفاظ: الذهبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان .٤ج.طبع في حيدر آباد ١٣٣٣-١٣٣٤هـ.
- ترتيب القاموس المحيط:الزاوي،الطاهر أحمد.الطبعة الثالثة. ٤ ج . بيروت : دار الفكر .
- تفسير البحر المحيط : أبو حيان ، محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي ، الطبعة الثانية . ٨ج. بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م .
- تفسير التحرير والتنوير : ابن عاشور ، محمد الطاهر . ٣٠ج . تونس : الدار التونسية للنشر –الجزائر : المؤسسة الوطنية للكتاب ، ١٩٨٤م .
- تفسير روح البيان : البرسوي ، إسماعيل حقي . ١٠ج . بيروت : دار إحياء التراث العربي.

- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي . ٤ ج . بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٥هـ .
- تفسير المراغي ، المراغي ، أحمد مصطفى . ٢٠ ج . بيروت : دار إحياء التراث العربي .
- تفسير المنار : رضا ، محمد رشيد . الطبعة الثانية . ١٢ ج . بيروت : دار المعرفة .
- تفسير النسفي : النسفي ، عبد الله بن أحمد بن محمود . ٤ ج . بيروت : دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م .
- تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي. الطبعة الأولى .١٤ج.بيروت: دار الفكر .
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان : السعدي ، عبد الرحمن ابن ناصر . تحقيق : محمد زهري النجار . ٧ج . الرياض : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ١٤٠٤هـ .
- جامع البيان في تفسير القرآن : الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير . ٣٠ج. بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م .
- الجامع لأحكام القرآن : القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري . الطبعة الثانية . ٢٠ج . بيروت : دار الكتاب العربي .
- جامع النقول في أسباب النزول : عليوي : ابن خليفة . الطبعة الأولى . ٢ج. الرياض – المملكة العربية السعودية : مطابع الإشعاع ، ١٤٠٤هـ .
- حجة القراءات : ابن زنجلة ، أبو زرعة عبد الرحمن بن محمد . حققه وعلّق عليه : سعيد الأفغاني. الطبعة الثانية . بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩ه /

١٩٧٩م .

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة : ابن حجر العسقلاني .٤ج.طبع في حيدر آباد ١٩٤٥-١٩٥٠م .
- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني : الآلوسي ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود . ٣٠ج . بيروت : دار إحياء التراث العربي .
- زاد المسير في علم التفسير : ابن الجوزي ، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد . الطبعة الثالثة . ٩ج . دمشق ــ بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
- سير أعلام النبلاء: الذهبي. الطبعة الأولى. بيروت: مؤسسة الرسالة .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي . بيروت: دار إحياء التراث العربي .
- صحيح مسلم بشرح النووي : القشيري ، مسلم بن الحجاج – النووي ، يحيى بن شرف . تحقيق وإشراف : عبد الله أحمد أبو زينة . ٥ج . القاهرة : كتاب الشعب .
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: السخاوي. ١٢ج.طبع في مصر ١٣٥٣ -١٣٥٥هـ.
- طبقات الحنابلة: القاضي أبو الحسين محمد بن أبي يعلى الفراء. تعليق: أحمد عبيد. دمشق: مطبعة الاعتدال .
- طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكي.٦ج.طبع بمصر ١٣٢٤هـ.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان : النيسابوري ، نظام الدين بن محمد بن حسين

القمّي. تحقيق : إبراهيم عطوة عوض . الطبعة الأولى . ٣٠ج . مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٨١هـ /١٩٦٢م .

- فتح الباري شرح صحيح البخاري : ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن علي . أشرف على طبعه . محب الدين الخطيب . ١٣ج . الرياض : مكتبة الرياض الحديثة .
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن : الأنصاري ، أبو يحيى زكريا . تحقيق : محمد علي الصابوني . الطبعة الأولى . بيروت : دار القرآن الكريم، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م .
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير : الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد . ٦ج . مصر: المنصورة . دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع . الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .
- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفيّة : العجيلي الشافعي، سلمان بن عمر ، الشهير بالجمل . ٤ج . بيروت – لبنان : دار إحياء التراث العربي .
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة.٢ج.طبع في إسطنبول ١٣٦٠هـ .
- لباب التأويل في معاني التنـــزيل : الخازن ، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي. ٧ج . بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م .
- لباب النقول في أسباب النزول : السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر . الطبعة الثالثة. بيروت: دار إحياء العلوم، ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م.
- لسان العرب : ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. ١٥ج .

بيروت : دار الفكر – دار صادر .

- لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني . الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ .٧ج. بيروت: مؤسسة الأعلمي .
- محاسن التأويل: القاسمي، محمد جمال الدين. علق عليه: محمد فؤاد عبدالباقي. الطبعة الثانية . ١٧ج . بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٨هـ /١٩٧٨م .
- معالم التنزيل : البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء . تحقيق : خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار . ٤ج . بيروت : دار المعرفة . الطبعة الثالثة ، ١٤١٣هـ /١٩٩٢ م.
- معاني القرآن : الفراء ، أبو زكريا يحيى بن زياد . الطبعة الثالثة . ٢ج . بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٣هـ .
- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) : الفخر الرازي ، أبو عبد الله محمد بن عمر ابن حسين. الطبعة الثالثة . ٣٠ج . بيروت : دار إحياء التراث العربي.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة: طاش كبرى زادة . ٢ج. الطبعة الأولى. حيدر آباد : مطبعة دائرة المعارف النظامية ١٣٢٩هـ.
- المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد . تحقيق: محمد سيد كيلاني . بيروت : دار المعرفة .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين يوسف بن تغري بردي. القاهرة:دار الكتب المصرية .
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر : ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن . تحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي . الطبعة الأولى . بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م .

- النشر في القراءات العشر : ابن الجزري ، محمد بن محمد الدمشقي . أشرف على تصحيحه ومراجعته : علي محمد الضبّاع . ٢ج . بيروت – لبنان : دار الكتب العلمية .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : البقاعي ، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر . الطبعة الأولى . ٨ج . بيروت – لبنان : دار الكتب العلمية ، ١٤١٥هـ .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان. ٢ج.طبع بمصر ١٣١٠هـ.

فهرس الموضوعات

المقدمة.. ١٣
التمهيد.. ١٥
الفَصْل الأوَّل: تسبيح الله ذاتَه العليّة عن الإشراك به.................. ٢١
المبحث الأول: في آية سورة التّوبة :....................................... ٢٣
المبحث الثاني: في آية سورة يونس (عليه السلام) : ٢٦
المبحث الثالث: في آية سورة الإسراء :.................................... ٣١
المبحث الرابع: في آية سورة الأنبياء :..................................... ٣٧
المبحث الخامس :في آية سورة المؤمنون :................................. ٤٠
المبحث السادس: في آية سورة القصص : ٤٥
المبحث السابع: في آية سورة الرّوم :....................................... ٥٢
المبحث الثامن: في آية سورة الزّمر :....................................... ٥٥
المبحث التاسع: في آية سورة الطّور :...................................... ٥٩
المبحث العاشر: في آية سورة الحشر : ٦١
الفصل الثاني: تسبيح الله ذاتَه العليّة عن الولد.......................... ٦٥
المبحث الأول: في آية سورة البقرة : ٦٧
المبحث الثاني : في آية سورة النّساء :.................................... ٧٢
المبحث الثالث: في آية سورة الأنعام : ٧٦
المبحث الرابع :في آية سورة يونس – عليه السلام : ٧٩
المبحث الخامس : في آية سورة النّحل :.................................. ٨٢

المبحث السادس : في آية سورة مريم : ٨٤

المبحث السابع : في آية سورة الأنبياء : ٨٨

المبحث الثامن : في آية سورة الزّمر : ٩٢

المبحث التاسع : في آية سورة الزّخرف : ٩٥

المبحث العاشر : في آية سورة الصّافّات : ٩٨

الفَصْل الثّالث : تَسْبِيْحُ اللهِ ذَاتَه العَلِيّة في شُؤون مختلفة أُخرى ١٠٣

المبحث الأول: في تسبيح الله ذاتَه عند الحديث عن معجزة الإسراء : .. ١٠٥

المبحث الثاني : تسبيح الله ذاتَه إثر الوعد والوعيد في آية سورة الروم : ١٠٧

المبحث الثالث: في معرض ذكر نعمه وآياته بسورة يس:................ ١١٠

المبحث الرابع: في معرض بيان عظمته وقدرته في خاتمة سورة يس : ١١٢

الخاتمة ١١٤

فهرس المراجع ١١٦

فهرس الموضوعات.. ١٢٣

المَنْهَجُ الصَّحِيحُ وَأَثَرُهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

إِعْـــدَادُ :

أ . د . حمودِ بْنِ أحْمَد بْنِ فَرَجِ الرُّحَيْلِيِّ

الأسْتَاذِ فِي كُلّيّةِ الدَّعْوَةِ وَأُصُولِ الدّين فِي الجَامِعَةِ



المقدّمـــة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

وبعد؛ فإنّ الدعوة إلى الله تعالى هي سبيل الأنبياء والمرسلين، وطريق صفوة الخلق أجمعين، نبينا محمد ﷺ وطريق أتباعه إلى يوم الدين .

قال تعالى: ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ (١).

وقال ﷻ : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾(٢).فدعوة النبي ﷺ وصحابته وأتباعه تقوم على العلم والبصيرة في الدين، ودعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن. وذلك لإخراجهم من ظلمات الشرك والكفر إلى نور التوحيد والإيمان، ومن ظلمات البدع إلى نور السنة، ومن المعاصي إلى الطاعة، ومن النار إلى الجنة.

والدعاة إلى الله تعالى المقتفون لسنة رسولهﷺ لهم المكانة العالية والمنـــزلة السامية في كل عصر، قال تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ (٣).

ولأهمية الدعوة إلى الله تعالى على المنهج الصحيح قد جعلت هذا البحث بعنوان «المنهج الصحيح وأثره في الدعوة إلى الله تعالى» وذلك لأسباب ،من أهمها:

---

(١) سورة يوسف ، الآية (١٠٨) .

(٢) سورة النحل ، الآية (١٢٥) .

(٣) سورة فصلت ، الآية (٣٣) .

أولاً: ما يلاحظ على أكثر الجماعات العاملة في الساحة الإسلامية من إغفال أو إهمال للجانب الأساسي والأهم، وهو دعوة الناس إلى "التوحيد " وتصحيح عقائدهم، فكثير من هؤلاء الدعاة يسلكون مسالك شتى، لا تتوافق مع منهج الرسول ﷺ وهو المنهج الذي يجب على كل داعية إلى الله تعالى أن يسلكه ويسير عليه ، عملاً بقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[(١)].

والدعوة إلى التوحيد هي أول دعوة الرسل ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ إلى أقوامهم، وكل الكتب المنزلة إنما نزلت لبيان عقيدة التوحيد، وبيان مايبطلها ويناقضها أو ينقصها، فعقيدة التوحيد هي التي يقوم عليها كيان المجتمع الإسلامي، ومنها يستلهمون طريق وحدتهم وعزتهم، إلا أن أكثر الأساليب والوسائل المتعددة التي تنادي بوحدة المسلمين، وجمع كلمتهـــــم، ولمّ شملهم لم تحقق الأهداف المنشودة، مع مابذل فيها من الجهد والوقت والمال، بل الذي نتج عن هذه الدعوات وتلك المناهج إنما هو التعصب، والاختلاف، والتطرف ، والغلوّ، والابتداع والتكفير ... وماذلك إلا لأنَّ هذه المناهج وتلك الدعوات لم تقم على المنهج الصحيح الذي سار عليه النبي ﷺ وصحابته الكرام ومن تبعهم بإحسان ، حيث نجد أنَّ جماعة من هؤلاء تهتم بالسياسة والجهاد، وجماعة تدعو إلى الترغيب والترهيب والزهد والورع، وأخرى تهتم بالأخلاق، وهكذا قلَّ أن تجد من بين هذه الجماعات من يهتم بالركن الأساسي والأهم وهو الدعوة إلى التوحيد، الذي هو المنطلق المتين لوحدة المسلمين ولمّ شملهم .[(٢)]

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية (٢١) .

(٢) انظر مقدمة فضيلة الدكتور صالح الفوزان على كتاب منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل للدكتور ربيع المدخلي ٦-٧ ، منهج السلف في العقيدة وأثره في وحدة المسلمين للشيخ صالح بن سعد السحيمي ، ٤-٥ .

ثانياً: إني لم أقف على من أفرد هذا البحث بهذا الاسم -على حد علمي القاصر.

ومن هنا فإن الحاجة ماسة إلى بيان المنهج الصحيح القائم على كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ ومنهج السلف الصالح – رضوان الله تعالى عليهم – لذا فقد رغبتُ في الكتابة في هذا الموضوع للمشاركة في توضيح الحق، وبيانه للناس، لأن هذا هو المنهج الذي يجب اتباعه دون ماسواه من المناهج المخالفة.

قال تعالى: ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ (٢).

وقال رسول الهدى ﷺ : « تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ماتمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي » (٣).

ويقول الإمام مالك بن أنس –رحمه الله– ! «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » (٤).

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ .

(٣) حديث حسن. أخرجه مالك في الموطأ، ٨٩٩/٢، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، رقم٣، والحاكم في المستدرك، (٩٣/١)، والبيهقي في السنن (١١/١٠)، وانظر تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني على مشكاة المصابيح للإمام التبريزي ، ٦٦/١ ، رقم ١٨٦ ، وانظر الأربعين حديثاً في الدعوة والدعاة ، لعلي بن حسن الحلبي الأثري ، الحديث رقم ٧ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) انظر الشفاء للقاضي عياض ، (٦٧٦/٢) ، دار الكتاب العربي تحقيق البجاوي ، وموارد الأمان، ٢٦٥ .

وعندما أقول بوجوب الاهتمام بالدعوة إلى التوحيد، والبدء به أولاً، لا يعني إهمال الجوانب الأخرى التي يحتاج إليها المسلم، وتتفق مع عقيدته، وإنما المقصود أن نبدأ بالدعوة إلى التوحيد، ثم الأهم فالأهم مع جعل أعمالنا كلها تقوم على أساس العقيدة الصحيحة .

خطة البحث

وقد جعلت البحث في مقدمة، وأربعة فصول ، وخاتمة .

اشتملت المقدمة على أهمية الموضوع، وسبب الاختيار، والخطة ومنهجي في البحث.

والفصل الأول : أهمية العقيدة الصحيحة ووجوب التمسك بها، وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: وجوب التمسك بالعقيدة الصحيحة.

المبحث الأول: وجوب التمسك بالعقيدة الصحيحة.

المبحث الثـــاني: أهمية التوحيد وفضله.

المبحث الثالث: البدء بالدعوة إلى التوحيد أولاً.

والفصل الثاني: الدعائم التي يقوم عليها المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى، ويشتمل على مايلي:

أولاً : العلم.

ثانياً : الإخلاص.

ثالثاً : المتابعة.

رابعاً: الحكمة.

خامساً: الرفق والحلم.

سادساً: الصبر.

سابعاً : التحلي بالأخلاق الفاضلة.

والفصل الثالث : أسباب انحراف الأمة عن المنهج الصحيح، وفيه ستة مباحث :

المبحث الأول: الغلو في الدين.

المبحث الثـــاني: الجهل.

المبحث الثالث: الابتداع في الدين.

المبحث الرابـــع: اتباع الهوى.

المبحث الخـــامس: تقديم العقل على النقل.

المبحث السادس: التفرق والتحزب.

والفصل الرابع: أثر المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى.

وأما الخاتمـــة: فقد أوجزتُ فيها أهم نتائج البحث.

وقد عزوت الآيات الكريمة إلى مواضعها من السور، وخرجتُ الأحاديث النبوية الواردة في البحث، كما وثقت النصوص التي نقلتها عن بعض العلماء من مصادرها الأصلية ، ثم ألحقت به قائمة بأهم المصادر والمراجع مرتبة حسب حروف الهجاء، وقائمة أخرى للموضوعات.

ولا يفوتني أن أقول: إن هذا جهد المقلّ، فما كان فيه من صواب فهو من فضل الله تعالى وتوفيقه لي، وأشكره سبحانه على ذلك، وماكان فيه من خطأ ونقص فأستغفر الله منه وأتوب إليه، وأرجو ممن قرأه ووجد فيه خللاً أن ينبهني إليه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى﴾ (١).

وسأكون شاكراً لنصحه وتوجيهه، وله من الله الأجر والمثوبة.

وأسأل الله ــ جلّت قدرته ــ أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به من يراه من الدعاة المخلصين، وأن يجعله في موازين حسناتي يوم الدين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب :

د. حمود بن أحمدالرحيلي

---

(١) سورة المائدة ، من الآية (٢) .

الفصل الأول

أهمية العقيدة الصحيحة ووجوب التمسك بها، ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول

وجوب التمسك بالعقيدة الصحيحة

إنَّ العقيدة الصحيحة هي الأساس المتين، والركن العظيم لدين الإسلام، ولذا فإنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أول ماقاموا به في دعوة أقوامهم هو دعوتهم إلى تصحيح الاعتقاد، وإلى توحيد الله جلَّ وعلا، فصلاح الأمم مرهون بسلامة عقيدتها، وصحة أفكارها، وكل بناءٍ لاتكون العقيدة أساسه، إنما هو بناء متهدم الأركان، وليس له بقاء ولا قرار، وبدون تصحيح العقيدة لا فائدة من الأعمال أياً كان نوعها.

قال الله تعالى: ﴿إنّه من يُشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ولقد أُوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ولتكوننَّ من الخاسرين﴾ (٢).

وقد مكث النبي ﷺ في مكة ــ بعد بعثته ــ ثلاث عشرة سنة، يدعو إلى تصحيح العقيدة، وإلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، ولم تنزل عليه الفرائض إلا في المدينة ماعدا الصلاة، أما بقية الشرائع ففرضت في المدينة، مما يدُّل دلالة واضحة على أنه لا يُطالب أحد بالأعمال إلا بعد تصحيح العقيدة، وتصفيتها من كل

(١) سورة المائدة ، الآية (٧٢) .

(٢) سورة الزمر ، الآية (٦٥) .

شائبة، وإذا صلحت العقيدة صلحت أعمال المسلم، وذلك لأن العقيدة الصحيحة تحمل المسلم على الأعمال الصالحة، وتوجهه إلى الأفعال الحميدة.

فالواجب على الداعية إلى الله تعالى أن يهتم بعقيدة السلف الصالح –رضوان الله عليهم– علماً وعملاً بها، ودعوة إليها، لأنها العقيدة التي أُمرنا بالتمسك بها، والمحافظة عليها، والتي لايجوز لأي داعية أن يعدل عنها أو أن يتخذ أي عقيدة سواها.

قال تعالى: ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[1].

وقال تعالى:﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وماوصينا به موسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[2]وقال تعالى في فضل المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾[3].

يقول الحافظ أبو القاسم اللالكائي في كتابه القيّم «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»: «فإنَّ أوجب ماعلى المرء معرفة اعتقاد الدين، وما كلف الله به عباده من فهم توحيده، وصفاته، وتصديق رسله بالدلائل واليقين،والتوصل إلى طرقها، والاستدلال عليها بالحجج والبراهين، وكان من أعظم مقول،

(١) سورة الأنعام ، من الآية (١٥٣) .

(٢) سورة الشورى ، الآية (١٣) .

(٣) سورة التوبة ، الآية (١٠٠) .

وأوضح حجة ومعقول: كتاب الله الحق المبين، ثم قول رسول الله ﷺ وصحابته الأخيار المتقين، ثم ماأجمع عليه السلف الصالحون، ثم التمسك بمجموعها، والمقام عليها إلى يوم الدين، ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مما أحدثها المضلون ، فهذه الوصايا الموروثة المتبوعة، والآثار المحفوظة المنقولة، وطرائق الحق المسلوكة، والدلائل اللائحة المشهورة، والحجج الباهرة المنصورة، التي عمل عليها الصحابة والتابعون ومن بعدهم خاصة الناس وعامتهم من المسلمين، واعتقدوها حجة فيما بينهم وبين الله رب العالمين »(١) .

ويقول أبو نصر الوايلي السجزي في وصف أهل السنة والجماعة: «أهل السنة هم الثابتون على اعتقاد مانقله إليهم السلف الصالح ــ رحمهم الله ــ عن الرسول ﷺ ، أو عن أصحابه ــ رضي الله عنهم ــ فيمالم يثبت فيه نص في الكتاب، ولا عن الرسول ﷺ ، لأنهم ــ رضي الله عنهم أئمة ــ ، وقد أمرنا باقتفاء آثارهم، واتباع سنتهم، وهذا أظهر من أن يحتاج إلى إقامة برهان »(٢) .

وجماعة المسلمين: الصحابة، والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، وهم الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية، المنتسبون لسنة النبي ﷺ وطريقته، الراغبون فيها دون ماسواها من الأهواء والبدع، وهم السلف الصالح، ومن هنا لما ظهرت البدع والأهواء المضلة،قيل لمعتقدهم السلفي،أو العقيدة السلفية، وهم الذين يمثلون الصراط المستقيم، سيراً على منهاج النبوة وسلفهم الصالح، ولم يحصل تمام البروز والظهور لهذه الألقاب الشريفة لجماعة المسلمين، إلا حين

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ،٢/٩ .

(٢) الرد على من أنكر الحرف والصوت ، ٩٩ .

دبت في المسلمين الفرقة، وتعددت على جنبتي الصراط الفرق، وتكاثرت الأهواء، وخلفت الخلوف، فبرزت هذه الألقاب الشريفة للتميز عن معالم الفرق الضالة، وهي مع ذلك ألقاب لاتختص بـرسم يخالف الكتاب والسنة، زيادة أو نقصاً، وإنما يمثلون في الحقيقة والحال الامتداد الطبعي لما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه ــ رضي الله عنهم ــ في الشكل والمضمون والمادة والصورة(١) .

وتتلخص عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، فهذه الأمور الستة هي أصول العقيدة الصحيحة التي نزل بها كتاب الله العزيز، وبعث الله بهارسولـه محمداً عليه الصلاة والسلام، ويتفرع عن هذه الأصول كل مايجب الإيمان به من أمور الغيب(٢) .

قال تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾(٣).

---

(١) حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية ، للشيخ بكر أبو زيد، ٩٠ ، بتصرف .

(٢) انظر العقيدة الصحيحة ونواقض الإسلام ، لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ،٣-٤ ، وللاستزادة في معرفة أصول أهل السنة والجماعة ، انظر : عقيدة السلف أصحاب الحديث، لأبي عثمان إسماعيل الصابوني ، ومجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٢٩/٣ ، وما بعدها ، وشرح الطحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، وعقيدة أهل السنة والجماعة ، للشيخ محمد بن عثيمين ، ومحاضرات في العقيدة والدعوة ، للشيخ صالح الفوزان ، ١٤٣/٢-١٦٠ .

(٣) سورة البقرة ، الآية (١٧٧) .

وقال سبحانه: ﴿إنّا كل شيء خلقناه بقدر﴾[1].

فعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يتمسكوا بعقيدة أهل السنة والجماعة وأصولهم، في الاعتقاد والعمل والسلوك، وأن يتركوا كل ماخالف هذا المنهج القويم والصراط المستقيم، من البدع المضلة، والمناهج الفاسدة، والأفكار السيئة، التي ضللت المسلمين، وجعلتهم فرقاً وأحزاباً، كلٌ يدعي العصمة لمنهجه وطريقته، زاعماً أنّ الحق معه، على حد قول القائل:

وكلٌ يدعي وصلاً لليلى ... وليلى لا تُقرُّ لهم بذاكا

وإن المنهج الحق الذي يجب اتباعه هو منهج أهل السنة والجماعة الذين جاءت الأدلة بفضلهم، والثناء عليهم، فإنه طريق الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

(١) سورة القمر ، الآية (٤٩) .

المبحث الثاني

أهمية التوحيد وفضله

إن التوحيد هو الأمر الذي بعث الله من أجله الرسل، وأنزل من أجله الكتب، وخلق من أجله الثقلين -الإنس والجن- وبقية الأحكام تابعة لذلك.

قال تعالى: ﴿وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1] والمعنى لتخصوه ــ سبحانه ــ بالعبادة وتفردوه جلّ وعلا بها، ولم تُخْلَقُوا عبثاً ولاسُدىً .

وقال تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [2].

والتوحيد هو : أول دعوة جميع الأنبياء والرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولاً يدعوهم إلى التوحيد ويحذرهم من الشرك .

قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾ [3].

والتوحيد هو : إفراد الله تعالى بالعبادة ، وترك عبادة ما سواه .

وقد تكرر موضوع التوحيد في كتاب الله، ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن العظيم إلا وفيها ذكر للتوحيد، وأمر به، وحث عليه.

فالقرآن كله في التوحيد، لأنه إما خبر عن الله سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته وأمر بعبادته وحده لاشريك له ونهى عن الشرك به، وإما بيان لجزاء الموحدين

---

(١) سورة الذاريات ، الآية (٥٦) .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية (٥) .

(٣) سورة النحل ، من الآية (٣٦) .

الذين أخلصوا العبادة لله ﷻ في الدنيا والآخرة، وبيان لجزاء المشركين الذين أعرضوا عن التوحيد وما حلَّ بهم من العقوبات في الدنيا وما ينتظرهم في الآخرة. وإما إخبارهم عن الموحدين من الرسل وأتباعهم. أو إخبار عن المكذبين من المشركين وأتباعهم من الأمم السابقة: كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وقوم إبراهيم، وأصحاب مدين ، والمؤتفكات ، وغيرهم من الأمم لما أعرضوا عن التوحيد وعصوا الرسل ماذا حل بهم ؟ وإما بيان للحلال والحرام وهذا من حقوق التوحيد، فكون الإنسان يحل الحلال ويكتسب الحلال، ويستعمل الحلال، ويحرم الحرام ويبتعد عن الحرام وعن كسب الحرام هذا من حقوق التوحيد أيضاً .

فالقرآن كله توحيد، لأنه إما لبيان التوحيد وبيان مناقضاته ومنقصاته. وإما إخبار عن أهل التوحيد، وماأكرمهم الله به، أو أخبار عن المشركين وما انتقم الله تعالى منهم في الدنيا وما أعدَّ لهم في الآخرة، وإما أحكام وبيان للحلال والحرام وهذا من حقوق التوحيد[١] .

ومما يدل على أهمية التوحيد ، وأنه أساس العمل، تكفيره للذنوب والكبائر ، يدل على ذلك ماجاء عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى

---

(١) انظر مدارج السالكين ، ٣/٤٦٨-٤٦٩ ، ومحاضرات في العقيدة والدعوة ، للدكتور صالح الفوزان ، ٢/٩-١٠ .

عبدالله ، ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ماكان من العمل[1] .

وعن عتبان بن مالك الأنصاري ﷺ : «فإن الله حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله »[2] .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنهما ــ من حديث صاحب البطاقة حيث ينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يؤتى ببطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتوضع السجلات في كفه،والبطاقة في كفة فتطيش السجلات وتثقل البطاقة »[3] .

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ٤٧٤/٦ ، كتب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾، رقم ٣٤٣٥ ، وصحيح مسلم ٥٧/١ ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، رقم ٤٦ .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ، ٥١٩/١ ، كتاب الصلاة ، باب المساجد في البيوت ، رقم ٤٢٥ ، وصحيح مسلم ٤٥٦/١ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر ، رقم٢٦٣ .

(٣) الترمذي ٢٤/٥-٢٥ ، كتاب الإيمان باب ما جاء في من يموت وهو شهيد أن لا إله إلا الله ، رقم ٢٦٣٩، وابن ماجه ، ١٤٣٧/٢ ، كتاب الزهد ، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ، رقم ٤٣٠٠ ، وأحمد ٢١٣/٢ ، والحاكم ٥٢٩/٦/١ ، وقال : صحيح الإسناد على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ٢٦٢/١ .

وللترمذي عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: ((يابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة))[1] .

(١) أخرجه الترمذي ، ٥/٥٤٨ ، كتاب الدعوات ، باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، رقم ٣٥٤٠ ، وقال هذا حديث حسن غريب ، وأحمد في المسند ، ٥/١٧٢،١٥٤ ، والحاكم في المستدرك ٤/٢٤١ ، ووافقه الذهبي مختصراً ، من حديثه ، وله شاهد عند مسلم ، ٤/٢٠٦٨ ، كتاب الذكر والدعاء ..، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى ، رقم ٢٦٨٧ .

المبحث الثالث

البدء بالدعوة إلى التوحيد أولاً

إن البدء في الدعوة إلى الله تعالى بالأهم قبل المهم والتدرج في الدعوة حسب الأوليات لهو من أهم الضروريات التي يجب على الداعية إلى الله تعالى معرفتها والعمل على تحقيقها.

وقد دلَّ على ثبوت هذا المبدأ الكتاب والسنة وعمل سلف هذه الأمة الصالح رضوان الله عليهم.

إذ قص الله تعالى علينا في كتابه الكريم قصص الأنبياء وأخبارهم مع أقوامهم، فكان كل واحد منهم يبدأ بدعوة قومه إلى توحيد الله تعالى واخلاص العبادة له وحده ونبذ الشرك وأهله.

قال تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ [1].

وقال سبحانه عن هود عليه السلام : ﴿وإلى عاد وأخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ [2].

وقال جلَّ ذكره عن صالح عليه السلام : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ [3].

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية (٥٩) .

(٢) سورة الأعراف ، من الآية (٦٥) ، وسورة هود ، الآية (٥٠) .

(٣) سورة الأعراف ، من الآية (٧٣) ، وسورة هود ، من الآية (٦١) .

وقال عن إبراهيم عليه السلام : ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (١)

وقال تعالى عن يعقوب عليه السلام : ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ (٢).

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام : ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (٣).

وقال تعالى عن شعيب عليه السلام : ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ (٤).

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين﴾ (٥).

وقال عن عيسى عليه السلام : ﴿إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ (٦).

وهذا المنهج هو الذي سار عليه خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين، بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا، فقد

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية (١٦) .

(٢) سورة البقرة ، الآية (١٣٣) .

(٣) سورة يوسف ، الآيات (٣٨-٤٠) .

(٤) سورة الأعراف ، من الآية (٨٥) ، وسورة هود ، من الآية (٨٤) .

(٥) سورة الأعراف ، الآية (١٤) .

(٦) سورة آل عمران ، الآية (٥١) .

بدأ ﷺ بما بدأ به كل الأنبياء، وانطلق من حيث انطلقوا بدعوتهم من عقيدة التوحيد والدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده.

وقد أمره ربه ــ تبارك وتعالى ــ أن يدعو الناس جميعاً إلى التوحيد، فقال تعالى: ﴿قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿قل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ (٢).

وقد استمر النبي ﷺ طيلة ثلاث عشرة سنة في مكة لا يكلُّ ولا يَمَلُّ صابراً على كل ألوان الأذى، وهو يدعو الناس إلى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك قبل أن يأمرهم بالصلاة ، والزكاة ، والصوم والحج، وقبل أن ينهاهم عن الربا ، والزنا ، والسرقة ، وقتل النفوس بغير حق(٣).

اللهم إلاّ ماكان يأمر به قومه من معالي الأخلاق كصلة الرحم، والصدق، والعفاف، وأداء الأمانة، وحسن الجوار ونحو ذلك، ولكن الموضوع الأساسي، ومحور الدعوة إنما هو عن التوحيد وتحقيقه .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٥٨) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية (١٦١-١٦٢) .

(٣) انظر مقدمة فضيلة الدكتور صالح الفوزان على كتاب منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل ، للدكتور ربيع المدخلي ، ص٥ .

وبعد أن هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام إلى المدينة ، وقامت دولة الإسلام على أساس التوحيد ظل الاهتمام بهذا الأمر على أشده والآيات القرآنية تنزل به، والتوجيهات النبوية تدور حوله.

ولم يكتف رسول الله ﷺ بهذا بل كان يبايع على عقيدة التوحيد عظماء الصحابة فضلاً عن غيرهم بين الفينة والفينة ،كلما تسنح له فرصة للبيعة عليها.

قال تعالى: ﴿ياأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ [١].

وهذه الآية وإن كانت في بيعة النساء فإن رسول الله ﷺ كان يبايع على مضمونها الرجال[٢].

فعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: «كان رسول الله ﷺ في مجلس،فقال: تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم» والآية التي أخذت على النساء ﴿إذا جاءك المؤمنات﴾ فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذبه » [٣].

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية (١٢) .

(٢) انظر منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل ، للدكتور ربيع المدخلي ، ٥٧-٥٨ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ، ٦٤/١ ، كتاب الإيمان ، باب ١١ ، حديث ١٨ ، وصحيح مسلم ١٣٣٣/٣ ، كتاب الحدود ، باب الحدود والكفارات لأهلها ، حديث ١٧٠٩ ، والنسائي ، ١٤٢/٧ ، كتاب البيعة على الجهاد .

أما السنة ففيها الشيء الكثير الدال على أن رسول الله ﷺ كان يفتتح دعوته بالتوحيد ويختتمها بذلك ، واستمراره على ذلك طيلة حياتهﷺ بلا كلل أو ملل.

١- عن عمرو بن عبسة السلمي ﷺ قال: «كنت وأنا في الجاهلية، أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً جُرءَاءُ عليه قومه فتلطفت، حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ فقال: «أنا نبي» فقلت: وما نبي ؟ قال: «أرسلني الله» فقلت: وبأي شيء أرسلك ؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحدوا الله لا يُشْرَكُ به شيء» فقلت: ومن معك على هذا ؟ قال : « حر وعبد » ، قال : ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به ... » الحديث[1] .

٢- قول جعفر بن أبي طالب ﷺ للنجاشي ملك الحبشة: «أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ماكنّا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان...» الحديث[2] .

---

(١) صحيح مسلم ، ٥٦٩/١ ، كتاب صلاة المسافرين ، باب إسلام عمرو بن عبسة ، رقم ٢٩٤ ، وأحمد في المسند ، ١١٢/٤ .

(٢) انظر الإمام أحمد في المسند ، ٢٠٢/١ ، والسير والمغازي ، لابن إسحاق ، ٢١٣-٢١٧ ، وسيرة ابن هشام ، ٢٨٩/١-٢٩٣ ، بإسناد حسن إلى أم سلمة رضي الله عنها ، وانظر السيرة النبوية ، لابن كثير ١١/٢، وفتح الباري ، لابن حجر ، ٧/ ١٨٩ ، وانظر السيرة النبوية الصحيحة ، د. أكرم العمري ، ١٧٣/١-١٧٤.

٣- وفي أسئلة هرقل لأبي سفيان في مدة صلح الحديبية عن حال رسول الله ﷺ قال لأبي سفيان: ماذا يأمركم ؟ قال أبو سفيان قلت: يقول: «اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا مايقول آباؤكم ، ويأمر بالصلاة، والصدق والعفاف، والصلة» [١] .

فهذه الأحاديث الشريفة تبين لنا أن الدعوة إلى التوحيد هي أول مايدعو إليه النبي ﷺ.

وهذا المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ كان يأمر به رسله إذا بعثهم للقيام بالدعوة.

٤- وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنه قال: «قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ســتأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله تعالى قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله تعالى قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم...» الحديث[٢] .

وإذا أراد الداعية إلى الله تعالى دعوة الناس، فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد، الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، إذ لا تصح الأعمال إلا به ، فهو أصلها الذي تبنى عليه ، ومتى لم يوجد لم ينفع العمل، بل هو حابط، إذ لا تصح العبادة

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، ٣٢/١ ، كتاب بدء الوحي ، حديث ٦ .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ، ٣٥٧/٣ ، كتاب الزكاة ، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا ، حديث ١٤٩٦ ، ومسلم ٥٠/١ ، كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ، حديث ١٩ .

مع الشرك، كما قال تعالى: ﴿ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ [1] ، ولأن معرفة معنى هذه الشهادة هو أول واجب على العباد، فكان أول مايُبدأ به في الدعوة[2] .

قال شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ : «وقد عُلم بالاضطرار من دين الرسول ، واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام، وأول مايؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلماً، والعدو ولياً... وفيه البداءة في الدعوة والتعليم بالأهم فالأهم » [3] .

تلك هي دعوة الأنبياء جميعاً وعلى رأسهم أولو العزم من الرسل ــ عليهم السلام ــ يبدأون دعوتهم بالتوحيد في كل زمان ومكان مما يدل على أن هذا هو الطريق الوحيد الذي يجب أن يسلك في دعوة الناس إلى الله تعالى وسنة من سننه التي رسمها لأنبيائه وأتباعهم الصادقين ، لا يجوز تبديلها ولا العدول عنها [4].

(١) سورة التوبة ، الآية (١٩) .

(٢) تيسير العزيز الحميد ، ١٢٣ .

(٣) تيسير العزيز الحميد ، ١٢٧ .

(٤) انظر منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل ، للدكتور ربيع بن هادي المدخلي ، ٢٦-٢٧ .

الفصل الثاني

الدعائم التي يقوم عليها المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله

تتلخص الدعائم التي يقوم عليها المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى – كما دلّ على ذلك الكتاب والسنة فيما يلي[١]:

أولاً: العلـــم :

فلابدّ للداعي إلى الله تعالى أن يكون عالماً بحكم الشرع فيما يدعو إليه، فالجاهل لايصلح أن يكون داعية.

قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾[٢].

وبوّب الإمام البخاري –رحمه الله– لهذه الآية بقوله: «باب العلم قبل القول والعمل »[٣].

قال الإمام ابن حجر –رحمه الله– في الفتح: قال ابن المنير: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به ، فهو مقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل، فنبه المصنف على ذلك حتى لايسبق إلى الذهن من قولهم: (إن العلم لاينفع إلا بالعمل) تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه[٤] .

---

(١) انظر مقدمة الدكتور صالح الفوزان على منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل للدكتور ربيع بن هادي المدخلي ، ص٣ .

(٢) سورة محمد ، الآية (١٩) .

(٣) انظر صحيح البخاري مع الفتح ، ١٥٩/١، كتاب العلم ، باب العلم قبل القول والعمل.

(٤) انظر فتح الباري لابن حجر ، ١٦٠/١ ، كتاب العلم ، باب العلم قبل القول والعمل .

والعلم الحقيقي هو معرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ (١).

ولا يكون الداعية إلى الله ناجحاً في دعوته، حكيماً في أمره ونهيه إلا بالعلم الشرعي، وإن لم يصحب الداعية من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير الطريق، وهو مقطوع عليه طريق الوصول، ومسدود عليه سبيل الهدى والفلاح، وهذا إجماع من العارفين، ولا شك أنه لا ينهى عن العلم إلا قطاع الطريق، ونواب إبليس وشُرَطُه (٢).

ومن الأدلة الواردة في فضل العلم والحث عليه قوله تعالى ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ (٣).

وقوله: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ (٤).

وقوله سبحانه: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماءُ﴾ (٥).

ومن الأحاديث: ماجاء عن معاوية ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»(٦).

---

(١) سورة النحل، الآية (٤٤).

(٢) انظر مدارج السالكين، لابن القيم، ٤٨٣/٢.

(٣) سورة الزمر، الآية (٩).

(٤) سورة المجادلة، من الآية (١١).

(٥) سورة فاطر، الآية (٢٨).

(٦) صحيح البخاري مع الفتح، ١٦٤/١، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، رقم ٧١، وصحيح مسلم، ٧١٨/٢، كتب الزكاة، باب النهي =

وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)(١).

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: (مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسَقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً فذلك مثلُ من فقه دين الله، ونفعه مابعثني الله به فعلم وعلّمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً،ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) (٢).

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة التي تدل على فضل العلم والحث عليه والعمل به.

وليس القصد هنا سرد الأدلة في هذا الأمر، فهذا شيء معروف، ولكن أحب أن أُوكد على أنه يجب على من أراد أن ينصب نفسه للدعوة إلى الخير، والأمر

= عن المسألة ، رقم ١٠٣٧ ، والترمذي ، ١٣٧/٤ ، أبواب العلم ، باب إذا أراد الله بعبده خيراً فقهه في الدين ، رقم ٢٧٨٣ .

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، ١٦٥/١ ، كتاب العلم ، باب الإغتباط في العلم والحكمة ، رقم ٧٣ ، وصحيح مسلم ، ٥٥٩/١ ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، رقم ٨١٦ .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ، ١٧٥/١ ، كتاب العلم ، باب فضل من علم وعلم ، رقم ٧٩ ، وصحيح مسلم ، ١٧٨٧/٤ ، كتاب الفضائل ، باب بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدي والعلم ، رقم ٢٢٨٢ .

بالمعروف، والنهي عن المنكر، قياماً بما أوجب الله عليه، والنصح لعباده، وطمعاً فيما وعد الله به أهل تلك الأعمال من الأجر العظيم والنعيم المقيم، فليتفقه في دينه وليأخذ العلم عن أهله الراسخين فيه، السائرين في طريقه القويم، طريق السلف الصالح المتمثل في منهج أهل السنة والجماعة. فالذي يريد أن يدعو الناس لابدَّ له أن يتعلم على أيدي العلماء الربانيين قبل أن يتصدى للدعوة إلى الله تعالى، حتى يقوم بذلك بحجة ودليل ويعرف كيف يسير في ذلك الطريق، على هدى ونور.

يوضح شيخنا فضيلة الدكتور محمد أمان بن علي الجامي ــ رحمه الله ــ أهمية البصيرة للدعاة إلى الله، ووجوب الرجوع لسيرة السلف الصالح، وطريقة دعوهم، وأنَّ أي طريقة أو جماعة لا تنتهج نهج النبي ﷺ وصحابته، فمصيرها الفشل لا محالة، فيقول:

«تُوجد في العصر الحديث جماعات تدعو إلى الله، ولكنها في الغالب تتخبط على غير بصيرة، فالواجب على دعاة الحق أن يكونوا على بصيرة فاهمين ما يدعون إليه ومتصورين له ومؤمنين به ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ [(١)].

هاتان صفتان لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

١- القيام بواجب الدعوة.

٢- أن يكسبوا البصيرة قبل أن يشرعوا في الدعوة.

البصيرة هي : العلم الذي مصدره الوحي ، والفقه الدقيق، الذي يستفيد منه الداعية الحكمة، وحسن الأسلوب، وكسب القلوب، والتحبب إلى الناس .

(١) سورة يوسف ، من الآية (١٠٨) .

وهذه الجماعات أشبهها بالأحزاب السياسية المتنافسة لمصالحها الشخصية وأغراضها الذاتية، وهي ذاتها محنة من المحن ومشكلة من المشكلات للدعوة والدعاة معاً، إذا بقيت على وضعها ولم تعد النظر في سلوكها ومنهج عملها وبرامجها، وأساليب دعوتها وسياستها، فخطرها على الدعوة يفوق كل خطر يهدد الدعوة من خارجها.

فعلى هذه الجماعات أن تدرس تاريخ الدعاة الأولين من الصحابة والتابعين الذين نطق بهم القرآن، وبه نطقوا، والذين انتشر الإسلام بدعوتهم، بل عليهم أن يفهموا الدين كما فهم أولئك السادة، ويسيروا سيرهم، وينسجوا على منوالهم، مع ملاحظة الأساليب المناسبة في العصرالحديث، والملابسات والظروف وأحوال الناس، وإن لم يسلكوا هذا المسلك فسوف لايكتب للدعوة أي نجاح أو أي تقدم لأنه عمل لم يستوف الشروط، وهو عمل غير صالح[١].

ثانياً: الإخلاص :

إن من أهم مايجب على الداعية إلى الله تعالى أن يكون مخلصاً لله في دعوته، وأمره ونهيه، بحيث لا يرجو إلا الجزاء من الله تعالى وحده، فلا يكون هدفه طمعاً مادياً أو غرضاً دنيوياً، ولا يكون هدفه من ذلك الرياء أو السمعة وطلب الشهرة أو شيء من حطام الدنيا، أو أن يظهر فضله في دينه أو علمه أو عمله أو عقله على من يدعوه أو يأمره وينهاه، مما يزينه الشيطان، ويكيد به الإنسان ليبطل عمله ويفسد سعيه.

وقد أمر الله سبحانه المؤمنين بإخلاص نياتهم وأعمالهم وعباداتهم لله تعالى وحده، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ وآمراً له أن يخاطب أمته بذلك: ﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾[٢].

---

(١) أضواء على طريق الدعوة إلى الإسلام ، ٢١٨-٢١٩ .

(٢) سورة الزمر ، الآية (١١) .

وقال ﷻ: ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾ [1].

وقال جل شأنه: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون﴾ [2].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » [3].

قال الإمام ابن حجر ـــ رحمه الله ـــ : «ومعناه كل عمل بنية ، فلا يقبل عمل بدون نية » [4].

وعن جابر ﷺ قال: «كنا مع النبي ﷺ في غزاة فقال: (إنَّ بالمدينة لرجالاً ماسرتم مسيراً ولا قطعتم واديا إلاكانوا معكم حبسهم المرض»[5]فهؤلاء كتب الله لهم من الأجر ماكتب لإخوانهم المجاهدين في سبيل الله وذلك بسبب صلاح نياقم واخلاصهم لله وحده.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «قال رسول اللهﷺ : قال الله تبارك وتعالى: ﴿أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه﴾ [6].

---

(١) سورة الزمر ، الآية (١٤) .

(٢) سورة هود ، الآيتان (١٥-١٦) .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ، ٩/١ ، كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ﷺ ، وصحيح مسلم ، ١٥١٥/٣ ، كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنية » ، وأحمد في المسند ، ٢٥/١ .

(٤) فتح الباري ، ١١/١ .

(٥) صحيح مسلم ، ١٥١٨/٣ ، كتاب الإمارة ، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر .

(٦) صحيح مسلم ،٢٢٨٩/٤ ، كتاب الزهد ، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم ٢٩٨٥.

وقد وردت بعض الآثار عن بعض السلف تبين أهمية النية ودورها في قبول العمل منها ماورد عن مطرف بن عبدالله قال: «صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية »[١].

وعن ابن المبارك قال: «رُبَّ عمل صغير تُعظمه النية، ورُب عمل كبير تصغره النية »[٢].

وعن أبي سليمان: « طوبى لمن صحت له خطوة لا يريد بها إلا الله تعالى » [٣].

فعلى الداعية إلى الله تعالى أن يخلص نيته لله تعالى، وأن يتجرد من حظوظ النفس ومن نزغات الشيطان، وأن يكون قصده وهدفه ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، وفي أنبياء الله ورسله – عليهم السلام – القدوة الحسنة، فإن القصد من دعوتهم إصلاحهم ، وابتغاء الأجر والمثوبة من الله وحده.

قال تعالى عن نوح عليه السلام : ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين﴾ [٤]وهكذا بقية الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ لايريدون من دعوتهم إلا مرضاة الله تعالى.

لذا فإن على الداعية إلى الله تعالى على بصيرة أن يهتم بالإخلاص، ويحذر على نفسه من الرياء والسمعة، فإن الشيطان حريص على أن يفسد عليه عمله، وقد تدعوه النفس الأمارة بالسوء إلى حب الظهور أو الشهرة أو ماشابههما من أغراض الدنيا الفانية، ومن ثم يقع في المحذور والعياذ بالله.

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ، ٧١/١٠ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) انظر مختصر منهاج القاصدين ، لابن قدامة ، ٣٧٠-٣٧١ .

(٤) سورة الشعراء ، الآية (١٠٩) .

نسأل الله تعالى لنا ولجميع الدعاة إلى الله تعالى الإخلاص في القول والعمل.

ثالثاً: المتابعة :

لما كانت الدعوة إلى الله تعالى من أجل العبادات فإنه لابد فيها من توفر الشرطين الأساسيين لصحتها وهما: الإخلاص ، والمتابعة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في حديثه عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: «وإذا كانت جميع الحسنات لابد فيها من شيئين: أن يُراد بها وجه الله، وأن تكون موافقة للشريعة، فهذا في الأقوال والأفعال، في الكلم الطيب والعمل الصالح، في الأمور العلمية، والأمور العملية العبادية »[١].

فالمتابعة شرط في قبول الأعمال، ومنها الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لقوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾[٢].

والعمل الصالح هو العمل الموافق لهديه ﷺ، ولهذا كان أئمة السلف رحمهم الله يجمعون هذين الأصلين –أي الإخلاص والمتابعة– كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾[٣]، قال: أخلصه وأصوبه ، فقيل له : يأبا عليّ ما أخلَصُه وأصوبه؟ فقال: إنَّ العمل إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل، وإذا كان خالصاًولم يكن صواباً لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله والصواب: أن يكون على السُّنة[٤].

---

(١) انظر الاستقامة ، ٢٩٧/١، ٢٩٧/٢ .

(٢) سورة الكهف ، الآية (١١٠) .

(٣) سورة الملك ، الآية (٢) .

(٤) الاستقامة ، لابن تيمية ، ٣٠٨/٢-٣٠٩ .

وقد روى ابن شاهين واللالكائي، عن سعيد بن جبير قال: «لايُقبل قول إلا بعمل، ولا يُقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يُقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة »[(١)].

فعلى الداعية إلى الله تعالى على بصيرة أن يكون مقتدياً بالنبي ﷺ ، وأن يسلك مسلكه في الدعوة، فإن الله تعالى أمرنا بالاقتداء به ﷺ في قوله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾[(٣)].

ولقد بدأ – صلوات الله وسلامه عليه – كغيره من الأنبياء قبله بإصلاح عقائد الناس وجمعهم على عقيدة التوحيد، وأمرهم بالتأسي به في جميع الأقوال والأفعال.

فإذا بدأ الداعية إلى الله تعالى أو المحتسب بعكس مابدأ به رسول الله ﷺ ، كما لو بدأ بالجهاد أو إقامة الدولة مثلاً فإنه لايفلح في دعوته، لمخالفته متابعة النبي ﷺ ، فكل دعوة إلى الإصلاح لاتنتهج نهج الرسول ﷺ على فهم السلف الصالح فإن مصيرها الفشل الذريع لا محالة .

يقول شيخنا فضيلة الدكتور ربيع بن هادي المدخلي: «هل يجوز للدعاة إلى الله في أي عصر من العصور العدول عن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ؟.

---

(١) المرجع السابق ، ٣٠٩/٢ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (٢١) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (٣١) .

الجواب: في ضوء ماسبق وما سيأتي، لايجوز شرعاً ولا عقلاً العدول عن هذا المنهج واختيار سواه.

أولاً: أن هذا هو الطريق الأقوم الذي رسمه الله لجميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم .

والله واضع هذا المنهج هو خالق الإنسان والعالم بطبائع البشر ومايصلح أرواحهم وقلوبهم﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[1].

وهو الحكيم العليم في خلقه وشرعه، وقد شرع لأفضل خلقه هذا المنهج.

ثانياً: إن الأنبياء قد التزموه وطبقوه مما يدل دلالة واضحة أنه ليس من ميادين الاجتهاد، فلم نجد :

١- نبياً افتتح دعوته بالتصوف.

٢- وآخر بالفلسفة والكلام.

٣- وآخرين بالسياسة.

بل وجدناهم يسلكون منهجاً واحداً ، واهتمامهم واحد بتوحيد الله أولاً ، وفي الدرجة الأولى.

ثالثاً: إن الله قد أوجب على رسولنا الكريم الذي فرض الله علينا اتباعه أن يقتدي بهم، ويسلك منهجهم، فقال بعد أن ذكر ثمانية عشر نبياً منهم ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[2]وقد اقتدى بهداهم في البدء بالتوحيد، والاهتمام الشديد به.

---

(١) سورة الملك ، الآية (١٤) .

(٢) سورة الأنعام ، من الآية (٩٠) .

رابعاً: ولما كانت دعوتهم في أكمل صورها تتمثل في دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، زاد الله الأمر تأكيداً، فأمر نبينا محمداً ﷺ باتباع منهجه فقال: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ (١).

والأمر باتباعه يشمل الأخذ بملته التي هي التوحيد ومحاربة الشرك ويشمل سلوك منهجه في البدء بالدعوة إلى التوحيد، وزاد الله تعالى الأمر تأكيداً – أيضاً– فأمر أمة محمد ﷺ ، باتباع ملة هذا النبي الحنيف، فقال تعالى: ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ (٢).

إذن، فالأمة الإسلامية مأمورة باتباع ملته، فكما لايجوز مخالفة ملته،لا يجوز العدول عن منهجه في الدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك ومظاهره ووسائله.

خامساً: قال الله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ (٣).

فإذا رجعنا إلى القرآن أخبرنا أن كل الرسل كانت عقيدتهم عقيدة التوحيد وأن دعوتهم كانت تبدأ بالتوحيد وأن التوحيد أهم وأعظم ماجاءوا به.

ووجدنا أن الله قد أمر نبينا باتباعهم وسلوك مناهجهم، وإذا رجعنا إلى الرسول نجد أن دعوته من بدايتها إلى نهايتها كانت اهتماماً بالتوحيد ومحاربة للشرك ومظاهره وأسبابه...»(٤).

---

(١) سورة النحل ، الآية (١٢٣) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية (٩٥) .

(٣) سورة النساء ، الآية (٥٩) .

(٤) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل ، ٩١-٩٢ .

رابعاً : الحكمـــــة :

إن الحكمة من أهم الدعائم التي يقوم عليها المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى، ومن أهم مقومات الداعية الناجح، ومن نظر في سيرة المصطفى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وجد أنه كان ملازماً للحكمة في أموره كلها، وخاصة في دعوته إلى الله جلّ وعلا، وقد أمره ربه تبارك وتعالى بالدعوة إلى الله بالحكمة في قوله: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾ (٢).

إن الحكمة إتقان الأمور وإحكامها ، بأن تُنـــزل الأمور منازلها، وتوضع في مواضعها. وليس من الحكمة التعجل في الدعوة إلى الله تعالى، وأن ينقلب الناس عن حالهم التي هم عليها إلى الحال التي كان عليها الصحابة بين عشية وضحاها، ومن أراد ذلك فهو سفيه في عقله ، بعيد عن الحكمة ، لأن حكمة الله ﷻ تأبى أن يكون هذا الأمر. ويدلل لهذا أن الرسول ﷺ- وهو الذي ينـــزل عليه الكتاب – نزل عليه الشرع متدرجاً حتى استقر في النفوس وكمل.

فالدعوة إلى الله تعالى تكون على أربع مراتب :

١- بالحكمة.

٢-ثم بالموعظة الحسنة.

٣- ثم بالجدال بالتي هى أحسن لغير الظالم.

٤- ثم بالفعل الرادع للظلم(٣).

---

(١) سورة النحل ، الآية (١٢٥) .

(٢) سورة العنكبوت ، من الآية (٤٦) .

(٣) انظر الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات ، للشيخ محمد بن عثيمين ، ٣٥ .

ومن الأمثلة التي ضربها لنا رسول الله ﷺ في دعوة الناس بالحكمة موقفه مع الأعرابي الذي بال في المسجد.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مه مه[1]، قال: قال رسول الله ﷺ : (لا تزرموه[2] دعوه) فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ، دعاه فقال له: (إنَّ هذه المساجد لاتصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله، والصلاة، وقراءة القرآن) أو كما قال رسول الله ﷺ قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنَّه عليه »[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:«قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: (لقد حجرت واسعا) يريد : رحمة الله[4].

وفي رواية أخرى قال: «يقول الأعرابي بعد أن فقه، فقام النبي ﷺ إليَّ بأبي وأمي فلم يسب ولم يؤنب ولم يضرب»[5].

---

(١) مه : كلمة زجر ، لسان العرب ، لابن منظور ، ١٣ /٥٤٢ .

(٢) لا تزرموه أي لا تقطعوا عليه بوله ، والازرام : القطع . انظر شرح النووي على صحيح مسلم ، ١٩٠/٣.

(٣) صحيح مسلم ، ٢٣٧/١ ، كتاب الطهارة ، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد ، رقم ٢٨٦ ، ومعنى شنه عليه : أي صبه عليه.

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ، ٤٣٨/١٠ ، كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم ، رقم ٦٠١٠ .

(٥) هذه الرواية عند أحمد في المسند بترتيب أحمد شاكر ، برقم ١٠٥٤٠ ، ١٣٤/٢٠ .

ومن الأدلة كذلك ماجاء عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: «بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكْلَ أمَّياه[1] ! ماشأنكم تنظرون إلَّ ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمّتونني، لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي، مارأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ماكهرني[2]ولا ضربني ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لايصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن، أو كما قال رسول الله ﷺ...»الحديث[3].

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التي تبين لنا أن النبي ﷺ كان يعامل الناس في دعوته بالحكمة واللين، لذلك فإنه لابد للداعية إلى الله تعالى أن يتأسى بالنبي ﷺ في دعوته وفي أمره ونهيه، وفي تعامله مع الناس، ولابد له من الصبر وطول النفس، والتدرج مع المدعو شيئاً فشيئاً حتى يمكن إعادته للحق والصواب.

خامسا: الرفق والحلم :

إنَّ من الواجب على الداعية إلى الله تعالى أن يكون رفيقاً رحيماً، حليماً ليناً، مشفقاً على الناس، فإنَّ ذلك مدعاة لقبول الناس منه، وانتفاعهم بدعوته، وهذا هو خلق النبي ﷺ في دعوته للناس، ولهذا امتن الله تعالى على نبيه ﷺ بقوله:

---

(١) واثكْلَ أُمياه : معناه فقدان المرأة لولدها ، ويجوز أن يكون من الألفاظ التي تجري على ألسنة العرب ولا يراد بها الدعاء ، كقولهم : تربت يداك . انظر النهاية ، لابن الأثير ، ٢١٦/١ .

(٢) ماكهرني : يعني ما نهرني .

(٣) صحيح مسلم ، ٣٨١/١ ، كتب المساجد ، باب تحريم الكلام في الصلاة ، رقم ٥٣٧ .

﴿فبما رحمة من الله لنتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ (١).

وامتن الله تبارك وتعالى على عباده المؤمنين ببعثة رسوله الكريم إليهم، وبما هو عليه من الخلق العظيم، فقال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (٢).

ولقد أمضى النبي ﷺ حياته بمكة والمدينة وغيرهما، يدعو ويذكر وينذر في غاية من اللطف واللين، ويقصد نواديهم، يدعوهم إلى الهدى، ويتحمل منهم ألوان الأذى، ويزيد على ذلك فيقول: (رب اغفر لقومي فإنهم لايعلمون)(٣).

فهذا دَيْدنُهُ ﷺ في دعوته، وأمره ونهيه، يأخذ بالرفق واللين، ولم يستعمل الغلظة والشدة، إلا حين لم يجد ذلك مع المخاطبين –مع تحقيق القدرة وانتفاء المفسدة – كما هو واضح من سيرته، وقد قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ (٤).

فمن قرأ سيرته ﷺ ولزم طريقته في دعوة أمته، كان أكمل الناس في متابعته، وأولاهم بوراثته، وأسعدهم بشفاعته، وأنصحهم لأمته، ولهذا لما كان صاحبه

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية (١٥٩) .

(٢) سورة التوبة ، الآية (١٢٨) .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ، ٢٨٢/١٢ ، كتاب استتابة المرتدين ، باب إذا عرض الذمي أو غيره بسب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصرح ، رقم ٦٩٢٩ ، وصحيح مسلم ، ١٤١٧/٣ ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة أحد ، رقم ١٧٩٢ ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية (٢١) .

أبوبكر الصديق في ذلك كذلك أسلم على يديه من لايحصون، وانتفع به من الخلق كثيرون[1].

ولما أرسل الله سبحانه وتعالى موسى وهارون – عليهما السلام – إلى فرعون – طاغية مصر وجبارها – أمرهما أن يخاطباه باللين واللطف.

قال تعالى: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾[2].

قال الإمام ابن كثير ــ رحمه الله ــ ! : «هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه، إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»[3].

وقد ورد في هذا المعنى استدلال المأمون عندما وعظه رجل وعنّف له في القول ، فقال: يارجل ارفُقْ فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، وأمره بالرفق، قال تعالى: ﴿فقولا له قولاً لينا﴾[4] [5].

ومن الأحاديث النبوية التي تبين فضل الرفق واللين وتحثُّ عليه مايلي:

١– عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «إن الرفق لايكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه »[6].

---

(١) انظر تذكرة أولي الغير بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، للشيخ عبد الله القصّير ، ٣١-٣٤ .

(٢) سورة طه ، الآيتان (٤٣-٤٤) .

(٣) تفسير ابن كثير ، ١٦٣/٣ .

(٤) سورة طه ، الآية (٤٣) .

(٥) انظر إحياء علوم الدين ، للغزالي ، ٣٣٤/٢ .

(٦) صحيح مسلم ، ٢٠٠٤/٤ ، كتاب البر والصلة ، باب فضل الرفق ، رقم ٢٥٩٤ .

٢- وعن جرير بن عبدالله ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من يحرم الرفق، يحرم الخير»[١].

٣- وقال ﷺ لأشج عبدالقيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله، الحلم والأناه»[٢].

لذا فإنه ينبغي للداعية إلى الله تعالى، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتقي الله في عباد الله، وأن يلزم الرفق بهم واللين معهم والحلم والعفو عنهم، فيما يدعوهم إليه، ويأمرهم به، وينهاهم عنه، حتى لا يصدهم عن الهدى أو يوردهم الردى.

ولا ينبغي للداعية إلى الله تعالى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتسم بالشدة، ويأخذ بالغلظة، ما وجد مندوحة عن ذلك، فإذا اشتبه عليه الأمر، فعليه بمراجعة نصوص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة، وكلام أهل العلم المعتبرين، إن كانت لديه الأهلية لذلك، لمعرفة الراجح بالدليل، وإلا فعليه بما وجه الله تعالى إليه أمثاله بقوله سبحانه: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون﴾[٣] [٤].

سادساً: الصـــــبر:

إن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الواردة في الصبر لاتكاد تُحصى لكثرتها .

(١) صحيح مسلم ، ٢٠٠٣/٤ ، كتاب البر والصلة ، باب فضل الرفق ، رقم ٢٥٩٢ .

(٢) صحيح مسلم ، ٤٨/١ ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله ، وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه ... ، رقم ١٨ .

(٣) سورة النحل ، الآية (٤٣) .

(٤) انظر تذكرة أولي الغير بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، للشيخ عبد الله القصير ، ٣٦ .

وقد أخبر الله تعالى عن لقمان الحكيم بأنه أوصى ابنه بقوله: ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور﴾ (١).

فأتبع حثه له بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصبر، وما ذلك إلا لأن القيام بهذا يتطلب الكثير من المجاهدة، ولحوق الأذى بالمحتسب، وهذا لايثبت معه إلا من كان متحلياً بالصبر .

ولهذا نجد أن الله تعالى أمر رسله –صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين– وهم أئمة الدعوة إلى الله تعالى بالصبر، كما قال تعالى لخاتمهم ﷺ ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ (٤).

ومن الأدلة من السنة التي ترغب في الصبر وتحث عليه مايلي:

١– ماورد عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلت يارسول الله: أي الناس أشد بلاءً ؟ قال: (الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيدَ في بلائه، وإن كان في دينه رقة خُفِّفَ عنه، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة)(٥).

---

(١) سورة لقمان ، الآية (١٧) .

(٢) سورة الأحقاف ، من الآية (٣٥) .

(٣) سورة البقرة ، من الآية (٤٥) .

(٤) سورة آل عمران ، من الآية (٢٠٠) .

(٥) أخرجه الترمذي ، ٦٠١/٤ ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٨ ، وقال هذا حديث حسن صحيح ، وسن ابن ماجه ، ١٣٣٤/٢ ، كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، رقم ٤٠٢٣ ، والإمام أحمد في المسند ، =

٢- وعن أنس بن مالك ﷺ مرفوعاً: «إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط »[(١)].

٣- وعن أبي سعيد الخدريﷺ أن أناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نَفِدَ ما عنده قال: (مايكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى الله أحداً عطـــــاءً هو خير وأوسع من الصبر) [(٢)].

ومما تقدم من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية وغيرها التي تدل على فضل الصبر وتحث عليه، يتبين أن المؤمن معرض للابتلاء، ولكن على حسب قوة إيمانه أو ضعفه، وإذا صبر المؤمن واحتسب أجره عند الله كفر الله من ذنوبه وسيئاته، وعظم له الأجر، وإذا كان عامة الناس معرضين لهذا الابتلاء والامتحان، فإنَّ

= ١ /١٨٥،١٨٠،١٧٤،١٧٢، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم ١٤٣ .

(١) أخرجه الترمذي ، ٦٠١/٤ ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٦ ، وقال حسن غريب ، وسنن ابن ماجه ، ١٣٣٤/٢ ، كتاب الفتن ، باب الصبر على البلاء ، رقم ٤٠٢٣ ، وحسنه الشيخ الألباني ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم ١٤٦ .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ، ٣٣٥/٣ ، كتاب الزكاة ، باب الاستعفاف عن المسألة ، رقم ١٤٦٩ ، وصحيح مسلم ، ٧٢٩/٢ ، كتاب الزكاة ، باب فضل التعفف والصبر ، رقم ١٠٥٣ .

أشدهم بلاء الدعاة إلى الله، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهم أوْلَى بالصبر والاحتساب، وخاصة ما يصيبهم بسبب دعوتهم من الأذى .

وفي صبر النبي ﷺ على أذى المشركين أمثلة رائعة يجدر بالدعاة إلى الله تعالى أن يقفوا عندها ويتأملوها، ليتأسَّوا بالنبي ﷺ ، ومن هذه الأمثلة:

١- ماكان مشركو مكة يلقون على عتبته ﷺ من الأنتان والأقذار، ومع ذلك كان يصبر ويحتسب، ويقول: (أي جوار هذا)[١] ؟ .

٢-بعد أن اشتد أذى قريش للنبي ﷺ عقب وفاة عمه أبي طالب، خرج النبي ﷺ إلى الطائف، للدعوة وطلب النصرة من ثقيف، ولكنها لم تستجب له، وأمروا صبيانهم وسفهاءهم أن يصطفوا على الطريق صفـين، وأن يرجموه بالحجارة ، فرجموه ﷺ بالحجارة حتى أدموا عقبه[٢] .

فهذه الأمثلة وغيرها كثير تبين لنا شدة صبر النبي ﷺ واحتسابه على مالاقاه أثناء دعوته من أذى المشركين، فعلى الداعية إلى الله أن يتحلى بالصبر، ويتحمل المشاق في سبيل الدعوة إلى الله .

سابعاً: التحلي بالأخلاق الفاضلة :

إن من الأمور المهمة في حياة الداعية إلى الله تعالى أو الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون متمسكاً بأخلاق الداعية، بحيث يظهر عليه أثر العلم في

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، ٤١٦/١ وتاريخ الطبري ، ٣٤٣/٢ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ، ٤١٩/١-٤٢٠ ، والطبقات الكبرى ، لابن سعد ، ٢١٢/١، والدلائل للبيهقي ، ٤١٤/٢ ، ومختصر سيرة الرسول ﷺ، للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ٨٣ ، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، د. مهدي رزق الله ، ٢٢٧ .

معتقده وفي عباداته من صلاة وصيام وتلاوة قرآن وفي هيئته وجميع مسلكه مبتعداً عن الأخلاق الذميمة حتى يُمثّل دور الداعية إلى الله تعالى.

وقد شنّع الله تعالى على الذين يدعون الناس إلى الصلاح وينسون أنفسهم بقوله: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ (١).

وقوله: ﴿ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ (٢)

وإن كان القول الراجح من أقوال العلماء ــ رحمهم الله ــ أن للإنسان أن يأمر بالمعروف ولو لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن كان يفعله.

إلاّ أنَّ هناك أمراً مهماً يجب التنبه إليه. ألا وهو قبول دعوة الداعي أو أمر الآمر بالمعروف ونهي الناهي عن المنكر. وتأثير ذلك في الناس.

لذلك فإن الداعي إلى الله تعالى أو الآمر الناهي إذا كان قدوة صالحة في عقيدته وفي عباداته ومنهج حياته فحريٌ أن يُقبَلَ قوله، وتسمع كلمته، ويكون له تأثير طيب على المجتمع.(٣)

وقد مثلت حياة الرسول ﷺ أعمالاً كثيرة متنوعة، بحيث تكون فيها الأسوة الصالحة، والمنهج الأعلى للحياة الإنسانية في جميع أطوارها،لأنها جمعت بين الأخلاق العالية والعادات الحسنة، والعواطف النبيلة المعتدلة...

---

(١) سورة البقرة ، الآية (٤٤) .

(٢) سورة الصف ، الآيتان ، (٢-٣) .

(٣) انظر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، د. عبد العزيز المسعود ، ٢٢٣/١ ، وحاجة البشر إلى الأمر بالمعروف ووالنهي عن المنكر ، للشيخ عبد الله الجبرين ، ٦٧-٦٨ .

وقد كان ﷺ ، معلماً مخلصاً، وواعظاً ناصحاً، ومرشداً أميناً، وكان مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

وكان ﷺ عابداً شاكراً لربه ، وقد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر. فعن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ قالت: «كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لِمَ تصنع هذا يارسول الله وقد غفر لكماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكورا» [1].

لذا فإنه ينبغي للداعية إلى الله تعالى الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يلتزم بأوامر الإسلام ويتخذها زاداً يستعين به في دعوته وأمره ونهيه، وأن يتخذ من الرسول ﷺ ، وسيرته القدوة الحسنة، قال تعالى:﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ [2].

إلى غير ذلك من الدعائم والمقومات التي يقوم عليها المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى كالصدق، والعدل، والتواضع، والجود، والكرم، والتثبت وعدم العجلة وغيرها مما هي من لوازم الداعية الناجح.

---

(١) صحيح البخاري ، ١٤/٣ ، كتاب التهجد ، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم الليل ، رقم ١١٣٠ ، وصحيح مسلم ، ٢١٧٢/٤ ، كتاب صفات المنافقين ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ، رقم ٢٨٢٠ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية (٢١) .

الفصل الثالث:

أسباب انحراف الأمة عن المنهج الصحيح

المبحث الأول: الغلو في الدين

لقد بدأت البشرية على التوحيد لله تعالى منذ أن أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام » [١].

إلا أن الناس بعد ذلك تعلقوا بالصالحين ، وغَلَوْا فيهم ، وبدأ الانحراف في العقيدة ، في أولئك القوم الذين بعث الله فيهم نوحاً عليه السلام ، بعد أن زين لهم الشيطان عبادة الأصنام ، بسبب الغلو في الصالحين .

فقد روى البخاري ــ رحمه الله ــ في صحيحه عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ في قوله تعالى : ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾ [٢] . قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم ففعلوا، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت [٣].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ، ٥٤٦/٢ ، كتاب التاريخ ، وقال : حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ، ١٠١/١ ، وعزاه إلى البخاري ، وانظر تفسير ابن كثير ، ٢٥٩/١ ، وفتح الباري ، ٣٧٢/٦ ، وتفسير ابن جرير الطبري ، ٣٣٤/٣ .

(٢) سورة نوح ، الآية (٢٣) .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ، ٦٦٧/٨ ، كتاب التفسير ، سورة نوح ، رقم ٤٩٢٠ .

إن الغلو داء عضال وسرطان فتاك ، يفسد العقيدة ، ويهلك الشعوب ، وما ذاك إلا لأنه تعدٍّ لما أمر الله به ، وتجاوز للمشروع الذي شرعه الله ، ولهذا حذر الله عباده من الغلو في الدين ، والإفراط بالتعظيم ، سواء بالاعتقاد أو القول أو الفعل ، قال تعالى ﴿ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾[1] .

أي لاَ تَتَعَدَّوْا ما حد الله لكم ، وأهل الكتاب هنا : اليهود والنصارى ، فنهاهم عن الغلو في الدين ، وهذه الأمة كذلك ، كما قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾[2] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : ((إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين))[3] .

وحذر النبي ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور ، لأن عبادة الله عند قبور الصالحين وسيلة إلى عبادهم ، ولهذا لما ذكرت أم حبيبة وأم سلمة رضي الله عنهما لرسول الله ﷺ كنيسة في الحبشة فيها تصاوير قال : ((إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصّور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة))[4] .

(١) سورة النساء ، من الآية (١٧١) .

(٢) سورة هود ، الآية (١١٢) .

(٣) أخرجه النسائي ، ٢٨٦/٥ ، كتاب مناسك الحج ، باب التقاط الحصى ، وابن ما جه ، ١٠٠٨/٢ ، كتاب المناسك ، باب قدر حصى الرمي ، والحاكم ٤٦٦/١ ، والبيهقي ١٢٧/٥ ، وأحمد ٢١٥،٣٤٧/١ ، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، ٢٧٨/٣ ، رقم ١٢٨٣ .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ، ٥٢٣/١ ، كتاب الصلاة ، باب هل نبش قبور مشركي الجاهلية .. ، ومسلم ٣٧٥/١ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور .

كما حذر النبي ﷺ عن الإطراء فقال : ((لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله))[١] .

والإطراء مجاوزة الحد بالباطل في المدح ، والكذب فيه ، ومعنى لا تطروني أي: لا تمدحوني بالباطل ، أو لا تجاوزوا الحد في مدحي[٢] .

والغلو كثير في النصارى فإنهم غَلَواْ في عيسى عليه السلام فنقلوه من حيّز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله ، يعبدونه كما يعبدون الله ، بل غلوا فيمن زعم أنه على دينه من أتباعه ، فادعوا لهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً، وناقضتهم اليهود في أمر عيسى عليه السلام فحطوا من منـــزلته، حتى جعلوه وَلَدَ بغيٍّ[٣] .

وقد وقعت الأمة فيما حذرها منه النبي ﷺ من الغلو ، حيث غلا كثير من الناس في دين الله ، وتجاوزا والحد المشروع لهم ، وتشبهوا بمن قبلهم من اليهود والنصارى وغيرهم .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله : ((ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى ، وغلا في الدين بإفراط أو تفريط ، وضاهاهم في ذلك فقد شابههم ، كالخوارج المارقين من الإسلام الذين خرجوا في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقاتلهم حين خرجوا على المسلمين، وكان قتالهم بأمر النبي ﷺ كما ثبت ذلك من عشرة أوجه في الصحاح والمسانيد وغير ذلك ، وكذلك من غلا

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، ٤٧٨/٦ ، كتاب الأنبياء ، باب قوله تعالى : ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ . رقم الحدث ٣٤٤٥ ، عن عمر رضي الله عنه .

(٢) تيسير العزيز الحميد ، ٣١٤ .

(٣) تيسير العزيز الحميد ، ٣٠٦-٣٠٧ .

في دينه من الرافضة والقدرية والجهمية والمعتزلة» وقال أيضاً « فإذا كان على عهد النبي ﷺ من انتسب إلى الإسلام وقد مرق منه مع عبادته العظيمة ، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان ، قد يمرق أيضاً من الإسلام ، وذلك بأسباب : منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال : ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾[1] »[2].

ومن هذا يتبين لنا أن أعظم فتنة ابتُليت بها البشرية إنما هي فتنة الغلو ، وأن من أسباب انحراف الأمة عن المنهج الصحيح ، والفطرة السليمة ، إنما هو مجاوزة الحد الذي أدى ببعض الناس إلى صرف العبادة إلى غير الله تعالى ، وذلك بالتقرب والتوسل إلى ما يسمونه بالأولياء والصالحين ، والعكوف عند قبورهم بالصلاة أو الدعاء أو الذبح أو النذر أو الطواف أو التبرك بها ونحو ذلك مما هو من الشرك الذي حذرنا الله ورسوله منه ، أشد التحذير .

---

(١) سورة النساء ، من الآية (١٧١) .

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد ، ٣٠٧ .

المبحث الثاني: الجهل

إن الجهل داء عظيم ، يوصل للضلالة ، ويورد المهالك ،وهو من أعظم أسباب انحراف الأمة عن المنهج الصحيح ، وفي الحديث عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤساً جُهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا)[1] .

قال النووي ــ رحمه الله ــ : (هذا الحديث يبيّن أن المراد بقبض العلم في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفاظه ، ولكن معناه : أن يموت حملته ، ويتخذ الناس جهالاً يحكمون بجهالاهم فيضلون ويُضلون)[2] .

والمراد بالعلم هنا : علم الكتاب والسنة ، وهو العلم الموروث عن الأنبياء عليهم السلام ، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وبذهابهم يذهب العلم ، وتموت السنن ، وتظهر البدع ، ويعم الجهل ، وأما علم الدنيا ، فإنه في زيادة ، وليس هو المراد في الأحاديث ، بدليل قوله ﷺ (فسُئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا) والضلال إنما يكون عند الجهل بالدين، والعلماء الحقيقون هم الذين يعملون بعلمهم ، ويوجهون الأمة ، ويدلونها على طريق الحق والهدى)[3] .

ومن أعظم الجهل القول على الله بغير علم ، وتحليل ما حرم الله ، أو تحريم ما أحل الله ، قال تعالى : ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، ١٩٤/١ ، كتاب العلم ، باب كيف يُقبض العلم ، رقم ١٠٠ ، وصحيح مسلم ٢٠٥٨/٤ ، كتاب العلم باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان / رقم ٢٦٧١ .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ، ٢٢٣/١٦-٢٢٤ .

(٣) أشراط الساعة ، للشيخ يوسف الوابل ، ١٣٣ .

بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ [1] .
وقال تعالى : ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم﴾ [2] .

ومن أفتى أحداً بدون علم ، فإنه يبوء بإثمه ، وإثم من استفتاه ، قال تعالى : ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾ [3] .

وخطورة الجهل تكمن في أن الجاهل يستكبر عن سماع الحق ، ويستثقله ، ويصور العلم والتعلم بأنه شبح رهيب وأنه بعيد المنال بحيث لا يمكن الوصول إليه ، ومن ثم يبقى على جهله إلى أن يموت .

فانظر إلى حال كثير من المسلمين اليوم وخصوصاً ممن ينتمي إلى كثير من الجماعات الحزبية في هذا العصر ، والتي اختطت لنفسها طابعاً حزبياً وصبت جل اهتما مها في مسائل محدودة من مسائل الشرع ، أو ما توهموها من مسائل الشرع ، وخُيّل إليهم عبثاً أنها وحدها توصلهم إلى بر النجاة ، وإيجاد المجتمع الإسلامي المنشود في الوقت الذي لو سئلوا عن فرع سهل من فروع مسائل العلم لأجابوا بملء أفواههم ،بأننا لا نعرف هذه المسائل ، وإنما عليكم بسؤال العلماء ، لأننا مشغولون عن ذلك بالدعوة إلى الله ! فيا عجباً !! كيف يدعو إلى الله بغير علم ، وكيف يكون أهلاً للدعوة من لا يحسن أداء الصلاة على الوجه الذي صلاه رسول الله ﷺ [4] ؟ .

والدواء الناجع للجهل، وطريق السلامة إنما هو بالعلم الشرعي، وقد وردت النصوص من الكتاب والسنة في الحث عليه ، والثناء على أهله ، وقد سبق بيانه .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية (٣٣) .

(٢) سورة الأنعام ، من الآية (١٤٤) .

(٣) سورة النحل ، الآية (٢٥) .

(٤) تنبيه أولي الأبصار ، للشيخ صالح بن سعد السحيمي ، ١٢٣ .

المبحث الثالث: الابتداع في الدين

البدعة في اللغة : مأخوذة من البدع وهو : الاختراع على غيرمثال سابق ، ومنه قوله تعالى : ﴿بديع السموات والأرض﴾ (١) .

ويُقال لمن أتى بأمر لم يسبقه إليه أحد ، أبدع ، وابتدع ، وتبدّع . أي أتى ببدعة(٢) .

أما البدعة في الاصطلاح : فقد عرفها الشاطبي – رحمه الله – بقوله: (طريق في الدين مخترعة تضاهي الشريعة ، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه)(٣).

وقد نهى النبي ﷺ عن الابتداع في الدين ، وحذرمنه ، وبيّن لأمته، أنّ كل بدعة في دين الله فهي محرمة وضلالة ، فعن العرباض بن سارية ﷺ قال : ((وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يارسول الله كأنها موعظة مودع ، فأوصنا ، قال : ((أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عَضّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومُحْدَثَاتِ الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة))(٤) .

---

(١) سورة البقرة ، من الآية (١١٣) .

(٢) انظر لسان العرب ٧/٨، القاموس المحيط ٣/٣-٤ فصل الباء ، باب العين .

(٣) الاعتصام ، ٣٦/١ .

(٤) سن أبي داود ، ١٣/٥ ، كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، رقم ٤٦٠٧ ، والترمذي ، ٤٤/٥ ، كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، رقم ٢٦٧٦ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ، ١٦/١ ، المقدمة باب إتباع سنة الخلفاء =

وعن عائشة –رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ : ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد))[1] .

وفي رواية : ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد))[2] .

ولا شك أن الابتداع في الدين كان ــ ولا يزال ــ من أعظم الأسباب التي حادت بالأمة الإسلامية عن المنهج الصحيح ، وكان من أهم العوامل التي قضت على وحدة المسلمين ، وشتتت شملهم ، حتى تفرق الناس شيعاً وأحزاباً .

يقول الشاطبي –رحمه الله : (ثم استمر تزايد الإسلام ، واستقام طريقه على مدة حياة النبي ﷺ ومن بعد موته ، وأكثر قَرْن الصحابة رضي الله عنهم ، إلى أن نبغت فيهم نوابغ الخروج عن السنة ، وأصغوا إلى البدع المضلة)[3] .

وعن ظهور البدع ونشأتها يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله: (واعلم أن عامة البدع المتعلق بالعلوم والعبادات إنما وقع في الأمة في أواخر خلافة الخلفاء الراشدين ، كما أخبر به النبي ﷺ حيث قال : ((من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي))[4] .

= الراشدين المهديين ، رقم ٤٣٤٢ ، وأحمد في المسند ، ١٢٦/٤-١٢٧ ، وابن حبان في صحيحه ٤/١ ، وقد صححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل ، ١٠٧/٨ ، وصحيح سنن الترمذي ، ٣٤١/٢ ، وصحيح سنن ابن ماجه ١٣٨/١ ، وفي ظلال الجنة ١٧/١-٢٠ .

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، ٣٠١/٥ ، كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، رقم ٢٦٩٧ ، وصحيح مسلم ، ١٣٤٣/٣ ، كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ، رقم ١٧١٨ .

(٢) صحيح مسلم ، ١٣٤٣/٣-١٣٤٤ ، كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ، رقم ١٧١٨ .

(٣) الاعتصام ، ٢٢/١ .

(٤) سبق تخريجه ، ٦٠ .

وأول بدعة ظهرت بدعة القدر ، وبدعة الإرجاء ، وبدعة التشيع والخوارج، هذه البدع ظهرت في القرن الثاني والصحابة موجودون ، وقد أنكروا على أهلها ، ثم ظهرت بدعة الاعتزال ، وحدثت الفتن بين المسلمين ، وظهر اختلاف الآراء والميل إلى البدع والأهواء ، وظهرت بدعة التصوف ، وبدعة البناء على القبور بعد القرون المفضلة، وهكذا كلما تأخر الوقت زادت البدع وتنوعت[١].

ومن البدع المعاصرة الاحتفال بالمولد النبوي ، والتبرك بالأماكن والآثار والأشخاص أحياءً وأمواتاً .

ومنها البدع في مجال العبادات والتقرب إلى الله ، وهي كثير ومنها الجهر بالنية للصلاة، والذكر الجماعي بعد الصلاة ، وطلب قراءة الفاتحة في المناسبات ، وبعد الدعاء، للأموات، وإقامة المآتم على الأموات ، وصناعة الأطعمة ، واستئجار المقرئين.. ، وكالاحتفال بالمناسبات الدينية كمناسبة الإسراء والمعراج ، ومناسبة الهجرة النبوية ، ومن ذلك الأذكار الصوفية ، كلها بدع ومحدثات لأنها مخالفة للأذكار المشروعة في صيغها وهيئاتها وأوقاتها، ومن ذلك البناء على القبور واتخاذها مساجد ، وزيارتها لأجل التبرك بها ، والتوسل بالموتى وغير ذلك من الأغراض الشركية ..[٢] .

وأختتم قولي هنا بقول ابن الماجشون : (سمعت مالكاً يقول : من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله تعالى يقول: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ [٣] فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً) [٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ، ١٠/٣٥٤ .

(٢) انظر محاضرات في العقيدة والدعوة للدكتور صالح الفوزان ، ١/١١٣-١٢٣ باختصار.

(٣) سورة المائدة ، الآية (٣) .

(٤) الاعتصام للشاطبي ، ١/٤٩ .

المبحث الرابـــع: اتباع الهـــوى

إنَّ اتباع الهوى من أعظم الأسباب التي أدت إلى انحراف هذه الأمة عن منهجها الصحيح ، فنشأت بسببه الأحزاب الضالة ، والفرق المنحرفة ، وهو من أعظم دواعي الضلال ، وأسباب الهلاك ، فإنه يهوي بصاحبه إلى الردى والمهالك ، حتى يورده إلى النار والعياذ بالله .

وكل مخالف لما بعث الله به رسوله ﷺ من العبادات والطاعات والأوامر والنواهي، إنما يكون متبعاً لهواه، ولا يكون متبعاً لدين شرعه الله تبارك وتعالى[١] .

وقد ذم الله سبحانه وتعالى اتباع الهوى في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿أرأيت من اتخذ إله هواه أفأنت تكون عليه وكيلا﴾[٢] .

قال ابن كثير – رحمه الله : (أي مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه)[٣] .

وقال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾[٤] .

ونهى المؤمنين عن اتباع الهوى فقال تعالى : ﴿فلا تتبعوا الهوى﴾[٥] ، وقال تعالى: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾[٦] ، إلى غير ذلك من الآيات .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ١٠/١٧٠-١٧١ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية (٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير ، ٣/٣٣٥ .

(٤) سورة الجاثية ، الآية (٢٣).

(٥) سورة النساء ، من الآية (١٣٥) .

(٦) سورة الجاثية ، الآية (١٨) .

واتباع الهوى هو أصل كل شر ، وأساس كل بلوى ، ومعتمد كل بدعة ، ولذلك فهو أشد وطأة من الجهل ، لأن الجهل ميسور علاجه ، وفي استطاعة من يتلبس به ، وذلك بطلب العلم والتفقه في الدين ، أما الهوى في أثناء طلب العلم أو بعد تحصيله فهو الآفة الخطيرة التي تحتاج إلى مجاهدة النفس وعلاج الداء .

ولخطورة الهوى وما يسببه من وقوع المرء في الشهوات والشبهات، حذر السلف الصالح رضوان الله عليهم من أهل الأهواء ، ومن ذلك :

قول ابن عباس ﷺ : « لاتجالس أهل الأهواء ، فإن مجالستهم ممرضة للقلوب» [١].

وقال أبو قلابة : «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا آمن من أن يغمسوكم في ضلالتهم ، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون » [٢].

وقال إبراهيم النخعي : « لا تجالسوا أهل الأهواء فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان من القلوب، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث الغلظة في قلوب المؤمنين» [٣]، إلى غير ذلك من أقوال السلف الصالح ــ رضي الله عنهم .

وباتباع الهوى خرجت الخوارج ، ورفضت الروافض ، ونبتت الجهمية ، وظهرت المعتزلة ، وألحدت المرجئة ، ونفت القدرية ، وضلت الجبرية ، وتفرقت الأمة حتى صارت شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم يفرحون ، فكم حرّف الهوى من شرائع ، وبدّل من ديانات ، وأوقع الإنسان في ضلال مبين [٤].

---

(١) الإبانة لابن بطة ، ٤٣٨/٢، رقم ٣٧١ .

(٢) سنن الدارمي ، ١٢٠/١ ، رقم ٣٩١ ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، للالكائي ، ١٣٤/١.

(٣) الإبانة لابن بطة، ٤٣٩/٢ ، رقم ٣٧٥

(٤) انظر تنبيه أولي الأبصار ، للشيخ صالح السحيمي ، ١٣٤-١٣٥ .

المبحث الخامس: تقديم العقل على النقل

ومن أسباب الانحراف في هذه الأمة تقديم العقل واعتماده مصدراً تشريعياً أعلى من كلام الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ ، وهذا كحال بعض المنتسبين إلى الإسلام من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم من الفرق الضالة الذين تأثروا بكتب اليونان وعلومهم، وتبنوا أكثر أفكارهم، فما وافق العقل عندهم قبلوه، وما خالفه ردوه وطعنوا فيه، فابتعدوا بذلك عن العقيدة الصحيحة، وحادوا عن الصراط المستقيم، ولو أنهم تمسكوا بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وجعلوهما المصدر الوحيد للتلقي، وردوا التنازع إليهما، وسلكوا منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، وابتعدوا عن كل ما يخالف المنهج الصحيح، لما حصل لهم ماحصل من التخبط والضلال، ولما وقعت الأمة في الزيغ والانحراف.

ولا يخفى أن العقل نعمة عظيمة أودعها الله في الإنسان ليميز الخير من الشر، والحق من الباطل ، ولكنّ للعقول حداً تنتهي في الإدراك إليه، ولم يجعل الله لها سبيلاً إلى إدراك كل شيء، فمن الأشياء مالا يصل العقل إليه بحال، ومنها مايصل إلى ظاهر منه دون اكتناه[1] وهي مع هذا القصور الذاتي لا تكاد تتفق في فهم الحقائق التي أمكن لها إدراكها، فإن قوى الإدراك ووسائله تختلف عند النظار اختلافاً كثيراً، ولهذا كان لابد فيما لاسبيل للعقول إلى إدراكه، وفيما تختلف فيه الأنظار من الرجوع إلى مخبر صادق، يضطرُّ العقل أمام معجزته إلى تصديقه، وليس ذلك سوى الرسول المؤيد من عند الله العليم بكل شيء، الخبير بما خلق)[2].

---

(١) اكتنَّ الشيء : استتر ، ويقال : اكتننت المرأة : غطت وجهها وسترته حياءً من الناس ، انظر المعجم الوسيط ، ٢/٨٠١ .

(٢) انظر البدعة أسبابها ومضارها لشلتوت ، ٢٨ .

فمن الضلال المبين أن نوجه عقولنا لأمور قد كفانا الله شأنها، وندع المنهج الصحيح الذي أمرنا الله به من التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ على فهم السلف الصالح، فإنَّ المسلمين لو تمسكوا بالمنهج الصحيح، وأعرضوا عن كل ما يُخالفه، لما وقعوا في تحكيم العقل في مجالات لم يخلق لها، ولما وقعوا في التخبط والحيرة، كما ذكر ذلك بعض أهل الكلام [١].

وإذا صح الخبر عن الله أو عن رسوله ﷺ فليس للعقل مجال للأخذ أو الرد، بل يجب الإذعان والتسليم، حتى وإن لم تدرك العقول كنه تلك الأمور، لأن العقول أعجز من أن تحيط بكل شيء، فرحم الله امرءاً عرف قدر نفسه [٢].

قال تعالى: ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ [٣].

وقال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ [٤]. فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحدٍ مخالفته ، ولا اختيار لأحدٍ ههنا ولا رأي ولا قول [٥].

لذا فإنَّ الواجب على المسلم أن يُذعن ويسلم لما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن يجعل عقله تابعاً لهما، لا مُعارضاً لهما، أو مقدّما عليهما، حتى لا يزيغ عن الحق، ولا يحيد عن الصراط المستقيم .

---

(١) ومنهم الجويني والغزالي والرازي وغيرهم ، انظر الصفات الإلهية ، للشيخ محمد أمان – رحمه الله ، ١٥٧-١٧١ .

(٢) تنبيه أولي الأبصار ، ١٤١ .

(٣) سورة النور ، الآية(٥١) .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية (٣٦) .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ، ٣/٥١١ .

المبحث السادس: التفرق والتحزب

لقد أصاب الأمة الإسلامية ماأصاب الأمم قبلها من التحزب والاختلاف، فأضحت الأمة شيعاً وأحزاباً، يُخَطِّئ بعضُها بعضاً، ﴿كل حزبٍ بما لديهم فرحون﴾ ، وماذاك إلا لبعدها عن المنهج الصحيح، وهو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والاعتصام بهما، والعمل بهما، ورد التنازع إليهما، فإنَّ السبيل الوحيد لجمع الشمل، وتوحيد الكلمة، هو الرجوع التام للمنهج الصحيح :كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، على فهم السلف الصالح، ففيه العصمة من التفرق والاختلاف، وفيه النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ [1].

قال الإمام ابن القيم ــ رحمه الله ــ مبيناً معنى الاعتصام بكتاب الله «وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهم، وأذواقهم، وكشوفاتهم، ومواجيدهم، فمن لم يكن كذلك فهو مُنسَّلٌ من هذا الاعتصام، فالدين كله في الاعتصام به وبحبله، علماً وعملاً، وإخلاصاً، واستعانة، ومتابعة، واستمراراً على ذلك إلى يوم القيامة » [2].

قال قتادة ــ رحمه الله ــ عند قوله تعالى ﴿ولا تفرَّقوا﴾: «إن الله ﷻ قد كره لكم الفرقة وقدّم إليكم فيها، وحذركموها، ونهاكم عنها، ورضي لكم السمع والطاعة، والألفة والجماعة، فارضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله » [3].

---

(١) سورة آل عمرآن، من الآية (١٠٣) .

(٢) مدارج السالكين ، ٣/٣٢٣ .

(٣) انظر تفسير الطبري ، ٤/٣٢ .

وقال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله: «وقوله ﴿ولا تفرقوا﴾ أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة.. وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف.. إلى أن قال: وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضاً، وخيف عليهم الافتراق والاختلاف، فقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومُسَلَّمَة من عذاب الله، وهم الذين على ماكان عليه النبي ﷺ وأصحابه »[1].

وقال تعالى في النهي عن التفرق والاختلاف ﴿إنَّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾[2].

يقول الشيخ عبدالرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: «يتوعد الله تعالى الذين فرقوا دينهم ، أي شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية ، أو لايكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً، ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كماهو حال أهل الفرقة،من أهل البدع والضلال، والمفرقين للأمة، ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أصل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية ».[3]

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصاري على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة

---

(١) تفسير ابن كثير ، ٤٠٥/١ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية (١٥٩) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن ، ٩١/٢ .

على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل من هي يارسول الله ؟ قال: «من كان على مثل ماأنا عليه اليوم وأصحابي »[1].

قال الإمام ابن كثير ـــ رحمه الله ـــ : «فأهل الأديان ـــ قبلنا ـــ اختلفوا فيما بينهم على آراء ومُثُل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحلٍ كلها ضلالة إلا واحدة، وهم أهـــل السنة والجماعة، المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله وبما كان عليه الصدر من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه »[2].

وقال ابن أبي العز الحنفي في تعليقه على الحديث السابق: «فبين أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة »[3].

وزادت الفرقة بالمسلمين – مع مرور الزمن – وكثر الاختلاف، واتسع الشقاق، وماجت الفتن بأصحاب الأهواء موج البحر ، وصارت قلوبهم متنافرة، مظلمة سوداء مرباده لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً إلا ماأُشربت من الأهواء[4].

---

(١) أخرجه أبو دواد ، ٤/٥ ، أول كتاب السنة ، رقم ٤٥٩٦ ، والترمذي ، ٢٥/٥ ، كتاب الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ، رقم ٢٦٤٠ ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه ، ١٣٢١/٢ ، كتاب الفتن ، باب افتراق الأمم ، رقم ٣٩٩١ ، وأحمد ، ٣٣٢/٢ ، والحاكم في المستدرك ١٢٨/١ ، وقال صحيح على شرط مسلم ، وانظر السلسلة الصحيحة ، للشيخ الألباني ، ٤٨٠/٣رقم ١٤٩٢ .عن أبي هريرةرضي الله عنه .

(٢) تفسير ابن كثير ، ٤٥٢/٣ .

(٣) شرح الطحاوية ، ٤٣٢

(٤) انظر حديث حذيفة في صحيح مسلم ١٢٨/١ ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً ....، رقم ١٤٤ .

وصار الاختلاف في أصل الدين، في إفراد الله في العبادة، وفي العبادة ذاتها، كما اختلف الذين من قبل اتباعاً للسنن كما أخبر النبي ﷺ بقوله: (لتتبعنَّ سَنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لسلكتموه) قالوا: يارسول الله من اليهود والنصارى؟ قال: (فمن إذن)[1] .

ولكن بفضل الله ورحمته لا تزال طائفة أهل السنة والجماعة:(الفرقةُ الناجيةُ) باقيةً إلى قيام الساعة كما روى البخاري من حديث معاوية ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (لايزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك)[2].

ومن هؤلاء الذين أقام الله بهم السنة في الإخلاص والمتابعة في هذه الجزيرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب مجدد ماإندرس من معالم الإسلام في القرن الثاني عشر، فلقد تجرّد للدعوة إلى الله على بصيرة، وجاهد في رد الناس إلى ماكان عليه أهل السنة والجماعة من إفراد الله بالعبادة وترك التعلق بغير الله ، والاعتقاد فيما دونه، متبعاً في ذلك سنة رسول الله ﷺ، وقيض الله من آل سعود أنصاراً لدين الله ورسوله عرفوا صدق موافقته للحق فنفّذوا نصرته بالسلطان والعزيمة، وعقدوا الاتفاق بين نص الوحي وحد السيف إذا لم ينفع

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ، ٤٩٥/٦ ، كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكره عن بني إسرائيل ، رقم ٣٤٥٦ ، وصحيح مسلم ، ١٢٩١/٣ ، كتاب القسامة ، باب القسامة ، رقم ١٦٦٩ ، وأحمد في المسند ، ٨٤،٨٩،٩٤/٣ ، وابن أبي عاصم في السنة ، ٣٦/١-٣٧ ، عن أبي سعيد ﷺ .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ، كتاب المناقب ، ٦٣٢/٦ ، رقم ٣٦٤١ ، واللفظ له ، وصحيح مسلم ، ١٥٢٤/٣ ، كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ .(لا تزال طائفة من أمتي على الحق ...)، رقم ١٠٣٧ .

اللين واستمر الظالم في ظلمه ولم يبال بالواعظ من الكتاب والسنة فأخذوا على يديه وأجروا عليه مايستحقه شرعاً من جهاد وقتال ، وإقامة حدّ أو تعزير حتى ينـــزجِرَ عن باطله، وهذا هو سنة المصطفى ﷺ وسيرته.

ونحن في هذه البلاد ــ ولله الحمد والمنة ــ ننعم بالإسلام، وبجماعة المسلمين، تحت ولاية إسلامية تحكّم فينا شرع الله ، وسنة رسوله ﷺ، فلا يجوز لأحد من المسلمين في هذه البلاد السعودية المسلمة أن يوجد حزباً إسلامياً أو ينتمي إليه... لأن ذلك شق لعصا الطاعة، وتفريق للجماعة وهو بمثابة خرق في سفينة نجاتهم يسبب غرقها أو يهددها بالخطر والغـــــرق [1].

(١) انظر مقدمة الدكتور صالح العبود على حقيقة الدعوة إلى الله تعالى وما اختصت به جزيرة العرب ، للشيخ سعد الحصين ، ٨-١٦ ، باختصار وتصرف . وانظر نص فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بعدم شرعية وجود هذه الجماعات ما لم يستند وجودها إلى قرار من ولي الأمر ، رقم ١٦٧٤ .

الفصل الرابع : أثر المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى

للمنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى آثار طيبة ، ونتائج حميدة :على الداعي إلى الله تعالى وعلى المدعوين، وأهم هذه الآثار مايلي:

أولاً: إن في الدعوة إلى الله تعالىعلى هدي النبي ﷺ، امتثالاً لأمر الله تعالى الذي أمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتي هى أحسن ، كما في قوله ﷻ: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن ﴾[١].

وقوله سبحانه: ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت﴾[٢]والأمر للرسول ﷺ، أمر لأمته ، مالم يدل دليل على اختصاصه به. فكما أن الرسول ﷺ مأمور بالدعوة إلى الله تعالى فأمته مأمـورة بذلك. بل قد أمرها الله تعالى بذلك في قوله : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾[٣].

ثانياً: إن تحقيق المنهج الصحيح في الدعوة إلى لله فيه الاقتداء بالنبي ﷺ، كما أمره ربه تبارك وتعالى بذلك في قوله سبحانه:﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾[٤] فأتباع الرسول ﷺ يدعون إلى الله على بصيرة كما دعا الرسول ﷺ على بصيرة، ومن لم يدع على منهج

(١) سورة النحل ، من الآية (١٢٥) .

(٢) سورة الشورى، من الآية (١٥).

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٠٤).

(٤) سورة يوسف، الآية (١٠٨).

الرسول ﷺ كان اتباعه ناقصاً[1].

قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾.[2]

قال ابن كثير – رحمه الله – : «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله»[3].

ثالثاً: إنَّ من آثار المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى العمل بالكتاب والسنة والاعتصام بهما، كما ينتج عنه تآلف المسلمين واجتماعهم وترابطهم وتماسك مجتمعهم، وعدم التفرق والتحزب، والاختلاف والتطرف.

قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾.[4]

وقال ﷻ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن

وقال سبحانه: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾[5] إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة.

رابعاً: وإن في الدعوة إلى الله تعالى على المنهج الصحيح تبليغ دين الله تعالى إلى الناس كما أراد الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ [6].

---

(١) انظر محاضرات في العقيدة والدعوة للدكتور صالح الفوزان (١/١٤١).

(٢) سورة آل عمران، من الآية (٣١).

(٣) تفسير ابن كثير (١/٣٧٢).

(٤) سورة آل عمران، من الآية (١٠٣).

(٥) سورة الأنعام، الآية (١٥٩).

(٦) سورة آل عمران، من الآية (١٨٧).

وعن عبدالله بن عمر ـــ رضي الله عنهما ـــ أن النبي ﷺ قال: (بلغوا عني ولو آية)[١].

خامساً: وإن من آثار اتباع المنهج الصحيح تصحيح عقائد الناس من الشرك والبدع والشعوذة ، وجميع ما يخالف العقيدة الإسلامية .

وكما يحصل الأمن والاستقرار والطمأنينة في الدنيا يكون الأمن من عذاب الله يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [٢].

سادساً: إن في الدعوة إلى الله تعالى على المنهج الصحيح تكون هداية من أراد الله هدايته من الناس، ويكون الأجر العظيم والثواب الجزيل ، فعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: (من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لايَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً) [٣].

وقول النبي ﷺ يوم خيبر -لعلي بن أبي طالب- ﷺ: (انفذ على رسلك حتى تنـــزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم) [٤].

---

(١) صحيح البخاري بشرح الفتح (٤٩٦/٦) كتاب أحاديث الأنبياء باب ماذكر عن بني إسرائيل رقم (٣٤٦١).

(٢) سورة الأنعام، الآية (٨٢).

(٣) صحيح مسلم (٢٠٦٠/٤) كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة رقم (٢٦٧٤).

(٤) صحيح البخاري بشرح الفتح (٤٧٦/٧) كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث رقم (٤٢١٠)، وصحيح مسلم (١٨٧٢/٤) كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب ﷺ رقم (٢٤٠٦).

فهذه الأدلة تبين لنا فضل الدعوة إلى الله تعالى، وذلك لما يترتب عليها من تبليغ شرع الله وحفظه، وحصول المصالح العظيمة للخلق في معاشهم ومعادهم، ودينهم ودنياهم، واندفاع الشرور عنهم إذا هم قبلوها وعملوا بها على الوجه المطلوب.

سابعاً: وإنَّ من آثار الدعوة القائمة على الكتاب والسنة والعمل بهما على فهم السلف الصالح -رضوان الله عليهم- حصول التمكين في الأرض، ورغد العيش، وحياة الأمن والاستقرار. وخير شاهد على ذلك ماقام به الشيخ محمد بن عبدالوهاب ــ رحمه الله ــ من الدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك والبدع وغيرها من المنكرات، التي كانت متفشية في الجزيرة العربية.

ومنذ أن قام الإمام محمد بن سعود ــ رحمه الله ــ مؤسس الدولة السعودية المباركة بتبني هذه الدعوة الطيبة، قامت دولة التوحيد، وكتب الله لها النصر والبقاء، واتفقت كلمة أهلها، وتوحدت صفوفهم، ونبذوا الفرقة والاختلاف، وعاشوا في أمن ورخاء، وزالت مظاهر الشرك في مدة وجيزة، وهي لم تكن لتزول لولا فضل الله وتوفيقه ثم انطلاق هذه الدعوة من روح العقيدة الإسلامية الخالصة.

قال تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (١)

---

(١) سورة النور، الآية (٥٥).

الخاتمة

بعد حمد الله تعالى على عونه وتوفيقه لي بانجاز هذا البحث أحبُّ أن أثبت أهم النتائج التالية:

١-إن اتباع منهج أهل السنة والجماعة، الذين جاءت الأدلة بفضلهم والثناء عليهم، هو طريق الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة. وهو المنهج الحق الذي يجب اتباعه.

٢-إن أهل السنة والجماعة يسيرون على أصول ثابتة وواضحة ، في الاعتقاد والقول والعمل والسلوك، وهذه الأصول مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وما كان عليه سلف هذه الأمةمن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين .

٣-إن التوحيد وعبادة الله تعالى وحده دون سواه هو الأمر الذي بعث الله من أجله الرسل وأنزل من أجله الكتب، وخلق من أجله الإنس والجن، وهو أول مادعت الرسل أممهم إليه، وبقية الأحكام إنما هي تابعة له. وأنه لم يدع أحد من الأنبياء إلى السياسة أو يبدأ بالزهد والورع أو بالأخلاق. وأن النبي محمد ﷺ قد استمر طيلة ثلاث عشرة سنة في مكة في سبيل تحقيق هذا المبدأ العظيم.. لذا فإن هذا المنهج هو الذي يجب على الدعاة أن يسلكوه، ولا يحيدوا عنه.

٤-إن من أهم الدعائم والمقومات التي يقوم عليها المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى: العلم النافع، والإخلاص لله وحده، والمتابعة للنبي ﷺ، وترتيب الأولويات، والحكمة، والرفق والحلم، والصبر والاحتساب، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، والصدق في القول والعمل، والعدل، والتواضع، والجود والكرم،والتأني والتثبت وعدم الطيش والعجلة .

٥- بيان أن البشرية كانت على التوحيد ، وكانت على الحق ، وأن الانحراف عن الحق وعن الطريق المستقيم ، إنما كان بسبب الغلو في الدين ، والابتداع فيه ، والجهل ، واتباع الهوى ، وتقديم العقل على النقل ، والتفرق والتحزب والاختلاف .

٦-بيان أن في الدعوة إلى الله تعالى على المنهج الصحيح القائم على الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح فيه امتثال لأمر الله تعالى الذي أمر بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.. وفيه اقتداء بالرسول ﷺ على علم وبصيرة .

٧-إن من آثار المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى العمل بالكتاب والسنة والاعتصام بهما، كما ينتج عن ذلك التآلف والترابط، وعدم التفرق والتحزب والتنابذ.

٨-إن الدعوة إلى الله على المنهج الصحيح فيه تصحيح لعقائد الناس من الشرك والبدع والشعوذة، وجميع مايخالف العقيدة الصحيحة، ويكون فيه الأمن والاستقرار والطمأنينة في الدنيا، كما يحصل الأمن من عذاب الله في الآخرة لمن أطاعه واتبع هديه.

٩-إن في الدعوة إلى الله تعالى على المنهج الصحيح ما يحصل به تبليغ دين الله تعالى إلى الناس كما أراد الله، وتكون هداية من أراد الله هدايته، ويكون الأجر العظيم والثواب الجزيل.

١٠-إننا في هذه البلاد السعودية ننعم -ولله الحمد والمنة- بالإسلام والدعوة إليه والعمل به على هدي الكتاب والسنة ، ومنهج السلف الصالح، وننعم بجماعة المسلمين، تحت ولاية إسلامية راشدة تحكم فينا شرع الله وسنة رسوله ﷺ . فلا يجوز لأحدٍ من المسلمين في هذه البلاد أو من خارجها أن يوجد حزباً، أو ينشئ جماعة، فيشق بذلك الطاعة، ويخالف الجماعة.

فهذه أهم المعالم الرئيسة في هذا البحث، وإني في الختام لأستغفر الله من كل ذنب زلت به القدم، أو زلل طغى به القلم.

وأسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به من يطلع عليه من المسلمين، إنه جواد كريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قائمة بأهم المصادر والمراجع

١ – القرآن الكريم .

٢ – الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة : لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي (ت٣٨٧هـ) ، دار الراية للنشر والتوزيع ، ط١، ١٤٠٩هـ .

٣ – الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة من إجابات فضيلة الدكتور صالح بن فوزان الفوزان : ط٢ ، ١٤١٨هـ ، دار السلف ، الرياض.

٤ – الاستقامة لابن تيمية : أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ، (ت٧٢٨هـ) ، ط٢، ١٤٠٩هـ ، مكتبة السنة ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم .

٥ – الأصول الثلاثة وأدلتها : للشيخ محمد بن سليمان التميمي ، مكتبة الخضيري ، ١٤١٦هـ ، المدينة المنورة .

٦– أضواء على طريق الدعوة إلى الإسلام : للدكتور محمد أمان بن علي الجامي ، طبع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، ١٤٠٤هـ .

٧– الاعتصام : للعلامة أبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ، (ت٧٩٠هـ) ، دار المعرفة، بيروت.

٨– البدع أسبابها ومضارها : للشيخ محمود شلتوت (ت١٣٨٣هـ) تحقيق علي حسن عبد الحميد ، مكتبة ابن الجوزي .

٩ – البدع والنهي عنها : لمحمد بن وضاح القرطبي ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دار البصائر ، دمشق.

١٠– تذكرة أولي الغير بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : للشيخ عبد الله بن صالح القصير ، ط١ ، ١٤١١هـ، دار العاصمة ، الرياض.

١١ – تفسير القرآن العظيم : للحافظ ابن كثير (ت٧٧٤هـ) مطبعة الفجالة ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٨٤هـ ، نشر مكتبة النهضة الحديثة .

١٢ – تنبيه أولي الأبصار إلى كمال الدين وما في البدع من الأخطار : للدكتور صالح بن سعد السحيمي ، ط ١، ١٤١٠هـ ، دار بن حزم للنشر والتوزيع ، الرياض .

١٣ – تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد : للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، (ت١٢٣٣هـ) ، الطبعة ٣، ١٤١٠ هـ ، نشر مكتبة العلوم والحكم .

١٤ – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، (ت١٣٧٦هـ) مطبعة المدني ، ١٤٠٨هـ ، القاهرة .

١٥ – جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ : للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ) نشر مكتبة الحلواني ، دار البيان ، توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالسعودية .

١٦ – جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط٣ ، ١٣٨٨هـ .

١٧ – الجامع الصحيح للترمذي : للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت٢٧٩هـ) دار إحياء التراث العربي .

١٨ – جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم : للإمام الحافظ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي الدمشقي الشهير بابن رجب (ت٧٩٥هـ) ط٥، ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

١٩ – حقيقة الدعوة إلى الله تعالى وما اختصت به جزيرة العرب : بقلم سعد بن عبد الرحمن الحصين ، ط١ ، ١٤١١هـ ، الفرقان ، الرياض.

٢٠ – حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلامية : للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد ، ط الأولى ، ١٤١٠ هـ .

٢١ – الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى :.لسعيد بن علي القحطاني ، ط ١ ، ١٤١٢هـ .

٢٢ – درء تعارض العقل والنقل : لأبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت٧٢٨هـ) تحقيق د. رشاد سالم ، ط١، ١٤٠٠هـ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

٢٣ – الرد على من أنكر الحرف والصوت : لأبي نصر عبيد الله بن سعيد الوائلي السجزي ، تحقيق ودراسة د. محمد با كريم، طبع المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط١، ١٤١٣هـ.

٢٤ – سلسلة الأحاديث الصحيحة : للشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي .

٢٥ – سنن ابن ماجه : للحافظ أبي عبد الله القزويني ،(ت٢٧٥هـ) ، دار الفكر ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

٢٦ – السنن الكبرى :للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت٤٥٨هـ) دار الفكر .

٢٧ – سنن أبي دواد : للإمام الحافظ أبي دواد سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت٢٧٥هـ) دار الحديث للطباعة ، بيروت ، ط١، ١٣٨٨هـ .

٢٨ – سنن الدارمي : للإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (ت٢٥٥هـ) دار الكتب العلمية ، بيروت .

٢٩ – سنن النسائي : للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت٣٠٣هـ) المكتبة العلمية، بيروت .

٣٠ – السيرة النبوية : لأبي محمد عبد الملك بن هشام (٢١٨هـ) دار الكنوز الأدبية ، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري ، وعبد الحفيظ شلبي .

٣١ – شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم : للإمام الحافظ أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي (ت٤١٨هـ) تحقيق د.حمد سعد حمدان ، دار طيبة ، الرياض .

٣٢ – شرح العقيدة الطحاوية : للإمام علي بن محمد بن أبي العز الحنفي (ت٣٢١هـ) المكتـــب الإسلامي، ط٤، ١٣٩١هـ .

٣٣ – شرح النووي على صحيح مسلم : للإمام الحافظ محيي الدين أبي زكريا يحى بن شرف الشافعي النووي ، (ت٦٧٦هـ) دار الفكر ، بيروت .

٣٤ – الصحوة الإسلامية ضوابط وتوجيهات : للشيخ محمد بن صالح العثيمين ، ط١ ، ١٤١٤هـ ، دار المجد ، الرياض.

٣٥ – صحيح البخاري مع فتح الباري : للإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري (ت٢٥٦هـ) طبع المكتبة السلفية .

٣٦ – صحيح مسلم : للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ) دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

٣٧ – الطبقات الكبرى : لابن سعد محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري المكنى بأبي عبد الله (ت٢٣٠هـ) دار صادر ، بيروت .

٣٨ – عقيدة أهل السنة والجماعة : لفضيلة الشيخ محمد الصالح العثيمين ، من مطبوعات الجتمعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ١٤٠٧هـ .

٣٩ – العقيدة الصحيحة ونواقض الإسلام : لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، دار العصيمي ، الرياض .

٤٠ – فتح الباري شرح صحيح البخاري : للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) طبع المكتبة السلفية .

٤١ – القاموس المحيط : لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ) مؤسسة الحلبي وشركاه ، القاهرة.

٤٢ – لسان العرب : لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (٧١١هـ) دار صادر ، بيروت .

٤٣ – مجمل اعتقاد أئمة السلف: للدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط٢ ، ١٤١٧هـ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٤٤ – مجموع الفتاوى : لشيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ، وابنه محمد، الطبعة السعودية، ١٣٩٨هـ .

٤٥ – محاضرات في العقيدة والدعوة : للشيخ صالح بن فوزان الفوزان ، دار العاصمة ، النشرة الأولى ، ١٤١٥هـ .

٤٦ – مختصر منهاج القاصدين : للإمام أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، (ت٧٤٢هـ) تقديم د.وهبة الزحيلي، ط١، ١٤١٤هـ ، دار الخير ، بيروت ، توزيع مكتبة الوراق ، الرياض .

٤٧ – مدارج السالكين : للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر القيم الجوزية (٧٥١هـ) دار صادر الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤٠٣هـ .

٤٨ – المستدرك على الصحيحين :
للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري (ت٤٠٥هـ) دار الكتاب العربي ، بيروت .

٤٩ – المسند : للإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت٢٤١هـ) دار صادر ، بيروت .

٥٠ – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير : للعلامة أحمد بن محمد بن علي المقرىء الفيومي (ت٧٧٠هـ) مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، تصحيح مصطفى السقا .

٥١ – المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي : ترتيب وتنظيم أ . ى ونسناه ، مطبعة بريل ، ليدن .

٥٢ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة .

٥٣ – معجم مقاييس اللغة : لأبي الحسن أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) على القول الراجح ، دار الكتب العلمية ، إيران .

٥٤ – المعجم الوسيط : للدكتور إبراهيم أنيس وآخرين .

٥٥ – المفردات في غريب القرآن :لأبي القاسم الحسين بن الفضل الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) دار المعرفة ، بيروت.

٥٦ – مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة : سعيد بن علي القحطاني ، ط١ ، ١٤١٥هـ ، مطبعة سفير ، الرياض .

٥٧ – منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل : للدكتور ربيع بن هادي المدخلي ، الدار السلفية ، ط١، ١٤٠٦هـ ، الكويت.

٥٨ – منهج السلف في العقيدة وأثره في وحدة المسلمين : د. صالح بن سعد السحيمي .

٥٩ – الموطأ : للإمام مالك بن أنس ، (ت١٧٩هـ) دار إحياء الكتب العربية .

٦٠ – النهاية في غريب الحديث والأثر : للإمام مجد الدين أبي السعادات المعروف بابن الأثير (ت٦٠٦هـ) المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ .

فهرس الموضوعات

المقدّمـــة ١٢٧

خطة البحث ١٣١

الفصل الأول : أهمية العقيدة الصحيحة ووجوب التمسك بها :........... ١٣٣

المبحث الأول : وجوب التمسك بالعقيدة الصحيحة ١٣٣

المبحث الثاني : أهمية التوحيد وفضله ١٣٨

المبحث الثالث : البدء بالدعوة إلى التوحيد أولاً ١٤٢

الفصل الثاني: الدعائم التي يقوم عليها المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله . ١٤٩

أولاً: العلـــم : ١٤٩

ثانياً: الإخلاص : ١٥٣

ثالثاً: المتابعة :.. ١٥٦

رابعاً : الحكمـــــــة : ١٦٠

خامسا: الرفق والحلم :.. ١٦٢

سادساً: الصـــــبر:.. ١٦٥

سابعاً: التحلي بالأخلاق الفاضلة : ١٦٨

الفصل الثالث: أسباب انحراف الأمة عن المنهج الصحيح ١٧١

المبحث الأول:الغلو في الدين... ١٧١

المبحث الثاني: الجهل ١٧٥

المبحث الثالث: الابتداع في الدين ١٧٧

المبحث الرابـــع: اتباع الهـــوى ١٨٠

المبحث الخامس: تقديم العقل على النقل....................................... ١٨٢

المبحث السادس: التفرق والتحزب.......................... ١٨٤
الفصل الرابع : أثر المنهج الصحيح في الدعوة إلى الله تعالى.............. ١٨٩
الخاتمة ١٩٣
قائمة بأهم المصادر والمراجع.................................. ١٩٦
فهرس الموضوعات.. ٢٠٣

طَالِبُ الْعِلْمِ بَيْنَ أَمَانَةِ التَّحَمُّلِ وَمَسْؤُولِيَّةِ الأَدَاءِ

إِعْـــدَادُ :

أ.د. مُحَمَّدِ بْنِ خَلِيفَةَ التَّمِيْمِيِّ

الأُسْتَاذِ فِي كُلِّيَّةِ الدَّعْوَةِ وَأُصُولِ الدِّين فِي الجَامِعَةِ



المقدّمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾. [آل عمران ١٠٢].

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ [النساء ١].

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ [الأحزاب ٧٠-٧١].

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [العصر ١-٣] ويقول تعالى: ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ [الذاريات ٥٥] وإن من أعظم ما ينبغي التواصي به والتذكير فيه، فيما بين طلبة العلم هو تلك المسؤولية التي تحملناها على كواهلنا ونصبنا أنفسنا لها ألا وهي مسؤولية العلم الشرعي الذي شرفنا الله بحمله وسيسألنا عن أدائه.

ومن هنا أحببت أن أذكر نفسي وإخواني بعظم مسؤوليتنا وواجبنا تجاه هذا العلم الذي ننتسب إليه، من خلال هذا البحث الذي يحتوي على الإشارة

إلى بعض المضامين التي احتواها قوله تعالى: ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [التوبة ١٢٢] فقوله تعالى: ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ إرشاد إلى أمانة التحمل؛ فمن واجب طالب العلم أن يتفقه في دين الله قبل أن يتصدر لتعليمه وإبلاغه لسائر الناس، وأما قوله: ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ ففيه إشارة إلى مسؤولية الأداء التي يتحملها طالب العلم بعد تزوده بالعلم النافع المفيد.

قال ابن القيم: « ندب – تعالى – المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم »[١].

ولا شك أن طالب العلم الذي من لم تكن هذه الآية نصب عينيه، فإنه يخشى عليه الهلاك، ولبيان عظم هذا التوجيه الكريم من الله ــ تعالى ــ وما فيه من المعاني والفوائد، كتبت هذا البحث اللطيف وجعلت عنوانه « طالب العلم بين أمانة التحمل ومسؤولية الأداء » فأقول وبالله التوفيق ومنه أستمد العون والتسديد، ملخصاً كلامي في ثلاثة مباحث رئيسة وخاتمة:

المبحث الأول: شرف العلم وفضل أهله، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الأدلة من القرآن الكريم.

المطلب الثاني: الأدلة من السنة.

المطلب الثالث: أقوال بعض العلماء.

المبحث الثاني: السبيل إلى تحمل العلم الشرعي، وفيه أربعة مطالب

المطلب الأول: حاجة طالب العلم إلى الذكاء والزكاء.

المطلب الثاني: مراتب نيل العلم.

المطلب الثالث: آداب طالب العلم.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٥٦.

المطلب الرابع: موانع حمل العلم.

المبحث الثالث: مسؤولية أداء العلم وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مسؤولية أدائه عملاً.

المطلب الثاني: مسؤولية أدائه تعليماً.

الخاتمة .

وقد حرصت عند جمع مادة هذا البحث على الاستشهاد بكلام الله – تعالى – وسنة رسوله ﷺ والآثار الواردة عن السلف الصالح، مع الإيجاز وعدم الإطالة.

فأرجو من الله أن يتحقق النفع بما جمعت، وأن يحصل به الخير والفائدة.

والله الموفق



المبحث الأوّل

شرف العلم وفضل أهله

المطلب الأوّل: الأدلّة من القرآن الكريم

إن على طالب العلم أن يتذكر نعمة الله عليه بأن هداه للإسلام أولاً، وجعله من حملته والدعاة إليه ثانياً، فتلك نعمة منَّ الله بها على نبيه محمد ﷺ من قبلنا فقد قال تعالى: ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ [النساء ١١٣] نعم والله إن فضل الله علينا عظيم.

ولو تأملت قوله تعالى: ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [الزمر ٩] وتأملت نفسك قبل أن تطلب العلم وبعد أن منَّ الله عليك بطلب العلم هل الحال مستو، فالجواب «لا» ولو تأملت نفسك وأقرانك الذين في سنك ممن لم يطلبوا العلم هل تستوون فالجواب « لا » ولو تأملت نفسك وعوام الناس لوجدت الفارق العظيم، فهذه واحدة.

وأما الثانية ففي قوله تعالى: ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [الحجرات ١١] إن هذه الرفعة التي وعد الله بها أهل الإيمان والعلم، منها ما هو في الحياة الدنيا ومنها ما هو في الآخرة، فطالب العلم له بين الناس منزلةٌ ومكانة واحترام وتقدير ولا يتسع الوقت لضرب الأمثلة على تلك الرفعة وهو أمرٌ ملموسٌ مشاهد.

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى : « إن العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة ما لا يرفعه المُلْك ولا المال ولا غيرهما، فالعلم يزيد الشريف شرفاً

ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك كما ثبت في الصحيح من حديث الزهري عن أبي الطفيل أن نافع بن عبدالحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على أهل مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي قال: استخلفت عليهم ابن أبزى، فقال من ابن أبزى؟ فقال رجل: من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى. فقال: إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض، فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين »[1]. وقال أبو العالية: « كنت آتي ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش فيأخذ بيدي فيجلسني معه على السرير فتغامز بي قريش، ففطن لهم ابن عباس، فقال: كذا هذا العلم يزيد الشريف شرفاً ويجلس المملوك على الأسرة »[2].

وأما الثالثة فإن أهل العلم وطلبته هم أهل الخشية كما شهد الله بذلك في قوله: ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾ [فاطر ٢٨].

وأما الرابعة ففي قوله تعالى: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران ١٨].

قال ابن القيم: « استشهد ــ سبحانه ــ بأولي العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده، فقال: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾ وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين ٢٦٩.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/١٦٤.

والثاني: اقتران شهادهم بشهادته.

والثالث: اقترانها بشهادة الملائكة.

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول.

والخامس: أنه وصفهم بكونهم أولي العلم وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم.

والسادس: أنه – سبحانه – استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ثم بخيار خلقه وهم الملائكة والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً»[1].

وأما الخامسة: ففي قوله تعالى: ﴿ وقل ربي زدني علماً ﴾.

قال ابن القيم: « وكفى بهذا شرفاً للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه »[2].

(١) مفتاح دار السعادة ١/٤٨-٤٩.

(٢) نفس المصدر ١/٥٠.

المطلب الثّاني: الأدلّة من السّنّة

١– أهل العلم هم ورثة الأنبياء كما قال ﷺ: « العلماء ورثة الأنبياء »[١] فالله ــ سبحانه ــ جعل العلماء وكلاءَ وأمناءَ على دينه ووحيه وارتضاهم لحفظه والقيام به والذبِّ عنه، وناهيك بها مترلة شريفة ومنقبة عظيمة.

قال ابن القيم: « قوله « إن العلماء ورثة الأنبياء » هذا من أعظم المناقب لأهل العلم فإن الأنبياء خير خلق الله، فورثتهم خير الخلق بعدهم، ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم، وفي هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث، وهذا كما أنه ثابت في ميراث الدينار والدرهم فكذلك هو في ميراث النبوة والله يختص برحمته من يشاء »[٢].

٢– ثم إن طلب العلم مصدر الخير والسعادة في الدنيا والآخرة قال ﷺ: « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »[٣] وقال ﷺ: « من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم لرضى الله عنه، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا

---

(١) سيأتي تخريجه في ص ١٢.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٦٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (رقم ٧١)، ومسلم في صحيحه (رقم ١٠٣٧).

درهماً وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافٍ »[١].

قال بدر الدين بن جماعة: « اعلم أنه لا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها، وإنه لينافس في دعاء الرجل الصالح أو من يظن صلاحه فكيف بدعاء الملائكة، وقد اختلف في معنى وضع أجنحتها، فقيل: التواضع له، وقيل: النزول عنده والحضور معه، وقيل: التوقير والتعظيم له »[٢].

٣- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها »[٣].

قال ابن القيم: « فأخبر ﷺ أنه لا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً يعني: حسد غبطة، ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا في واحدة من هاتين الخصلتين، وهي الإحسان إلى الناس بعلمه أو ماله، وما عدا هذين فلا ينبغي غبطته ولا تمني مثل حاله لقلة منفعة الناس به »[٤].

٤- وقال ﷺ: « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » قالوا يارسول الله: وما

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٦٤١ و ٣٦٤٢)، وابن ماجه (رقم ٢٢٣)، والدارمي (٩٨/١)، وابن عبدالبر (ص ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤١)، وأحمد في المسند (١٩٦٥) والحديث حسن بشواهده. انظر: الفتح (١٦٠/١).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص ٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٥٠٢/١٣ (مع الفتح) برقم ٧٥٢٩. ومسلم في صحيحه برقم ٨١٥.

(٤) مفتاح دار السعادة ٦٢/١.

رياض الجنة؟ قال: « حلق الذكر »[1].

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتقع به أو ولد صالح يدعو له »[2].

قال ابن القيم رحمه الله: « وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته، وإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته ما دام ينتفع به، فكأنه حي لم ينقطع علمه، مع ما له من حياة الذكر والثناء، فجريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية »[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٥٠/٣، والترمذي في سننه كتاب الدعوات، باب ٨٣، ٥٣٢/٥ ح٣٥١٠. وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١٦٣١.

(٣) مفتاح دار السعادة ١٧٥/١.

المطلب الثّالث: أقول بعض العلماء

١- هذا الصحابي الجليل معاذ بن جبل - رضي الله عنه - يقول في فضل العلم:
تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يحسنه صدقة، وبذله لأهله قربة، به يُعرف الله ويُعبد، وبه يُوحد، وبه يُعرف الحلال من الحرام، وتوصل الأرحام، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة وسادة يقتدى بهم، أدلة في الخير تقتص آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خُلتهم وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها، والعلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة للأبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، التفكر فيه يُعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، وهو إمام للعمل والعمل تابعه يُلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء [1].

هذا الأثر معروف عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - الذي هو أعلم الناس بالحلال والحرام

٢- وعن علي - رضي الله عنه - قال: « الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رَعَاعٌ أتباع كُل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيؤوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق.

العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال.

---

(١) أثر معاذ أخرجه ابن نعيم في الحلية ١/٢٣٩.

وقال ابن القيم: « رواه الخطيب وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن جبل ورواه أبو نعيم في المعجم من حديث معاذ مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يثبت وحسبه أن يصل إلى معاذ » انتهى. انظر: مفتاح دار السعادة ١/١٢٠.

العلم يزكو على الإنفاق، والمال تنقصه النفقة.

العلم حاكم والمال محكوم عليه.

ومحبة العلم دين يدان بها.

العلم يكسب العالم طاعة في حياته، وجميل الأُحْدُوثَة بعد وفاته.

وصنيعة المال تزول بزواله، مات خُزَّانُ المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة »[١].

قال ابن القيم: « وقوله: (إن الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع) هذا تقسيم خاص للناس وهو الواقع، فإن العبد إما أن يكون قد حصَّل كماله من العلم والعمل أو لا. فالأول العالم الرباني،والثاني إما أن تكون نفسه متحركة في طلب ذلك الكمال ساعية في إدراكه أو لا والثاني هو المتعلم على سبيل النجاة، والثالث وهو الهمج الرعاع.

فالأول هو الواصل، والثاني هو الطالب، والثالث هو المحروم المُعْرِض فلا عالم ولا متعلم بل همج رعاع، والهمج من الناس حمقاؤهم وجهلتهم، وأصله من الهمج جمع همجة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها[٢]، فشبه همج الناس به والرعاع من الناس الحمقى الذين لا يعتد بهم. وقوله أتباع كل ناعق أي من صاح بهم ودعاهم تبعوه سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال، فإنهم لا علم لهم بالذي يُدْعَوْنَ إليه أحق هو أم باطل »[٣].

٣- وعن علي ــ رضي الله عنه ــ قال : « كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه

---

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية وغيره، وقال أبو بكر الخطيب: هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظاً. انظر: مفتاح دار السعادة ١/١٢٣.

(٢) انظر: لسان العرب مادة (همج) (٢/٣٩٢).

(٣) انظر: مفتاح دار السعادة (١/١٢٥-١٢٦).

من لا يحسنه، ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ منه من هو فيه »[١].

٤- وكان عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول إذا رأى الشباب يطلبون العلم : « مرحباً بينابيع الحكمة ومصابيح الظُّلَم جدد القلوب حلس البيوت ريحان كل قبيلة »[٢].

٥- وقال وهب بن منبه: « يتشعب من العلم الشرف وإن كان صاحبه دنياً، والعز وإن كان مهيناً، والقرب وإن كان قصياً، والغنى وإن كان فقيراً، والمهابة وإن كان وضيعاً »[٣].

٦- وقال سفيان بن عيينة: « أرفع الناس عند الله منـــزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء».

٧- وقال أيضاً: « لم يعط أحد في الدنيا شيئاً أفضل من النبوة، وما بعد النبوة شيء أفضل من العلم والفقه » فقيل: عمن هذا؟ قال: « عن الفقهاء كلهم »[٤].

٨- وعن سفيان الثوري والشافعي قالا: « ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم » [٥].

٩- وقال بدر الدين بن جماعة: « إن الاشتغال بالعلم لله أفضل من نوافل العبادات البدنية من صلاة وصيام وتسبيح ودعاء ونحو ذلك، لأن نفع العلم يعم صاحبه والناس، والنوافل البدنية مقصورة على صاحبها، ولأن العلم مصحح

---

(١) تذكرة السامع ص ١٠.

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/٢٣٢ رقم٢٥٧).

(٣) تذكرة السامع ص١٠.

(٤) نفس المصدر ص ١١.

(٥) جامع بيان العلم وفضله (١/١٢٣-١٢٤ رقم١٢٠،١١٩،١١٨).

لغيره من العبادات فهي تفتقر إليه وتتوقف عليه ولا يتوقف هو عليها، ولأن العلماء ورثة الأنبياء ــ عليهم الصلاة والتسليم ــ وليس ذلك للمتعبدين، ولأن طاعة العالم واجبة على غيره فيه، ولأن العلم يبقى أثره بعد موت صاحبه، وغيره من النوافل تنقطع بموت صاحبها، ولأن في بقاء العلم إحياء الشريعة وحفظ معالم الملة »[1].

١٠– وقال ابن القيم: « السعادة الحقيقية هي سعادة العلم النَّافِعِ ثَمَرَتُهُ، فإنها هي الباقية على تقلب الأحوال، والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره وفي دوره الثلاثة –أعني: دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار–، وبها يرتقي معارج الفضل ودرجات الكمال.

وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وعورة طريقها ومرارة مباديها وتعب تحصيلها، وأنها لا تنال إلا عن جد من التعب، فإنها لا تحصل إلا بالجد المحض »[2].

---

(١) تذكرة السامع ص ١٣.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/١٠٨.

المبحث الثّاني

السّبيل إلى تحمّل العلم

المطلب الأوّل: حاجة طالب العلم إلى الذّكاء والزّكاء

لو نظرت في أصناف طلبة العلم لوجدهم لا يخرجون عن أحد أصناف ثلاثة:

صنف أوتي ذكاء وفهماً، مع زكاء نفس وحسن سريرة، فحَمَلَهُ ذكاؤه على الجد في طلب العلم والسعي في تحصيله، وحَمَلَهُ زَكَاءُ نفسه وطُهْرُها على العمل بهذا العلم وتطبيقه.

وصنف ثاني: أوتي ذكاء ولم يؤت زكاء، فحمله ذكاؤه على حفظ العلم وتحصيله، ومنعه زكاؤه من العمل به وتطبيقه وهذا علمه حجّة عليه لا حجّة له يوم القيامة.

وصنف ثالث: حرم الأمرين معاً، فليس عنده ذكاءٌ يحصل به العلم وليس عنده زكاءٌ يطبق به العلم.

وهذه الأصناف الثلاثة ذكرها النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنّه قال: « إن مثل ما بعثني الله به ـ عز وجل ـ من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله منها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله به فعَلِمَ وعلّمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »[١].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (رقم ٧٩)، ومسلم في صحيحه (رقم ٢٢٨).

وفي هذا الحديث شبّه النبي ﷺ العلم الذي جاء به بالغيث لأن كُلاًّ من العلم والغيث سبب الحياة، فالغيث سبب حياة الأبدان والعلم سبب حياة القلوب، وشبه القلوب بالأودية وكما أن الأرضين ثلاثة بالنسبة إلى قبول الغيث:

إحداها: أرض زكية قابلة للشراب والنبات، فإذا أصابها الغيث ارتوت ومنه يثمر النبت من كل زوج بهيج.

فذلك مثل القلب الزكي الذكي، فهو يقبل العلم بذكائه فيثمر فيه وجوه الحكم ودين الحق بزكائه، فهو قابل للعلم مثمر لموجبه وفقهه وأسرار معادنه.

والثانية: أرض صلبة قابلة لثبوت ما فيها وحفظه، فهذه تنفع الناس لورودها والسقي منها والازدراع.

وهو مثل القلب الحافظ للعلم الذي يحفظه كما سمعه، فهو يحفظه للحفظ المجرد فهو يؤدي كما سمع وهو من القسم الذي قال فيه الرسول ﷺ : « فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه غير فقيه »[1].

والأرض الثالثة: أرض قاع وهو المستوي الذي لا يقبل النبات ولا يمسك ماء، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنتفع منه شيئاً، فهذا مثل القلب الذي لا يقبل العلم والفقه والدراية، وإنما هو بمنـــزلة الأرض البور التي لا تنبت ولا تحفظ.

فالصنف الأول من الناس: عالم معلم، وداع إلى الله على بصيرة، فهذا من ورثة الرسل وهذا الذي قال فيه النبي ﷺ « من فقه في دين الله ونفعه الله به فعلم وعلم ».

والصنف الثاني: من أوتي الذكاء وحرم الزكاء فهو بذكائه حفظ ونقله لغيره.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/٢٢٥. وابن ماجه في السنن ٢٣٦.

والصنف الثالث: لا هذا ولا هذا، فهو قد حُرِمَ الذكاء والزكاء، فهو لذلك لم يقبل هدى الله، ولم يرفع به رأساً.

فاستَوْعَبَ الحديثُ أصناف الناس في مواقفهم من العلم الشرعي؛ فيعلم من الحديث السابق أن طالب العلم لابد له من أمرين متلازمين لأجل تحصيل العلم وهما الذكاء والزكاء.

فلابد له من زكاء نفس وصلاح سريرة واستقامة دين من أجل أن يحمله ذلك على:

١ـ إخلاص القصد وإصلاح النية في طلب العلم.

٢ـ كبح جماح الشهوة والغفلة المانعتين من طلب العلم.

٣ـ دفع الشبهات التي تصد عن طلب الحق.

٤ـ القيام بحق هذا العلم تعلّماً وعملاً وتعليماً.

ولابد له من ذكاء يعينه على تحصيل العلم والجد في طلبه وعندما سأل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما دغفل بن حنظلة فقال: « يا دغفل من أين حفظت هذا؟ » قال: « حفظت هذا بقلب عقول ولسان سؤول »[١] .

فلابد من عقل يحسن معه صاحبه أخذ العلم بأحسن طريق وأيسره ليعينه ذلك على فهم النصوص ومعرفة المسائل حين استيعابها، ويؤكد حاجة العبد إلى الذكاء والزكاء أن الإنسان بطبعه له قوتان:

أولاً: قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة وهذه هي القوة العلمية النظرية التي أسميناها هنا الذكاء.

ثانياً: قوة الإرادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل وهذه هي القوة العملية التطبيقية.

(١) جامع بيان العلم وفضله ٣٧٨/١ برقم ٥٣١.

ولذلك كان مدار الإيمان على أصلين هما:

الأصل الأول: تصديق الخبر والذي يكون في القوة العلمية النظرية.

الأصل الثاني: طاعة الأمر والذي يكون في القوة الإرادية العملية.

ويتبعهما أمران آخران:

الأمر الأول: دفع شبهات الباطل التي تمنع من كمال التصديق.

الأمر الثاني: دفع شهوات الغي المانعة من كمال الامتثال.

لأن الشبهة تؤثر فساداً في القوة العلمية النظرية ما لم يداوها الإنسان بدفعها، ودفعها إنما يكون بالعلم الصحيح.

والشهوة تؤثر فساداً في القوة الإرادية العملية ما لم يداوها الإنسان بتزكية النفس.

ولذلك قال الله في حق نبيه ﷺ: ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ [النجم ٢].

فقوله: ﴿ ما ضل ﴾ دليل على كمال علمه ومعرفته وأنه على الحق المبين.

وقوله: ﴿ وما غوى ﴾ دليل على كمال رشده وأنه أبر العالمين.

وقد وصف ﷺ بذلك خلفاءه من بعده فقال: « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي »[1]، فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال.

ولذلك جاءت النصوص بالحث على العلم وطلبه وتحصيله، والحث على زكاء النفس وسلامة القلب ومما ورد في ضرورة زكاء القلب قوله تعالى: ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج ٤٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/١٢٦-١٢٧، وأبو داود في السنن برقم ٤٦٠٧، والترمذي في السنن برقم ٢٦٧٦، والدارمي في المسند ١/٤٤.

وقوله ﷺ : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد كله وإذا فسدت فسد سائر الجسد كله ألا وهي القلب »[١].

فعلى طالب العلم أن يحرص على سلامة قلبه فذلك الذي ينفعه عند الله قال تعالى ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ [الشعراء ٨٩] والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك، وسلم من البدع، وسلم من الغي، وسلم من الباطل، فهو القلب الذي سلم لعبودية ربه حياءً وخوفاً وطمعاً ورجاءً، فقدم حب الله على حب من سواه، وخوفه على خوف من سواه، ورجاءه على رجاء من سواه، وسلّم لأمره ولرسوله ﷺ تصديقاً وطاعة، واستسلم لقضاء الله وقدره، وبالتالي سلّم جميع أحواله وأقواله وأعماله ظاهراً وباطناً لله وحده[٢].

« فلا بد أن يطهر طالب العلم قلبه من كل غش ودنس وغل وحسد وسوء عقيدة وخلق، ليصلح بذلك لقبول العلم وحفظه والاطلاع على دقائق معانيه وحقائق غوامضه، فإن العلم -كما قال بعضهم-: صلاة السر وعبادة القلب وقربة الباطن، وكما لا تصح الصلاة التي هي عبادة الجوارح الظاهرة إلا بطهارة الظاهر من الحدث والخبث، فكذلك لا يصلح العلم الذي هو عبادة القلب إلا بطهارته عن خبث الصفات وحدث مساويء الأخلاق ورديئها.

وإذا طيب القلب للعلم ظهرت بركته ونما، كالأرض إذا طيبت للزرع نما زرعها وزكا.

وقال سهل التستري : حرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه رقم٥٢، ومسلم في صحيحه، مساقاة رقم ١٠٧.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/٤١-٤٢.

يكره الله عَزَّ وَجَلَّ »[1].

وقال الإمام الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

واعلمـــني أن العـــلم نـــور ... ونور الله لا يؤتى لعاصي [2]

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ٦٧.

(٢) ديوان الشافعي ص ٥٤، جمع محمد عفيف الزعبي.

المطلب الثّاني: مراتب نيل العلم

لنيل العلم مراتب ينبغي لطالب العلم مراعاتها حتى يحصل له عن طريقها نيل العلم بأقرب طريق وأيسر سبيل، وقد ذكر العلماء تلك المراتب وأوضحوها لطلاب العلم حتى يأخذوا بها.

قال ابن المبارك: « أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر »[١].

قال ابن القيم: « وللعلم ست مراتب:

أولها: حسن السؤال.

الثانية: حسن الإنصات والاستماع.

الثالثة: حسن الفهم.

الرابعة: الحفظ.

الخامسة: التعليم.

السادسة: وهي ثمرته وهي العمل به ومراعاة حدوده.

أما المرتبة الأولى: فهي حسن السؤال، فمن الناس من يحرم العلم لعدم حسن سؤاله، إما لأنه لا يسأل بحال، أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه كمن يسأل عن فضوله التي لا يضر جهله بها ويدع ما لا غنى له عن معرفته، وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين.

قالت عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ: « رحم الله نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن »[٢].

وسأل معاوية بن أبي سفيان ـــ رضي الله عنهما ـــ دغفل بن حنظلة فقال:

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/٤٧٦ رقم٧٥٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٣٣٢.

« يا دغفل من أين حفظت هذا؟ » قال: « حفظت هذا بقلب عقول ولسان سؤول »[1].

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما –: « ذللت طالباً فعززت مطلوباً »[2]، وقال: « وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار إن كنت لأَقِيْل عند باب أحدهم ولو شئت أذن لي ولكن أبتغي بذلك طيب نفسه »[3]، وقال أبو إسحاق: « قال علي كلمات لو رحلتم المطي فيهن لأفنيتموهن قبل أن تدركوا مثلهن: « لا يَرْجُوَنَّ عَبْدٌ إلا ربه، ولا يخافنَّ إلا ذنبه، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد: وإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان »[4]، ومن كلام بعض العلماء: « لا ينال العلم مستحٍ ولا متكبر، هذا يمنعه حياؤه من التعلم وهذا يمنعه كبره »[5]، وإنما حمدت هذه الأخلاق في طلب العلم لأنها طريق إلى تحصيله فكانت من كمال الرجل ومفضية إلى كماله. ومن كلام الحسن: « من استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سرباله، فاقطعوا سرابيل الجهل عنكم بدفع الحياء في العلم، فإنه من رق وجهه رق علمه »[6]، وقال الخليل: « منزلة الجهل بين الحياء والأنفة »[7] ومن كلام علي – رضي الله عنه – « قرنت الهيبة بالخيبة والحياء

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ٤٧٤/١ رقم٧٥٦.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه ١٤١/١، وأبو خيثمة في « العلم » ١٣٣.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ٣٨٣/١ رقم٥٤٧-٥٤٨.

(٥) مفتاح دار السعادة ١٦٨/١.

(٦) جامع بيان العلم وفضله ٣٨٣/١ رقم٥٥٠.

(٧) نفس المصدر ٣٨٤/١ رقم٥٥١.

بالحرمان »[١]، وقال إبراهيم للمنصور: « سل مسألة الحمقى واحفظ حفظ الأكياس »[٢]، وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص في الرجل وذلة تنافي المروءة إلا في العلم فإنه عين كماله ومروءته وعزه كما قال بعض أهل العلم: « خير خصال الرجل السؤال عن العلم »[٣]، وقال علي رضي الله عنه: « سلوني ... » فقام ابن الكواء فسأل عن أشياء فقال علي: « ويلك سل تفقها ولا تسل تعنتا ... »[٤].

وأنشد ابن الأعرابي

فسل الفقيه تكن فقيها مثله   من يسع في علم بذلٍ يَمْهَرُ[٥]

أما المرتبة الثانية : فهي حسن الإنصات، فمن الناس من يحرم العلم لسوء إنصاته، فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب إليه من الإنصات وهذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة للعلم وهي تمنعهم علما كثيراً ولو كان حَسَنَ الفهم. ذكر ابن عبدالبر عن بعض السلف أنه قال: « من كان حسن الفهم رديء الاستماع لم يقم خيره بشره »[٦].

وقال الزهري: « كان أبو سلمة يسأل ابن عباس فكان يعرض عنه وكان عبيد الله بن عبدالله بن عتبة يلاطفه فيغره غراً، وقال أبو سلمة: لو رفقت بابن عباس لاستخرجت منه علماً كثيراً »[٧]. وقال ابن جريج: « لم أستخرج العلم الذي

(١) نفس المصدر ١/٣٨٣ رقم٥٤٩.

(٢) نفس المصدر ١/٣٨٧ رقم٥٦٠.

(٣) مفتاح دار السعادة ١٦٨.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ١/٤٦٤ رقم ٧٢٦.

(٥) نفس المصدر ١/٣٨١، وانظر مفتاح دار السعادة ١/١٦٨-١٦٩.

(٦) جامع بيان العلم وفضله ١/٤٤٨ رقم٦٩٩.

(٧) الجامع للخطيب ١/٣١٧ رقم ٣٨٤-٣٨٥.

استخرجت من عطاء إلا برفقي به »[1]، وقال بعض السلف: « إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول »[2].

والمرتبة الثالثة: حسن الفهم، فقد قال الله تعالى: ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [ق ٣٧] فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى وكيف ينغلق باب العلم من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم وكمرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنـــزلة البصير إذا مرت به المرئيات، فإنه يراها.

ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين:

أحدهما: أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه فإن كان غائباً عنه مسافراً في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغى بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه.

وههنا ثلاثة أمور: أحدها سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق، الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر. فذكر ـــ الله تعالى ـــ الأمور الثلاثة في هذه الآية »[3].

والمرتبة الرابعة: هي الحفظ، قال الخليل بن أحمد: « ما سمعت شيئاً إلا

(١) جامع بيان العلم وفضله ٤٢٣/١ رقم٦٢٥.

(٢) نفس المصدر ٥٢١/١ رقم٨٤٥.

(٣) مفتاح دار السعادة (١٦٩/١-١٧٠).

كتبتهُ، ولا كتبته إلا حفظته، ولا حفظته إلا نفعني »[1].

وعن الشعبي أنه قال: « كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به »[2].

وأما المرتبة الخامسة: فهي العمل به، قال بعض السلف: «كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به ». وقال بعض السلف أيضاً: « العلم يهتف بالعمل فإن أجابه حل وإلا ارتحل »[3]. فالعمل به من أعظم أسباب حفظه، وثباته، وترك العمل به إضاعة له فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل. قال تعالى:﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ [الحديد ٢٨]»[4].

وأما المرتبة السادسة: وهي نشره وتعليمه.

وقد قيل: « ما صينَ العلم بمثل العمل به وبذله لأهله »[5].

وقال ابن القاسم: « كنا إذا ودَّعنا مالكاً يقول لنا: اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه »[6].

وعن أبي حاتم الرازي قال: « نَشْرُ العلم حياته، والبلاغ عن رسول الله ﷺ رحمة، يعتصم به كل مؤمن، ويكون حجة على كل مقر به وملحد »[7].

« وحرمان العلم من هذه الوجوه الستة:

أحدها: ترك السؤال

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/٣٣٥ رقم٤٤٧.

(٢) نفس المصدر ١/٧٠٩ رقم١٢٨٤.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١/٧٠٧ رقم١٢٧٤.

(٤) مفتاح دار السعادة (١/١٧٢).

(٥) جامع بيان العلم وفضله ١/٤٩٦ رقم٧٨٩.

(٦) نفس المصدر ١/٤٩٢ رقم٧٨١.

(٧) شرف أصحاب الحديث ص ١٧.

الثاني: سوء الإنصات وعدم إلقاء السمع.

الثالث: سوء الفهم.

الرابع: عدم الحفظ.

الخامس: عدم نشره وتعليمه، فإن من خزن علمه، ولم ينشره، ولم يعلّمْه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه منه جزاء من جنس عمله، وهذا أمر يشهد به الحس والوجود.

السادس: عدم العمل به فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه، فإذا أهمل العمل به نسيه.

المطلب الثّالث: آداب طالب العلم

على طالب العلم أن يراعي جملة من الأمور يتحلى بها في سلوكه سبيل العلم ومن بينها:

أولاً: حسن النية في طلب العلم: بأن يقصد به وجه الله ــ تعالى ــ والعمل به وإحياء الشريعة وتنوير قلبه وتحلية باطنه، والقرب من الله ــ تعالى ــ يوم القيامة، والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه وعظيم فضله.

قال سفيان الثوري: « ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي »[١].

ولا يقصد به الأغراض الدنيوية من تحصيل الرياسة والجاه والمال ومباهاة الأقران وتعظيم الناس له وتصديره في المجالس ونحو ذلك فيستبدل الأدنى بالذي هو خير.

فإن العلم إن خلصت فيه النية قبل وزكا ونمت بركته، وإن قصد به غير وجه الله ــ تعالى ــ حبط وضاع وخسرت صفقته، وربما تفوته تلك المقاصد ولا ينالها فيخيب قصده ويضيع سعيه[٢].

ثانياً: أن يبادر شبابه وأوقات عمره إلى التحصيل، ولا يغتر بخدع التسويف والتأميل، فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها، ويغتنم وقت فراغه ونشاطه وزمن عافيته وشرخ شبابه ونباهة خاطره وقلة شواغله قبل عوارض البطالة أو موانع الرياسة، قال عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ : « تفقهوا قبل أن تسودوا »[٣] وقال الشافعي: « تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا

---

(١) الجامع للخطيب ٤٩٤/١ رقم ٦٩٩.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص ٦٨-٧٠، بتصرف.

(٣) علقه البخاري في صحيحه ١٦٦/١، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٥٤٠/٨، والدارمي في سننه ٧٩/١، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٣٦٦/١ رقم ٥٠٨.

سبيل إلى التفقه »[1].

ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن تمام الطلب وبذل الاجتهاد وقوة الجد في التحصيل فإنها كقواطع الطريق، ولذلك استحب السلف التغرب عن الأهل والبعد عن الوطن لأن الفكرة إذا توزعت قصرت عن درك الحقائق وغموض الدقائق، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وكذلك يقال: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك.

ومما يقال عن الشافعي أنه قال: « لو كلفت شراء بصلة لما فهمت مسألة »[2].

ثالثاً: أن يقسم أوقات ليله ونهاره ويغتنم ما بقي من عمره فإن بقية العمر لا قيمة له.

وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل.

وقال الخطيب: « أجود أوقات الحفظ الأسحار ثم وسط النهار ثم الغداة ».

قال: « وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع »[3].

رابعاً: أن يقلل نومه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة على ثمان ساعات وهو ثلث الزمان، فإن احتمل حاله أقل منها فعل.

ولا بأس أن يريح نفسه وقلبه وذهنه وبصره إذا كلّ شيء من ذلك أو ضعف بتنــزه وتفرج في المستنــزهات بحيث يعود إلى حاله ولا يضيع عليه

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٣٤.

(٢) نفس المصدر ص ٧٠-٧١.

(٣) نفس المصدر ص ٧٢-٧٣.

زمانه[١].

خامساً: أن يترك مصاحبه من كثر لعبه وقلت فكرته، فإن الطباع سراقة وآفة العشرة ضياع العمر بغير فائدة، والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيده أو يستفيد منه.

وإذا احتاج إلى من يصحبه فليكن صاحباً صالحاً، ديناً، تقياً، ورعاً، ذكياً، كثير الخير، قليل الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، وإن ضجر صبره[٢].

سادساً: أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شأنه ويتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله، ليستنير قلبه، ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به. وعليه أن يقنع من القوت بما تيسر وإن كان يسيراً، ومن اللباس بما يستر مثله وإن كان خَلَقاً، فبالصبر على ضيق العيش ينال سعة العلم، ويجمع شمل القلب على مفترقات الآمال فتتفجر فيه ينابيع الحكم[٣].

(١) نفس المصدر ص ٧٧-٨٠، بتصرف.

(٢) نفس المصدر ص ٨٣-٨٤، بتصرف.

(٣) نفس المصدر ص ٧١، ٧٥، بتصرف.

المطلب الرّابع: موانع حمل العلم

ليس كل الناس أهل لتحمل العلم فهناك من لا يصلح لحمل العلم وقد ذكر علي بن أبي طالب ــ رضي الله ــ عنه أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله وهم أربعة:

أحدهم: من ليس هو بمأمون عليه وهو الذي أوتي ذكاءً وحفظاً، ولكن مع ذلك لم يؤت زكاءً، فهو يتخذ العلم الذي هو آلة الدين آلة للدنيا يستجلبها بها، ويتوصل بالعلم إليها، ويجعل البضاعة التي هي متجرُ الآخرة متجرَ الدنيا، وهذا غير أمين على ما حمله من العلم ولا يجعله الله إماماً فيه قط، فإن الأمين هو الذي لا غرضَ له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته.

وهذا الصنف الذي قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجرها متجراً للدنيا قد خان الله وخان عباده وخان دينه، فلهذا هو غير مأمون عليه وليس من حملته.

والصنف الثاني: رجل همته في نيل لذته فهو منقاد لداعي الشهوة أين كان ولا ينال درجة وراثة النبوة مع ذلك، ولا يُنال العلمُ إلا بهجر اللذات وتطليق الراحة، قال مسلم في صحيحه: « قال يحيى بن أبي كثير: لا يُنال العلم براحة الجسم »[1] وقال إبراهيم الحربي: « أجمع عقلاء كل أمة أن النعيم لا يدرك بالنعم ومن آثر الراحة فاتته الراحة، فما لصاحب اللذات وما لدرجة وراثة الأنبياء »[2].

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد[3]

فإن العلم صناعة القلب وشغله، فمن لم يتفرغ لصناعته وشغله لم تنله. فالقلب له وجهة واحدة فإذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد باب أوقات الصلوات الخمس.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/١٤٢.

(٣) نفس المصدر ١/١٤٢.

عن العلم.

ومن لم يُغلِّبْ لذة إدراكه للعلم على لذة جسمه وشهوة نفسه لم ينل درجة العلم أبداً.

الصنف الثالث: المنقاد الذي لم يَثْلُج صدره بالعلم ولم يطمئن به قلبه بل هو ضعيف البصيرة فيه، لكنه منقاد لأهله، وهذه حال أتباع الحق من مقلديهم، وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدين وإنما هم من مكثري سواد الجيش لا من أمرائه وفرسانه.

الصنف الرابع: من حِرْصُهُ وهِمَّتُهُ في جمع الأموال وتثميرها وادخارها، فقد صارت لذته في ذلك وفنى بها عما سواها فلا يرى شيئاً أطيب له مما هو فيه فمن أين هذا ودرجة العلم.

فهؤلاء الأصناف الأربعة ليسوا من دعاة الدين ولا من أئمة العلم ولا من طلبته الصادقين في طلبه.

ومن تعلق منهم بشيء منه فهو من المتسلقين عليه المتشبهين بحملته وأهله المدعين لوصاله المبتوتبن من حباله.

وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون، فإن الناس يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ويقولون لسنا خيراً منهم، ولا نرغب بأنفسنا عنهم، فهم حجة لكل مفتون ولهذا قال بعض الصحابة الكرام: « احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون »[1].

---

(١) انظر: نفس المصدر ١/١٣٩-١٤٣.

المبحث الثّالث

مسؤوليّة أداء العلم

المطلب الأوّل: مسؤوليّة أدائه عملاً

المسؤولية التي يتحملها طالب العلم تجاه العلم ذات شقين:

الأول: مسؤولية أدائه عملاً.

والثاني: مسؤولية أدائه تعليماً.

فأما عن مسؤولية أدائه عملاً فقد قال ابن مسعود ـــ رضي الله عنه ـــ : «من تعلّم علماً لا يعمل به لم يزده العلم إلا كِبْراً»[1].

وقال ـــ رضي الله عنه ـــ: «تعلّموا، تعْلموا، فإذا علمتم فاعملوا»[2].

وقال الحسن: «العالم الذي وافق علمه عمله»[3].

وعنه قال: «عقوبة العالم موت قلبه. قيل له: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة»[4].

وقال هلال بن العلاء: «طلب العلم شديد، وحفظه أشدُّ من طلبه، والعمل به أشدُّ من حفظه، والسلامة منه أشدُّ من العمل به، ثم أنشد يقول:

يموتُ قومٌ ويُحيي العِلْمُ ذِكْرَهُمُ ... والجَهْلُ يُلْحِقُ أَمْوَاتاً بأَمْوَاتِ[5]

وقال الشافعي: «ليس العلم ما حُفِظَ، العلم ما نَفَع»[6].

---

(١) الترغيب والترهيب لأبي القاسم الأصبهاني ٢/٨٧٥.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/٧٠٥ رقم١٢٦٦. وأخرجه الدارمي١/١٠٣، والخطيب في «الاقتضاء» ١٠.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١/٦٩٨ رقم١٢٤١

(٤) جامع بيان العلم وفضله ١/٦٦٧ رقم١١٥٦.

(٥) الترغيب والترهيب لأبي القاسم الأصبهاني ٢/٨٧٤.

(٦) تذكرة السامع والمتكلم ص ١٥.

المطلب الثّاني: مسؤوليّة أدائه تعليماً

وأما عن مسؤولية أدائه تعليماً: فقال عبدالله بن المبارك: « من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إما بموت يُذهب علمه، و إما يُنسى، وإما يلزم السلطان فيذهب علمه سلطاناً »[1].

وعن أبي قلابة قال: « العلماء ثلاثة: رجل عاش بعلمه، ولم يعش الناس به معه، ورجل عاش الناس بعلمه ولم يعش هو به، ورجل عاش بعلمه وعاش الناس به معه »[2].

« قال بعض السلف صنفان إذا صلحا صلح سائر الناس وإذا فسدا فسد سائر الناس: العلماء والأمراء.

قال عبدالله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها »[3]

وقال محمد بن الفضل: « ذهاب الإسلام على يدي أربعة أصناف من الناس:

١ــ صنف لا يعملون بما يعلمون.

٢ــ وصنف يعملون بما لا يعلمون.

٣ــ وصنف لا يعلمون ولا يعملون.

٤ــ وصنف يمنعون الناس من العلم »[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٣٩٨.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه ١١/٢٥٤. وأبو نعيم في الحلية ٢/٢٨٣. وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ١/٨٢٣ رقم ١٥٤٦.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/١٠٥.

(٤) مفتاح دار السعادة ١/١٦٠.

قال ابن القيم: « الصنف الأول: من له علم بلا عمل فهو أضر شيء على العامة، فإنه حجة لهم في كل نقيصة ومنحسة.

والصنف الثاني: العابد الجاهل، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه، فيقتدون به على جهله.

وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف في قوله:

« احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون »[(١)]، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم، فإن كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة.

والصنف الثالث: من لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة.

والصنف الرابع: نواب إبليس في الأرض وهم الذين يُثبِّطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه »[(٢)].

قال الشعبي: « كل أمة علماؤها شرارها إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم »[(٣)].

قال ابن تيمية: « أهل السنة في الإسلام ، كأهل الإسلام في الملل، وذلك أن كل أمة غير المسلمين فهم ضالون، وإنما يُضلهم علماؤهم، فعلماؤهم شرارهم، والمسلمون على هدى، وإنما يتبين الهدى بعلمائهم، فعلماؤهم خيارهم. وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة، وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب ».

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/٦٦٦ رقم١١٦١.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/١٦٠.

(٣) مفتاح دار السعادة ١/١٦٠.

وقال بدر الدين بن جماعة: « واعلم أن جميع ما ذكر من فضيلة العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله الكريم، والزلفى لديه في جنات النعيم لا من طلبه بسوء نية أو خبث طوية أو لأغراض دنيوية من جاه أو مال أو مكاثرة في الاتباع والطلاب »[(١)].

(١) تذكرة السامع والمتكلم ص١٣.

الخاتمة

ومن هذه النقول يتضح لك ياطالب العلم عظم المسؤولية الملقاة على عاتقك، فأنت تحمل ثلاث مسؤوليات:

المسؤولية الأولى: مسؤولية نفسك.

المسؤولية الثانية: مسؤولية هذا الدين الذي حملته وأصبحت أميناً عليه.

المسؤولية الثالثة: مسؤولية هذه الأمة التي من مسؤوليتك تعليمها وإرشادها، وألا تبخل عليها بالتوجيه والنصح.

ولا يخفى على طالب العلم أن ما عليه حال كثير من الناس اليوم من ضلال وانحراف هو سبب بعدهم عن شرع ربهم ومعلوم أن صلاح أحوال الناس مرهون بعودتهم إلى دينهم والتمسك بشرع ربهم.

وهذه حقيقة متقررة لا جدال فيها ولا مراء، وطلبة العلم هم حملة لواء الشريعة والأمناء على ميراث النبوة، وعندهم طب الناس ودواؤهم، فلو أنهم قاموا بواجبهم حق القيام لتغير ــ بإذن الله ــ حال الناس ولاستقامت أمورهم، ولأصلح الله من شأنهم.

وإنه لمن العجيب أن ترى أصحاب الباطل ينشطون في باطلهم ويبذلون له كل غال ونفيس ويتفانون ويتفننون في خدمة ذلك الباطل سواء كان ديناً محرفاً أم فكراً فاسداً أو لهواً محرماً، وبينما ترى بعض أصحاب الحق وطلبة العلم الشرعي الصحيح لا يبذلون من الوقت والجهد كما يبذل أولئك مع ما هم عليه من الحق والفضل والأجر، وما عليه أولئك من الإثم والخزي والخسران المبين في الدنيا والآخرة.

وأعجب من ذلك أن يركن طالب العلم للدنيا وحطامها الفاني وزخرفها الزائل ولا يسعى لتحصيل العلم الذي هو السبيل إلى جنة الخلد الباقية، فلا يليق

بطلاب العلم أن يركنوا إلى الدعة والراحة والاشتغال بملاذ العيش ووسائل الراحة والرفاهية التي شاعت في عصرنا الحاضر.

وليعلم طالب العلم أنه إن فوت تحصيل العلم وضيع الأيام والليالي وسَوَّفَ في ساعات الشباب ولم يبادر نفسه ويلزمها مجالس التحصيل والدرس ويغتنم أوقات الفراغ والقوة والنشاط، فإن ذلك إذا مضى لن يعود، فإذا هو فرط في أمانة التحمل ولم يحصل العلم، فإنه من باب أولى أن يكون مفرطاً في مسؤولية الأداء وتبليغ شرع الله، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

فحري بطالب العلم أن يستشعر مسؤوليته ويقوم بواجبه تجاه العلم الشرعي تعلماً وعملاً وتعليماً.

وذلك « بسلوك هدي الأنبياء وطريقتهم في التبليغ من الصبر والاحتمال ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان والرفق بهم، واستجلابهم إلى الله بأحسن الطرق وبذل ما يمكن من النصيحة لهم »[1].

هذا والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٦٦.

ثبت المصادر والمراجع

١- تذكرة السامع والمتكلم في أداب العالم والمتعلم لبدر الدين ابن جماعة الكناني الناشر: دار الكتب العلمية.

٢- الترغيب والترهيب لأبي القاسم الأصبهاني الناشر مكتبة النهضة الحديثة.

٣- جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر يوسف بن عبد البر تحقيق أبي الأشبال الزهيري ط: دار ابن الجوزي، ط١.

٤- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع لأبي بكر الخطيب البغدادي، تحقيق محمد عجاج الخطيب.

٥- حلية الأولياء -لأبي نعيم، أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٣٨٧هـ.

٦- السنن -أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي- تعليق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، نشر وتوزيع محمد علي السيد، حمص، ط١، ١٣٨٨هـ.

٧- السنن -أبو عبد الله، محمد بن يزيد بن ماجة القزويني- تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٨- السنن - أبي عيسى، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي- تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٩- السنن - عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٠- سير أعلام النبلاء للذهبي ط. مؤسسة الرسالة.

١١- شرف أصحاب الحديث لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي

تحقيق د. محمد سعيد خطيب أوغلي الناشر: دار إحياء السنة النبوية.

١٢- الجامع الصحيح -محمد بن إسماعيل البخاري- طبعة دار السلام، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٣- صحيح مسلم -مسلم بن الحجاج القشري- دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري ــ الناشر المكتبة الإسلامية

١٥- المسند -الإمام أحمد بن حنبل الشيباني- دار صادر، بيروت، لبنان.

١٦- مصنف عبد الرزاق ــ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ــ المكتب الإسلامي ،ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ

١٧- مفتاح دار السعادة لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية الناشر دار الكتب العلمية.

فهرس الموضوعات

المقدّمة ٢٠٧
المبحث الأوّل : شرف العلم وفضل أهله ٢١١
المطلب الأوّل: الأدلّة من القرآن الكريم ٢١١
المطلب الثّاني: الأدلّة من السّنّة ٢١٤
المطلب الثّالث: أقول بعض العلماء ٢١٧
المبحث الثّاني : السّبيل إلى تحمّل العلم ٢٢١
المطلب الأوّل: حاجة طالب العلم إلى الذّكاء والزّكاء ٢٢١
المطلب الثّاني: مراتب نيل العلم ٢٢٧
المطلب الثّالث: آداب طالب العلم ٢٣٣
المطلب الرّابع: موانع حمل العلم ٢٣٦
المبحث الثّالث : مسؤوليّة أداء العلم ٢٣٨
المطلب الأوّل: مسؤوليّة أدائه عملاً ٢٣٨
المطلب الثّاني: مسؤوليّة أدائه تعليماً ٢٣٩
الخاتمة ٢٤٢
ثبت المصادر والمراجع ٢٤٤
فهرس الموضوعات ٢٤٦

الْبَرَكَةُ فِي الرِّزْقِ وَالأَسْبَابُ الجَالِبَةُ لَهَا فِي ضَوْءِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

إِعْـــدَادُ :

د. عَبْدِ اللّٰهِ مَرْحُول السَّوَالِمَه

الأُسْتَاذِ المشَارِكِ في كُلّيَة التَرْبِيَةِ في جَامِعَةِ المَلِكِ سُعُود



المقدّمة

الحمد لله خالق الخلق، وباسط الرزق، فتنة وابتلاءً منه لعباده ليميز الطائعين الشاكرين من العاصين الجاحدين. والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

وبعـــد؛ فقد جعل الله سبحانه وتعالى رزقه يسع كل حيٍّ من مخلوقاته فضلاً منه ورحمة، فقدَّر رزق الإنسان، وكتبه والإنسان في بطن أمه، كما جاء عند مسلم[١]: «إنَّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه، ... ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله وعمله، وشقي أو سعيد ...».

وصـــح عنه ﷺ من حديث أبي الدرداء أنه قال: «إن الرزق ليطلب العبد كمـــا يطلـــبه أجله». عند كل من ابن أبي عاصم[٢] والدراج[٣] والبزار[٤] وابن حـــبان[٥]، والطـــبراني في الكـــبير[٦]، والبـــيهقي[٧]، بهذا اللفظ إلا أنه فيه عند الطـــبرانـــي «أكـــثر مما يطلبه أجلـــه» صححـــه البزار، وابن حبـــان، وقال الهيثمي رجاله ثقات[٨]، وقال المنذري عقبه: رواه الطبراني بإسناد جيد.

وقال ﷺ : «إن الله قَسَمَ بينكم أخلاقكم كما قَسَمَ بينكم أرزاقكم ...»

---

(١) الصحيح، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه ... (٢٠٣٧/٤-٢٠٣٨).

(٢) السنة (١١٧/١).

(٣) جزء الدراج (مخطوط) حديث رقم (٨).

(٤) كشف الأستار (٨٢/٢).

(٥) الإحسان إلى تقريب صحيح ابن حبان (٨/٥).

(٦) كما في الترغيب والترهيب (١٢/٤)، ومجمع الزوائد (٧٢/٤) ولعله في الجزء المفقود من المعجم، لأنني طلبته فيه فلم أجده.

(٧) شعب الإيمان (٧١/٢).

(٨) مجمع الزوائد (٧٢/٤).

من حديث ابن مسعود رواه أحمد[1] والحاكم[2]، وهو مطول عندهما وهذا جزء منه. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد) في ثلاثة مواطن من حديث ابن مسعود فقال في مرة: رواه أحمد ورجال إسناده بعضهم مستور وأكثرهم ثقات[3]، وقال في موطن: رواه الطبراني موقوفًا، ورجاله رجال الصحيح[4]، وقال في الموطن الأخير[5]: رواه أحمد ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف.

ولحكمة أرادها الله – سبحانه وتعالى – جعل هذا التقدير، والتقسيم للأرزاق خافيًا على العباد مغيبًا عنهم، ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾[6].

كما شاءت إرادته جل وعلا أن جعل المال محببًا إلى النفوس مرغوبًا فيه سجية وطبعًا فقال تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا ...﴾[7]، وقال: (وتحبون المال حبا جمًا﴾[8].

وما من شك في أن المال فيه خير للإنسان إن أحسن استعماله في محاله وقد سماه تعالى خيرًا إذ قال: ﴿كُتِبَ عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرًا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾[9].

---

(١) المسند (١/٣٨٧).
(٢) المستدرك (٢/٤٤٧).
(٣) المجمع (١/٥٣).
(٤) المجمع (١٠/٩٠).
(٥) المجمع (١٠/٢٢٨).
(٦) سورة لقمان: آية ٣٤.
(٧) سورة الكهف : آية ٤٦.
(٨) سورة الفجر : آية ٢٠.
(٩) سورة البقرة : آية ١٨٠.

وقال ﷺ : «نعم المال الصالح للرجل الصالح» طرف من حديث طويل لعمرو بن العاص – رضي الله عنه – عند أحمد[١]، والطبراني[٢]، وأبي يعلى[٣]، هذا لفظ أحمد والطبراني، وعند أبي يعلى: «يا عمرو نعمًا بالمال الصالح للرجل الصالح»، وقال الهيثمي[٤]: رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح، وقال العراقي: سنده جيد[٥].

فالمـــال خـــير، وهو محبوب وصالح لازم لقضاء مصالح الإنسان في معاشه ومعـــاده إذ هـــو وســـيلة لأداء كـــثير من العبادات من حج وعمرة، وزكاة، وصدقات، وكفارات ونذور، وصلة أرحام، وطلب علم وغيرها من المصـــالح.

والـــرزق وإن كان مكتوبًا بقضاء الله عز وجل كما سلف إلا أنه – سبحانه – يقضـــي مـــا يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباقا مقتضية لها؛ ولهذا جاء الحض والأمـــر بالسَّـــعي في طلب الرزق أخذًا بالأسباب للازدياد من الخير وحصول البركة في المال، لكي تستمر الحياة عى وجه الأرض، فيكف الإنسان وجهه عن سؤال الآخرين ويتجنب ذلّ الحاجة والعوز في معيشته.

وحتى يكون سعي الإنسان في طلب الرزق حسنًا مباركًا فيه رابحًا مشكورًا عليه، لا خسارة ووبالاً مردودًا عليه فقد أرشده الإسلام إلى دخول بيوت الرزق وحصول البركة والنماء فيه من أبوابها، وسلوك الأسباب الجالبة للخيرات والبركات دون غيرها.

---

(١) المسند (١٩٧/٤).

(٢) المعجم الأوسط (١٣٠/٤)، (٨/١٠)، وعزاه الهيثمي (٦٤/٤) أيضًا للطبراني في الكبير، لكنه من الجزء المفقود، والله أعلم.

(٣) المسند (٣٢٠/١٣-٣٢٢) رقم (٧٣٣٦).

(٤) مجمع الزوائد (٦٤/٤).

(٥) المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (هامش إحياء علوم الدين) (٩٨/٤).

ولمـــا كان كثير من الناس – منذ زمن ليس بالقليل – قد ملك حب المال قلوبهم، واستولت شهوته تمامًا على نفوسهم، وكأنهم لأجل ذلك وحده خلقوا، فشـــمَّروا عن ساعد الجد، راكـــبين الصعب والذلول في الحصول على الأرزاق وتكثير الأموال، غير مكتفين في هذا الطلب والسعي بدخول بيوتات الرزق من أبوابهـــا، بـــل مقتحمين من كل نافذة وطاقة بكل حرص وشراهة، غير متقيدين بالطـــرق المشروعة، ولا مبالين بالنتائج المقبوحة، وهم – مع هذا – أو أكثرهم يكـــثر الشكاية من القلة في الرزق، ومحق البركة من الرواتب والأموال، وعدم التوفيق في شؤون الحياة ومصالحها.

لهـــذا فقد رأيت أن أسهم بتذكير نفسي أولاً ثم بتذكير إخواني ثانيًا بكتابة هـــذا البحث «البركة في الرزق، والأسباب الجالبة لها»، الذي أرجو أن يكون نافعًا في بابه، وسببًا من الأسباب التي يشاء الله – عز وجل – إجراءها وسوقها لنفع عباده، وتذكيرهم ببعض مالهم وما عليهم فيما يخصهم في أرزاقهم.

وقـــد جعلت هذا البحث منتظمًا في مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وفهرسين، وذلك على النحو الآتي:

١ – المقدمـــــة :

وفيها الإشارة إلى أهمية الموضوع وسببه، وخطته.

٢ – المبحث الأول :

وفيه مطلبان. الأول: فيه شرح بعض الألفاظ الواردة في عنوان البحث، مع الإشارة إلى حدود البحث. الثاني: فيه المنهج الذي سرت عليه في أثناء البحث.

٣ – المبحث الثاني :

ويشتمل على أهم الأسباب الجالبة للبركة، وفيه عشرة مطالب هـــي:

المطلب الأول : تقوى الله – عز وجل – والتقرب إليه بالطاعات: (الصلاة، الحج والعمرة، الزكاة وما يتبعها من صدقات، وصلة أرحام).

المطلب الثاني : التوكل على الله – سبحانه وتعالى – مع الأخذ بالأسباب.

المطلب الثالث : التسمية في كل الأحوال.

المطلب الرابع : الذكر والدعاء.

المطلب الخامس : شكر الله تعالى وحمده.

المطلب السادس : التوبة والاستغفار.

المطلب السابع : السعي في الكسب وطلب الرزق أخذًا بالأسباب: (الكسب الحلال المباح، الصدق والأمانة في التعامل، البكور في طلب الرزق).

المطلب الثامن : القناعة والعفاف والإجمال في الطلب.

المطلب التاسع : الاقتصاد في المعيشة : (حسن التدبير والاقتصاد في المعيشة، كيل الطعام).

المطلب العاشر : اتباع السنة.

٤ – الخاتمة :

وفيها أهم النتائج.

٥ – فهرس المصادر والمراجــع .

وختامًا أحمد الله – تعالى – وأشكره على أن وفقني لمثل هذا الموضوع، وأعانني على إتمامه، فإن وافقني في هذا العمل الرشد والصواب فذلك من فضل الله وتوفيقه وتمام إنعامه، وإن حصل فيه شئ من خطأ أو مجانبة للصواب، فذلك من تقصيري ومن الشيطان، وأستغفر الله منه، وعزائي أنني عملت ما بوسعي أن أعمله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين لا شريك له.

المبحث الأول

وفيه مطلبان :

المطلب الأول:
شرح بعض الألفاظ الواردة في
عنوان البحث مع الإشارة إلى حدود البحث

١- البركة : محركة، هي النماء والزيادة والسعادة[١]. وبنحو هذا اللفظ قال ابن منظور[٢]، وقال الزجاج: "(تبارك): تفاعل من البركة، ومعنى البركة: الكثرة في كل ذي خير[٣]. وقال ابن كثير: تبارك، تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة[٤]".

وقال ابن الأثير : قوله ﷺ : ((وبارك على محمد وعلى آل محمد))[٥]، أي أثبت لــه وأدم ما أعطيته من التشريف والكرامة، وهو من (بَرَكَ البعير) إذا أناخ في موضع فلزمه. قال: وتطلق البركة - أيضًا - على الزيادة والأصل

---

(١) القاموس المحيط (ب ر ك) (٣/٢٩٣).

(٢) لسان العرب (ب ر ك) (١٠/٣٩٥-٣٩٦)، وانظر أيضًا الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣/١) تفسير الآية الأولى من سورة الفرقان.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٤١١).

(٥) يشير هنا إلى الحديث الذي رواه غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم في سؤالهم النبي - صلى الله عليه وسلم - كيف يصلون عليه؟ فقال: ((قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ...))، أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ١٠ (٦/٤٠٧-٤٠٨). وكتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - (١١/١٥٢). ومسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي (١/٣٠٥-٣٠٦).

الأول[١].

وقال النووي : عند قوله تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [٢]، قيل: معناه ثبت الخير عنده، وقيل: تعالى إلى، والبركة العلو والنماء ... وأصله من البروك وهو الثبوت. ومنه بِركة الماء، وبَرْكة البعير[٣].

وقد أكَّد الحافظ ابن حجر ما ذكره ابن الأثير والنووي فقال عند قوله «وبارك على محمد»: المراد بالبركة هنا: الزيادة من الخير، والكرامة ... وقيل المراد: إثبات ذلك واستمراره من قولهم بركت الإبل أي ثبتت على الأرض، وبه سميت بركة الماء، بكسر أوله لإقامة الماء فيها، والحاصل أن المطلوب أن يعطوا من الخير أوفاه، وأن يثبت ذلك ويستمر دائمًا[٤].

مما سبق يتضح أن البركة هي النماء والزيادة من الخير، مع ثبوت هذا الخير واستقراره ودوامه واستمراره عند صاحبه، والله أعلم.

ومن الجدير بالذكر – هنا – أن البركة ليس بالضرورة أن تكون دائمًا مقصورة على الشئ الكثير فقط، بل قد تكون في الشئ القليل كما تكون في الشئ الكثير. وهذا ما أشار إليه الحافظ ابن حجر عند حديث حكيم بن حزام[٥] الذي جاء فيه: «ومن أخذه – يعني المال – بإشراف نفس لم يبارك فيه، كالذي يأكل ولا يشبع ...».

قال الحافظ : فيه ضرب المثل لما لا يعقله السامع من الأمثلة، لأن الغالب من الناس لا يعرف البركة إلا في الشئ الكثير فبين بالمثال المذكور أن البركة هي

---

(١) النهاية في غريب الحديث (١/١٢٠).

(٢) سورة المؤمنون : من الآية رقم (١٤).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات، (القسم الثاني ص ٢٦).

(٤) فتح الباري (١١/١٦٢-١٦٣).

(٥) يأتي تخريجه .

خلق من خلق الله تعالى، وضرب لهم المثل بما يعهدون[1].

ومن المهم أن يعلم أيضًا أن البركة قد تكون جلية، وقد تكون خفية، كما قد تكون مثوبة أخروية. فالبركة الجلية : هو ما يشاهد كثيرًا بالعادة من كثرة الخير وسوق الرزق للإنسان، ونمائه عند صاحبه وما يرافق ذلك من توفيق، وتيسير في الحصول على الرزق، ونحوه.

والبركة الخفية : قد تكون بدفع المضرات والجوائح والآفات عن الرزق، وعدم تعرض الإنسان للحوادث المرورية مثلاً أو الأمراض الخطيرة، ونحوه مما يأتي على جانب كبير من رزقه، وقد ذكروا بأن الغنم أو الأنعام إذا أنتجت الإناث فهذا من البركة الخفية لأنها تنمو وتتضاعف، وإذا أنتجت الخراف أو الذكور فهذا من المحق الخفي. والله أعلم[2].

وأما البركة الأخروية وهو النماء ومضاعفة الأجر في الأعمال الصالحة فهذا واضح ويلحظ ذلك في كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. لكن مقصود البحث هو إظهار البركة بقسميها الجلي والخفي دون البركة الأخروية مما اقتضى ذكر التنبيه المثبت في آخر هذا البحث، في (ص٨٣).

٢ – الرزق : الرزق بالكسر، ما ينتفع به كالمرتَزق، والمطر، والجمع أرزاق، وبالفتح، المصدر الحقيقي[3].

وقال ابن منظور: الرَّزق بفتح الراء هو المصدر الحقيقي، والرِّزق بالكسر هو الاسم، ويجوز أن يوضع موضع المصدر، قال: والرزق معروف، والأرزاق

---

(١) فتح الباري (٣/٣٣٧).

(٢) قد ألمح لشئ من هذا المعنى كل من النووي في (شرح مسلم) ١٦/١٤١، والمباركفوري في (تحفة الأحوذي) ٦/١٧٧، والمناوي في (فيض القدير) ٥/٥٠٣.

(٣) القاموس المحيط (ر ز ق) ٣/٢٣٥.

نوعان: ظاهرة للأبدان كالأقوات، وباطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم[١].

وقال الجرجاني : «الرزق اسم لما يسوقه الله إلى الحيوان فيأكله، فيكون متناولاً للحلال والحرام. وعند المعتزلة: عبارة عن مملوك يأكله المالك، فعلى هذا لا يكون الحرام رزقًا[٢]».

لكن قال القرطبي: «الرزق، حقيقته ما يتغذى به الحي، ويكون فيه بقاء روحه ونماء جسده، ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى الملك، لأن البهائم ترزق وليست يصح وصفها بأنها مالكة لعلفها[٣]».

وقال في موضع آخر – عند قوله تعالى –: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ [٤]: رزقناهم: أي أعطيناهم، والرزق، العطاء، وهو – عند أهل السنة – ما صح الانتفاع به حلالاً كان أو حرامًا[٥].

قلت : والرِّزق المعنون به هذا البحث، والمستعمل في كل جزئياته إنما هو الرزق الحلال، إذ لا يمكن تصور حصول البركة في الرزق الحرام، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فلئن كان الرزق يشمل – أيضًا – العطايا والمنافع الظاهرة والعطايا الباطنة كما مر، فإن المعوَّل عليه – هنا في هذا البحث – إنما هو الرزق الظاهر، وهو ما يكون بمعنى المال، إذ بين الرزق والمال عموم وخصوص من وجه فكل مال رزق، وليس كل رزق مالاً، لكن يستعمل أحدهما محل الآخر كثيرًا، ولا إشكال في ذلك، وباستقراء الأحاديث الواردة في هذا البحث وما

---

(١) لسان العرب (ر ز ق) ١١٥/١٠ بتصرف، وانظر أيضًا : النهاية في غريب الحديث (٢١٩/٢).

(٢) التعريفات (ص ١٤٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/٩).

(٤) سورة البقرة : من الآية رقم (٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٧٧/١).

جاء فيها من ذكر البركة، فهي تستعمل مقرونة باللفظين، بل هي مستعملة مقرونة بالرزق أكثر من غيرها، وغالبًا ما يكون الرزق هنا بمعنى المال، وهذا ما دفعني إلى ذكر الرزق في العنوان بدلاً من المال، وإن كان الأمران جائزين، وإذا كان ذلك كذلك فالمال هو: ما ملكته من جميع الأشياء، والجمع أموال، كما قال ابن منظور[1].

وقال ابن الأثير : «المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان، وأكثر ما يطلق المال عند العرب على الإبل؛ لأنها كانت أكثر أموالهم، ثم قال: وقد تكرر ذكر المال على اختلاف مسمياته في الحديث ويفرق فيها بالقرائن[2]».

وقال عبدالسلام العبادي: «المال ما كان له قيمة مادية بين الناس وجاز شرعًا الانتفاع به في حال السعة والاختيار[3]».

٣ – في ضوء الكتاب والسنة : أي من خلال هدايتهما وما تضمنته نصوصهما من معانٍ يسترشد بها، وما تضفيه تلك النصوص من ظلال عامة، إذ ليس المقصود في هذا البحث استقصاء جميع النصوص المتعلقة بهذا الموضوع، كما أنه لم يكن بالإمكان حصر جميع الأسباب الجالبة للبركة في الرزق واستيعابها على وجه الدقة في مثل هذا البحث، وإن كنت قد أتيت على ذكر معظم الأحاديث التي ذكرت البركة وأسبابها، كما أنني قد حاولت التأصيل لمعظم الأسباب التي تستجلب بها البركة في الأرزاق، وذلك من خلال نصوص الأصلين الأصيلين: القرآن، والسنة، وهدايتها، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(١) لسان العرب (م و ل) ٦٣٥/١١.

(٢) النهاية في غريب الحديث (٣٧٣/٤).

(٣) الملكية في الشريعة الإسلامية – القسم الأول (ص ١٧٩).

المطلب الثّاني:

المنهج الّذي سرت عليه في أثناء البحث

إن منهج أي بحث وإن لم يُبرز ويذكر صراحة إلا أنه ليس مثل هذا مما يخفى على أهل الاختصاص، الذين يقرؤون البحث ويعايشونه، بيد أنني سأشير هنا إلى بعض النقاط التي تبرز منهجي في هذا البحث، تاركًا الأمور الأخرى لمن يقرأ هذا البحث ويتتبع جزئياته، فمن الأمور التي سرت عليها في بحثي ما يلي:

١- قمت بانتقاء الآيات الكريمة، والأحاديث والآثار التي تخدم البحث بشكل واضح ومباشر، وقد أتخطى- أحيانًا – إلى النصوص التي فيها نوع خدمة غير مباشرة لكنها تصلح لتعضيد ودعم ما قصدته من تأصيل بعض المسائل.

٢- قمت في ضوء هذه النصوص بالتأصيل لمسائل البحث العامة وبيان الجزئيات المندرجة تحت كل منها.

٣- وعلى الرغم من قبول الأحاديث الضعيفة القريبة الضعف في مثل هذه الموضوعات بشكل عام إلا أنني حاولت – جاهدًا – اختيار وانتقاء الأحاديث المقبولة من صحيحة وحسنة بقسمي كل منهما، محاولاً البحث عن أقوال العلماء في الحكم على الحديث وبيان درجته خاصة إذا لم يكن الحديث من أحاديث الصحيحين أو أحدهما.

٤- قمت بعزو الآيات القرآنية وذلك ببيان موضع الآية من السورة.

٥- كما قمت بتخريج الأحاديث وبيان مواضعها من كتب السنة الأصلية المعتمدة.

٦- قمت بتتبع أقوال العلماء من مفسرين وشراح للحديث لاختيار ما أراه مناسبًا من أقوالهم لتوظيفها في فهم النصوص وتوجيهها، محاولاً توجيه هذه الأقوال، وبيان ما يستخلص أو يستنتج منها.

٧- قمت بشرح الغريب بالرجوع إلى كتب اللغة أو كتب الغريب.

٨- اكتفيت في أثناء العزو في الهامش بذكر اسم المرجع مختصرًا، وذلك لأنني ذكرت اسم الكتاب كاملاً في (فهرس المراجع) في آخره.

٩- ذكرت الأحاديث الواردة في البحث في فهرس مرتبة على أحرف الهجاء ليسهل الوقوف عليها في البحث، وذلك لأنها أحاديث كثيرة ومختارة، هذا والله أعلم.

المبحث الثّاني :

الأسباب الجالبة للبركة في الرّزق

وهو في عشرة مطالب :

المطلب الأوّل

تقوى الله – عزّ وجلّ – والتّقرّب إليه بالطّاعات

لقد أمر الله سبحانه عباده أن يتقوه حق التقوى، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[١]، ثم بيَّن سبحانه في آية أخرى أن التقوى تكون بحسب الاستطاعة ومقدور الإنسان فقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا﴾[٢].

كما تكفّل – سبحانه وتعالى – لمن يتقي الله فيما أمره واجتناب ما نهاه عنه بأن ينجيه من كل كرب مما ضاق على الناس، ويرزقه من حيث لا يرجو ولا يخطر بباله، ويقنعه بما رزقه، ويبارك له في رزقه، وتمثّل هذا بقوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[٣].

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ كان يقول: «لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك». علقه كل من ابن جرير[٤]، وابن أبي حاتم[٥]

(١) سورة آل عمران : الآية رقم (١٠٢).

(٢) سورة التغابن: من الآية رقم (١٦).

(٣) سورة الطلاق: من الآيتين رقم (٢-٣).

(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن (٩/٨٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/٢٣٣٠).

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – وعزاه السيوطي[1] إلى عبد بن حميد وابن جرير وابـــن المنذر وابن أبي حاتم، ولم أقف على من وصله، لكن جاء عند أحمد في غير موضـــع وبأسانيد عن أبي قتادة وأبي الدهماء – رضي الله عنهما – قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما عـــلمه الله تبارك وتعالى وقال: «إنك لن تدع شيئًا اتقاء الله جل وعز إلا أعطاك الله خيرًا منه[2]»، وقال الهيثمي: «رواه أحمد بأسانيد ورجاله رجال الصحيح[3] ».

قلت : والواقع العملي خير شاهد لمثل هذا، ومن هذا ما جاء في قصة يوسف – علـــيه السلام – مع امرأة العزيز وامتناعه عن الوقوع في الحرام مع تهيئة جميع أسباب الســـلامة له، مخافة لله تعالى، وفي قصة الثلاثة الذين أووا إلى غار فانطبق عليهم، وأخذ كـــل واحـــد منهم يدعو الله بصالح عمله، وكان واحد منهم يحب ابنة عم لـــه حباً شـــديدًا ويراودها عن نفسها مرارًا فتمتنع، ثم ألجأتها الحاجة إلى إجابته فلما أمكنته من نفســـها وقعد بين رجليها، قالت لـــه: اتق الله ... فانصرف عنها وهي أحب الناس إلـــيه ... مخافة لله، ولا يخفى ما آل إليه أمر يوسف – عليه السلام – في الدنيا والآخرة من النعيم والكرامة والتمكين كما لا يخفى ما حصل لهذا المنصرف عن الفاحشـــة مع قدرته عليها مخافة لله تعالى من الفرج في الدنيا وانكشاف الشدة عنه وعن أصحابه الذين كانت لهم أعمال صالحة أيضًا[4]، والله أعلم.

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١٨٢/٤).

(٢) المسند (٧٨/٥، ٧٩، ٣٦٣)، هذا اللفظ في الموضع الأول، ولفظه في بقية المواضع قريب منه.

(٣) مجمع الزوائد (٢٩٦/١٠).

(٤) انظر قصة هؤلاء الثلاثة في صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئًا لغيره (٤٠٨/٤)، وباب من استأجر أجيرًا (٤٤٩/٤)، وكتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار (٥٠٥/٦-٥٠٦).

كمـــا جـــاء عـــند مسلم من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - يرفعه: ((إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدَّخر حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقًا في الدنيا على طاعتـــه))(١).

وقـــال تعـــالى : ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾(٢).

وقـــال تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾(٣)، وقال أيضًا: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقًا﴾(٤).

في هذه الآيات الكريمات الإشارة بأن التقوى لله – عز وجل – واتباع كل ما جاء على ألسنة الأنبياء والمرسلين من عمل بالأوامر واجتناب للنواهي، ومنها الأمـــر لأهـــــل الكتاب باتباع ما جاء به النبي ﷺ لأن كتبهم قاضية بذلك، آمـــــرة بـــه، كـــل ذلك سبب في نزول بركات السماء من الأمطار الغزيرة وإخراج بركات الأرض، وسعة الرزق والأكل المتواصل منه مع وجود البركات فيه(٥).

قال القرطبي: ((ونظير هذا ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾(٦).

---

(١) الصحيح، كتاب المنافقين، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة (٢١٦٢/٤).

(٢) سورة المائدة : الآية رقم (٦٦).

(٣) سورة الأعراف : من الآية رقم (٩٦).

(٤) سورة الجن : الآية رقم (١٦).

(٥) جامع البيان عن تفسير القرآن (١٠/٤٦٢-٤٦٣)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٠٥/٢).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٢٢٩/٦).

ولما كانت الفرائض التي فرضها الله – تعالى – على عباده هي أحب الأعمال إليه تعالى، فلذلك كان أداؤها أحب شئ إليه تعالى وأشد تقربًا منه، كما جاء في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عند البخاري[1] وحديث عائشة – رضي الله عنها – عند أحمد[2] من أن النبي ﷺ قال: «وما تقرَّب إليَّ عبدي بشئ أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه» الحديث. اللفظ للبخاري، ولفظ أحمد بنحوه، وقال الهيثمي بعد عزو الحديث لأحمد: فيه عبدالواحد بن قيس بن عروة، وثقه أبو زرعة والعجلي وابن معين في إحدى الروايتين ،... وبقية رجاله رجال الصحيح[3].

ومن أبرز الفرائض والعبادات التي تقرب العبد بعد إيمانه وتقواه إلى مولاه، ويستجلب بها خيري الدنيا والآخرة، البركة في الرزق والسعادة والحبور في الحياة وبعد الممات، على سبيل المثال: (الصلاة، الحج والعمرة، الزكاة، والصدقات، وصلة الأرحام).

١ – الصلاة :

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾[4].
وقال: ﴿اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء

---

(١) الجامع الصحيح، كتاب الرقاق، باب التواضع (١١/٣٤٠-٣٤١).

(٢) المسند (٦/٢٥٦).

(٣) مجمع الزوائد (٢/٢٤٧).

(٤) سورة البقرة : الآية رقم (١٥٣).

والمنكر﴾[١].

وقال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ [٢]. وقال تعالى أيضًا : ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقًا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ [٣].

قال الحافظ ابن كثير: « قوله: ﴿لا نسألك رزقًا نحن نرزقك﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[٥]» أهـ.

وكان ﷺ إذا حزبه[٦] أمر صلّى كما جاء عند أبي داود[٧]، وأحمد[٨]، ومن طريق أحمد رواه أبو نعيم[٩] من حديث حذيفة – رضي الله عنه – سكت عليه أبو داود. وقال المنذري[١٠]: وذكر بعضهم أنه مرسل. وقد ذكر المزي[١١]

(١) سورة العنكبوت : من الآية رقم (٤٥).

(٢) سورة الذاريات: من الآيات رقم (٥٦-٥٨).

(٣) سورة طه : الآية رقم (١٣٢).

(٤) سورة الطلاق : من الآيتين رقم (٢-٣).

(٥) سورة الذاريات: آية رقم ٥٦ ، وانظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٢٣٠).

(٦) حزبه أمر : أي نزل به مهم أو أصابه غم. النهاية في غريب الحديث (١/٣٧٧).

(٧) السنن، كتاب الصلاة، باب أي الليل أفضل (٢/٣٥).

(٨) المسند (٥/٣٨٨).

(٩) معرفة الصحابة (٤/١٨٨١).

(١٠) مختصر سنن أبي داود (٢/٩٤).

(١١) تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف (٣/٥٠).

الروايات المسندة والروايات المرسلة ولم يرجح، لكن أفاد ابن حجر[1] أن بعضهم ذكر عبدالعزيز ابن أخي حذيفة في الصحابة على أنه أخو حذيفة بن اليمان فروى حديثه عن النبي ﷺ وصوب أبو نعيم وتبعه ابن حجر بأنه ابن أخي حذيفة كما جاء عند أحمد وأبي داود. وقد اكتفى ابن القيم بعزو الحديث إلى المسند فقط ساكتًا عليه[2].

قلت : والحديث قابل للتحسين، وقد حسنه الألباني[3].

وقد جاء عند الترمذي[4]، وابن ماجه[5]، وأحمد[6] في الحديث القدسي المرفوع: «إن الله سبحانه يقول:يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنىً وأسدُّ فقرك، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً ولم أسُدَّ فقرك» وحسنه الترمذي، واللفظ له، وقريب منه لفظ أحمد وابنِ ماجه فجاء فيهما لفظ «ملأت صدرك» بدلاً من «يديك»، وقال الألباني: صحيـــح[7].

وعند الترمذي[8] أيضًا من حديث أنس – رضي الله عنه – مرفوعًا: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من

(١) الإصابة (٣/١٥٧).

(٢) زاد المعاد (٤/١٩٩).

(٣) صحيح سنن أبي داود (١/٢٤٥).

(٤) الجامع، كتاب صفة القيامة، باب منه (٧/١٦٦).

(٥) السنن، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا (٢/١٣٧٦).

(٦) المسند (٢/٣٥٨).

(٧) صحيح سنن ابن ماجه (٢/٣٩٣).

(٨) الجامع، كتاب صفة القيامة، باب منه، (٧/١٦٥).

الدنيا إلاَّ ما قدر له»، وقال الألباني صحيـــح[١].

وعند ابن ماجة[٢] من حديث زيد بن ثابت – رضي الله عنه – مرفوعًا بنحو حديث أنس السابق. وقال البوصيري[٣]: إسناده صحيح رجاله ثقات، وقال الألباني – أيضًا – : صحيح[٤].

وأحسن ابن قيم الجوزية إذ قال: «الصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومطردة للداء عن الجسد، ومنوِّرة للقلب، ومبيِّضة للوجه، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاط الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنـــزلة للرحمة، وكاشفة للغمة»[٥] أهـ .

وقال المناوي: «الصلاة معينة على دفع جميع النوائب بإعانة الخالق الذي قصد بها الإقبال عليه والتقرب إليه فمن أقبل بها على مولاه حاطه وكفاه لإعراضه عن كل ما سواه، وذلك شأن كل كبير في حق من أقبل بكليته عليه[٦]».

٢ – الحج والعمرة :

وقد ثبت عنه ﷺ أن المتابعـــة بين الحج والعمرة يسبب الغنى، ويطرد

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢/٣٠٠).

(٢) السنن، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا (٢/١٣٧٥).

(٣) مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة (٣/٢٧١).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (٢/٣٩٣).

(٥) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/٢٠٩).

(٦) فيض القدير (٥/١٢٠).

الفقر، فقد جاء في حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – وغيره عند كل من الترمذي[1]، والنسائي[2] وابن ماجه[3] (لكن عند هذا الأخير من حديث عمر – رضي الله عنه –)، وأحمد[4]، أنه قال ﷺ : «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد، والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة». وقال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب من حديث عبدالله بن مسعود، وفي الباب عن عمر وعامر بن ربيعة وأبي هريرة وعبدالله بن حبشي وأم سلمة، قلت: وهذا اللفظ للترمذي وأحمد في الموضع الأول، وعند النسائي قريبًا من هذا اللفظ، وعند ابن ماجه نحوه.

قال المباركفوري قوله: «ينفيان الفقر» يحتمل الفقر الظاهر بحصول غنى اليد، والفقر الباطن بحصول غنى القلب[5].

٣ – الزكاة وما يتبعها من صدقات وصلة أرحام :

أما الزكاة فقد جعلها – سبحانه وتعالى – طهرة للمال ولصاحبه وقيد النعمة بها على الأغنياء الموسرين فما زالت النعمة بالمال على من أدى زكاة ماله، فيحفظه الله عليه وينميه له، ويدفع عنه بها الآفات والمهلكات، ويجعلها سورًا عليه وحصنًا منيعًا وحارسًا أمينًا له.

ولهذا قال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن

---

(١) الجامع، كتاب الحج، باب ما جاء في ثواب الحج (٣/٥٣٨).

(٢) السنن، كتاب الحج، باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة (٥/١١٥).

(٣) السنن، كتاب المناسك، باب فضل الحج والعمرة (٢/٩٦٤).

(٤) المسند (١/٣٨٧)، (٣/٤٤٦)، (٣/٤٤٧).

(٥) تحفة الأحوذي (٣/٥٣٩).

صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾ [١]. وفي حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – المرفوع عند كل من أبي داود[٢]، والحاكم[٣]، والبيهقي[٤]: لما نزلت هذه الآية : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾[٥]، قال: كبر ذلك على المسلمين، وفيه أن الرسول ﷺ قال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث لتكون لمن بعدكم». هذا لفظ أبي داود، وهو عند الحاكم، والبيهقي بنحوه، وقال الحاكم عقبه: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قلت : والحديث عند أبي داود بسند متصل، رجاله ثقات لا مطعن في واحد منهم، ما خلا جعفر بن إياس (أبو بِشْر) فإنه وإن وثقه ابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم الرازيان، والعجلي، والنسائي، والبرديجي، وقال ابن عدي: أرجو أنه لا بأس به، وقد احتج به الجماعة، إلا أن شعبة قال حديثه عن مجاهد من صحيفة – يعني أنه لم يسمع منه – وحديثه هنا هو من روايته عن مجاهد عن ابن عباس[٦]، فالله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وما آتيتم من زكاة تريدون بها وجه الله فأولئك هم المُضْعِفُون﴾[٧].

قال القرطبي: «في معناه قولان: أحدهما: أنه تضاعف لهم الحسنات،

---

(١) سورة التوبة : الآية رقم (١٠٣).

(٢) السنن، كتاب الزكاة، باب في حقوق المال (١٢٦/٢).

(٣) المستدرك (٤٠٩/١).

(٤) السنن الكبرى (٨٣/٤).

(٥) سورة التوبة: الآية رقم (٣٤).

(٦) تهذيب التهذيب (٨٣/٢-٨٤)، هدي الساري (ص ٣٩٥).

(٧) سورة الروم : الآية رقم (٣٩).

والآخر: أهم قد أضعف لهم الخير والنعيم أي هم أصحاب أضعـــاف[1])).

وأما صدقات التطوع والإنفاق وصلة الأرحام: - وقد يدخل (أحيانًا) في مفهومها الصدقة الواجبة - فقد اهتم الإسلام بها اهتمامًا كبيرًا، وقد كان سيد البشر ﷺ أعظم الناس صدقة بما يملك، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وكان سروره بما يعطيه أعظم من سرور من يأخذ منه بما أخذ، وكان يؤثر على نفسه، هذا كله مع تنويع أساليب العطاء بحسب الحالات، وظروف من يعطيهم، وهكذا علّم أصحابه وبهذا أمرهم وكان يدعو للمتصدق منهم، فتحصل لهم البركة بما أنفقوا وبما أصابهم من بركات دعائه ﷺ.

والآيـــات والأحـــاديث التي تبين أن الصدقـــة والإنفاق سبب في جلب الرزق وحصول البركة ودوام النعمـــة كثيرة، ومن ذلك قوله تعـــالـــى: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾[2]. قوله: ﴿ويربي الصدقات﴾: أي ينميها في الدنيا بالبركة، ويكثر ثوابها بالتضعيف في الآخرة[3].

وقال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم﴾[4]. أي أن الشيطان يعد الإنسان ويمنيه بالفقر وفقد الأموال، وذلك بتأدية الزكاة ويأمره بالمعاصي وترك الطاعات.

بينما الله- عز وجل- يعد المؤمنين بغفران ذنوبهم وسترها بتأدية الصدقة، كما يعدهم أن يخلف عليهم فيتفضل عليهم من عطاياه ويسبغ عليهم في أرزاقهم[5].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤١/١٤).

(٢) سورة البقرة : الآية رقم (٢٧٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣٦٢/٣).

(٤) سورة البقرة: الآية رقم (٢٦٨).

(٥) جامع البيان عن تأويل القرآن (٥٧١/٥) بتصرف.

وقال ابن عطية في معنى قوله: ﴿يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾ المغفرة، هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة، والفضل، هو الرزق في الدنيا والتوسعة فيه والنعيم في الآخرة[١].

وقال تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾[٢]. قال القرطبي: «هذه إشارة إلى أن الخلف في الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كانت النفقة في طاعة الله، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفنى ولا تتناهى[٣]».

وقال ابن كثير: «يخلفه عليكم بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب[٤]».

ومن الأحاديث التي بهذا المعنى ما جاء عند مسلم من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أنفق أُنفق عليك»[٥]، وفي الحديث الآخر، قال رسول الله ﷺ : «إن الله قال لي: أنفق أُنفقُ عليك»[٦].

وروى البخاري[٧]، ومسلم[٨]، وأحمد[٩] حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينـــزلان فيقول

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/٤٥٤).

(٢) سورة سبأ : الآية رقم (٣٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٢٩٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٧١٥).

(٥) الصحيح، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف (٢/٦٩٠-٦٩١).

(٦) المصدر السابق.

(٧) الصحيح، كتاب الزكاة باب قول الله تعالى: (فأما من أعطى واتقى ...) (٣/٣٠٤).

(٨) الصحيح، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك (٢/٧٠٠).

(٩) المسند (٢/٣٠٥-٣٠٦).

أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»، هذا لفظ البخاري ومسلم، وهو عند أحمد بنحـــوه.

ذكر ابن حجر أن الحديث فيه الترغيب في الإنفاق في وجوه البر، وأن ذلك موعود عليه بالخلف في العاجل بالزيادة وفي الآجل بالثـــواب[1].

وقال النووي: «الإنفاق الممدوح هنا ما كان في الطاعات وعلى العيال والضيفان والتطوعات[2]».

وقال القرطبي: «وهو يعم الواجبات والمندوبـــات[3]».

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - وغيره مرفوعًا، وفيه لفظ: «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» عند كل من البزار[4]، والطبراني[5]، وأبي نعيـــم[6] والبيهقي في الشعب[7]، وعند بعضهم من حديث بلال وابن مسعود بنحوه أيضـــًا.

وقال البزار عقب حديث أبي هريرة: لا نعلم أحداً رواه عن يونس إلا مبارك، وقال عقب حديث بلال: مرسل. وقال الهيثمي[8]: «إسناد البزار

---

(١) فتح الباري (٣/٣٠٤-٣٠٥) بتصرف.

(٢) فتح الباري (٣/٣٠٥).

(٣) فتح الباري (٣/٣٠٥).

(٤) البحر الزخار، الأحاديث (١٣٦٦، ١٩٧٨)، وانظر كشف الأستار عن زوائد البزار (٤/ ٢٥٠-٢٥١).

(٥) المعجم الكبير، الأحاديث (١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٥، ١٠٢٦).

(٦) الحلية (١/١٤٩)، (٦/٢٧٤).

(٧) شعب الإيمان (٢/١١٨).

(٨) مجمع الزوائد (١٠/٢٤١).

والطبراني حسن.

وقد أطلق العراقي[١] أن الحديث ضعيف من جميع طرقه، لكن قال ابن حجر عقب حديث أبي هريرة: إسناده حسن[٢].

وحديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما عند كل من البخاري[٣]، ومسلم[٤]، وأبي داود[٥]، والترمذي[٦]، والنسائي[٧]، وأحمد[٨]، وعبدالرزاق[٩]، والبيهقي[١٠] أن رسول الله ﷺ قال لها: «أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك». هذا لفظ عند البخاري ومسلم وأحمد إلا أنه قال عند مسلم «انفحي أو انضحي أو أنفقي ولا تحصي...» وعند هؤلاء – أيضًا – وعند الآخرين بنحوه، وقد اقتصر بعضهم على الشطر الأول فقط أو الشطر الثاني من الحديث.

قال النووي: «ولا تحصي...» معناه: يمنعك كما منعت ويقتر عليك كما قترت، ويمسك فضلـه عنك كما أمسكته، وقيل معنى لا تحصي: أي لا

(١) المغني عن حمل الأسفار حديث (٤٠٩٢)، وانظر : فيض القدير شرح الجامع الصغير (٦١/٣).

(٢) مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد (٤٩٤/٢).

(٣) الصحيح كتاب الزكاة، باب التحريض على الصدقة (٢٩٩/٣-٣٠٠)، وباب الصدقة فيما استطاع (٣٠١/٣)، وكتاب الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها (٢١٧/٥).

(٤) الصحيح، كتاب الزكاة، باب الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء (٧١٣/٢).

(٥) السنن، كتاب الزكاة، باب في الشح (١٣٤/٢).

(٦) الجامع، كتاب البر، باب ما جاء في السخاء (٩٤/٦).

(٧) السنن، كتاب الزكاة، باب الإحصاء في الصدقة (٧٤/٥).

(٨) المسند (٣٤٤/٦، ٣٤٥، ٣٤٦).

(٩) المصنف (١٠٨/١١).

(١٠) السنن الكبرى (١٨٧/٤).

تعديـــه فتستكثريه فيكون سببًا لانقطاع إنفاقك[1].

وقال ابن حجر : «النهي عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة، لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب فحقه أن يعطي ولا يحسب، والإحصاء عد الشيء لأن يدخر ولا ينفق منه،وأحصاه الله قطع البركة عنه، أو حبس مادة الرزق أو المحاسبة عليه في الآخرة[2] ».

وقال السندي: لا تمنعي ما في يدك فيشدد الله عليك أبواب الرزق، وفيه أن السخاء يفتح أبواب الرزق والبخل بخلافه[3].

وقال المباركفوري: «دل الحديث على أن الصدقة تنمي المال وتكون سببًا إلى البركة والزيادة فيه، وأن من شح ولم يتصدق فإن الله يوكي عليه ويمنعه من البركة في ماله والنماء فيه[4]».

وحديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعًا عند كل من مسلم[5]، والترمذي[6]، والدارمي[7]، وأحمد[8] بلفظ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد

---

(١) شرح صحيح مسلم (١١٩/٧).

(٢) فتح الباري (٣٠١/٣).

(٣) حاشية السندي على سنن النسائي (٧٤/٥-٧٥).

(٤) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي (٩٤/٦).

(٥) الصحيح، كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع (٢٠٠١/٤).

(٦) الجامع، كتاب البر، باب ما جاء في التواضع (١٧٧/٦).

(٧) السنن (٣٣٣/١).

(٨) المسند (٢٣٥/٢).

الله عبدًا بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قلت : هذا لفظ مسلم، والترمذي والدارمي، ولفظ أحمد بنحوه.

معنى «ما نقصت صدقة من مال» أي ما نقصت صدقة مالاً، أو بعض مال، أو شيئًا من مال، بل تزيد أضعاف ما يعطي منه بأن ينجبر بالبركة الخفية وذلك بدفع المضرات، أو بالعطية الجلية، أو بالمثوبة العليـــة[١].

وحديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعًا عند كل من البخاري[٢]، ومسلم[٣] وغيرهما: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبتان، (وفي لفظ جُنتان) من حديد من ثُدَيِّهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت – أو وفرت – على جلده حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقه مكانها، فهو يوسِّعها ولا تتسع». هذا لفظ البخاري، وهو عند مسلم بنحوه.

فـــبين الحديـــث أن المـــنفق يستره الله تعالى بنفقته ويستر عوراته في الدنيا والآخـــرة، ويـــنمي ماله بالصدقة والإنفاق، كستر هذه الجبة وضفائها على لابسها، وأمـــا البخـــيل فهو كمن لبس جبة إلى ثدييه فقط فيبقى مكشوفًا بادي العورة مفتضحًا في الدنيا والآخرة وذلك بمحق ماله في الدنيا وحسناته في الآخرة[٤].

---

(١) انظر : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (١٧٧/٦).

(٢) الصحيح، كتاب الزكاة، باب مثل المتصدق والبخيل (٣٠٥/٣)، وكتاب الجهاد، باب ما قيل في درع النبي – صلى الله عليه وسلم – (٩٩/٦)، وكتاب الطلاق، باب الإشارة في الطلاق (٤٣٧/٩)، وكتاب اللباس، باب جيب القميص (٢٦٧/١٠).

(٣) الصحيح، كتاب الزكاة، باب مثل المنفق والبخيل (٧٠٨/٢-٧٠٩).

(٤) شرح صحيح مسلم (١٠٩/٧) بتصرف.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الدعاء للمتصدق وباذل المال له أهمية كبيرة في حصول النماء والبركة، فقد كان النبي ﷺ يدعو لمن يدفع الزكاة، أو الصدقات ويأمر عماله بأن يدعوا لمن يبذل المال كذلك، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

فقد قال عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم، قال: «اللهم صلِّ عليهم». فأتاه أبي أبو أوفى بصدقته فقال: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى»[١]. يريد هنا الدعاء له. ويقول أحيانًا: «اللهم بارك فيه وفي إبله»[٢] إذا كانت الصدقة إبلاً، وهكذا.

وأما صلة الرحم : فقد أمر الله تعالى بصلة الأرحام وهي الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال، وأكد على ذلك الرسول الكريم ﷺ، وبين أن في صلة الأرحام خيرات كثيرات، من زيادة في العمر، وفي الرزق، والذكر الجميل، والدرجات الرفيعة في الآخرة بفضل الله تعالى ومنِّه وكرمه. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ [٣].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عند البخاري[٤] ومسلم[٥]

---

(١) انظر : صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة (٢٨٦/٣).
وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقته (٧٥٦/٢-٧٥٧).

(٢) سنن النسائي، كتاب الزكاة، باب الجمع بين المتفرق (٣٠/٥).

(٣) سورة محمد : الآيتان رقم (٢٢-٢٣).

(٤) الصحيح، كتاب التفسير باب (وتقطعوا أرحامكم) (٥٧٩/٨)، وكتاب الأدب، باب من وصل وصله الله (٤١٧/١٠)، وكتاب التوحيد، باب قول الله تعالى (يريدون أن يبدلوا كلام الله) (٤٦٥/١٣).

(٥) الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (١٩٨١/٤).

وغيرهما مرفوعًا بطرق وألفاظ عديدة: «خلق الله الخلق فلما فرغ منه، قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال له: مه، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فذاك». قال أبو هريرة: فاقرأوا إن شئتم: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾. **هذا لفظ البخاري، وعند مسلم بنحوه مختصر.**

وحديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عند البخاري[1]، وحديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم[2] مرفوعًا ولفظه: «إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله: من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته». هذا لفظ البخاري، وعند مسلم بنحوه.

وحديث عبدالرحمن بن عوف – رضي الله عنه – عند الترمذي[3]، مرفوعـــًا قال الله تبارك وتعالى: «أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتتُّه». وقال الترمذي : حديث صحيح.

وحديث عبدالله بن عمرو عند كل من البخاري[4] والترمذي[5]، مرفوعًا بلفظ: «ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قُطِعَتْ رحمُه وصلها»، هذا لفظ البخاري، والترمذي مثله إلا أنه قال: «انقطعت رحمه» بدلاً من «قطعت رحمه». وقال الترمذي عقبه: حديث حسن صحيح، وفي الباب عن سلمان وعائشة.

---

(١) الصحيح، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله (١٠/٤١٧).

(٢) الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٤/١٩٨١).

(٣) الجامع، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم (٦/٣٣).

(٤) الصحيح، كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ (١٠/٤٢٣).

(٥) الجامع، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في صلة الرحم (٦/٣٥).

ومن الأحاديث التي جاء فيها أن صلة الرحم من الأسباب الجالبة للرزق والبركة ما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من سرَّه أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه». وفي لفظ: «من أحب أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه». عند كل من البخاري[1]، ومسلم[2]، وهو عند أبي داود[3] بنحوه.

وفي حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – المرفوع عند كل من الترمذي[4]، وأحمد[5]، والحاكم[6]، وغيرهم وفيه: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر». وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه، وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقد أخرجه الطبراني[7] بنحوه من حديث العلاء بن خارجة مرفوعًا. وقال الهيثمي[8] بعد أن عزاه للطبراني في الكبير: رجاله موثقون.

مما سبق – ومن خلال إمعان النظر في أقوال العلماء شراح الأحاديث – يمكن الخروج بما يأتي:

١ – تأكيد صلة الرحم وأن الله تعالى اشتق اسمها من اسمه عز وجل

---

(١) الصحيح، كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق (٣٠١/٤)، وفي كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم (٤١٥/١٠).

(٢) الصحيح، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم (١٩٨٣/٤).

(٣) السنن، كتاب الزكاة، باب في صلة الرحم (١٣٢/٢–١٣٣).

(٤) الجامع، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعليم النسب (١١٣/٦).

(٥) المسند (٣٧٤/٢).

(٦) المستدرك (١٦١/٤).

(٧) المعجم الكبير (٩٨/١٨).

(٨) مجمع الزوائد (١٩٣/١)، و (١٥٢/٨).

وأنه أنزلها في جواره، وفي حمايته، وجار الله – عز وجل – غير مخذول.

٢ – تحريم قطيعة الرحم، وأن القاطع لها مقطوع من رحمة الله سبحانه وعظيم إحسانه، مخذول دنيا وآخرة.

٣ – الرحم التي أمر الله بوصلها رحم عامة وخاصة، فالعامة رحم الدين وتجب مواصلتها بالتوادد والتناصح والعدل والإنصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة.

وأما الرحم الخاصة فتزيد على الرحم العامة، النفقة على الأقرباء وتفقد أحوالهم، والتغافل عن زلاتهم، وقضاء حوائجهم، ودفع الضرر عنهم والبشاشة والدعاء لهم، إذا كانوا من أهل الاستقامة والصلاح، فإن كانوا عصاة فساقًا، فمقاطعتهم بعد بذل الوسع في نصحهم هو صلتهم، مع الدعاء لهم بالهداية بظهر الغيب.

٤ – أما فائدة صلة الرحم وهذا هو بيت القصيد هنا، فهي أن الواصل، لا يزال موصولاً بالإحسان العظيم من الرحمن الرحيم، وبحصول الرزق ودفع الضر، وتوالي البركات، والتوفيق في الحياة، والسرور والحبور بعد الممات. وهذا يدرك كثيرًا بالحس والمشاهدة، ويتحدث الناس به ويعرفونه. وقد سبق حديث أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما بأن الواصل، يبسط له في رزقه.

قال النووي: «بسط الرزق: توسيعه وكثرته، وقيل: البركة فيه[1]». وقال الحافظ ابن حجر: قال العلماء: معنى البسط في الرزق البركة فيه، لأن صلة أقاربه صدقة، والصدقة تربي المال وتزيد فيه فينمو بها ويزكو[2].

هــذا فيما يتعلق بحصول البركة في الرزق وأما الفوائد الأخرى فهي كثيرة وليس هنا محل ذكرها.

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٦/١١٤).

(٢) فتح الباري (٤/٣٠٣).

المطلب الثّاني:

التّوكُّل على الله – سبحانه وتعالى – مع الأخذ بالأسباب

حقيقة التوكّل هو اعتماد القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولابد – مع هذا الاعتماد واليقين – من مباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباها قدرًا وشرعًا، وتعطيل هذه الأسباب يعد قادحًا في نفس التوكل معطلاً للحكمة والشرع[1].

ويأتي التوكل بعد حصول التقوى كأثر من آثارها ولازم من لوازمها، ولذا قال تعالى: ﴿ واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ [3].

فهكذا جعل الله تعالى – في هاتين الآيتين – التوكل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على الله فهو حسبه وكافيه.

قال القرطبي: «التوكل هو: الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب، وتحرز من عدو وإعداد ...» أهـ[4]. وقال الإمام القشيري: «اعلم أن التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بالقلب، بعدما يحقق العبد أن الرزق من قبل الله تعالى، فإن تعسر شئ فبتقديره، وإن تيسَّر شئ فبتيسيره[5]».

وقد ذكر الله تعالى موقف الرسول ﷺ وأصحابه عندما خوفهم بعض الناس –

---

(١) زاد المعاد (٤/١٥) بتصرف.

(٢) سورة المائدة : الآية رقم (١١).

(٣) سورة الطلاق : الآيتان رقم (٢-٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٤/٢٠٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٧/٩).

كيدًا بهم – عدوَّهم قريشًا ومن معهم بأنهم قد جمعوا لهم إذ قال تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾[١]. فهكذا خوفهم بعض الناس من عدوهم مشركي مكة ومن معهم فما كان من المؤمنين إلا أن قالوا: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، توكلوا على الله بعد الأخذ بالأسباب فكفاهم الله ما أهمهم ورد عنهم بأس من أراد كيدهم من المشركين عقب أُحُد فانقلبوا بنعمة السلامة، وزيادة من فضل الله مما شروا وتجروا من السوق فربحوا[٢].

وقد كان رسول الله ﷺ سيد المتوكلين على ربه، يأمر بالتوكل على الله والانقطاع إليه بعد الأخذ بالأسباب في كل الأحوال، وتصديق ذلك من سنته ﷺ ما جاء في حديث عمران بن الحصين – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ : «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها». أخرجه الطبراني في الأوسط[٣] والصغير[٤] ومن طريقه أبو بكر الخطيب[٥]، وأخرجه أيضًا البيهقي[٦]، وابن أبي حاتم[٧]، بهذا اللفظ وقال الطبراني عقبه في الصغير: لم يروه عن هشام بن حسان إلا الفضيل بن عياض، تفرد به إبراهيم بن الأشعث الخراساني. وقال الهيثمي[٨]

---

(١) سورة آل عمران : الآيتان رقم (١٧٣-١٧٤).

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥٧٢/١) باختصار شديد.

(٣) المعجم الأوسط (٢١٥/٤-٢١٦).

(٤) المعجم الصغير (١١٦/١).

(٥) تاريخ بغداد (١٩٦/٧).

(٦) شعب الإيمان (٢٨/٢، ١٢٠).

(٧) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٣٦٦٠/١٠).

(٨) مجمع الزوائد (٣٠٣/١٠-٣٠٤).

بعد أن عزاه للطبراني في الأوسط: فيه إبراهيم بن الأشعث صاحب الفضيل، وهو ضعيف، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: يُغرب ويخطئ ويخالف، وبقية رجاله ثقات.

قلت : ويشهد لهذا الحديث ما ذكر بعده من أحاديث كما يشهد له ظاهر القرآن، والله أعلم.

وحديث عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – مرفوعًا عند كل من: أبي داود[(١)]، والترمذي[(٢)]، وأحمد[(٣)]، والطبراني[(٤)]، والحاكم[(٥)] بلفظ: ((من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل))، وفي لفظ آخر: ((من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمنًا من أن لا تسهل حاجته، ومن أنزلها بالله آتاه الله برزق عاجل أو بموت آجل)). اللفظ الأول للترمذي، واللفظ الآخر لأحمد، والباقون بنحوه عندهما. وقال الترمذي بعده: حديث حسن صحيح غريب. وقال الحاكم عقبه: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

فبين في هذا الحديث أن من حصل له حاجة شديدة من فقر أو ضيق معيشة فعرضها على الناس وأظهرها بطريق الشكاية لهم، وطلب إزالة فاقته منهم لم تسدَّ فاقته ولم تقض حاجته، وهكذا كلما سد حاجة أصابته أخرى أشد منها. لكن إذا أنزلها بالله واعتمد على مولاه فإن الله يعجل له ويسرع برزق عاجل أي يسار وغنى، أو بموت قريب له غني فيرثه[(٦)].

---

(١) السنن، كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف (١٢٢/٢).

(٢) الجامع. كتاب الفتن، ، باب ما جاء في هم الدنيا (٦١٧/٦-٦١٨).

(٣) المسند (٣٨٩/١، ٤٤٢).

(٤) المعجم الكبير (١٥/١٠).

(٥) المستدرك (٤٠٨/١).

(٦) انظر : تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (٦١٨/٦-٦١٩) بتصرف.

وقد قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: «كنت خلف النبي ﷺ يومًا، فقال: يا غلام إني أعلّمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفّت الصحف» أخرجه الترمذي[١] وأحمد[٢] وهذا اللفظ للترمذي، ولفظ أحمد قريب منه، وقال الترمذي بعده: حديث حسن صحيح.

كما ذكر الترمذي بعده بنفس الباب حديث أنس – رضي الله عنه – : أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «أعقلها وتوكل» يريد ناقته. وقال الترمذي عقبه: حديث غريب من حديث، أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وعن حبة وسواء ابني خالد – رضي الله عنهما – قالا: دخلنا على النبي ﷺ وهو يعالج شيئـــاً، فأعناه عليه، فقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحمر، ليس عليه قشر، ثم يرزقه الله عز وجل» عند كل من: إبن ماجه[٣]، وابن حبان[٤]، وأحمد[٥]، والطبراني[٦]، واللفظ عندهم

(١) الجامع، كتاب القيامة، باب منه (٧/٢١٩–٢٢٠).

(٢) المسند (١/٢٩٣، ٣٠٧).

(٣) السنن، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين (٢/١٣٩٤).

(٤) الصحيح (الإحسان) (٨/٣٤) رقم (٣٢٤٢) ولفظ ابن حبان: (لا تنافسا في الرزق ما هزت رؤوسكما ...).

(٥) المسند (٣/٤٦٩).

(٦) المعجم الكبير (٤/٧–٨).

إلا ابن حبان فهو عنده بنحوه. وقال البوصيري[1]: «إسناد حديثهما صحيح رجاله ثقات»، لكن قال ابن حجر[2]: روى الحديث ابن ماجه بإسناد حسن.

قلت : والقلب إلى تحسينه أميل، وذلك لأن سلاّم[3] بن شرحبيل أحد رواته مقبول عند الحافظ ابن حجر، ولم يوثقه سوى ابن حبان، لكنه من التابعين الذين لم يعرفوا بكبير رواية ولم يشتهروا فتقادم العهد بهم، وصعب الاطلاع على حالهم فأجاز العلماء روايتهم واحتملوهـــا.

وروى الـــترمذي[4]، وابـــن مـــاجـــه[5]، وأحمد[6]، والحاكـــم[7] حديث عمـــر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله يقول: «لو أنكم توكلـــتم عـــلى الله حـــق توكله، لـــرزقكم كما يرزق الطـــير، تغدو[8] خماصـــًا[9]، وتروح[10] بطانا[11]». هذا لفظ ابن ماجه وأحمد في الموضع الثاني، وكذا الحاكم، وعند الترمذي وأحمد في الموضع الأول «لو أنكم كنتم توكلون»

---

(١) مصباح الزجاجة (٣/٢٨٤).

(٢) الإصابة (١/٣٠٤) ترجمة حبة بن خالد.

(٣) انظر ترجمة سلام هذا في التهذيب (٤/٢٨٥)، تقريب التهذيب (ص ٢٦١).

(٤) الجامع، كتاب الزهد، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا (٧/٨).

(٥) السنن، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين (٢/١٣٩٤).

(٦) المسند (١/٣٠، ٥٢).

(٧) المستدرك (٤/٣١٨).

(٨) الغدو: هو: السير أول النهار نقيض الرواح. النهاية في غريب الحديث (٣/٣٤٦).

(٩) خماصًا : أي ضامرة البطون جياعًا. النهاية في غريب الحديث (٢/٨٠).

(١٠) تروح : من الرواح آخر النهار. النهاية في غريب الحديث (٢/٢٧٢) بتصرف.

(١١) بطانًا : أي ممتلئة البطون. النهاية في غريب الحديث (١/١٣٦).

والباقي بنحوه. وقال الترمذي عقبه: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ولم يتعقبه الذهبي.

وهكذا يتضح مما سبق أن التوكل والانقطاع إلى الله سبب في حصول الرزق والبركة فيه وقضاء الحاجات، ورفع الحرج والضيق بإذن الله تعالى.

المطلب الثّالث:

التّسمية في كلّ الأحوال

التسمية، والذكر والدعاء، والشكر، والتوبة، والاستغفار، وإن كانت هذه العبادات تبدو متداخلة من حيث الظاهر ويمكن أن تندرج جميعها تحت مسمًّى الذكر، إلا أنها في الحقيقة تجتمع وتفترق، وفي كلٍّ منها معنًى زائد على باقيها فيما يتعلق بموضوع البحث، لذا رأيت أن أفرد كل نوع منها على حدة.

فأما التسمية : فقد ثبت أنه ﷺ كان يذكر اسم الله تعالى ويسمي في كثير من الأحيان، ويأمر أصحابه بذلك وذلك لما يحصل من ذكر اسم الله تعالى من البركة، وطرد الشيطان ومنع مشاركته الإنسان إلا فيما لم يذكر اسم الله تعالى عليه.

قال تعالى: ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورَجِلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا ﴾[1].

فسَّر بعض العلماء المشاركة هنا بأشياء كثيرة: منها مشاركة الشيطان للمجامع زوجته إذا لم يذكر اسم الله تعالى فقد جاء عند البخاري[2] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أما إن أحدكم إذا أتى أهله

---

(١) سورة الإسراء : الآية رقم (٦٤).

(٢) الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٦/٣٣٥)، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٧٠-٧١).

وقال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فرزقا ولدًا، لم يضره الشيطان».

وأصرح حـــديث بالأمـــر بالتسمية وبخاصة عند الطعام، هو ما جاء عند أبي داود[1]، والترمذي[2]، والحاكم[3]، وغيرهم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فـــإن نســـي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله، فليقل: بسم الله أوله وآخره». هذا لفظ أبي داود، وعند الترمذي والحاكم بنحوه. وقال الحاكم عقبه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه أيضًا ابن قيم الجوزية[4].

وقد جاء عند البخاري[5]، ومسلـــم[6] وغيرهما أيضًا حديث عمر بن أبي سلمة وفيه أن النبي ﷺ قال له: «يا غلام سمِّ الله وكل بيمينك، وكل مما يليك ...».

وتظهر فائدة التسمية بشكل جلي من خلال الأحاديث التالية:

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «كلُّ أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر» وفي لفظ: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أقطع» وفي رواية: «فهـــو أجذم» أخرجه كل من ابن ماجه[7]، وأبي داود[8]،

---

(١) السنن، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام (٣/٣٤٧).

(٢) الجامع، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في التسمية على الطعام (٥/٥٩٤-٥٩٥).

(٣) المستدرك (٤/١٠٨).

(٤) زاد المعاد (٢/٣٩٧).

(٥) الصحيح، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام، والأكل باليمين (٩/٥٢١).

(٦) الصحيح، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، وأحكامهما (٣/١٥٩٩).

(٧) السنن، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح (١/٦١٠).

(٨) السنن، كتاب الأدب، باب الهدي في الكلام (٤/٢٦١).

وابن حبان[١]، والدارقطني[٢]، والنسائي[٣]، واللفظ الثاني هو الأكثر، والأشهر، وقد ذكر طرقه السبكي وصححه[٤]، وقال النووي[٥]: هذا الحديث حسن ... روي موصولاً ومرسلاً، ورواية الموصول إسنادها جيد، ومعنى أقطع: قليل البركة، وكذلك أجذم. أهـ .

وقال المحشي على سنن ابن ماجه: قال السندي: الحديث حسنه ابن الصلاح والنووي[٦].

قال الحافظ ابن حجر عند الكلام على كتاب النبي ﷺ لهرقل: (فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم: قال النووي: فيه استحباب تصدير الكتب ببسم الله الرحمن الرحيم ويحمل قوله في حديث أبي هريرة: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع» أي بذكر الله كما جاء في رواية أخرى فإنه روي على أوجه بذكر الله، ببسم الله، بحمد الله، قال: وهذا الكتاب كان ذا بال من المهمات العظام ولم يبدأ فيه بلفظ الحمد بل بالبسملة)[٧].

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عند كل من مسلم[٨]، وأبي داود[٩]،

---

(١) الصحيح (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان) (١/١٧٣-١٧٥) حديثا (١، ٢).

(٢) السنن (١/٢٢٩).

(٣) عمل اليوم والليلة (ص ٣٤٥-٣٤٦).

(٤) طبقات الشافعية الكبرى (١/٥-٢١).

(٥) شرح مسلم (١/٤٣).

(٦) وانظر : شرح صحيح مسلم للنووي (١٣/١٨٥).

(٧) فتح الباري (٨/٢٢٠).

(٨) الصحيح، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب (٣/١٥٩٨).

(٩) السنن، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام (٣/٣٤٦-٣٤٧).

وابن ماجه[١]، وأحمد[٢]، أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء»، هذا لفظ مسلم، والباقون بنحوه وعندهم في أوله زيادة.

وعن عائشة رضي الله عنها عند كل من الترمذي[٣]، وابن ماجه[٤] قالت: «كان رسول الله ﷺ يأكل طعامًا في ستة من أصحابه فجاء أعرابي فأكله بلقمتين فقال رسول الله ﷺ أما إنه لو سمَّى لكفاكم». هذا لفظ الترمذي، ولفظ ابن ماجه بنحوه، وفيه عنده زيادة، وقال الترمذي عقبه: هذا حديث حسن صحيح، وصححه – أيضًا – الألباني[٥].

وقد ثبت عند البخاري[٦] ومن حديث غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم مرفوعًا: «أن المؤمن يأكل في معىً واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء».

مما سبق، ومن خلال النظر في كتب شروح الحديث يتبين ما يلي:

١ – أهمية التسمية على كل أمر ذي بال، وأنها جالبة للخير والبركة، طاردة للشيطان الملعون المطرود الذي يمحق البركة ويسر للمعصية. ومما يدل على أهمية التسمية أيضًا أن كثيرًا ممن خرج الأحاديث السابقة عقدوا تراجم أبوابهم بذكر التسمية كما هو ملاحظ.

---

(١) السنن، كتاب الدعاء، باب ما يدعو به إذا دخل بيته (١٢٧٩/٢).

(٢) المسند (٣٤٦/٣، ٣٨٣).

(٣) الجامع، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في التسمية على الطعام (٥٩٥/٥).

(٤) السنن، كتاب الأطعمة، باب التسمية عند الطعام (١٠٨٦/٢-١٠٨٧).

(٥) صحيح سنن ابن ماجه (٢٢٤/٢).

(٦) الصحيح، كتاب الأطعمة، باب المؤمن يأكل في معىً واحد (٥٣٦/٩).

٢ – يستحب التسمية في أوَّل كل أمر ذي بال كالدخول، والخروج، والأكل، والشراب، والوزن، والكيل، وعدَّ النقود، واللباس، والجماع، ويلحق بها ما في معناها، وحمد الله تعالى في آخره. وقد نقل النووي الإجماع على استحباب التسمية وقال: فإن الشيطان يتمكن من أكل الطعام إذا شرع فيه إنسان بغير ذكر الله تعالى، وأكل الشيطان محمول على ظاهره وأنه يأكل حقيقة إذ العقل لا يحيله، والشرع لم ينكره، بل أثبته، فوجب قبوله واعتقاده[١].

٣ – وقد قيل : إن معنى ذلك هو استحسان الشيطان رفع البركة من ذلك الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه[٢].

٤ – أن الشيطان لم يسلَّط بإذن الله تعالى على من يسمي من أجل بركة التسمية، لأن في ذكر الله تعالى ودعائه اعتصاماً من الشيطان وأعوانه، فلا يشركهم الشيطان ولا يقربهم، وبذلك تحصل البركة[٣].

المطلب الرّابع: الذّكر والدّعاء

يعد الذكر من أفضل الطاعات، إذ هو سرُّها وروحها، وهو أكبر من كل شئ، وأفضل من كل شئ، ﴿ولذكر الله أكبر﴾[٤]. ولذا فقد كان ﷺ : ((يذكر الله على كل أحيانه)) كما جاء عند البخاري[٥]، ومسلم[٦]، وغيرهما.

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٣/٨٨–٩٠) بتصرف، وانظر الأذكار للنووي (ص٣٠٥–٣٠٧).

(٢) انظر : فتح الباري (٩/٥٢٢).

(٣) فتح الباري (٩/٢٢٩) ببعض التصرف.

(٤) سورة العنكبوت : من الآية رقم (٤٥).

(٥) الصحيح، كتاب الحيض باب تقضي الحائض المناسك كلها... (١/٤٠٧). وكتاب الأذان، باب هل يتبع المؤذن فاه ها هنا (٢/١١٤) وهو في الموضعين معلق.

(٦) الصحيح، كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها (١/٢٨٢).

وملازمة الذكر والدعاء فيه استجلاب كل خير وبركة، ودفع كل بلاء وضر، وقرب من الرحمن ونيل رضاه وبعدٌ عن الشيطان وطرد له ولأعوانه، وقد كان رسول الله ﷺ - أيضًا - يرشد إلى ملازمة الذكر والدعاء، كما أنه يذكر الله على كل أحيانه فإنه يدعو ربه في كل الأحيان بكل خير من خيري الدنيا والآخرة، ويدعو كذلك لأصحابه بما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

فقد جاء عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عند مسلم[1] أنه ﷺ كان يقول: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي..» كما كان ﷺ يقول: «اللهم اغفر لي ذنبي ووسِّع لي في داري، وبارك لي فيما رزقتني» عند الترمذي[2]، وأحمد[3]، والنسائي[4]، وابن السني[5]، اللفظ للترمذي والباقون بنحوه. وقال الترمذي: غريب وصححه النووي[6].

وقد جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ كما في حديث سعد بن أبي وقاص عند مسلم[7] فقال: علمني كلامًا أقوله، قال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم». قال: فهؤلاء لربي، فما لي؟. قال: «قل اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني».

---

(١) الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من شر ما عمل (٤/٢٠٨٧).

(٢) الجامع، كتاب الدعوات، باب منه ،٨٢ (٩/٤٧٤).

(٣) المسند (٤/٣٩٩).

(٤) عمل اليوم والليلة (ص ١٧٢).

(٥) عمل اليوم والليلة (ص ٢).

(٦) الأذكار (ص ٢١).

(٧) الصحيح، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٤/٢٠٧٢).

وجاء عند أحمد[١] والترمذي[٢] والحاكم[٣] من حديث أبي وائل قال أتى عليًا – رضي الله عنه – رجل فقال يا أمير المؤمنين إني عجزت عن مكاتبتي فأعني، فقال علي – رضي الله عنه – ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ لو كان عليك مثل جبل ثبير[٤] دنانير لأدَّاه الله عنك، قلت: بلى، قال: «قل اللهم اكفني بحلالك عن حرامك واغنني بفضلك عمن سواك» اللفظ لأحمد، ولفظ الترمذي بنحوه، وحسنه الترمذي، وكذا الألباني[٥] وقال الحاكم عقبه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وقد ثبت في الصحيح عند البخاري[٦] من حديث أنس – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ دعا له فقال: «اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته».

وجاء عند الإمام أحمد[٧] من حديث عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما – المرفوع وفيه ذكر وصية نوح – عليه السلام – لابنيه عندما حضرته الوفاة ومما جاء فيه: «آمركما بلا إله إلا الله .. وآمركما بسبحان الله، وبحمده، فإنها

---

(١) المسند (١/١٥٣).

(٢) الجامع، كتاب الدعوات، أحاديث شتى من أبواب الدعوات (١٠/٨).

(٣) المستدرك (١/٥٣٨).

(٤) في معظم المصادر بما في ذلك تحفة الأحوذي (صير)، وما أثبته هو الصواب وهو المثبت في نسخة الترمذي تحقيق: أحمد شاكر (٥/٥٢٣)، وقد أخطأ المباركفوري إذ شرح اللفظة صير، قال: ويروى صبير. وعزا ذلك إلى النهاية. والذي في النهاية (١/٢٠٧) وفي معجم ما استعجم (١/٣٣٥) ثبير، بفتح أوله وكسر ثانيه بعده ياء وراء مهملة، جبل بمكة.

(٥) صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/٥١٢).

(٦) الصحيح، كتاب الدعوات، باب قول الله تعالى: وصلِّ عليهم (١١/٣٦)، وباب دعوة النبي – صلى الله عليه وسلم – لخادمه بطول العمر وبكثرة المال (١١/١٤٤).

(٧) المسند (٢/٢٢٥).

صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء». قال العراقي: إسناده صحيح[1]، وقال الهيثمي: رجال أحمد ثقات[2].

وهكذا يظهر جليًا ما للذكر والدعاء من أهمية بالغة في استجلاب الخير والبركة وطرد للمكروه والعوز وإبعاد للشيطان وإرغام له ولجنده. ولهذا لزم الإنسان ملازمة الذكر والدعاء للفوز بالسعادة الأخروية والدنيوية على حد سواء، والله أعلم.

المطلب الخامس: شكر الله تعالى وحمده

الشكر : هو استعمال نعم الله تعالى في محابه، كما قال الغزالي[3]، وقال في موضع آخر: «وجود الزيادة في المال نعمة وشكرها أن تصرف إلى الخيرات أو أن لا تستعمل في المعصية[4]». وقال ابن القيم: «الشكر، هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده، ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادًا وطاعة[5]». وقال القرطبي نحو هـــذا[6].

وقد فرق بعض العلماء جزئيًا بين الحمد والشكر، فجعلوا بينهما عمومًا وخصوصًا من وجه، لكن رجح أبو جعفر الطبري أن الحمد قد يُنطق به في موضع الشكر، وأن الشكر قد يوضع موضع الحمد، لأن ذلك لو لم يكن

---

(١) المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (١/٦٤) حديث رقم ٩٥٢.

(٢) مجمع الزوائد (٤/٢٢٠).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/٨٥).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/١٣١).

(٥) مدارج السالكين (٢/٢٥٤).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٢٦٤)، وانظر – أيضاً – فتح الباري (٣/١٥).

كذلك لما جاز أن يقال: الحمد لله شكرًا[١].

ولذا فسَّر الطبري ﴿الحمد لله﴾ في سورة الفاتحة بالشكر الخالص لله تعالى بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد[٢].

قلت : وهذه النعم الكثيرة التي لا تحصى ولا تستقصى ومن جملتها نعمة المال تستوجب الشكر من الخلق للخالق الرازق المتفضل، وهذا الشكر والحمد له سبحانه سبب من أسباب استجلاب الزيادة، وحصول البركة في المال، تفضلاً منه سبحانه وتعالى ونعمة.

قال ابن القيم : «جعل الله الشكر سببًا للمزيد من فضله وحارسًا وحافظًا لنعمته، وموصلاً الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكورًا[٣]».

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنه يضيق معنى الشكر عند بعض الخلق فيظن أن غايته أن يقول بلسانه الحمد لله، أو الشكر لله، ونحوهما، مع عدم استعانته بالنعمة على المعصية، وإن لم يصرف هذه النعمة إلى الطاعة، وهذا مما لا شك فيه قصور في الفهم، وعن اتباع السلف الصـــالح.

والشكر– في حقيقة الأمر دائرته – أوسع من ذلك، ومجاله أرحب فالصلاة مثلاً شكر، والصيام شكر، وكل خير يعمله الإنسان لله تعالى شكر، واستحياء العبد من تتابع النعم عليه شكر، واعترافه بالتقصير على شكر المنعم عليه، واعتذاره عن تقصيره أيضــاً شكر، وتحدثه بنعمة الله شكر، واعترافه بأن النعمة موهبة من الله تعالى مع أنه لا يستحقها شكر، وتواضعه للنعم والتذلل فيها

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن (١٣٨/١).

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن (١٣٥/١).

(٣) مدارج السالكين (٢٥٢/٢) بتصرف يسير.

للمنعم شكر، وقلة اعتراضه وحسن أدبه مع المنعم، وتلقي النعمة بحسن القبول، وإن كانت بسيطة أو قليلة، واستعظامها وعدم احتقارها أو استصغارها شكر، والتيقن بأن الشكر بحد ذاته هو نعمة من الله تعالى وتوفيقه شكر، وأفضل الشكر هو حمد الله تعالى[1].

وقد أمر سبحانه وتعالى عباده بالشكر، بل إنه قرن سبحانه وتعالى الشكر بالذكر إذ قال: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾[2]. كما وعد بالجزاء على الشكر، بل قطع سبحانه بالمزيد مع الشكر فقال: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾[3]. وقال أيضًا: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾[4]. وقال أيضًا: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[5]. وقال أيضًا: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[6].

وأقوال العلماء المفسرين حول هذه الآيات تؤيد المعاني السابقة في شكر الله سبحانه وتعالى، وتؤكدها، فقد قال أبو جعفر الطبري عند قوله تعالى: ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ أي لا تجحدوا إحساني إليكم فأسلبكم نعمتي التي أنعمت عليكم، ولكن اشكروا لي عليها، وأزيدكم فأتمم نعمتي عليكم،وأهديكم لما هديت له من رضيت عنه من عبادي، فإني وعدت خلقي أن من شكر لي زدته، ومن كفرني حرمته، وسلبته ما أعطيته[7].

---

(١) أشار إلى بعض هذه المعاني ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (٣/٦٩٨).

(٢) سورة البقرة : الآية رقم (١٥٢).

(٣) سورة آل عمران : الآية رقم (١٤٥).

(٤) سورة إبراهيم : الآية رقم (٧).

(٥) سورة الضحى: من الآية رقم (١١).

(٦) سورة سبأ : من الآية رقم (١٣).

(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣/٢١٢).

قلت : وقول أبي جعفر هنا «ومن كفرني» ليس بالضرورة أن يكون هو (الكافر) حقيقة وهو مقابل (المسلم)، ولكن يريد ما هو أعم من هذا، فيدخل فيه من جحد النعمة فلم يظهرها ويؤدي حقها وشكرها على المعاني السابقة، والله أعلم.

وقال القرطبي معلقًا على الآية الأخرى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ أي لئن شكرتم إنعامي عليكم لأزيدنكم من فضلي، والآية نص في أن الشكر سبب المزيد[1].

وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ أي أنشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء، والتحدث بنعم الله، والاعتراف بها شكر، والخطاب للنبي ﷺ، والحكم عام له ولغيره[2]. وأما قوله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ فقد قال القرطبي في معناها: «أي قليل من يفعل ذلك لأن الخير أقل من الشر، والطاعة أقل من المعصية[3]».

قلت : والظاهر – والله أعلم – أن نعم الله كثيرة لا حصر لها، وهي لا تزال متجددة متكاثرة على العباد بفضل الله عز وجل، والشكر بأنواعه وأشكاله يحتاج إلى عزيمة ويقين، فيضعف كثير من الناس، ويقصِّرون في شكر المنعم وحمده حق شكره وحمده، ولذلك كان الشاكرون قليلين، وهم الخاصة، وفي مقدمة هؤلاء الشاكرين إمامهم سيد البشر محمد ﷺ، وذلك لأنه أتقى الخلق، وأعرفهم بحق خالقه وأشكرهم له، يظهر ذلك جليًا من خلال النظر في حاله وسيرته مع أصحابه رضوان الله عليهم، ويبرز ذلك بأمور منها:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/٣٥٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٠/١٠٢-١٠٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٢٦٤-٢٦٥).

١- كـــان ﷺ يجـــتهد في العـــبادة بشتى أنواعها مع أنه مغفور له المتقدم والمـــتأخر من ذنبه، فلقد جاء عند البخاري[١]، ومسلم[٢] من حديث المغيرة بن شعبة وحديث عائشة – رضي الله عنهما – أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقـــدم مـــن ذنبك وما تأخر؟ قال: (أفلا أكون عبدًا شكورًا). هذا لفظ حديث عائشة عند البخاري، وعندهما نحو هذا اللفظ أيضًا.

٢- وقد كان من هديه ﷺ وهدي أصحابه سجود الشكر عند تجدد نعمة تسُرُّ، أو اندفـــاع نقمـــة، كما جاء عند كل من أبي داود[٣]، والترمذي[٤]، وابن ماجه[٥]، وأحمد[٦]، من حديث أبي بكرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ كان إذا أتاه أمر يسرُّه أو يُسَرُّ به خرَّ ساجدًا شكرًا لله تبارك وتعالى. واللفظ لابن ماجه، والباقون بنحوه، وعند أحمد فيه قصة، وقال الترمذي في آخره: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث بكار بن عبدالعزيز، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم، رأوا سجدة الشكر. وعن

---

(١) الصحيح، كتاب التهجد، باب قيام النبي – صلى الله عليه وسلم – الليل (١٤/٣) وكتاب التفسير، باب ليغفر الله لك ... (٥٨٤/٨)، وكتاب الرقاق، باب الصبر على محارم الله (٣٠٣/١١).

(٢) الصحيح، كتاب صفات المنافقين، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٤/ ٢١٧١-٢١٧٢).

(٣) السنن، كتاب الجهاد، باب سجود الشكر (٨٩/٣).

(٤) الجامع، كتاب السير، باب ما جاء في سجدة الشكر (٢٠٠/٥).

(٥) السنن، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة والسجود عند الشكر (٤٤٦/١).

(٦) المسند (٤٥/٥).

عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: لما تاب الله عليه خرَّ ساجدًا. عند ابن ماجه[١]، وقال البوصيري[٢]: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وهو موقــوف، قال ابن حـــزم: لا مغمز في خبر كعب ألبتة، ثم روي عن أبي بكر الصديق «في الأصل أبي الصديق» وعلي بن أبي طالب نحوه. أ.هـــ.

٣- توجيهاته لأصحابه وأقواله في الشكر وبيان فضله. فقد قال ﷺ لمن رآه رثّ الثياب: «ألك مال»؟، قال: نعم، قال: «من أي المال»؟، قال: قد آتاني الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق، قال: «فإذا أتاك الله مالاً فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته» رواه أبو داود[٣]، والنسائي[٤]، والحاكم[٥] هذا لفظ أبي داود والحاكم مثله إلا أنه عنده مطول، وعند النسائي بنحوه عند أبي داود، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وصححه- أيضًا- الألباني[٦].

وعند الترمذي[٧]، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعًا: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»، وقال الترمذي: حديث حسن، ثم قال: وفي الباب عن أبي الأحوص عن أبيه وعمران بن حصين وابن مسعود،

---

(١) السنن، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة والسجدة عند الشكر (١/٤٤٦).

(٢) مصباح الزجاجة (١/٤٤٩).

(٣) السنن، كتاب اللباس، باب في غسل الثوب وفي الخلقان (٤/٥١).

(٤) السنن، كتاب الزينة، باب الجلاجل (٨/١٨١).

(٥) المستدرك (٤/١٨١).

(٦)غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام (ص ٦٣)، وصحيح سنن أبي داود (٢/٧٦٧).

(٧) الجامع، كتاب الأدب، باب ما جاء إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده (٨/١٠٦).

وحسنه – أيضـــاً – الألباني[1].

وقال ﷺ : «من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة فمنك وحدك، لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر، فقد أدَّى شكر يومه، ومن قال: مثل ذلك حين يمسي فقـــــد أدى شكر ليلته».

رواه كل من أبي داود[2]، وابن حبان[3]، واللفظ لأبي داود، وهو عند ابن حبان بنحوه مع شيء من الاختصار، وقد حسَّنه ابن القيم[4]، والنووي[5]، والحافظ ابن حجر[6].

وفي حديث أنس – رضي الله عنه – عند ابن ماجه[7] أنه ﷺ قال: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذه». يعني الذي أداه وفعله من الحمد، أفضل مما أخذ من النعمة،وحسنه البوصيري[8]، وقال النووي: إسناده جيد[9]. وفي الفتوحات الربانية على الأذكار النووية[10]: وفي الحرز، رواه أبو داود والنسائي عن عبدالله بن غنام، وابن حبان والنسائي عن ابن عباس، وقال الحافظ بعد تخريجه: «... حديث حسن».

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٤٦/٢) رقم (١٨٨٤).

(٢) السنن، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح (٣١٨/٤).

(٣) الصحيح (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان) (١٤٢/٣-١٤٣) رقم (٨٦١).

(٤) زاد المعاد (٣٧٣/٢).

(٥) الأذكار (ص ٧٤).

(٦) انظر : التعليق على صحيح ابن حبان (١٤٣/٣).

(٧) السنن، كتاب الأدب، باب فضل الحامدين (١٢٥٠/٢).

(٨) مصباح الزجاجة (١٩٢/٣).

(٩) الأذكار (ص ٧٤).

(١٠) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية (١٠٧/٣).

المطلب السّادس: التّوبة والاستغفار

التوبة : هي الرجوع إلى الله تعالى بالتزام فعل ما يجب، وترك ما يكره، أي هي: الرجوع لما يكرهه الله ظاهرًا وباطنـــًا، إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنـــًا.

والاستغفار: هو محو الذنب، وإزالة أثره ووقاية شره، وستره. والاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمنه، وكل منهما يدخل في مسمَّى الآخر، عند الإطلاق والإفراد، وأما عند الاقتران أي اقتران أحدهما بالآخر كقوله تعالى: ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾[1]، فيكون الاستغفار هنا طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله[2].

قلت : ومن المهـــم هنا أن يُعلم أن التوبة والاستغفار عبادة تَعَبَّدَنا الله تعالى بهـــا باستمرار وعلى الدوام، سواء أوقعت ذنوب أو معاصي أم لم تقع، لكن إن حصلت – وما أكثرها! – إذ الإنسان خطاء، فيجب الإسراع إلى التوبة والندم وكثرة الاستغفار. وهذه العبادة لها أهمية بالغة يصعب استقصاء فضلها وفوائدها هـــنا لكـــن ممـــا لا شك فيه، فيها رضى الرب عز وجل وقربٌ منه، وبعدٌ عن الشيطان، واستجلابٌ الخيرات وحصول البركات، ودفعٌ للشرور والمكروهات، ونصـــوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ناطقة حافلة بهذا، ومن ذلك قـــول هـــود – عليه السلام – لقومه: ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾[3].

ذكر القرطبي: أن الاستغفار يستنزل بـــه الرزق والأمطار، وأن عادًا كانوا

---

(١) سورة هود : من الآية رقم (٣).

(٢) انظر : مدارج السالكين (١/٣٣٢-٣٣٥) بتصرف.

(٣) سورة هود : الآية رقم (٥٢).

أهل بساتين وزروع وعمارة فحبس عنهم المطر فقال لهم هود إن آمنتم وأكثرتم الاستغفار يحيي الله بلادكم ويرزقكم، الأموال والأولاد، ويزيدكم قوة إلى قوتكم[1].

وقال تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا، يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾[2].

واضح – في هذه الآيات – أن التوبة والطاعة وكثرة الاستغفار سبب في بسط الرزق وحصول المال والبركة فيه، وهكذا أرشد نوح – عليه السلام – قومه إلى الطاعة وكثرة الاستغفار، أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه، وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع وأدرَّ لكم الضرع وأمدكم بأموال وبنين، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها[3].

قال ابن كثير: «يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا﴾[4]». وقال الشعبي: خرج عمر– رضي الله عنه – يستسقي فلم يزد.على الاستغفار حتى رجع فأمطروا. فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟. فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنـــزل بها المطر. ثم قرأ: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفارًا﴾ أخرجه كل من عبدالرزاق[5]،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/٥٣–٥٤) بتصرف.

(٢) سورة نوح : الآيات رقم (١٠–١٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن الكريم (١٨/٢٨٩)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٥٤٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/٥٤٦).

(٥) المصنف لعبدالرزاق (٣/٨٧) رقم (٤٩٠٢)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/٢٩٠).

وابن أبي شيبة[١]، وابن أبي حاتم[٢]، والبيهقي[٣]. والشعبي وإن أدرك جماعة من الصحابة وروى عنهم إلا أنه لم يسمع من عمر – رضي الله عنه – كما ذكر غير واحد منهم ابن أبي حاتم[٤]، وقد قال العجلي: لا يكاد الشعبي يرسل إلا صحيحًا، وقال الآجري عن أبي داود: مرسل الشعبي أحب إليّ من مرسل النخعي[٥].

وقد روى الأثر عن عمر غير واحد – أيضًا – منهم عطاء عند عبدالرزاق[٦]، وابن المسيب عند البيهقي[٧]، وأبو وجزة يزيد بن عبيد السعدي عن أبيه عند البيقهي[٨] أيضًا، وفيه قال عبيد السعدي ألا يتكلّم لما خرج له، ولا أعلم أن الاستسقاء هو الاستغفار فمطرنا.

وقد جاء الأثر أيضًا مسندًا مختصرًا عند ابن أبي شيبة قال: ثنا وكيع عن عيسى بن حفص بن عاصم عن عطاء بن أبي مروان الأسلمي عن أبيه قال خرجنا مع عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – نستسقي فما زاد على الاستسقاء[٩].

---

(١) المصنف (٢/٤٧٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٦/٢٠٤٥).

(٣) السنن الكبرى (٣/٣٥١-٣٥٢)، ومعرفة السنن والآثار (٥/١٧٤).

(٤) المراسيل (ص ١٦٠).

(٥) تهذيب التهذيب (٥/٦٧-٦٨)، و لم أقف عليه في (سؤالات أبي عبيد الآجري لأبي داود)، فالله أعلم.

(٦) المصنف (٣/٨٦-٨٧).

(٧) معرفة السنن والآثار (٥/١٧٣-١٧٤).

(٨) السنن الكبرى (٣/٣٥١).

(٩) المصنف (٢/٤٧٤).

قلت : وإسناده متصل ورجاله كلهم ثقات بلا استثناء. وبهذا يصح الأثر عن عمر – رضي الله عنه – والله أعلم.

وقد بين الرسول ﷺ سيِّد الاستغفار كما جاء عند البخاري[1] فقال: «سيد الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ...».

وقد جاء عند البخاري[2] أنه ﷺ قال: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». وعند مسلم[3] قال: قال ﷺ: «إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» وفي رواية «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة». كل هذا مع أنه ﷺ قد غفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه كما جاء في قولـــه تعالى : ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [4]، وقد تقدم في الشكر أنه كان ﷺ يقوم حتى تتفطَّر قدماه. فلما سئل قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا.

وواضح مما سبق أن التوبة والاستغفار سبب لكل خير دنيوي وأخروي.

ومن جملة ذلك حصول الخير والبركة في المال،ودفع كل سوء ومكروه.وقد

---

(١) الصحيح، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار (١١/٩٧-٩٨).

(٢) الصحيح، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي – صلى الله عليه وسلم – في اليوم والليلة (١١/١٠١).

(٣) الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٤/٢٠٧٥-٢٠٧٦).

(٤) سورة الفتح: الآيتان رقم (١-٢).

وجد كذلك نصوص صريحة في هذا.

منها: ما رواه أبوداود[١]، وابن ماجه[٢]، والنسائي[٣]، وأحمد[٤]، والطبراني[٥]، والحاكم[٦]، والبيهقي[٧] من حديث ابن عباس – رضي الله – عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من لزم الاستغفار – وفي لفظ (أكثر) – جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب». وصححه الحاكم، لكن تعقبه الذهبي قائلا: أحد رواته فيه جهالة، وقال المنذري: في إسناده الحَكَم بن مصعب، ولا يحتج به[٨]، كما ضعفه الألباني بسبب الحكم بن مصعب أيضًا[٩].

قلت : وقد رمز السيوطي له بالصحة[١٠]، وقال صاحب التاج: سنده صحيح[١١]، كما قال أحمد شاكر–أيضًا – إسناده صحيح، وقد ذكر الاختلاف في الحكم بن مصعب ورجح تعديله، كما رد على المنذري فقال: وهذا غلو

---

(١) السنن، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار (٢/٨٥).

(٢) السنن، كتاب الأدب، باب الاستغفار (٢/١٢٥٤).

(٣) عمل اليوم والليلة، حديث رقم (٤٥٦).

(٤) المسند (١/٢٨٤).

(٥) المعجم الكبير (١٠/٣٤٢) حديث رقم (١٠٦٦٥).

(٦) المستدرك (٤/٢٦٢).

(٧) السنن الكبرى (٣/٣٥١).

(٨) مختصر سنن أبي داود (٢/١٥٢).

(٩) سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (٧٠٥).

(١٠) الجامع الصغير (٢/١٦٦).

(١١) التاج الجامع للأصول (٥/١٥٠).

منه شديد[1].

وقد روى الربيع بن صبيح أن رجلاً أتى الحسن فشكا إليه الجدوبة، فقال له الحسن: استغفر الله، فأتاه آخر فشكا إليه الفقر، فقال له: استغفر الله، وأتاه آخر فشكا إليه جفاف بساتينه، فقال له: استغفر الله، وأتاه آخر فقال له: ادع الله أن يرزقني ابنًا، فقال له: استغفر الله. فقلنا له: أتاك رجال يشكون إليك أبوابًا، ويسألونك أنواعًا، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال: ما قلت من ذات نفسي في ذلك شيئًا، إنما اعتبرت فيه قول الله تعالى إخبارًا من نبيه نوح – عليه السلام – أنه قال لقومه: ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفارًا يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا ﴾ [2].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر[3] هذا الأثر عن الحسن البصري مع شيء من الاختلاف في الألفاظ، ثم قال: وكأنَّ المُصَنِّف – يريد البخاري – ألمح بذكر هذه الآية إلى أثر الحسن البصري. أهـ .

قلت : والربيع بن صبيح هذا سمع الحسن البصري، وثقه جماعة وضعفه آخرون، لكنه لم يتعمد الكذب، ولا يدلس وقد لخص الحافظ ابن حجر حاله قائلاً: «صدوق سيء الحفظ، وكان عابدًا مجاهدًا، وقد روى له الترمذي وابن ماجه والبخاري تعليقًا[4]».

---

(١) المسند، حديث رقم (٢٢٣٤).

(٢) تفسير الحسن البصري (٥/١٩٩-٢٠٠).

(٣) فتح الباري (١١/٩٨).

(٤) تهذيب التهذيب (٣/٢٤٧-٢٤٨)، التقريب (ص ٢٠٦).

المطلب السّابع: السَّعْي في الكسب أخذًا بالأسباب

مما لا شك فيه أن الحصول على المال يحتاج إلى سعي، واتخاذ الأسباب الجالبة للرزق، والبركة فيه، وقد وجه الشارع العباد إلى العمل، وعدم التواكل أخذًا بالأسباب، فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، ولم يرض الإسلام للإنسان المسلم أن يكون عالة على غيره، واقعـًا في ذل السؤال، والعوز.

ونصوص القرآن الكريم والسنة المشرفة مليئة بالتوجيهات بهذا الخصوص، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون﴾ [١]. أي انتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم وابتغوا من رزق الله[٢].

وقال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ [٣]. أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أرجائها وأطرافها وأقاليمها وفجاجها في أنواع المكاسب والتجارات، والسعي هنا لا ينافي التوكل حالكم كحال الطير لها غدو ورواح لطلب الرزق مع توكلها على خالقها[٤]. ونحو هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ [٥].

ومن السنة المشرفة أن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن

---

(١) سورة الجمعة : الآية رقم (١٠).

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٠٥).

(٣) سورة الملك : الآية رقم (١٥).

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٥١١) بتصرف.

(٥) سورة المزمل : من الآية رقم (٢٠).

يأكل من عمل يده، وإنَّ نبي الله داود – عليه السلام – كان يأكل من عمل يده» أخرجه البخاري[1] وآخرون. وقد سئل رسول الله ﷺ أي الكسب أطيب أو أفضل فقال: «عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور» أخرجه بهذا اللفظ كل من أحمد[2]، والبزار[3]، والطبراني في (الأوسط[4])، والحاكم[5] من حديث رافع ابن خديج، وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن وائل بن داود إلا المسعودي وبنحو هذا قال البزار عقبه، وممن أخرجه أيضاً الحاكم[6] من حديث سعيد بن عمير عن عمه (البراء بن عازب) بنحوه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووائل بن داود وابنه بكر ثقتان وقد ذكر يحيى بن معين أن عم سعيد بن عمير البراء بن عازب وإذا اختلف الثوري وشريك فالحكم للثوري. أهـ. ووافقه على ذلك الذهبي.

وحصول الرزق، والبركة فيه وإن كان واضحًا من النصوص السابقة إذ إن السعي أو الكسب سبب في حصول الخيرات والبركات إلا أن ثمة أمورًا لابد من مراعاتها ليتم استجلاب البركة والنماء من الكسب وإلا لربما يشوب المرء رزقه وماله بشئ من الحرام فتذهب هذه البركة أدراج الرياح.

ومن هذه الأمور التي لابد من مراعاتها وهي التي يستجلب النماء والبركة بسببها بإذن الله تعالى:

---

(١) الصحيح، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده (٣٠٢/٤).

(٢) المسند (١٤١/٤).

(٣) المسند (كشف الأستار عن زوائد البزار) (٨٣/٢).

(٤) المعجم الأوسط (٤٤٦/٨) رقم (٧٩١٤).

(٥) المستدرك (١٠/٢).

(٦) المستدرك (١٠/٢).

١– أن يكون الكسب مباحًا حلالاً لا يدخله الحرام مهما قلّ أو دقّ:

وذلك لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، والحرام خبيث ارتكب بسببه المعصية، فلا يبارك الله فيه بل يمحق الرزق، ويمنع تجدد وصوله، وقد جاء عند مسلم[١] من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه ﷺ قال: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبـــاً» وفيه «ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث، أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك؟».

وقد حذّر النبي ﷺ من فتنة المال، وعدم توخي الحلال والتحري في الكسب كما جاء عند البخاري[٢] من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – مرفوعًا: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن الحلال أم من الحرام».

٢ – الصدق والأمانة :

ومما يستجلب به البركة في المال، الصدق والأمانة فـــي التعامـــل، فقـــد روى البخاري[٣] حديث حكيم بن حزام قال: قال رسول الله ﷺ: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا – أو قال: حتى يتفرقا – فإن صدقا وبيَّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما».

قال الحافظ ابن حجر: «قوله صدقا، أي من جانب البائع في السوم ومن

(١) الصحيح، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (٢/٧٠٣).

(٢) الصحيح، كتاب البيوع، باب من لم يبال من حيث كسب المال (٤/٢٩٦).

قلت : والممارسات المحرمة القاضية بذهاب بركة المال وزواله كثيرة لا مجال لذكرها هنا، منها: الربا، والاحتكار، والحلف الكاذب، وجميع البيوع المحرمة، ونحو هذا، والله أعلم.

(٣) الصحيح، كتاب البيوع، باب إذا بيَّن البيعان، ولم يكتما ونصحا (٤/٣٠٩).

جانب المشتري في الوفاء، وقوله بيَّنا: أي لما في الثمن والمثمن من عيب فهو من جانبيهما وكذا نقصه. قال: وفي الحديث حصول البركة لهما إن حصل منهما الشرط، وهو الصدق والتبيين، ومحقها إن وجد ضدهما وهو الكذب والكتم. وفي الحديث أن الدنيا لا يتم حصولها إلا بالعمل الصالح وأن شؤم المعاصي يذهب بخيري الدنيا والآخـــرة[1]».

٣ - البكور في طلب الرزق وكسبه :

وهذا شئ ثابت في الشرع، متعارف عليه عند الخاصة والعامة، مجرَّب بالحس والمشاهدة فلعلَّ الله سبحانه وتعالى جعل في هذا الوقت من اليوم (الصباح) من البركة، والتيسير ما لم يجعل في باقي الأوقات فيما يتعلق بالسعي وطلب الأرزاق وقضاء الحاجات، لأنه وقت النشاط، والقوة.

وهنا ينقدح في الذهن شئ لم أسمعه ولم أقرأه، وهو أن الله سبحانه وتعالى جعل مدة ما بين صلاتي الفجر وصلاة الظهر أطول مدة بين صلاتين من صلوات النهار وذلك حتى يتمكن الإنسان من السعي والذهاب لقضاء حاجاته والله أعلم.

ومما يؤيد بركة الطلب والسعي في الصباح الباكر، هو أن الرسول ﷺ قال: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»، قال: وكان - يعني الرسول ﷺ - إذا بعث سرية أو جيشًا بعثهم أول النهار، وكان صخر - راوي الحديث - رجلاً تاجرًا، وكان إذا بعث تجارةً بعثهم أول النهار فأثرى وكثر ماله. أخرجه أبو داود[2]، والترمذي[3]،

(١) فتح الباري (٣١١/٤).

(٢) السنن، كتاب الجهاد، باب في الابتكار في السفر (٣٥/٣).

(٣) الجامع، كتاب البيوع، باب التبكير في التجارة (٤٠٢/٤).

وابن ماجه [١]، وأحمد[٢]، والطبراني[٣]، وابن حبان[٤] وغيرهم من حديث صخر ابن وداعة، وصحابة آخرين، هذا لفظ الترمذي، والباقون بمثله وبعضهم باختلاف يسير في بعض الألفاظ.

وقال الترمذي عقبه: حسن، وصححه ابن حبان، كما صححه – أيضًا – الألباني[٥]، وقال المنذري: قد رواه جماعة من الصحابة عن النـــبي ﷺ .

قلت : سمّى المنذري منهم (١٥) صحابيًا، ثم قال:وغيرهم، وقال مرة: بعض أسانيدها جيد، وقال مرة أخرى: بعضها حسن. ثم قال: وقد جمعتها في جزء، وبسطت الكلام عليها[٦].

قلت : ولعل الحافظ ابن حجر عنى المنذريَّ بقوله إذ قال عند ذكر حديث «بورك لأمتي في بكورها»: قد اعتنى به بعـــض الحفاظ بجمـــع طرقـــه فبلغ عدد من جاء عنه من الصحابة نحو عشرين نفسًا[٧]، والله أعلم.

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ : «باكروا طلب الرزق، فإن الغدو بركة ونجاح» عند كل من الطبراني[٨] والبزار[٩]، هذا

---

(١) السنن، كتاب التجارات، باب ما يرجى من البركة في البكور (٢/٧٥٢).

(٢) المسند (١/١٥٤ ، ١٥٥، ١٥٦)، (٣/٤١٦، ٤١٧، ٤٣٣)، (٤/٣٨٤، ٣٩٠، ٣٩١).

(٣) المعجم الأوسط، الأحاديث ذات الأرقام (١٠٠٠، ٢٩٩٩ ، ٣٣٣٦ ، ٤٠٨٢٦ ، ٥٧٤٧، ٦٨٧٩).

(٤) الصحيح، (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان) (١١/٦٢-٦٣) حديثا (٤٧٥٤-٤٧٥٥).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٢/٤٩٤)، وصحيح سنن ابن ماجه (٢/٢١).

(٦) الترغيب والترهيب (٤/٦-٧).

(٧) فتح الباري (٦/١١٤).

(٨) الطبراني في الأوسط حديث (٧٢٤٦).

(٩) مسند البزار (كشف الأستار) رقم (١٢٤٧).

لفظ البزار، ومثله الطبراني إلا أنه زاد لفظ: «والحوائج» بعد لفظ «الرزق».

وقال البزار عقبه: هذا غريب لم نسمعه إلا من إبراهيم بن سعيد، وإسماعيل ابن قيس صالح الحديث. أهـ. لكن قال الحافظ ابن حجر: «بل ضعفه جماعة[1]». وقال الهيثمي بعد أن عزاه للبزار والطبراني في (الأوسط): «فيه إسماعيل بن قيس بن سعد بن زيد بن ثابت وهو ضعيف[2]».

قلت : وهناك أحاديث كثيرة بهذا المعنى، وفي النهي عن نوم الصبحة وأنه يمنع الرزق لكن كلها ضعيفة ومنكرة، وحديث عائشة المتقدم أمثلها، ويشهد له حديث صخر السابق، كما يشهد له ما ذكر بعده وبخاصة أنه في الفضائل وليس في الحلال والحرام، والله أعلم.

وقد بوَّب البخاري بالحديث المعلَّق كان النبي ﷺ «إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس»[3]، وذكره البخاري أيضًا[4] بأتم من هذا معلقًا من حديث النعمان بن مقرن قال: شهدت القتال مع رسول الله ﷺ «كان إذا لم يقاتل في أول النهار، انتظر حتى تهب الأرواح، وتحضر الصلوات»، والحديث وصله كل من أبي داود[5]، والترمذي[6]، وأحمد[7] وفيه عندهم لفظ: «حتى

(١) مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد (١/٥٠٣).

(٢) مجمع الزوائد (٤/٦١).

(٣) الصحيح، كتاب الجهاد، باب كان النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا لم يقاتل (٦/ ١٢٠).

(٤) الصحيح، كتاب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٦/ ٢٥٨).

(٥) السنن، كتاب الجهاد، باب في أي وقت يستحب اللقاء (٣/٤٩).

(٦) الجامع، كتاب السير، باب ما جاء في الساعة التي يستحب فيها القتال (٥/٢٣٨).

(٧) المسند (٥/٤٤٥).

تزول الشمس وتهب الرياح وينـــزل النصر»، وقال الترمذي: حديث حسن صحيـــح.

وقد ذكر العلماء من أسباب وجود البركة في البكور، فقال الحافظ ابن حجر: «خصَّ البكور بالبركة لكونه وقت النشاط[١]»..

وقال العجلوني: «العقل بكرة النهار يكون أكمل منه وأحسن تصرفًا منه في آخره، ومن ثم ينبغي التبكير لطلب العلم ونحوه من المهمات[٢]»..

المطلب الثّامن:

القناعة والعفاف، والإجمال في الطّلب

قد تقدم في مقدمة البحث الإشارة إلى أن الله تعالى بمنه وكرمه تكفل بأرزاق العباد بل وجميع الدواب، وأن الرزق مقسوم، وأنه يطلب صاحبه كما يطلبه أجله، وهنا سيُقتصر على بيان أن القناعة والتعفف، والإجمال في الطلب، وعدم إشراف النفس للمال، وسؤال الناس كل ذلك سبب في حصول البركة في المال، وقد امتدح الله – سبحانه وتعالى – المتعففين من المساكين إذ قـــال: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربًا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا﴾[٣].

أي متعففون في لباسهم، وفي حالهم، ومقالهم، بحيث يحسبهم من لا يعرفهم أغنياء، وبخاصة أنهم لا يسألون أحدًا ولا يلحون في المسألة لئلا يكلفوا الناس ما

(١) فتح الباري (١١٤/٦).

(٢) كشف الخفاء ومزيل الإلباس (ص ١٨٧).

(٣) سورة البقرة : الآية رقم (٢٧٣).

لا يحتاجون، ولذا فلا يفطن الناس إليهم لجهلهم بحال فقرهم.

والآية وإن كان فيها مدح لهؤلاء الفقراء، ففيها أيضًا من جانب آخر حض وتنبيه وتذكير بهؤلاء وأمثالهم حتى لا يغفل عنهم ويُظن أن المساكين فقط هم الذين يَسألون ويُعطون، والله أعلم[1].

وقد حض رسول الله ﷺ أصحابه على الإجمال في الطلب، وعدم التشوف والحرص، فقال في الحديث الذي رواه ابن ماجه[2] من حديث جابر – رضي الله عنه – : «يا أيها الناس! اتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل ودعوا ما حرم»، وصححه الألباني[3]. وعند البزار[4] من حديث حذيفة – رضي الله عنه – بنحوه. وقال البزار عقبه: لا نعلمه عن حذيفة إلا بهذا الإسناد.

قلت : وما قبله وما بعده يشهد له.

وقد روى الترمذي[5] حديث خولة بنت قيس قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا المال خَضِرَة حلوة، مـــن أصابه بحقه بورك له فيه، ورُبَّ متخوِّضٍ[6] فيما شاءت به نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٤٣٤-٤٣٥) بتصرف.

(٢) السنن، كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة (٢/٧٢٤).

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٢/٦).

(٤) مسند البزار (كشف الأستار) (٢/٨١-٨٢).

(٥) الجامع، كتاب الزهد، باب أخذ المال بحقه (٧/٤٣-٤٤).

(٦) أي : ربَّ متصرف في مال الله تعالى بما لا يرضاه الله، وقيل: هو التخليط في تحصيل المال من غير وجهه كيف أمكن. النهاية في غريب الحديث (٢/٨٨).

النار». وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وكذا صححه الألباني[(١)].

وجاء عند البخاري[(٢)] مـــن حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن أناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نَفِدَ ما عنده فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدَّخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبِّره الله، وما أعطي أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر».

وجاء أيضًا في حديث حكيم بن حزام – رضي الله عنه – أنه سأل النبي ﷺ ثلاث مرات وكل مرة يعطيه ثم قال: «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه كالذي يأكل ولا يشبع».

وجاء في هذا الحديث أيضًا أن حكيمًا قال: «يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزأ[(٣)] أحدًا بعدك شيئًا، حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر– رضي الله عنه – يدعو حكيماً إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر– رضي الله عنه – دعـــاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، إني أعرض عليه حقه من هذا الفئ فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي»، أخرجه البخاري[(٤)]

---

(١) صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٨٠).

(٢) الصحيح، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (٣/٣٣٥).

(٣) لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا : أي لا آخذ من أحد بعدك شيئًا، فأنقص بهذا الأخذ ماله، كما في النهاية في غريب الحديث (٢/ ٢١٨) بتصرف.

(٤) الصحيح، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (٣/٣٣٥). وكتاب الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله (٦/٤٨–٤٩). وكتاب فرض الخمس، باب ما كان

ومسلم[1] وآخرون.

وزاد إسحاق بن راهويه في مسنده في آخر خبر حكيم المتقدم لفظ: ((فمات حين مات وإنه لمن أكثر قريش مالاً[2])).

ومما يؤخذ من الأحاديث السابقة :

١ – الحض على التعفف عن المسألة والتنــزه عنها والصبر حتى يأتي الرزق بغير مسألة.

٢ – قد يقع الزهد مع الأخذ فإن سخاوة النفس هو زهدها.

٣ – أن الأخذ مع سخاوة النفس يحصل أجر الزهد والبركة في الـــرزق.

٤ – أن الإجمال في الطلب مقرون بالبركة.

٥ – البركة تكون في الشئ الكثير وفي الشئ القليل أو اليسير وليست مقصورة فقط على ما هو كثير كما يفهمه بعض الناس وذلك لأنها خلق من خلق الله تعالى[3].

= النبي – صلى الله عليه وسلم – يعطي المؤلفة قلوبهم (٢٤٨/٦). وكتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا (٢٤٤/١١). وباب قول النبي – صلى الله عليه وسلم – هذا المال خضرة حُلوة (٢٥٨/١١).

(١) الصحيح، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا (٢/٧٢٧-٧٢٩)، وباب فضل التعفف والصبر (٧٢٩/٢).

(٢) فتح الباري (٣٣٧/٣)، ولم أقف على هذه الزيادة في (إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري، ولا في (المطالب العالية) لابن حجر. فالله أعلم.

(٣) انظر : فتح الباري (٣٣٧/٣) بتصرف.

المطلب التّاسع:

الاقتصاد في المعيشة وعدم التّبذير

يعد المال أمانة بيد الإنسان، يُسأل عنها يوم القيامة من أين أتى به؟ وفيم أنفقه؟ لذا وجب التصرف فيه بالعدل، فيحفظ حيث يجب الحفظ، ويبذل حيث يجب البذل، فالإمساك في محل البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير، وسلوك الوسطية هو المحمود، مع مراعاة البذل والجود ما أمكن، والخير كل الخير، والبركة والنماء باتباع الشرع، ومن توجيهات القرآن الكريم والسنة المشرفة بهذا الخصوص:

أوّلاً – حسن التّدبير والاقتصاد في المعيشة :

قال الله تعالى: ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرًا، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورًا ﴾[2].

وقال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا ﴾[3].

وقال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا ﴾[4].

ومما ينبغي ملاحظته من خلال النظر في هذه الآيات الكريمات ما يلـــي:

١ – الأمر بالاقتصاد في العيش وهو التوسط، من غير بخل أو تقتير أو

(١) سورة الأعراف : الآية رقم (٣١).

(٢) سورة الأعراف : الآيتان رقم (٢٦ – ٢٧).

(٣) سورة الإسراء : الآية رقم (٢٩).

(٤) سورة الفرقان : الآية رقم (٦٧).

تقصير بالحقوق والواجبات، ومن غير سرف أو تبذير في الإنفاق، فيعطي فوق طاقته، أو يصرف فوق دخله.

٢- أن الذي يسرف ويبذر في النفقة من مأكل ومشرب وملبس وغيرها يقع في الحسرة والندامة والحرج الشديد لذهاب البركة من رزقه ونفاد ما بيده.

٣- النهي عن بسط اليد وكثرة الإعطاء فوق الطاقة إنما يكون ذلك في حق من لا يستطيع الصبر على الكفاف، فيقع بهذا البذل في الحسرة على ما خرج من يده مع حاجته إليه، وأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه مع صبره واحتماله فغير مراد بالآية[١].

٤- أفاد بعض العلماء أن التبذير الذي جاء في الآية هو الإنفاق في غير حق. قاله ابن مسعود، وابن عباس[٢] - رضي الله عنهما - وقد روى ابن أبي حاتم بإسناده إلى مجاهد قال: و أنفقت مثل أبي قبيس ذهبًا في طاعة الله لم يكن إسرافًا، ولو أنفقت صاعًا في معصية الله كان إسرافًا[٣].

وقد علق البخاري بصيغة الجزم واللفظ له[٤] قوله ﷺ : «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة»[٥]. وصله كل من الترمذي[٦]،

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٥٥) بتصرف.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٥٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٥/١٤٦٥).

(٤) الصحيح، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده (١٠/٢٥٢).

(٥) المخيلة : بوزن عظيمة، وهي بمعنى الخيلاء وهو التكبر، وقيل: بوزن مفعلة من اختال إذا تكبر، والخيلاء، التكبر ينشأ عن فضيلة يتراءاها الإنسان من نفسه أي يتصورها ويتوهمها. انظر: فتح الباري (١٠/٢٥٣) بشئ من التصرف.

(٦) الجامع، كتاب الأدب، باب ما جاء إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده (٨/١٠٦).

والنسائي[١]، وابن ماجه[٢]، والطيالسي[٣]، وابن أبي الدنيا[٤]، والحاكم[٥]، كلهم وصلوه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعًا، وزاد بعضهم لفظ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»، واقتصر بعضهم على هذا اللفظ الأخير فحسب. والحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، كما حسنه الترمذي. كما علق البخاري بصيغة الجزم أثر ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سرف أو مخيلة»[٦]، وصله كل من عبدالرزاق[٧]، وابن أبي شيبة[٨]، والدينوري[٩]، والطبري[١٠]، وابن أبي حاتم[١١] من طريق معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس وهو عند عبدالرزاق والطبري وابن أبي حاتم بلفظ: «أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلة»، وهذا الأثر صحيح[١٢].

قال الموفق عبداللطيف البغدادي: «هذا الحديث جامع لفضائل تدبير

(١) السنن، كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة (٥/٧٩).

(٢) السنن، كتاب اللباس، باب البس ما شئت ما أخطأك سرف أو مخيلة (٢/١١٩٢).

(٣) المسند، حديث (٢٣٧٥).

(٤) الشكر، حديث (٥١)، وفي التواضع والخمول، حديث (١٥٧).

(٥) المستدرك (٤/١٣٥).

(٦) الصحيح، كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: قل من حرم زينة الله (١٠/٢٥٢).

(٧) المصنف (١١/٢٧٠).

(٨) المصنف (٨/٤٠٥) و (٩/٩٥-٩٦) بنفس اللفظ.

(٩) عزاه له الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/٢٥٣) و لم أقف عليه في المجالسة له.

(١٠) جامع البيان (١٢/٣٩٤).

(١١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٥/١٤٦٥).

(١٢) انظر : تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير (١/٤٢٠).

الإنسان نفسه، وفيه تدبير مصالح النفس والجسد في الدنيا والآخرة، فإن السرف في كل شيء يضر بالجسد، ويضر بالمعيشة فيؤدي إلى الإتلاف، ويضر بالنفس إذ كانت تابعة للجسد في أكثر الأحوال[1]».

ومما يؤيد أن حسن التدبير والاقتصاد في المعيشة – يمنع بإذن الله – الفقر ويجلب الرزق وتحصل معه البركة، هو ما جاء في حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (ما عال من اقتصد) عند كل من ابن أبي شيبة[2]، وأحمد[3]، والطبراني في (الكبير[4]، والأوسط[5])، والشاشي[6]، قال الهيثمي في أسانيدهم إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف[7].

قلت : هو ليِّن يكتب حديثه للاعتبار، وقد حسن الحديث السيوطي[8]، لكن تعقبه الألباني فضعفه[9]. قلت : لكن الحديث يشهد له ما قبله كما أن له شواهد منها حديث – ابن عباس رضي الله عنهما – مرفوعاً: «ما عال مقتصد قطُّ» عند الطبراني في (الكبير[10]، والأوسط[11]). قال الطبراني عقبه في (الأوسط): لم يرو هذا الحديث عن أبي روق إلا خالد بن يزيد تفرد به هشام بن

(١) فتح الباري (١٠/٢٥٣).
(٢) المصنف (٩/٩٦).
(٣) المسند (١/٤٤٧).
(٤) المعجم الكبير (١٠/١٣٣).
(٥) المعجم الأوسط (٦/٤٤).
(٦) المسند (٢/١٦٢).
(٧) مجمع الزوائد (١٠/٢٥٢).
(٨) الجامع الصغير (٢/١٤٦).
(٩) ضعيف الجامع (ص ٧٣٦).
(١٠) (١٢/١٢٣).
(١١) (٩/١١٤-١١٥).

خالد، وقال الهيثمي[١] بعد أن عزاه للطبراني في الكتابين: ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف، لكن أشار محقق (المعجم الكبير) أن الحديث منقطع.

قلت : ومحل الانقطاع هو أن الضحاك بن مزاحم راويه عن ابن عباس مختلف في سماعه من ابن عباس والراجح عدم سماعه منه إلا أنه ثقة مأمون ولم يكن متهمًا، وعندما سئل هل سمعت من ابن عباس قال: لا. فقيل له فهذا الذي تحدثه عمن أخذته؟ قال: عن ذا وعن ذا[٢].

ومن شواهد الحديث كذلك حديث طلحة بن عبيدالله بمعناه عند البزار[٣] وقال عقبه: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد، ولم نسمعه إلا من عمران، وكانوا يكتبونه عنه قبل أن نولد. وقال الهيثمي[٤]: وفيه ممن أعرفه اثنان.

قلت : هكذا قال: وللحديث شواهد أخرى قد ذكرها السخاوي[٥]، ومن بعده العجلوني[٦]، وقال هذا الأخير: فهذه الشواهد تقتضي حسن الحديث.

قال المناوي[٧]: «أي ما افتقر من أنفق قصدًا، ولم يتجاوز إلى الإسراف، والمعنى إذا لم يبذر بالصرف في معصية الله ولم يقتر فيضيق على عياله ويمنع حقًا وجب عليه شحًا وقنوطًا من خلف الله الذي كفاه المؤمن».

---

(١) مجمع الزوائد (١٠/٢٥٢).

(٢) تهذيب التهذيب (٤/٤٥٣-٤٥٤).

(٣) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار (٤/٢٣٣).

(٤) مجمع الزوائد (١٠/٢٥٢-٢٥٣).

(٥) المقاصد الحسنة (ص ٧٠ - ٧١).

(٦) كشف الخفاء ومزيل الإلباس (١/١٥٨-١٥٩).

(٧) فيض القدير (٥/٤٥٤).

ثانيًا – كيل الطعام :

ومما يساعد على الاقتصاد في المعيشة وحصول البركة في المال كيل الطعام، فقد ثبت عن الرسول ﷺ فيما أخرجه البخاري[1]، وابن ماجه[2]، وأحمد[3]، والطبراني[4] أنه قال: «كيلوا طعامكم يُبَارَكْ لكم فيه». هذا لفظهم، وليس فيه عند البخاري لفظ «فيه»، وقال البوصيري[5]: إسناد ابن ماجه صحيح.

وقد بين العلماء معنى هذا الحديث وكيف يكون الكيل فيه بركة بما يلي:

١– قال ابن بطال: الكيل مندوب إليه فيما ينفقه المرء على عياله، والمعنى أخرجوا بكيل معلوم يبلغكم إلى المدة التي قدَّرتم.

٢– قال ابن الجوزي: يشبه أن تكون هذه البركة للتسمية عليه عند الكيل.

٣– إن الكيل – غالبًا – يرافقه طلب البركة والدعاء بذلك.

٤– الكيل محمول على الطعام الذي يشترى فالبركة تحصل فيه بالكيل لامتثال أمر الشارع، وإذا لم يمتثل الأمر فيه نزعت البركة منه لشؤم العصيان، وبناءً على هذا فالكيل بمجرده، لا تحصل به البركة ما لم ينضم إليه أمر آخر وهو امتثال الأمر فيما يشرع فيه الكيل، كما لا تنزع البركة من المكيل بمجرد الكيل ما لم ينضم إليه أمر آخر كالمعارضة أو المخالفة، ونحوهما.

٥– ويحتمل أن المراد بالكيل هنا هو عند الادخار طالبين من الله

---

(١) الصحيح، كتاب البيوع، باب ما يستحب من الكيل (٤/٣٤٥).

(٢) السنن، كتاب التجارات، باب ما يرجى في كيل الطعام من البركة (٢/٧٥٠).

(٣) المسند (٤/١٣١)، (٥/٤١٤).

(٤) المعجم الكبير (٤/١٢١)، (٢٠/٢٧٣).

(٥) مصباح الزجاجة (٢/١٨٥).

البركة، واثقين بالإجابة، أما من يكيل بعد ذلك ليتعرف مقداره فيكون ذلك شكًا في الإجابة فيعاقب بسرعة نفاده.

٦ – البركة التي تحصل بالكيل بسبب السلامة من سوء الظن بالخادم لأنه إذا أخرج بغير حساب قد يفرغ ما يخرجه وهو لا يشعر فيتهم من يتولى أمره بالأخذ منه، وقد يكون بريئًا، وإذا كاله أمن من ذلك[١].

المطلب العاشر: اتّباع السُّنّة

إن الأخذ أو العمل بكل سبب من الأسباب الجالبة للبركة السابقة الذكر فيه اتباع للسنة بلا شك، والمراد ذكره هنا هو: أن اتباع السنة في كل الأمور الواجبة منها والمستحبة اقتداء بالرسول ﷺ محبةً له واتباعًا لكل ما جاء عنه، وذلك طلبًا لحصول بركة هذا الاتباع في الدنيا والآخرة فإن هذا بحد ذاته يعد سببًا من أسباب استجلاب الخير والبركة في الدنيا والآخرة ويمكن إلحاقه بالأسباب الجالبة للبركة استقلالاً.

على أنه ﷺ قد أرشد وألفت الأنظار إلى بعض الأعمال والممارسات التي تكون مظنة البركة في المال لا على سبيل الإلزام ولكن على سبيل الاستحباب والندب، ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ: «البركة في نواصي الخيل». وفي حديث آخر: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»، كلاهما عند البخاري[٢] ومسلم[٣]. وقال أيضًا: «جعل رزقي تحت ظل رمحي» عند كل من البخاري[٤]،

(١) انظر في كل هذا: فتح الباري (٣٤٦/٤) بشئ من التصرف.

(٢) الصحيح، كتاب الجهاد، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٥٤/٦).

(٣) الصحيح، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (١٤٩٢/٣–١٤٩٤).

(٤) الصحيح، كتاب الجهاد، باب ما قيل في الرماح (٩٨/٦).

وأحمد[١] وآخرين. وقال العراقي: إسناد أحمد صحيح[٢].

ومن هذا يظهر أن اقتناء الخيل، وارتباطها وتعلم ركوبها، وكذا تعلم الرماية وأدوات الحرب وإتقانها بنية الإعداد، والتهيؤ للجهاد في سبيل الله يكون فيه مغنم وبركة وخير في الدنيا والآخرة، وأن المال الحاصل بسبب الجهاد والإعداد له هو أفضل الرزق وأبركه[٣].

وقد قال رسول الله ﷺ لأم هانئ: «اتخذي غنمًا فإن فيها بركة»، كما جاء عند ابن ماجه[٤]. قال البوصيري[٥]: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

كما روى ابن ماجه[٦] حديث عروة البارقي مرفوعًا وفيه لفظ «الإبل عز لأهلها والغنم بركة، والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة».

وقال البوصيري[٧]: إسناده صحيح على شرط الشيخين وبعضه في الصحيحين، وإنما انفرد ابن ماجه بذكر الإبل والغنم.

كما جاء عند البخاري[٨]، أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن».

كما أرشد ﷺ الآكل إلى لعق أصابعه والصحفة قائلاً: «إنكم لا تدرون في أيه البركة»[٩]. كما أرشد إلى الأكل من أسفل أو حوالي الصحفة لا من أعلاها

---

(١) المسند (٢/ ٥٠ ، ٩٢).

(٢) المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (١٥٩٣).

(٣) فتح الباري (٦/ ٩٨-٩٩) بتصرف.

(٤) السنن، كتاب التجارات، باب اتخاذ الماشية (٢/ ٧٧٣).

(٥) مصباح الزجاج (٢/ ٢٠٦).

(٦) السنن، كتاب التجارات، باب اتخاذ الماشية (٢/ ٧٧٣).

(٧) مصباح الزجاجة (٢/ ٢٠٦).

(٨) الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم (٦/ ٣٥٠).

(٩) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب استحباب لعق الأصابع (٣/ ١٦٠٦).

أو ذروتها فقال: ((إن البركة تنـــزل وسط الطعام فكلوا من حافتيه ولا تأكلوا من وسطه)) عند أبي داود[١]، والترمذي[٢]، وعند أبي داود لفظ: ((كلوا من حواليها ودعوا ذروتها يُبَارِكْ فيها)). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قلت : والمراد هنا البدء بالجوانب أولاً قبل الذروة لا النهي عن الأكل من الذروة أو الوسط مطلقـــاً، وقد ورد لعق الأصابع والصحفة آنفـــاً.

كما جاء عنه ﷺ قوله: ((تسحَّروا فإن في السحور بركة)) عند البخاري[٣].

قال ابن حجر[٤]: إن البركة في السحور تحصل بجهات متعددة وهي اتباع السنة، ومخالفة أهل الكتاب .. وذكر أن ابن دقيق العيد أشار إلى أن البركة تعود إلى أمور دينية، وأمور دنيوية.

ومما يؤيد أيضـــاً ان اتباع الشرع فيما جاء عنه ﷺ يحصل به البركة أن الحافظ ابن حجر قال عند الكلام على حديث كيل الطعام المتقدم في السبب التاسع قال: فالبركة تحصل فيه بالكيل لامتثال أمر الشارع، وإذا لم يمتثل الأمر فيه بالاكتيال نزعت منه لشؤم العصيان[٥].

كما تقدم في آخر المطلب الثامـــن أن حكيم بن حزام – رضي الله عنه – عندما أخذ بنصيحة النبيﷺ، وأنه لم يسأل أحدًا بعده ولم يقبل العطاء ولا نصيبه من أبي بكر ولا من عمر بعده – رضي الله عنهما. بارك الله لحكيم بهذه النية في اتباع السنة النبوية، وعوضه خيرًا فمات وإنه لمن أكثر قريش مالاً، والله أعلم.

---

(١) السنن، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الأكل من أعلى الصحفة (٣٤٨/٣-٣٤٩).

(٢) الجامع، كتاب الأطعمة، باب ما جاء في كراهية الأكل من وسط الطعام (٥٢٤/٥).

(٣) الصحيح، كتاب الصوم، باب بركة السحور (١٣٩/٤).

(٤) فتح الباري (١٤٠/٤).

(٥) فتح الباري (٣٦٤/٤).

تنبيـــه

لئن اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون الكلام في أكثره منصبـًا على الأسباب الجالبة للبركة في الرزق في حياة الإنسان المعيشية الدنيوية، فليس معناه أن هذه البركة لا تنسحب بتلك الأسباب على البركة في حياته الأخروية فتحصل له البركة في الأعمال الصالحة ومضاعفة الأجر فيها بل إن الأجر والثواب الأخروي حاصل بتلك الأسباب أو أكثرها من باب أولى، إذ لا يمكن تصور حصول البركة في الرزق وازدياد المال بتلك الأسباب الجالبة لذلك من غير حصول البركة في ثواب تلك الأعمال.

ومن خلال استقراء ما جاء في البحث من نصوص حول البركة في الرزق وأسبابها، يلحظ أن البركة في الأجر ومضاعفة الحسنات داخل في ذلك دخولاً أوليًا، وكثيرًا ما نبه العلماء على هذه البركة. وزيادة على ما مر في هذا البحث من ذكر للأجر الأخروي ومضاعفته فهناك نصوص كثيرة ناطقة بذلك صراحة منها قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ [1].

وقـــد جـــاء عـــند كل من البخاري[2]، ومسلم[3]، والترمذي[4]، والدارمي[5] وغيرهم، من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – واللفظ للبخاري والباقون بنحوه

---

(١) سورة البقرة : الآية رقم (٢٦١).

(٢) الصـــحيح، كـــتاب الزكاة، باب الصدقة من كسب طيب (٣/٢٧٨). وكتاب التوحيد، باب قوله تعالى: (تعرج الملائكة والروح إليه) (١٣/٤١٥).

(٣) الصحيح، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيته (٢/٧٠٣).

(٤) الجامع، كتاب الزكاة، باب ما جاء في فضل الصدقة (٣/٣٢٧).

(٥) السنن (١/٣٣٣).

أنه ﷺ قال: ((من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب – ولا يقبل الله إلا الطيب – فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربِّيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوَّه[١]، حتى تكون مثل الجبل)). وقد جاء عند مسلم[٢]، والنسائي[٣] من حديث أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ : ((لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة)) هذا لفظ مسلم، والنسائي بنحوه.

وقال ﷺ: ((سبق درهمٌ مائةَ ألف درهم))، قالوا:وكيف؟. قال: ((كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما وانطلق رجل إلى عُرْض ماله فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها)). كما جاء عند النسائي[٤] من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – وقد حسنه الألباني[٥].

---

(١) الفلو : المهر الصغير، وقيل :هو الفطيم من أولاد ذوات الحوافر. النهاية (٣/٤٧٤).

(٢) الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها (٣/١٥٠٥).

(٣) السنن، كتاب الجهاد، باب فضل الصدقة في سبيل الله عز وجل (٦/٤٩).

(٤) السنن، كتاب الزكاة، باب جهد المقل (٥/٥٩).

(٥) صحيح سنن النسائي (٢/٥٣٢)، التعليق على ابن خزيمة حديث رقم (٢٤٤٣).

الخاتمـــة

وفيها أهم النتائج :

أحمد الله سبحانه وأشكره على كبير لطفه، وعظيم إنعامه، ومن ذلك توفيقي لاختيار هذا البحث وإتمامه، ومن النتائج التي توصلت إليها من خلاله ما يلي :

١ - كرم الله سبحانه وتعالى وسعة رحمته بعباده، إذ خلقهم ورزقهم، ووعد من أحسن وبذل المال على حبه، بالمزيد من خزائن، لا تحصى ولا تنفد.

٢ - أهمية الرزق (المال) في حياة الناس أفرادًا وجماعات، إذ يتوقف عليه كثير من مصالحهم الدينية والدنيوية.

٣ - البركة في الرزق خلق من خلق الله، تكون في القليل، كما تكون في الكثير ، وتكون بزيادة ونماء الموجود، كما تكون بوصول المفقود والحصول عليه.

٤ - البركة في الرزق قد تكون زيادة جلية، وقد تكون خفية بالإضافة إلى كونها مستقرة مستمرة عند من تحصل له بالأسباب الجالبة لهـــا.

٥ - من سنة الله في الكون والإنسان أن جعل أسبابًا لابد للإنسان من سلوكها للحصول على رزقه واستجلاب البركة والنماء فيه، وهذه الأسباب بعضها متعلق بالإنسان نفسه، وبعضها متعلق به وبعلاقته مع خالقه وبعضها متعلق به وبعلاقته مع إخوانه من أبناء جنسه ممن يخالطهم ويعايشهم، وبعضها يتعلق بالرزق أو المال نفسه.

ومن أبرز هذه الأسباب الجالبة للبركة في الرزق بشكل عام:

أ - تقوى الله عز وجل بفعل الطاعات، وتجنب المعاصي والمحرمـــات.

ب - حسن التوكل على الخالق، والانقطاع إليه دون غيره، مع ملازمة الذكر، والشكر، والدعاء والاستغفار.

جـ – السعي في طلب الرزق واستجلاب البركة فيه، مع توخي الحلال والابتعاد عن الحرام بجميع صوره وأشكاله.

د – بذل الأموال، والقيام بالواجبات المتعلقة به من عبادات، وصدقات، وصلة أرحام، بسخاوة نفس وجود وبـــذل للمعروف.

هـ – الاقتصاد في المعيشة، مع حسن التدبير، والابتعاد عن الترف والتبذير.

٦ – إن عدم اتباع الشرع، أو الإخلال بشيء من هذه الأسباب يؤدي إلى زوال البركة، ومحق الرزق، وحرمان الإنسان من تجدد النعم واستقرارها.

هذا والله أعلم .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- إحياء علوم الدين. الغزالي، أبو حامد محمد، دار إحياء الكتب العلمية، البابي الحلبي.

٣- الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار. النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، مكتبة الرياض.

٤- الإصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٢٨هـ.

٥- بذل المجهود في حل أبي داود. السهارنفوري خليل أحمد، تعليق: الكاندهلوي، دار الكتب العلمية.

٦- التاج الجامع للأصول. منصور علي ناصيف، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ

٧- تاريخ بغداد. أبو بكر الخطيب، المكتبة السلفية، المدينة المنورة.

٨- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. المباركفوري، محمد عبدالرحمن، مراجعة: عبدالوهاب عبداللطيف، نشر: محمد عبدالمحسن الكتبي، مطبعة المدني، ط٢، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣.

٩- تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف. المزي، أبو الحجاج يوسف، تعليق: عبدالصمد شرف الدين، الدار القيمة، الهند، ط ١، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

١٠- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف. المنذري، زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة دار الفكر، بيروت، ط ٢ ، سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م.

١١- التعريفات، الجرجاني، علي بن محمد، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار

الكتاب العربي، ط ٢، سنة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

١٢– تفسير الحسن البصري، جمع وتحقيق ودراسة: د. شير علي شاه، نشر الجامعة العربية أحسن العلوم، كراتشي، ط١، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

١٣– تفسير ابن عباس ومروياته في كتب السنة، عبدالعزيز الحميدي، مطبوعات جامعة أم القرى، مكة المكرمة، بدون تاريخ.

١٤– تفسير القرآن العظيم. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، مكتبة دار السلام، ط١، سنة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

١٥– تفسير القرآن العظيم. الرازي عبدالرحمن بن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

١٦– تهذيب الأسماء واللغات، النووي أبو زكريا محيي الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧– تهذيب التهذيب. ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، دائرة المعارف، حيدر آباد، الهند، ط١، ١٣٢٥هـ.

١٨– التواضع والخمول. ابن أبي الدنيا أبو بكر عبدالله بن محمد، تحقيق: لطفي محمد الصغير، دار الاعتصام، القاهرة، بدون تاريخ.

١٩– الجامع. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (مع شرح تحفة الأحوذي)، مطبعة المدني، ١٣٨٣هـ .

٢٠– الجامع، أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، ط١، سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

٢١– جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق: محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية.

٢٢– الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، السيوطي جلال الدين

عبدالرحمن، دار الكتب العلمية.

٢٣- الجامع لأحكام القرآن. القرطبي، محمد بن أحمد، تحقيق: محمد إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، ط١، سنة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٢٤- جزء الدراج. الدراج أبو عمرو عثمان بن عمر، مخطوط مصور عن الأصل في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

٢٥- حاشية على سنن النسائي (بهامش السنن). السندي، أبو الحسن نور الدين، عناية: عبدالفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط ٣، سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.

٢٦- حلية الأولياء. أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، سنة ١٣٨٧هـ .

٢٧- الدر المنثور في التفسير بالمأثور. السيوطي جلال الدين، دار المعرفة.

٢٨- زاد المعاد في هدي خير العباد. ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ومكتبة المنار الإسلامية، ط١٤، سنة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

٢٩- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة. الألباني محمد ناصر الدين، المكتب الإسلامي، ط١، ١٣٩٩هـ .

٣٠- السنن. السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، تعليق: محمد محيي الدين ، نشر دار إحياء التراث.

٣١- السنن. القزويني ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد (ت: ٢٧٥)، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٣٢- السنن. النسائي، أحمد بن شعيب، بعناية وترقيم: عبدالفتاح أبو غدة، دار

البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٢، سنة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.
٣٣- سنن الدارقطني. الدارقطني، علي بن عمر، تحقيق: عبدالله هاشم يماني، سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.
٣٤- سنن الدارمي. الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن، تحقيق: السيد عبدالله هاشم، نشر: حديث أكادمي، باكستان، سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
٣٥- السنن الكبرى. البيهقي، أحمد بن الحسين، دار المعرفة، ط١، سنة ١٣٤٦هـ .
٣٦- شرح صحيح مسلم (المنهاج). النووي، محيي الدين أبو زكريا، المطبعة المصرية.
٣٧- شعب الإيمان. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، تحقيق: زغلول، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
٣٨- الشكر لله عز وجل. ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبدالله بن محمد، تحقيق: ياسين محمد السواس، دار ابن كثير، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
٣٩- الصحيح. البخاري، محمد بن إسماعيل (مع فتح الباري)، المطبعة السلفية، القاهرة، سنة ١٣٨٠هـ .
٤٠- الصحيح. النيسابوري، مسلم بن الحجاج، ترتيب: محمد فؤاد عبدالباقي.
٤١- صحيح ابن حبان (الإحسان). البستي، محمد بن حبان، ترتيب: الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
٤٢- صحيح ابن خزيمة. ابن خزيمة أبو بكر محمد بن إسحاق، تحقيق: محمد

مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط١، ١٣٩٠هـ .

٤٣- صحيح الجامع الصغير وزيادته. الألباني ناصر الدين، المكتب الإسلامي، بدون تاريخ.

٤٤- صحيح سنن الترمذي. الألباني محمد ناصر الدين، تعليق: زهير الشاويش، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٤٥- صحيح سنن ابن ماجه. الألباني محمد ناصر الدين، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط١، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.

٤٦- صحيح سنن النسائي. الألباني محمد ناصر الدين، تعليق: زهير الشاويش، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط١، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.

٤٧- ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير). الألباني محمد ناصر الدين، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

٤٨- طبقات الشافعية الكبرى. السبكي عبدالوهاب بن علي، تحقيق: محمود الطناحي وعبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.

٤٩- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية. ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن ابن علي، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، نشر: إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد، باكستان، ط١، سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٥٠- عمل اليوم والليلة. ابن السني أبو بكر، مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

٥١- عمل اليوم والليلة. النسائي، أحمد بن شعيب، تحقيق: د. فاروق حماده، مكتبة المعارف بالرياض، ط١، سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

٥٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، المكتبة السلفية، القاهرة، سنة ١٣٨٠هـ .

٥٣- الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية. الصديقي، محمد بن علان، نشر المكتبة الإسلامية.

٥٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير. المناوي، محمد عبدالرؤوف، دار المعرفة، بيروت، ط٢، سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م.

٥٥- غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام. الألباني، ناصر الدين ، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٥٦- القاموس المحيط. الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب. المطبعة الحسينية المصرية، ط٢، سنة ١٣٤٤هـ .

٥٧- كشف الأستار عن زوائد البزار. الهيثمي، نور الدين، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٣٩٩هـ .

٥٨- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس. العجلوني، إسماعيل بن محمد، دار إحياء التراث، ط٣، سنة ١٣٥١هـ .

٥٩- لسان العرب. ابن منظور، محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، ط١، سنة ١٣٠٠هـ .

٦٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. الهيثمي، نور الدين، دار الكتاب العربي، ط ٢، سنة ١٣٨٧هـ .

٦١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ابن عطية أبو محمد عبدالحق، تحقيق: الرحالي الفاروق وآخرين، الدوحة، ط١، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٧م.

٦٢- مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد. ابن حجر العسقلاني، تحقيق: صبري أبو ذر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

٦٣- مدارج السالكين. ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ط٢، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٦٤- مختصر سنن أبي داود. المنذري، زكي الدين عبدالعظيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، (بدون تاريخ).
٦٥- المراسيـــل. الرازي عبدالرحمن بن أبي حاتم، عناية : شكر الله نعمة الله، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
٦٦- المستدرك على الصحيحين. الحاكم النيسابوري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، دار الفكر، بيروت، سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
٦٧- المسند. ابن حنبل، أحمد بن محمد، المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت.
٦٨- المسند. ابن حنبل أحمد بن محمد، شرح : أحمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
٦٩- المسند. الطيالسي أبو داود سليمان بن داود، تحقيق: محمد عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
٧٠- المسند. الشاشي، الهيثم بن كليب، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، نشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٠هـ .
٧١- مسند أبي يعلى الموصلي، أحمد بن علي، تحقيق: حسن سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
٧٢- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه. البوصيري، أحمد بن أبي بكر، تحقيـــق: موسى محمد علي، وعزت علي عطية، دار الكتب الحديثة.
٧٣- المصنف. الصنعاني، عبدالرزاق بن همام، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط٢، سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٧٤- المصنف في الحديث والآثار. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد (ت:

٢٣٥)، تحقيق: الشيخ عامر العمري الأعظمي، نشر: مختار أحمد الندوي، الدار السلفية بالهند.

٧٥- المعجم الأوسط. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت:٣٦٠)، تحقيق: د.محمود الطحان، مكتبة المعارف بالرياض، ط١، سنة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

٧٦- المعجم الصغير. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ .

٧٧- المعجم الكبير. الطبراني، أبو القاسم سليمان أحمد، تحقيق: حمدي السلفي، مطبعة الأمة، بغداد، سنة ١٩٧٨م.

٧٨- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. البكري الأندلسي، عبدالله ابن عبدالعزيز، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ط١، سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م.

٧٩- معرفة السنن والآثار، البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، عناية: عبدالمعطي أمين قلعجي، دار الوعي، حلب، ط١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٨٠- معرفة الصحابة. الأصبهاني أبو نعيم، أحمد بن عبدالله، تحقيق: عادل العزازي، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٨١- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (تخريج أحاديث إحياء علوم الدين). العراقي، أبو الفضل زين الدين، اعتنى به: أبو محمد أشرف بن عبدالمقصود، مكتبة طبرية، ط١، سنة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

٨٢- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. السخاوي محمد بن عبدالرحمن، تصحيح: عبدالله محمد الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

٨٣- الملكية في الشريعة الإسلامية. العبادي عبدالسلام، مكتبة الأقصى، الأردن، ط١، سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٨٤- النهاية في غريب الحديث والأثر. الجزري، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، تحقيق: محمود الطناحي، وطاهر الزاوي، نشر: المكتبة الإسلامية، ط١، سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

٨٥- هدي الساري مقدمة فتح الباري. ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي، المطبعة السلفية، بدون تاريخ.

فهرس الموضوعات

المقدّمة.. ٢٤٩

المبحث الأول.. ٢٥٤

المطلب الأول: شرح بعض الألفاظ الواردة في عنوان البحث........ ٢٥٤

المطلب الثّاني: المنهج الّذي سرت عليه في أثناء البحث ٢٥٩

المبحث الثّاني :الأسباب الجالبة للبركة في الرّزق....................... ٢٦١

المطلب الأوّل : تقوى الله – عزّ وجلّ – والتّقرّب إليه بالطّاعات ٢٦١

المطلب الثّاني: التّوكُّل على الله – سبحانه وتعالى – مع الأخذ بالأسباب.. ٢٨٠

المطلب الثّالث: التّسمية في كلّ الأحوال ٢٨٥

المطلب الرّابع: الذّكر والدّعاء ٢٨٩

المطلب الخامس: شكر الله تعالى وحمده................................. ٢٩٢

المطلب السّادس: التّوبة والاستغفار ٢٩٩

المطلب السّابع: السَّعْي في الكسب أخذًا بالأسباب ٣٠٥

المطلب الثّامن: القناعة والعفاف، والإجمال في الطّلب ٣١١

المطلب التّاسع: الاقتصاد في المعيشة وعدم التّبذير........................ ٣١٥

المطلب العاشر: اتّباع السُّنّـــة.. ٣٢١

تنبيـــه... ٣٢٤

الخاتمـــــة ٣٢٦

فهرس المصادر والمراجع ٣٢٨

فهرس الموضوعات.. ٣٣٧



الاشْتِراكُ الْمُتَعَمَّدُ
ي الْجِنَايَةِ عَلَىٰ النَّفْسِ بِالقَتْلِ أَوِ الْجَرْحِ

إِعْـــدَادُ :

أ.د. عَبْدِ اللّهِ بْنِ مُعْتِقِ السِّهْلِيِّ

الأسْتَاذِ فِي كلّيّة الشَّرِيعَةِ فِي الجَامِعَةِ



المقدّمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفضله على كثير من المخلوقات بالعقل والتفكير، والصلاة والسلام على الهادي البشير، وآله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد؛ فإن الله تبارك وتعالى خلق الإنسان، ونفخ فيه الروح وسجد له الملائكة، وجعله خليفته في الأرض، وفضله على كثير مما خلق تفضيلا، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْناهم في البَرِّ والبحْرِ ورزَقْناهم مِّنَ الطَّيِّباتِ وفضَّلْناهم على كثيرٍ مِمَّنْ خلَقْنا تفضيلاً ﴾ [١] وتجلت في خلقه عظمته حيث قال: عز وجل: ﴿ فتَبارك اللهُ أحسنُ الخالقين ﴾ [٢]، وتولاه بحفظه فشرع احترامه وحرم قتله بغير حق، قال تعالى: ﴿ولا تقْتُلوا أنفسَكم إن اللهَ كان بكم رحيما﴾ [٣]، وقال تعالى: ﴿ ولا تقْتلوا النَّفْسَ التي حرَّمَ اللهُ إلاّ بالحقّ ومن قُتِلَ مَظْلومًا فقد جعلنا لوَلِيِّه سُلْطانًا فلا يُسْرِفْ في القَتْلِ إنه كان منصورا ﴾، وقال رسول الله ﷺ: « أول ما يقضى بين الناس، يوم القيامة، في الدماء » [٤] .

(١) آية (٧٠) من سورة الإسراء .

(٢) آية (١٤) من سورة المؤمنون .

(٣) آية (٢٩) من سورة النساء .

(٤) أخرجه البخاري ٨/٣٥ في كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿ ومن قتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم﴾، ومسلم ٢/١٣٠٤ في القسامة، باب المجازاة في الآخرة، من حديث عبد الله ابن مسعود ﷺ .

وقد عظمت العقوبة في الاعتداء على النفس المؤمنة في الدنيا بالقود في النفس والقصاص في الطرف، وفي الآخرة بما توعد الله به القاتل من غضبه ولعنته، وأن مصيره إلى جهنم وبئس المصير، قال تعالى: ﴿ ومَنْ يَقْتُلْ مؤمنًا مُتَعمّدا فجزاؤُه جهنّمُ خالداً فيها وغضب اللهُ عليه، ولَعَنَه وأعدّ له عذابا عظيما﴾ [1]، وقولـــه تعالى: ﴿ولا تَقْتُلوا النَّفسَ الَّتي حرّمَ اللهُ إلا بالحق، ومن قُتِل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلايُسْرِفْ في القتل ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿ وكَتَبْنا عليهم فيها أن النَّفْسَ بالنَّفسِ والعَيْن بالعين والأنفَ بالأنف والأُذُنَ بالأذن والسِّنَّ بالسن والجروحَ قصاصٌ ﴾ [3] . وفي إقامة القصاص على الجاني حياة للناس، قال تعالى: ﴿ ولَكُمْ في القِصاص حياةٌ يا أولي الألباب لعلكم تتقون ﴾ [4]، كيف لا والقاصد للاعتداء على الإنسان إذا علم أنه مقتول أو معاقب على فعلته فكر كثيراً، ونظر في العاقبة، وثاب إلى رشده، وكف عن فعلته، فكان في ذلك حقنٌ لدمه ودم غيره وحياة له ولغيره من الناس، أجل بتطبيق القصاص في النفس وما دونها تحقن الدماء، وينتشر الأمن، ويطمئن الإنسان على نفسه وماله وعرضه . ومن أمعن النظر في بلادنا المباركة التي حرص ولاة الأمر فيها على تطبيق شرع الله يجد أنها تنعم بالأمن والطمأنينة والعدل والاستقرار بفضل التزامها بتطبيق شرع الله مما جعلها مضرب المثل .

ولما كانت مسائل القصاص في النفس والطرف كثيرة ومتشعبة أحببت أن

---

(١) آية (٩٣) من سورة النساء .

(٢) آية (٣٣) من سورة الإسراء .

(٣) آية (٤٥) من سورة المائدة .

(٤) آية (١٧٩) من سورة البقرة .

أسهم ببيان شيء من أحكامه، فنظرت في مسألة الاشتراك في الجناية بقتل النفس المحترمة أو جرحها ظلما وعدوانا، فوجدت الاختلاف في القود بها والقصاص في الأطراف فيها حاصلا فأحببت أن أجلي الحق فيها وأكشف غموضها بأسلوب علمي قريب إلى الإفهام في مؤلف سميته

« الاشتراك المتعمد في الجناية على النفس بالقتل أو الجرح » .

وقسمت هذا البحث إلى مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة .

المقدمة: وتشتمل على الافتتاحية وخطة البحث ومنهجه .

المبحث الأول:

في تعريف الجناية لغة واصطلاحا وبيان أقسامها .

المبحث الثاني:

في حكم القتل بغير حق .

المبحث الثالث:

مشروعية القصاص في النفس وما دون النفس .

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: في مشروعية القصاص في الجناية على النفس .

المطلب الثاني: في مشروعية القصاص في الجناية على ما دون النفس .

المبحث الرابع: وفيه ثلاثة مطالب .

المطلب الأول:

في الاشتراك في الجناية على الواحد بالقتل .

المطلب الثاني:

في اشتراك الأب والأجنبي في قتل الولد .

المطلب الثالث:

في اشتراك الصبي والمجنون والبالغ في القتل .

المبحث الخامس:

في الاشتراك المتعمد في الجناية على الواحد بالجرح أو القطع .

الخاتمة: ذكرت فيها أهم نتائج البحث .

وسلكت في إعداد هذا البحث المنهج الآتي:

١- جمعت المادة العلمية المتعلقة بالاشتراك المعتمد في الجناية على النفس بالقتل أو الجرح .

٢- درست المسألة الواردة في البحث دراسة موازنة وحرصت على بيان المذاهب الأربعة في المسألة، وقد أذكر أقوال بعض الصحابة والتابعين وغيرهم من الفقهاء .

٣- حرصا مني على إخراج المسألة بأسلوب مبسط، يسهل معه معرفة الحكم في المسألة صدرتها بالإجماع أو الاتفاق إن كانت من المسائل المتفق أو المجمع عليها، كما أنني إن رأيت الخلاف ليس قويا في المسألة صدرت المسألة بقول أكثر أهل العلم، وبعد ذلك أشير إلى القول المخالف ثم أذكر أدلة كل قول، وما قد يرد عليه من اعتراض إن وجد، ثم أختم المسألة بالقول الراجح، وقد أؤخر الاعتراضات مع الترجيح .

٤- حرصت على نقل أقوال الفقهاء من مصادرها الأصلية .

٥- ذكرت أرقام الآيات الواردة في البحث مع بيان أسماء سورها .

٦- خرجت الأحاديث الواردة في البحث مبينا الكتاب والباب والجزء والصفحة . فإن كان الحديث في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت

بتخريجه منهما أو من أحدهما، وإن لم يكن فيهما أو في أحدهما اجتهدت في تخريجه من كتب السنة الأخرى مع ذكر درجة الحديث صحة أو ضعفا معتمدا على الكتب التي تعنى بذلك .

٧- بينت معاني الكلمات التي تحتاج إلى بيانها معتمدا على الكتب التي تعنى بذلك .

٨- لم أترجم للأعلام الواردة في البحث خشية الإطالة .

٩- بينت في نهاية البحث في الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها .

١٠- وضعت فهرسا للمصادر التي اعتمدت عليها مرتبا حسب الحروف الهجائية، وآخر للموضوعات .

المبحث الأول : تعريف الجناية وبيان أقسامها

● **تعريف الجناية :**

الجناية لغة:

مصـــدر جنى جناية، وجمعه جنايات، وجمعت – وإن كانت مصدرا – لتنوعها إلى عمد وشبه عمد وخطأ . والجناية؛ الذنب والجرم وما يفعله الإنسان مما يوجب عليه القصاص والعقاب في الدنيا والآخرة . يقال: جنى جناية إذا جر جريرة على نفسه أو على قومه .[1]

واصطلاحا:

هي التعدي على البدن بما يوجب عليه قصاصا أو مالا [2] .

● **أقسام الجناية:**

تقدم في تعريف الجناية اصطلاحا أنها التعدي على البدن .

وهذا التعدي لا يخلو الحال فيه من أمرين:

١- أن يكون بإزهاق الروح، وهو القتل .

٢- أن يكون واقعا على عضو من الأعضاء، ولا يؤدي لإزهاق الروح كقطع يد أو قلع عين أو قطع أذن أو أنف ... إلخ .

وبهذا يتبين أن الجناية إما أن تكون:

١- على النفس .

٢- أو ما دون النفس .

---

(١) انظـــر: الـــنهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣٠٩/١، المصباح المنير ١٣٦/١، ١٣٧، لسان العرب ١٥٤/١٤، التفريعات ص/٧٩، القاموس المحيط ٢١٢/٤ .

(٢) انظـــر: حاشية ابن عابدين ٥٢٧/٦، مواهب الجليل ٢٧٧/٦، المجموع ٣٤٤/١٨، المغني ٤٤٣/١١ .

وهذا التقسيم مجمع عليه بين العلماء [١] .

ثم اختلف العلماء – رحمهم الله تعالى – في أنواع الجناية على النفس وعلى ما دون النفس على النحو التالي:

أولا: أنواع الجناية على النفس:

إذا نُظِرَ إلى أقوال الفقهاء – رحمهم الله تعالى – في تقسيماهم لأنواع الجناية على النفس يتضح أن آراءهم تنحصر في تقسيمها بين ثنائي وخماسي، وبذلك انحصرت أقوالهم في أربعة:

- التقسيم الخماسي:

قسم جماعة من الحنفية كالجصاص[٢] والقدوري [٣] والنسفي [٤] الجناية على النفس إلى خمسة أقسام:

١–العمد: وهو تعمد الضرب بسلاح أو ما يجرى مجراه في تفريق الأجزاء كالمحدد من الخشب والحجر والنار [٥] .

٢–شبه العمد: وهو تعمد الضرب بما ليس بسلاح ولا ما يجري مجراه [٦] .

---

(١) انظر: مختصر الطحاوي ص/٢٣٤، حاشية ابن عابدين ٥٢٧/٦، الكافي ٣٨٣/٢، مواهب الجليل ٢٧٦/٦، روضة الطالبين ١٢٢/٩، المجموع ٣٩٨/١٨، المغني ٥٣٠/١١، المبدع ٨/ ٣٠٦ .

(٢) انظر: المبسوط ٥٩/٢٦ .

(٣) انظر: مختصر القدوري ١٤١/٣ .

(٤) انظر: كنـز الدقائق ٩٧/٦ .

(٥) انظر: مختصر الطحاوي ص/٢٣٢، الاختيار ٣١/٥ .

(٦) انظر: الاختيار ٣٤/٥، حاشية ابن عابدين ٥٢٩/٦ .

٣-الخطأ: وهو ضرب الشخص بدون تعمد . وهو على نوعين:

أ- خطأ في القصد: وهو أن يرمي شخصا يظنه صيدا، فإذا هو آدمي أو يظنه حربيا فإذا هو مسلم .

ب- خطأ في الفعل: وهو أن يرمي عرضا فيصيب آدميا [(١)] .

٤-الجاري مجرى الخطأ: وهو حصول الموت بما لا يصدر عن إرادة وقصد كأن ينقلب نائم على آخر فيقتله .[(٢)]

٥-القتل بالسبب: وهو التسبب في موت آخر دون قصد ومباشرة كمن يحفر بئرا في الطريق فيقع فيها عابر السبيل فيموت [(٣)] .

- التقسيم الرباعي:

قسم جماعة من الحنابلة كأبي الخطاب، وصاحب المذهب، ومسبوك الذهب، والمستوعب، والخلاصة، والرعايتين، والحاوي والرعايتين، وغيرهم [(٤)] القتل إلى أربعة:

١- العمد .

٢- شبه العمد .

٣- الخطأ .

٤- ما جرى مجرى الخطأ .

ولم يقولوا بقتل السبب؛ لأنهم يدخلونه في ما جرى مجرى الخطأ .

---

(١) انظر: المبسوط ٦٦/٢٦، بدائع الصنائع ٢٣٤/٧ .

(٢) انظر: المبسوط ٦٦/٢٦، حاشية ابن عابدين ٥٣١/٦ .

(٣) انظر: الاختيار ٣٥/٥، المبسوط ٦٨/٢٦ .

(٤) انظر: المغني ٤٤٥/١١، الإنصاف ٤٣٣/٩، المبدع ٢٤٠/٨ .

- **التقسيم الثلاثي:**

قسم الحنفية في ظاهر الرواية عندهم [١]، وهو قول لمالك حكاه العراقيون وغيرهم عنه [٢]، وبه قال الشافعية[٣] والحنابلة في المعتمد عندهم [٤] القتل إلى ثلاثة أقسام:

١– العمد: وهو أن يضربه بما يغلب على الظن موته به من سلاح أو ما جرى مجراه[٥] من حديد أو خشب أو حجر أو نحوه مما يقتل غالبا[٦].

٢– شبه العمد: هو أن يضربه بما لا يقتل غالبا كأن يضربه في غير مقتل بسوط أو عصىً صغيرة أو يفعل فعلا الأغلب من ذلك الفعل أنه لا يقتل مثله [٧] .

٣– الخطأ: وهو ضرب الشخص بدون قصد . وهو ضربان:

أ– خطأ في الفعل: بأن يرمي صيدا أو هدفا، أو شخصا فيصيب إنسانا لم يقصده، أو يكون نائما ونحوه فينقلب على إنسان فيقتله .

ب– خطأ في القصد كأن يرمي من يظنه حربيا فإذا هو مسلم [٨] .

---

(١) انظر: المبسوط ٥٩/٢٦، مختصر الطحاوي ص/٢٣٢ .

(٢) انظر: المعونة ١٣٠٦/٣، المنتقى ١٠٠/٧ .

(٣) انظر: الأم ٢٩٩/٧، ٣٠٠، المنهاج ٣/٤، غاية الاختصار ص/٤٥١ .

(٤) انظر: المغني ٤٤٢/١١، الشرح الكبير ٨/٢٥، الإنصاف ٤٣٣/٩، الفروع ٦٢٢/٥ .

(٥) خلافا لأبي حنيفة فإنه يرى أن القتل بالمثقل ليس من العمد .

انظر: بدائع الصنائع ٢٣٣/٧، حاشية ابن عابدين ٥٢٧/٦، ٥٢٨ .

(٦) انظر: الكافي ٣٨٢/٢، مغني المحتاج ٣/٤، المبدع ٢٤١/٨ .

(٧) انظر: الاختيار ٣٤/٥، المنهاج ٤/٤، المغني ٤٦٢/١١ .

(٨) انظر: المبسوط ٦٨/٢٦، الكافي ٣٩١/٢، المنهاج ٤/٤، المحرر ١٢٤/٢، كشاف القناع ٥١٣/٥ .

ولم يقولـــوا بقتل السبب وما جرى مجرى الخطأ انفرادا؛ لأنهم أدخلوهما في قتل الخطأ .

■ التقسيم الثنائي :

قسم المالكية في المعتمد عندهم القتل إلى قسمين:

١- العمد .

٢- الخطأ [١] .

وهـــذا التقسيم سواء الخماسي أو الرباعي أو الثلاثي هو في الواقع من بـــاب اختلاف تنوع صور القتل لاتفاقهم على تقسيمها باعتبار الحكم الشرعي على ثلاثة أنواع:

١- العمد .

٢- شبه العمد .

٣- الخطأ .

خلافا للمالكية في المعتمد عندهم حيث إنهم يسقطون شبه العمد . وهم محجوجـــون بحديث عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: « ألا إن ديـــة الخطـــأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل، منها أربعون في بطونها أولادها » [٢] .

---

(١) انظر: المعونة ١٣٠٧/٣، الكافي ٣٨٢/٢ .

(٢) أخـــرجه أبـــو داود ٦٨٢/٤-٦٨٣ في كتاب الديات، باب في دية الخطأ شبه العمد، والنســـائي ٤٠/٨، في القسامة، باب كم دية شبه العمد، وابن ماجة ٨٧٧/٢ في الديات، باب دية شبه العمد، والبيهقي ٦٨/٨ في كتاب الديات، باب أسنان الإبل المغلظة في شبه العمد، وابن حبان حديث رقم (١٥٢٦) وصححه الألباني في إرواء الغليل ٢٥٦/٧ .

ثانيا: الجناية على ما دون النفس .

يراد بالجناية على ما دون النفس: كل أذى يقع على الإنسان من الغير مما لا يوجب موته، سواء كانت الجناية عمدا أو غير عمد .

وهذه الجناية تنقسم إلى قسمين:

١- الجناية الواقعة على الوجه والرأس .

٢- الجناية الواقعة على سائر البدن [١].

---

(١) انظر: الهداية ٥٦٩/٢، تبيين الحقائق ١١١/٦، بداية المجتهد ٤٠٥/٢، قوانين الأحكام الشرعية ص/٣٦٨، المهذب ١٧٨/٢، روضة الطالبين ١٧٩/٩، ١٨١، المغني ٥٣٠/١١ وما بعدها، الشرح الكبير ٢٨٤/٢٥ .

المبحث الثّاني: القتل بغير حقّ

القتل بغير حق حرام وكبيرة من كبائر الذنوب [1] .

دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب فآيات كثيرة، منها:

١- قولـــه تعالى: ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ [2] .

٢- وقوله تعالى: ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطئا ﴾ [3] .

٣- وقوله تعالى: ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ﴾ [4] .

٤- وقوله تعالى: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا ﴾ [5] .

٥- وقوله تعالى: ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾ [6] .

---

(١) انظر: المبسوط ٥٨/٢٦، ٥٩، المهذب ١٧٢/٢، المغني ٤٤٣/١١ .

(٢) آية (٣٣) من سورة الإسراء .

(٣) آية (٩٢) من سورة النساء .

(٤) آية (٩٣) من سورة النساء .

(٥) آية (٣١) من سورة الإسراء .

(٦) آية (٣٢) من سورة المائدة .

وأما السنة فأحاديث كثيرة، منها:

١– حديث عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال:« الكبائر[١]: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس[٢] »[٣].

٢– حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث[٤]: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[٥].

٣– حديث عبادة بن الصامت ﷺ قال: «إني من النقباء[٦] الذين بايعوا

---

(١) ذكر في الحديث هنا أربع كبائر، وفي حديث آخر ذكر سبع كبائر، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٢/١٨٣ الحكمة في الاقتصار على ذلك مع أن الكبائر لا يقتصر على ما ذكر: أن مفهوم العدد ليس بحجة، وهو جواب ضعيف، وبأنه أعلم أولا بالمذكورات ثم أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة للسائل أو من وقعت له واقعة .

(٢) الغموس: بفتح المعجمة وضم الميم . سميت بذلك؛ لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، فهي فعول بمعنى فاعل . انظر: فتح الباري ١١/٥٥٥ .

(٣) أخرجه البخاري ٧/٢٢٨ في كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس .

(٤) قال الشوكاني في نيل الأوطار ٧/٦: " قوله (إلا بإحدى ثلاث) مفهوم هذا يدل على أنه لا يحل بغير هذه الثلاث، وسيأتي ما يدل على أنه يحل بغيرها فيكون عموم هذا المفهوم مخصصا بما ورد من الأدلة الدالة على أنه يحل دم المسلم بغير هذه الأمور المذكورة " .

(٥) أخرجه البخاري ٨/٣٨ في كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿ أن النفس بالنفس ﴾، ومسلم ٣/١٣٠٢ في كتاب القسامة، باب ما يباح به دم مسلم .

(٦) النقباء؛ أي العرفاء . انظر: المصباح المنير ٢/٦٢٠ .

رســـول الله ﷺ بايعـــناه على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نزني، ولا نسرق، ولا نقتل النّفس التي حرم الله » [1] .

٤- حديث عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: « لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما » [2] .

٥- حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال النبي ﷺ: « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء [3] » [4] .

وأما الإجماع:

فقد نقل ابن قدامة – رحمه الله تعالى – أنه لا خلاف بين الأئمة في تحريم القتل بغير حق [5] .

---

(١) أخرجه البخاري ٣٥/٨ في كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿ ومن أحياها ... ﴾ .

(٢) أخـــرجه الـــبخاري ٣٥/٨ في كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤهم جهنم ﴾ .

(٣) استشـــكل هذا الحديث مع حديث « أول ما يحاسب العبد عليه صلاته » الذي أخرجه أهل السنن .

وأجيب: أن الحديث الأول يتعلق بمعاملات العباد والثاني بمعاملات الله .

انظر: نيل الأوطار ٤٥/٧ .

(٤) تقدم إخراجه.

(٥) انظر: المغني ٤٤٣/١١ .

المبحث الثّالث :

مشروعية القصاص في النّفس وما دون النّفس

وفيه مطلبان:

المطلب الأوّل: في مشروعية القصاص في النفس

أجمع العلماء على أن القود واجب بالقتل العمد إذا اجتمعت شروطه [١] .

وقد دلت الآيات والأحاديث بعمومها على ذلك:

- من القرآن الكريم:

١- قوله تعالى: ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ [٢] .

٢- وقوله تعالى: ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل ﴾ [٣] .

---

(١) انظر: البناية ١٢/١٠٠، حاشية ابن عابدين ٦/٥٢٩، الذخيرة ١٢/٢٧٩، قوانين الأحكام الشرعية ص/٢٢٦، المهذب ٢/١٧٢، الحاوي ١٢/٦، المغني ١١/٤٥٧، شرح الزركشي ٦/٥٣ .

شروط وجوب القصاص:

١- أن يكون القاتل مكلفا، أي بالغا عاقلا .

٢- أن يكون متعمدا القتل .

٣- أن يكون تعمد القتل محضا، أي لا شبهة في عدم إرادة القتل .

٤- زاد الحنفية أن يكون القاتل مختارا، فلا قصاص على المكره عندهم . والجمهور يوجبون عليه القصاص . انظر: صفحات المصادر السابقة وما بعدها .

(٢) آية (١٧٨) من سورة البقرة .

(٣) آية (٣٣) من سورة الإسراء .

٣- وقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ [١] .

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى –: يقول تعالى: وفي شرع القصاص لكم – وهو قتل القاتل – حكمة عظيمة، وهي بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنـــه يقتل انكف عن صنعه، فكان في ذلك حياة للنفوس . وفي الكتب المتقدمة: القـــتل أنفـــى للقتل، فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز [٢] . انتهى

ونحوه ذكر القرطبي والبغوي [٣] .

٤- وقوله تعالى: ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ [٤] .

فدلت الآيات بعمومها على مشروعية القصاص في الجناية على النفس .

- من السنة .

١- حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يفدى وإما أن يقتل » [٥] .

٢- حديث أبي شريح الكعبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله حرم مكة ولم يحرمها الناس، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسفكن فيها دما ولا يعضدن[٦]

---

(١) آية (١٧٩) من سورة البقرة .

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/٣٠١ .

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٥٦، معالم التنـــزيل ١/١٤٦ .

(٤) آية (٤٥) من سورة المائدة .

(٥) أخرجه البخاري ٦/٩٤ في كتاب اللقطة، باب كيف تعرف اللقطة أهل مكة، ومسلم ١/ ٩٨٨ في الحج، باب تحريم مكة .

(٦) يعضدن؛ أي يقطعن . انظر: المصباح المنير ٢/٤٩٤ .

فيها شجرا، فإن ترخص مترخص فقال: أحلت لرسول الله ﷺ، فإن الله أحلها لي ولم يحلها للناس، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ثم هي حرام إلى يوم القيامة . ثم إنكم معشر خزاعة قتلتم هذا الرجل من هذيل، وإني عاقله، فمن قتل له قتيل بعد اليوم، فأهله بين خيرتين: إما أن يقتلوا أو يأخذوا العقل[١] »[٢] .

ففي هذين الحديثين دلالة على مشروعية القصاص في الجناية على النفس[٣] .

٣–حديث وائل بن حجر ﷺ قال: كنت عند النبي ﷺ إذ جيء برجل في عنقه النسعة[٤]، قال: فدعا ولي المقتول فقال: « أتعفو؟ »، قال: لا، قال: «أفتأخذ الدية؟ »، قال: قال: لا، قال: « أفتقتل؟ »، قال: نعم، قال: « اذهب به ! » فلما ولى قال: « أتعفو ؟ »، قال: لا، قال: « أفتأخذ الدية ؟ »، قال: لا، قال: « أفتقتل ؟ » قال: نعم، قال: « اذهب به ! »، فلما كان في الرابعة، قال: « أما إنك إن عفوت عنه يبوء بإثمه وإثم صاحبه »، قال: فعفا عنه، قال: فأنا رأيته

---

(١) العقل: الدية . وأصله أن القاتل إذا قتل قتيلا جمع الدية من الإبل، فعلقها بفناء أولياء المقتول؛ أي يشدها في عُقلها يسلمها إليهم ويقبضوها منه، فسميت الدية عقلا بالمصدر . وكان أصل الدية الإبل، ثم قومت بعد ذلك بالذهب والفضة والبقر والغنم .
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٧٨/٣، المصباح المنير ٥٠٤/٢ . وراجع: المغني ٦/١٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٨٥/٦، والترمذي ٢١/٤ في كتاب الديات، باب ما جاء في حكم ولي القتيل في القصاص والعفو، وقال: " حديث حسن صحيح " . وصححه الألباني في إرواء الغليل ٢٧٦/٧ .

(٣) انظر: شرح السنة ١٥٩/١٠ .

(٤) النسعة – بنون مكسورة ثم سين ساكنة ثم عين مهملة – هي حبل من جلد مظفورة . انظر: شرح صحيح مسلم ١٧٢/١١ .

يجر النسعة [1].

قال البغوي - رحمه الله تعالى -: فيه دليل على أن ولي الدم مخير بين القصاص، وبين أن يعفو عن القصاص على الدية، وبين أن يعفو مجانا [2].

٤- حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة » [3].

ومن جهة المعنى: أنه لو لم يجب القصاص في هذه الحالة لأدى ذلك إلى سفك الدماء وهلاك الناس [4].

المطلب الثّاني:

مشروعية القصاص في الجناية على ما دون النّفس

أجمع العلماء على تحريم الاعتداء على ما دون النفس وأن القصاص جار فيها إذا أمكن [5].

وقد دل على ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف

(١) أخرجه مسلم ١٣٠٧/٢ في القسامة، باب صحة الإقرار بالقتل وتمكين ولي الدم القتيل من القصاص، واستحباب طلب العفو منه، وأبو داود ٦٣٨/٤ في الديات، باب الإمام يأمر بالعفو في الدم .

(٢) انظر: شرح السنة ١٦١/١٠ .

(٣) سبق تخريجه في صفحة (١٥) .

(٤) انظر: الاختيار ٣٠/٥-٣١، المهذب ١٧٢/٢ .

(٥) انظر: المغني ٥٣٠/١١ .

والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ [١] .

٢– وحديث أنس بن مالك ﷺ: أن الربيع بنت النضر كسرت ثنية جارية فطلبوا الأرش وطلبوا العفو، فأبوا . فأتوا النبي ﷺ فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله ؟، لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها [٢] . فقال: « يا أنس، كتاب الله القصاص ! »، فرضي القوم وعفوا، فقال النبي ﷺ: « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » [٣] .

---

(١) آية (٤٥) من سورة المائدة .

(٢) قوله: (والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها) قيل: لم يرد بهذا القول رد حكم الشرع، وإنما أراد التعريض بطلب الشفاعة . وقيل: إنه وقع منه ذلك قبل علمه بوجوب القصاص إلا أن يختار المجني عليه أو ورثته الدية أو العفو . وقيل: غير ذلك . انظر: نيل الأوطار ٧/ ٢٤ .

(٣) أخرجه البخاري ٣/١٦٩ في كتاب الصلح، باب الصلح في الدية، واللفظ له، ومسلم ٢/ ١٣٠٢ في كتاب القسامة، باب إثبات القصاص في الأسنان وما معناها .

المبحث الرّابع:

في الاشتراك المتعمّد في الجناية على الواحد بالقتل

وفيه ثلاثة مطالب

إذا اشترك جماعة أو اثنان في قتل نفس لم يخل حالهم من ثلاثة أقسام:

أحدهـــا: أن يكون كل واحد منهم لو انفرد بقتله قتل به كأحرار قتلوا حرا، أو العبيد قتلوا عبدا، أو كفار قتلوا كافرا .

والـــثاني: أن يكون كل واحد منهم لو انفرد بقتله لم يجب عليه القود، كأحرار قتلوا عبدا، مسلمين قتلوا كافرا .

والثالث: أن يجب القود على أحدهم لو انفرد ولا يجب على الباقين إذا انفرد، فهذا على ضربين:

أحدهما: أن يكون سقوط القود عنه لو انفرد لمعنى في نفسه، كالأب إذا شـــارك أجنبيا في قتل ولده وكالحر إذا شارك عبدا في قتل عبده وكالمسلم إذا شارك كافرا في قتل كافر .

والثاني: أن يكون سقوط القود عنه لو انفرد لمعنى في فعله، كالخاطئ إذا شارك عامدا في القتل أو تعمد الخطأ إذا شارك عمدا محضا .[1]

وسيأتي أحكام هذه الأقسام في المطالب الآتية إن شاء الله .

(١) انظر: الحاوي ١٢/١٢٧-١٢٨، المغني ١١/٤٩٠ وما بعدها .

المطلب الأوّل:

اشتراك الجماعة في الجناية على الواحد بالقتل

إذا كان كل واحد منهم لو انفرد بقتله قتل به

اختلف العلماء في حكم قتل الجماعة للواحد عمدا وعدوانا إذا توفرت فيهم شروط القصاص أيقتلون به أم لا ؟ على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنهم يقتلون به .

وهـــو مروي عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب والمغيرة بن شعبة وابن عباس – رضي الله عنهم .

وهو قول سعيد بن المسيب والحسن البصري وأبي سلمة بن عبد الرحمن وعطاء وقتادة والأوزاعي وإسحاق [١] .

وبه قال أبو حنيفة[٢] ومالك[٣] والشافعي[٤] وأحمد في المذهب[٥] واتفق أصحاب هذا القول على أن قتل الجماعة بالواحد بشرط أن يكون كل واحد منهم قد جنى جناية لو انفرد بها لمات المجني عليه وأضيف القتل إليه، ووجب القصاص عليه [٦] .

---

(١) انظر: مصنف ابن أبي شيبة ٤٢٨/٥ وما بعدها، الاستذكار ٢٣٥/٢٥، شرح السنة ١٠/ ١٨٤، الحاوي ٢٧/١٢، المغني ٤٩٠/١١ .

(٢) انظر: بدائع الصنائع ٢٣٨/٧، الفتاوى الهندية ٥/٦، البحر الرائق ٣٥٨/٨ .

(٣) انظر: الإشراف ١٨٢/٢، قوانين الأحكام الشرعية ص/٢٢٧، حاشية الدسوقي ٢٤٥/٤ .

(٤) انظر: المهذب ١٧٤/٢، الحاوي ٢٧/١٢، مغني المحتاج ٢٠/٤ .

(٥) انظر: المغني ٤٩٠/١١، الإنصاف ٣٣١/٩، المبدع ٢٥٣/٨ .

(٦) انظـــر: حاشـــية ابن عابدين ٥٥٦/٦ وما بعدها، المهذب ١٧٤/٢، الحاوي ٢٧/١٢، الإنصاف ٣٣٢/٩، شرح الزركشي ٧٧/٦ .

القول الثاني: أنهم لا يقتلون به بحال، وإنما تؤخذ منهم الدية بالسوية .

وهو قول الزهري وابن سيرين وحبيب بن أبي ثابت وعبد الملك وربيعة وابن المنذر [١] .

وبه قال الإمام أحمد في رواية[٢] والظاهرية[٣] .

القول الثالث: أنه يقتل واحد منهم، يرجع فيه لاختيار ولي الدم ويؤخذ من الباقين قسطهم من الدية .

وهـــذا مروي عن معاذ بن جبل وعبد الله بن الزبير وجابر – رضي الله عنهم – ومروي عن ابن سيرين والزهري [٤] .

الأدلة :

أدلة أصحاب القول الأول:

استدل أصحاب هذا القول بالكتاب والسنة والإجماع والمعقول .

أما الكتاب:

فقول الله تعالى: ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ [٥] .

وجـــه الدلالة من الآية: أن سبب الحياة في ذلك يكمن في أنه متى علم القـــاتل أنه إذا قتل وجب القصاص عليه كف عن القتل، فحيي القاتل والمقتول فلـــو لم يقتص من الجماعة بالواحد لما كان في القصاص حياة، ولكان القاتل إذا

---

(١) انظر: شرح السنة ١٠/١٨٤، الحاوي ١٢/٢٧، المغني ١١/٤٩٠ .

(٢) انظر: المغني ١١/٤٩٠، الإنصاف ٩/٣٣٢ .

(٣) انظر: المحلى ١٠/٦٠٧، المغني ١١/٤٩٠ .

(٤) انظـــر: مصـــنف ابن أبي شيبة ٥/٤٢٩، شرح السنة ١٠/١٨٤، بداية المجتهد ٢/٤٠٠، الاستذكار ٢٥/٢٣٥ وما بعدها، الحاوي ١٢/٢٧، المغني ١١/٤٩٠ .

(٥) آية (١٧٩) من سورة البقرة .

أراد القـــتل شارك غيره فيه ليسقط القصاص عنه وعن غيره، ولكان ذلك رافعاً لحكم الآية [١] .

اعترض على هذا الاستدلال:

أن هـــذا إنما يلزم فيما إذا لم يقتل أحد من الجماعة الذي قتلوا الواحد بخـــلاف مـــا إذا قتل منهم واحد، فلا يلزم إذًا أن يبطل الحد حتى يكون سببا للتسليط على إذهاب النفوس [٢] .

وأما السنة :

فحديـــث أبي شريح الكعبي ﷺ وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « ثم إنكم معشـــر خـــزاعة قتلتم هذا الرجل من هذيل، وإني عاقله، فمن قتل له قتيل بعد اليوم فأهله بين خيرتين، إما أن يقتلوا أو يأخذوا العقل » [٣] .

وجه الدلالة:

دل قوله ﷺ: « ثم إنكم معشر خزاعة قتلتم هذا الرجل من هذيل » على أن هذا الخبر ورد في قتل الجماعة لواحد، فالحكم إذا ورد على سبب، لا يجوز أن يكون ذلك السبب خارجا من ذلك الحكم [٤] .

والإجماع:

وقد دل عليه:

مـــا روى ســـعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب ﷺ قتل نفرًا خمسة أو

---

(١) انظر: الحاوي ١٢/٢٧ .

(٢) انظر: بداية المجتهد ٢/٤٠٠ .

(٣) تقدم تخريجه في صفحة (١٩-٢٠) .

(٤) انظر: الحاوي ١٢/٢٧ .

سبعة برجل واحد قتلوه قتل غيلة [1] . وقال عمر: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعا [2] .

وما رواه المغيرة بن حكيم عن أبيه أن أربعة قتلوا صبيا، فقال عمر مثله [3] .

وما جاء عن سعد بن وهب قال: خرج رجال سفر فصحبهم رجل، فقدموا وليس معهم، قال: فاتهمهم أهله، فقال شريح: شهودكم أنهم قتلوا صاحبكم وإلا حلفوا ما قتلوه، فأتوا بهم عليا ﷺ وأنا عنده، ففرق بينهم فاعترفوا، فسمعت عليًّا يقول: أنا أبو الحسن القوم، فأمر بهم فقتلوا [4] .

وما جاء عن الشعبي في رجلين شهدا على رجل أنه سرق فقطعه علي، ثم جاءا بآخر وقالا: أخطأنا فأبطل شهادتهما وأخذ بدية الأول، وقال: لو علمت أنكم تعمدتما لقطعتكما [5].

ومعلوم أنه لا فرق بين القصاص في الأطراف وبين القصاص في النفس [6] .

---

(١) الغيلة؛ فعلة من الاغتيال، وهو أن يخدع، ويقتل في موضع لا يراه فيه أحد . انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٠٣/٣ .

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ٨٧١/٢ في العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر واللفظ به، وابن أبي شيبة ٤٢٨/٥ في الديات، باب إذا أصاب قوم من رجل هل يعاقب أو يقتص منهم كلهم .

(٣) أخرجه البخاري معلقا ٤٢/٨ في الديات، باب إذا أصاب قوم من رجل هل يعاقب .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ٤٢٨/٥ في الديات، باب الرجل يقتله النفر، والبيهقي ٤١/٨ في كتاب الجنايات، باب النفر، باب النفر يقتلون الرجل .

(٥) أخرجه الدارقطني ١٨٢/٣ في الحدود والديات وغيره، والبيهقي ٤١/٨ في الجنايات، باب النفر يقتلون الرجل، والبخاري معلقا ٢٤٢/٨ في الديات، باب إذا أصاب قوم من رجل هل يعاقب .

(٦) انظر: سبل السلام ٢٤٣/٣ .

وما جاء عن المغيرة بن شعبة ﷺ أنه قتل سبعة برجل [١] .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: لو أن مائة قتلوا واحدا قتلوا به [٢].

فهذا ما ثبت عن هؤلاء الصحابة ولم يعرف لهم مخالف في عصرهم فكان إجماعا [٣] .

واعترض على هذا:

بأن حكم عمر وغيره من الصحابة – رضي الله عنهم – لا يعدو كونه فعل صحابي فلا تقوم به حجة ودعوى الإجماع غير مقبولة [٤] .

ولـمـــا ثبت أن معاذا قال لعمر – رضي الله عنهما – ليس لك أن تقتل نفسين بنفس [٥] .

وما جاء عن عمرو بن دينار حيث قال: كان عبد الملك وابن الزبير لا يقتلون منهم إلا واحدا [٦] .

فيتضـــح مما سبق أن الصحابة لم يجمعوا على حكم المسألة . والمقرر في الأصول أن الصحابة إذا اختلفوا لم يجز العمل بقول من أقوالهم إلا بترجيح [٧] .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٥/٤٢٩ في الديات، باب الرجل يقتله النفر .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ٩/٤٧٩، وذكره ابن عبد البر ي الاستذكار ٢٥/٢٣٥ .

(٣) انظر: الاختيار ٥/٢٤٠، الذخيرة ١٢/٣١٩ وما بعدها، المغني ١١/٤٩١ .

(٤) انظر: سبل السلام ٣/٢٤٣ .

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة ٥/٤٢٩ في الديات، باب الرجل يقتل بالنفر .

(٦) أخرجه عبد الرزاق ٩/٤٧٩، وابن أبي شيبة ٥/٤٢٩ في الديات، باب الرجل يقتل بالنفر .

(٧) انظر: أضواء البيان ٢/٩٥ .

وأما المعقول:

١- أننا لو لم نوجب القصاص عليهم لجعل الاشتراك ذريعة لسفك الدماء ولأدى ذلك إلى إسقاط حكمة الردع والزجر (١) .

٢- أنهـــا عقوبة تجب للواحد على الواحد، فوجبت للواحد على الجماعة كحد القذف (٢) .

٣- أن قـــتل الـــنفس أغلظ من هتك العرض والقذف، فإذا حد الجماعة بقذف الواحد كان قتلهم بقتل الواحد أولى (٣) .

٤- أنه منطلق على كل واحد من الجماعة اسم القاتل للنفس، فوجب أن يجري عليه حكمه كالواحد (٤) .

٥- أن ما وجب في قتل الواحد لا يسقط في قتل الجماعة كالدية (٥) .

٦- أن القتل بغير حق لا يكون في العادة إلا بالتغالب والاجتماع، والقصاص شرع حكمة للزجر، فيجعل كل واحد منهم كالمنفرد بالقتل، فيجري القصاص عليهم تحقيقا لمعنى الإحياء وإلا سد باب القصاص وفتح باب التغالب (٦) .

أدلة أصحاب القول الثاني على عدم القتل .

استدل أصحاب هذا القول بالكتاب والمعقول .

---

(١) انظر: الذخيرة ٣٢٠/٢، المغني ٤٩١/١١ .

(٢) انظر: المصدرين السابقين .

(٣) انظر: الحاوي ٢٨/١٢ .

(٤) انظر: أحكام القرآن للجصاص ١٧٨/١، الحاوي ٢٨/١٢ .

(٥) انظر: الحاوي ٢٨/١٢ .

(٦) انظر: البناية ١٥٨/١٢، البحر الرائق ٣٥٤/٨ .

أما الكتاب:

١- فقوله تعالى: ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ [١] .

٢- وقوله تعالى: ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى الحرّ بالحرِ والعبد بالعبد ﴾[٢] .

وجه الدلالة:

وظاهر الآيتين يقتضي أن لا يقتل أكثر من نفس واحدة ولا يقتل بالحر أكثر من حر [٣] .

واعترض عليه:

أن المـــراد بالنفس والحر في الآيتين الجنس، فالنفس تنطلق على النفوس كما أن الحر ينطلق على الأحرار [٤] .

٣- وقوله تعالى: ﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل﴾ [٥] .

وجه الدلالة:

أن من السرف قتل الجماعة بالواحد وهو منهي عنه إذًا [٦] .

واعترض عليه:

أن المـــراد بالســـرف في الآية هو أن يقتل غير قاتله، بل إن قوله تعالى: ﴿ فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ [٧]**، يدل بالاقتضاء على أن سلطان الولي في الجماعة**

---

(١) آية (٤٥) من سورة المائدة .

(٢) آية (١٧٨) من سورة البقرة .

(٣) انظر: الحاوي ٢٧/١٢ .

(٤) انظر: الحاوي ٢٨/١٢ .

(٥) آية (٣٣) من سورة الإسراء .

(٦) انظر: الحاوي ٢٧/١٢ .

(٧) آية (٣٣) من سورة الإسراء .

كسلطانه في الواحد، فلم يكن فيها دليل على منع قتل الجماعة بالواحد (١) .

أما المعقول:

١- أن الواحـــد لا يكافـــئ الجماعـــة، ولا يقـــتل بهم إذا قتلهم، وإنما يقتل بأحدهم، ويؤخذ من ماله ديات الباقين، كذلك إذا قتله جماعة لا يقتلون به (٢) .

واعترض عليه:

بأن حرمة الواحد كحرمة الجماعة بدليل قوله تعالى: ﴿ من أجل ذلك كتبنا عـــلى بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ (٣) . فعليه يجب أن يكون القصاص فيهم واحدا (٤) .

٢- أن زيـــادة الوصـــف تمنع من القصاص فلم يقتل حر بعبد ولا مسلم بكافر فزيادة العدد أولى أن تمنع (٥) .

واعترض عليه:

بوجـــود الفرق بين زيادة الوصف وزيادة العدد، إذ تمنع زيادة الوصف من وجود المماثلة في الواحد ولا تمنع في الجماعة، يؤكد ذلك منع زيادة الوصف في القـــاذف مـــن إقامة الحد عليه في حين أن زيادة العدد لا تمنع من إقامة الحد

---

(١) انظر: الحاوي ٢٩/١٢ .

(٢) انظر: المصدر السابق .

(٣) آية (٣٢) من سورة المائدة .

(٤) انظر: الحاوي ٢٩/١٢ .

(٥) انظر: المصدر السابق .

على الجماعة القاذفين [١] .

٣– أن للنفس بدلين قودا ودية، فلما لم يجب على الاثنين بقتل الواحد ديتان لم يجب عليهما قودان كذلك [٢] .

اعترض عليه من وجهين:

أ– الفرق بين الدية والقود، وذلك أن الدية تتبعض فلم يجب أكثر منها، والقود لا يتبعض فعم حكمه قياسا على سرقة الجماعة، فإنها توجب غرما يتبعض وقطعا لا يتبعض، لذا اشتركوا في غرم واحد وقطع كل واحد منهم [٣] .

ب– وهو عبارة عن فرق آخر بين الدية والقصاص، وهو: أن القصاص موضوع للزجر والردع فلزم في الجماعة مثل لزومه في الواحد، والدية بدل من النفس فلم يلزم فيها إلا بدل واحد فافترقا [٤] .

أدلة القول الثالث على أنه يقتل واحد منهم ويؤخذ من الباقين قسطهم من الدية .

استدل أصحاب هذا القول بالكتاب والمعقول:

أما الكتاب:

١– قوله تعالى: ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ [٥] .

٢– وقوله تعالى: ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد ﴾ [٦].

---

(١) انظر: الحاوي ١٢/٢٩ .

(٢) انظر: المصدر السابق .

(٣) انظر: الذخيرة ١٢/٣٢٠، المغني ١١/٤٩١ .

(٤) انظر: الحاوي ١٢/٢٩ .

(٥) آية (٤٥) من سورة المائدة .

(٦) آية (١٧٨) من سورة البقرة .

وجه الدلالة:

دلت الآيتان على أنه لا يؤخذ بالنفس أكثر من نفس واحدة [1] .

واعترض على هذا:

بأن المراد بالنفس في الآيتين الجنس، فالنفس تنطلق على النفوس، كما أن الحر ينطلق على الأحرار [2] .

أما المعقول:

١-أن التفاوت في الأوصاف ما نع من القصاص بدليل أن الحر لا يؤخذ بالعبد فيكون التفاوت في العدد أولى أن يمنع منه [3] .

اعترض عليه:

بأنهم لم يقتلوا لصفة زائدة في المقتول، بل لكون كل واحد منهم قاتلا [4] .

٢-أن كل واحد منهم مكافئ له، فلا تستوفى أبدال بمبدل واحد، قياسا على عدم وجوب ديات لمقتول واحد [5] .

اعترض عليه:

بالفرق بين الدية والقصاص، فالدية تتبعض، والقصاص لا يتبعض [6] .

---

(١) انظر: المغني ٤٩٠/١١ .

(٢) انظر: الحاوي ٢٨/١٢ .

(٣) انظر: المغني ٤٩٠/١١ .

(٤) انظر: سبل السلام ٢٤٣/٣ .

(٥) انظر: المغني ٤٩٠/١١ .

(٦) انظر: المغني ٤٩٠/١١ .

الراجح:

بعـــد عـــرض الأقوال في المسألة وأدلتها وما ورد عليها من اعتراضات تـــبين من أدلة أصحاب القول الأول أنه لا يوجد دليل صريح على قتل الجماعة بـــالواحد، وغاية ما في الآية التي تمسكوا بها أن مصلحة حفظ النفس تتحقق في القصـــاص، والقول بأن تلك المصلحة لا تتحقق إلا بقتل الجماعة بالواحد وقتل أحد الجماعة في تحقيق مصلحة حفظ النفس به، وإن كان تحقق ذلك في قتلهم به أقوى من الآخر، وهذا خارج عن المسألة .

وأمـــا قول النبي ﷺ في حديث شريح الكعبي ﷺ المتقدم « ومن قتل له قتـــيل بعد اليوم فأهله بين خيرتين: إما أن يقتلوا أو يأخذوا العقل » [(١)] فدلالته عـــلى قـــتل الواحـــد بالواحد صريحة، بخلاف قتل الجماعة بالواحد وهو محل الـــنـــزاع . فلو كانت دلالته على ذلك أمرا مسلما به كما في حالة الانفراد لما ساغ لأحد المخالفة في ذلك .

وأمـــا حكايـــتهم الإجماع على ذلك بناء على عدم العلم بالمخالف لمن حكم به من الصحابة كعمر وعلي وابن عباس – رضي الله عنهم – فلا ينهض بذلـــك حجـــة على المدعى؛ إذ تقرر في الأصول أن عدم العلم ليس دليلا على العـــدم، يؤكد ذلك ما ثبت من مخالفة كل من معاذ وجابر وابن الزبير – رضي الله عنهم – لهذا الحكم، فكيف تصح إذا دعوى الإجماع .

ثم أنـــه على فرض التسليم بصحة دعوى الإجماع فإنه في هذه الحالة لا يكـــون إلا إجماعـــا سكوتيا وهو ظني، فلا يقوى على معارضة الأدلة الصريحة الواضـــحة، مع أن الخلاف ثابت في المسألة من الصدر الأول . إذا تقرر ما سبق

(١) سبق تخريجه في صفحة (١٩–٢٠) .

يظهر للمتأمل مدى وجاهة قول ابن المنذر – رحمه الله تعالى – حيث قال: " لا حجة مع من أوجب قتل الجماعة بالواحد " . ا.هـ .

إلا أنه ينبغي تقييده بعدم وجود دليل صريح من جهة النقل؛ لأن ما ذكره أصحاب هذا القول من الأقيسة وجيهة، ومعلوم أن القياس دليل من الأدلة الشرعية عند جمهور العلماء خلافا لمن شذّ، فعليه لا يسلم القول بنفي وجود مستمسك لهم على قولهم هذا من نظر . والله أعلم .

أما أدلة كل من أصحاب القول الثاني والثالث فلا تدل دلالة صريحة على منع قتل الجماعة بالواحد، وإنما غاية ما فيها أنه لا يؤخذ بالنفس أكثر من مثلها . وهذا على التسليم بأن (أل) الموجودة في لفظ « النفس » و « الحر » في قوله تعالى: ﴿ النفس بالنفس ﴾ [(١)] و ﴿ الحرّ بالحر ﴾ [(٢)] ليس للجنس، وهو ما يرفضه المعارض، إضافة إلى أن القول بأن المراد بالسرف في قوله تعالى: ﴿ فلا يُسْرِفْ فِي القتل ﴾ [(٣)] هو أن لا يقتل جماعة بواحد يحتاج إلى دليل .

وإذا تقرر ما سبق فلم يبق إلا أدلتهم العقلية وهي أيضا لا تسلم من قادح يبطل بها الحجة .

وبناء على ما تقدم يترجح لي القول بأن الجماعة تقتل بالواحد لما يلي:

١– عموم قوله تعالى: ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ [(٤)] ذلك أن ما يتحقق بقتل الجماعة بالواحد من حكمة القصاص التي منها الزجر والردع عن القتل

---

(١) آية (٤٥) من سورة المائدة .

(٢) آية (١٧٨) من سورة البقرة .

(٣) أية (٣٣) من سورة الإسراء .

(٤) أية (١٧٩) من سورة البقرة .

مـــا لا يتحقق في عدم قتلهم بحال، ولا في قتل واحد منهم فقط .

٢- أنـــه يصدق على كل واحد من الجماعة المتمالئين على القتل أنه قاتل فيقتل لذلك [١] .

٣- أنـــه إذا تقرر أن الحد يقام على الجماعة بقذف الواحد كان قتلهم بقتل الواحـــد أولى؛ لأن حفظ النفس أشد ضرورة من حفظ العرض، وإن اشتركا في عناية الشريعة بحفظهما .

٤- أن قـــياس القصاص على القذف في هذه المسالة أولى من قياسه على الدية؛ لاشتمال قياسه على هذا الأخير على الفارق، وسلامته من ذلك في قياسه على الأول .

ومعلوم أن اشتمال القياس على الفارق قادح من القوادح المانعة من صحة الاحتجاج به . والله تعالى أعلم .

المطلب الثاني

في اشتراك الجماعة في قتل النفس

إذا كان كل واحد منهم لو انفرد بقتله لم يقتل به

إذا اشـــترك جماعة أو اثنان في الجناية على واحد بالقتل ويكون كل واحد مـــنهم أو مـــنهما لو انفرد لم يجب عليه القود كأحرار قتلوا عبدا أو مسلمين قتلوا ذميا ففيه خلاف كالخلاف في قتل الحر بالعبد والمسلم بالذمي، وفيهما قولان:

القول الأول: أنه يقتل الحر بالعبد والمسلم بالذمي .

وهو قول الحنفية [٢] .

---

(١) انظر: أضواء البيان ٢/٩٦ .

(٢) انظر: مختصر الطحاوي ص/٢٣٠، المغني ١١/٤٦٥، ٤٧٣ .

القول الثاني: أنه لا يقتل الحر بالعبد ولا المسلم بالذمي .

وهو قول أكثر أهل العلم منهم المالكية[1] والشافعية[2] والحنابلة [3].

الأدلة:

استدل أصحاب القول الأول بالمنقول والمعقول:

١- عموم الآيات والأخبار في القصاص .

٢- قوله ﷺ: « المؤمنون تتكافأ دماؤهم » [4] .

٣- ما روى ابن البيلماني أن النبي ﷺ أقاد مسلما بذمي، وقال: « أنا أحق من وفى بذمته » [5]

---

(١) انظر: الكافي لابن عبد البر ص/٥٨٧، بلغة السالك لأقرب المسالك ٤/١٦١، الذخيرة ١٢/٣٢٠، ٣٣٢ .

(٢) انظر: الحاوي ١٢/١٢٨ .

(٣) انظر: المغني ١١/٤٧٣،٤٦٥ .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه رقم (٤٥٣٠) كتاب الديات، باب أيقاذ المسلم بالكافر، وابن ماجة في سننه رقم(٢٦٨٣) و (٢٦٨٤)، كتاب الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم من حديث ابن عباس مرفوعا . واللفظ لأبي داود .

وضعفه البوصيري في زوائد ابن ماجة – بهامش ابن ماجة ٣/٢٩٤-٢٩٥ طبعة دار الحديث ١٤١٨ هـ .

وأخرجه بنحوه البخاري في صحيحه، رقم (١٨٧٠) كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة، ومسلم في صحيحه، رقم (١٣٧٠) في كتاب الحج، باب فضل المدينة من حديث علي ﷺ .

(٥) أخرجه الشافعي في ترتيب المسند ٢/١٠٥، كتاب الديات، وعبد الرزاق في المصنف ١٠/ ١٠١ كتاب العقول، باب قود المسلم بالذمي، والدارقطني في سننه ٣/١٣٥ كتاب الحدود والديات وغيره، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/٣٠، ٣١، كتاب الجنايات، باب بيان ضعف الخبر الذي روي في قتل المؤمن بالكافر، وما روي عن الصحابة في ذلك . =

٤- ولأن العبد آدمي معصوم، فأشبه الحر [١] .

٥- ولأن الذمي معصوم عصمة مؤبدة، فيقتل به قاتله كالمسلم[٢] .

واستدل أصحاب القول الثاني بما يلي:

١- قولـــه ﷺ: « المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواه، ويسعى بذمتهم أدناهم، ألا لا يقتل مؤمن بكافر » [٣] .

٢- عن علي ﷺ أنه قال: من السنة أن لا يقتل مسلم بكافر [٤].

٣- عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: « لا يقتل حرٌّ بعبد » [٥] .

٤- ولأنـــه لا يقطع طرف الحر بطرف العبد مع التساوي في السلامة، فلا يقتل به، كالأب مع ابنه .

الراجح:

هـــو القول بأن الحر لا يقتل بالعبد وكذا المسلم لا يقتل بالذمي، لأن العـــبد مـــنقوض بالرق، فلم يقتل به الحر، كالمكاتب إذا ملك ما يؤدي، ولأن

= والحديـــث ضعفه الإمام أحمد – كما في المغني ٤٦٧/١١ – والبيهقي، وقال الدارقطني: " يرويه ابن البيلماني، وهو ضعيف إذا أسند، فكيف إذا أرسل ؟".

(١) انظر: المغني ٤٧٣/١١ .

(٢) انظر: المغني ٤٦٦/١١ .

(٣) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة .

(٤) أخـــرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢٩٥/٩ كتاب الديات، باب من قال: لا يقتل مسلم بكافر، والدارقطني في سننه ١٣٤/٣، كتاب الحدود والديات وغيرها . انظر: إرواء الغليل ٢٦٧/٧ .

(٥) أخرجه الدارقطني في سننه ١٣٣/٣، كتاب الحدود والديات وغيره .

الذمـــي منقوض بالكفر فلا يقتل به المسلم كالمستأمن . والعمومات مخصوصات بالأحاديـــث . وحديث ابن البيملاني في قتل المسلم بالذمي ليس له إسناد، قاله الإمام أحمد[1] .

المطلب الثّاني : اشتراك الاثنين في قتل النّفس

إذا وجب القود على أحدهما لو انفرد دون الآخر لمعنى في نفسه لا في فعله

إذا اشـــترك اثنان في الجناية على الواحد في قتل النفس ويجب القصاص على أحدهما إذا انفرد بقتله، ولم يجب على الآخر إذا انفرد لمعنى في نفسه لا في فعله، كاشتراك الأب والأجنبي في قتل الولد، فهل يجب القصاص على الأجنبي؟ ففيه خلاف على قولين:

القول الأول: أنه لا قصاص عليه .

وكان عليهما ديتها على الذي لو تفرد بها منهما كان عليه القصاص في ماله وعلى الآخر على عاقلته .

وهو قول الحنفية [2] ورواية عن أحمد [3] .

القول الثاني: أن عليه القصاص .

وهـــو قـــول المالكية [4]، والشافعية [5]، وأحمد فـــي روايـــة هي

---

(١) فيما نقله ابن قدامة في المغني ١١/٤٦٧ .

(٢) انظر: المبسوط ٢٦/٩٣-٩٤، الجوهرة النيرة ٢/١٥٩، مختصر الطحاوي ص/٢٣١ .

(٣) انظر: المغني ١١/٤٩٦ .

(٤) انظر: الإشراف ٢/١٨١، قوانين الأحكام ص/٣٦٣ .

(٥) انظر: الحاوي ١٢/١٢٨، حلية العلماء ٧/٤٥٧، فتح العزيز ١٠/١٧٩، روضة الطالبين ٧/٣٩ (طبعة دار الكتب العلمية) .

المذهب [١] .

الأدلة:

استدل أصحاب القول الأول بالمعقول وهو:

١–أنه قتل تركب من موجب وغير موجب، فلم يجب القصاص كقتل العامد والمخطئ، والصبي والبالغ، والمجنون والعاقل [٢] .

واعترض عليه:

بعدم التسليم بأن فعل الأب غير موجب، فإنه يقتضي الإيجاب لكونه تمحض عمدا عدوانا، والجناية به أعظم إثما وأكثر جرما، ولذلك خصه الله تعالى بالنهي عنه، فقال تعالى: ﴿ ولا تقتلوا أولادكم ﴾ ثم قال: ﴿ إن قتلهم كان خطئا كبيرا ﴾ [٣]، ولما سئل النبي ﷺ عن أعظم الذنب، قال: « أن تجعل لله ندا وهو خلقك، ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » [٤]، فجعله أعظم الذنوب بعد الشرك [٥] .

واعترض أيضا:

بعدم التسليم بسقوط القصاص عن شريك الخاطئ، وعلى التسليم

---

(١) انظر: مختصر الخرقي مع المغني ٤٩٦/١١، المغني ٤٩٦/١١ .

(٢) انظر: المبسوط ٩٤/٢٦–٩٥، المغني ٤٩٦/١١ .

(٣) آية ٣١ من سورة الإسراء .

(٤) أخرجه البخاري ٢٢/٦ في كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾، وفي كتاب الأدب ٩/٨، ٢٠٤، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، ومسلم ١/ ٩٠، ٩١ في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنب وبيان أعظمها بعده .

(٥) انظر: المغني ٤٩٧/١١ .

بذلــك فامتناع الوجوب فيه لقصور السبب عن الإيجاب فإن فعل الخاطئ غير موجــب للقصاص ولا صالح له، والقتل منه ومن شريكه غير متمحض عمدا، لوقوع الخطأ في الفعل الذي حصل به زهوق النفس، بخلاف مسألتنا .

٢-أن هــذا القتل ثَمَّ موجب للدية فلا يكون موجبا للقصاص كالخاطئ مع العامد إذا اشتركا . وبيان الوصف: أن الواجب على الأب بهذا الفعل الدية لا غــير ... فإذا كان لا يستوفى منه إلا الدية عرفنا أنه موجب للدية . والدليل على أن وجوب الدية هو الحكم الأصلي في قتل الأب دون القصاص .(١)

واعترض عليه:

بعــدم تســليم قــياس شــريك الأب على شريك الخاطئ؛ فإن سقوط القصاص عن الخاطئ لمعنى في فعله، وقد امتزج الفعلان في السراية فلم يتميزا . وســقوطه عن الأب لمعنى في نفسه، وقد تميز القاتلان فلم يستويا (٢) . وفارق أيضــا شــريك الأب شريك المخطئ بأن الخطأ شبهة في فعل الخاطئ، والفعلان مضــافان إلى محل واحد، فأورث شبهة في القصاص، كما لو صدرا من واحد . وشــبهة الأبــوة في ذات الأب لا في الفعــل . وذات الأب متميزة عن ذات الأجنبي فلا تورث شبهة في حقه (٣) .

واعترض أيضا:

بعــدم التسليم أن وجوب الدية هو الحكم الأصلي في قتل الأب دون القصــاص، بــل الحكم الأصلي هو القصاص، بل الجناية فيه أعظم إثما، وأكثر

---

(١) انظر: المبسوط ٢٦/٩٥.

(٢) انظر: الحاوي ١٢/١٢٩، فتح العزيز ١٠/١٨٠ .

(٣) انظر: فتح العزيز ١٠/١٨٠، مغني المحتاج ٤/٢٠ .

جـرما، وهـو أعظـم الذنوب بعد الشرك – كما سبق – وإنما امتنع وجوب القصاص في حق الأب لمعنى مختص بالمحل [١] .

واستدل أصحاب القول الثاني بالمعقول:

١-أنه شارك في القتل العمد العدوان من يقتل به لو انفرد بقتله فوجب عليه القصاص كما لو كانا عامدين فعفا الولي عن أحدهما [٢] .

٢-وأيضـا فـإن الـزهوق حصل بجنايتين عمدين مضمونين، فامتناع وجوب القصاص على أحدهما، لا يمنع الوجوب على الآخر، كما لو رمى اثنان سـهما إلـى واحد، ومات أحـد الراميين قبل الإصابة، يجب القصاص على الآخر [٣] .

٣-ولأنه لما لم يتغير حكم الأب بمشاركة الأجنبي في وجوب القود عليه لم يتغير حكم الأجنبي بمشاركة الأب في سقوط القود عنه [٤] .

٤-أن فعل الأب موجب للقود ثم سقط عنه القود بعفو الشرع منه عن الأب فـلا يسـقط عن الآخر؛ لأن عند أوان السقوط أحد القاتلين متميز عن الآخـر . والدلـيل على ذلك أن سبب القود شرعا هو العمد، وثبوت الحكم بثـبوت السبب . فإذا كانت الأبوة لا توجب نقصانا في السبب لا يمنع ثبوت الحكـم أيضا، وإنما لا يستوفى لئلا يكون الولد سببا في إفناء الوالد بعد أن كان

(١) انظر: المغني ٤٩٧/١١ .

(٢) انظر: الحاوي ١٢٩/١٢، فتح العزيز ١٧٩/١٠، المغني ٤٩٦/١١ .

(٣) انظر: فتح العزيز ١٧٩/١٠-١٨٠، مغني المحتاج ٢١/٤ .

(٤) انظر: الحاوي ١٢٩/١٢ .

الوالد سبب إيجاده [١] .

الراجح:

هـــو القول الثاني، وهو وجوب القصاص؛ لأن فعل الأب قطع الرحم الـــتي أمر الله عز وجل بصلتها، ووضع الإساءة موضع الإحسان، فكان إيجاب القصـــاص عليه أولى والزجر عنه أهم إلا أنه امتنع من حقه لمعنى مختص بالمحل لا لقصور في السبب الموجب [٢] . فلم يسقط عن شريكه .

ولأنهـــا نفس مضمونة خرجت بعمد محض، فلم يكن سقوط القود عن أحـــد القاتلين موجبا لسقوطه عن الآخر، كالعفو عن أحدهما لا يوجب سقوط القود عنهما [٣].

والضابط الفقهي في هذا الباب، هو:

أن كل شريكين امتنع القصاص في حق أحدهما لمعنى فيه من غير قصور في السبب فهو في وجوب القصاص على شريكه، كالأب وشريكه [٤].

ويدخل تحته ما يلي:

أن يشترك مسلم وذمي في قتل ذمي، أو حر وعبد في قتل عبد – عمدا وعدوانـــا – فإن القصاص لا يجب على المسلم والحر، ويجب على الذمي والعبد إذا قلـــنا بوجوبه على شريك الأب؛ لأن امتناع القصاص عن المسلم لإسلامه وعن الحر لحريته، وانتفاء مكافأة المقتول له . وهذا المعنى لا يتعدى إلى فعله ولا

(١) انظر: المبسوط ٢٦/٩٤ .

(٢) انظر: المغني ١١/٤٩٦ .

(٣) انظر: الحاوي ١٢/١٢٩ .

(٤) انظر: الحاوي ١٢/١٢٨، المغني ١١/٤٩٧-٤٩٨، الشرح الكبير ٢٥/٧٠ .

إلى شريكه، فلم يسقط القصاص عنه [١].

المطلب الثّالث:

اشتراك اثنين أو جماعة في الجناية على الواحد بالقتل إذا شارك فيها من لا قصاص عليه لمعنى في فعله

إذا اشـــترك في القـــتل من يجب القود على أحدهما لو انفرد، ولا يجب على الآخر إذا انفرد لمعنى في فعله، كالخاطئ أو الصبي أو المجنون إذا شارك كل واحد منهم عامدا في القتل أو تعمد الخطأ إذا شارك عمدا محضا، فيسقط القود عـــنه لمعنى في فعله لا في نفسه . واختلف الفقهاء في شريك من سقط عنه القود على النحو التالي:

١- إذا اشترك في القتل صبي ومجنون وبالغ، هل يجب القصاص على البالغ؟ على قولين:

القول الأول: أنه لا يجب القصاص عليه .

وهـــو قـــول الحسن والأوزاعي وإسحاق [٢] . وإليه ذهب الحنفية [٣]، والشـــافعية في أحد القولين [٤] وأحمد في رواية هي المذهب [٥] . وهو أيضا قول

(١) انظر: المصادر السابقة، وفتح العزيز ١٠/١٧٩، روضة الطالبين ٧/٣٩-٤٠ .

(٢) انظر: المغني ١١/٤٩٨ .

(٣) انظر: المبسوط ٢٦/٩٤، الجوهرة النيرة ٢/١٥٩ .

(٤) انظـــر: الحاوي ١٢/١٣٠، حلية العلماء ٧/٤٥٨، فتح العزيز ١٠/١٨١-١٨٢، روضة الطالبين ٧/٤١ .

(٥) انظر: المغني ١١/٤٩٨ .

المالكية في اشتراك المجنون والبالغ [(١)]

القول الثاني: يجب القصاص عليه .

وهـــو قول قتادة والزهري وحماد [(٢)] . وهو القول الثاني للشافعي [(٣)]، وأحمد في رواية [(٤)] . وإليه ذهب المالكية [(٥)] في اشتراك الصبي والبالغ .

واستدل أصحاب القول الأول بالمعقول من وجهين:

١- أنه شارك من لا مأثم عليه في فعله، فلم يلزمه قصاص كشريك الخاطئ [(٦)] .

٢- أن الصبي والمجنون لا قصد لهما صحيح، ولذا لا يصح إقرارهما، فكان حكم فعلهما حكم الخطأ [(٧)]، فلا يلزم شريكهما القصاص للشبهة .

واستدل أصحاب القول الثاني بالمعقول :

أنها شركة في قتل فلم يؤثر في إسقاط الجنس الذي يجب به حال الانفراد [(٨)].

الراجح:

---

(١) انظر: مختصر خليل ٢/٢٥٨، الشرح الصغير لأحمد الدردير ٤/١٧٠، جواهر الإكليل ٢/ ٢٥٨، بلغة السالك لأقرب المسالك ٤/١٧٠ .

(٢) انظر: المرجع ا لسابق .

(٣) انظر: الحاوي ١٢/١٣٠، حلية العلماء ٧/٤٥٨، فتح العزيز ١٠/١٨١، روضة الطالبين ٧/٤١ .

(٤) انظر: المغني ١١/٤٩٨ .

(٥) انظـــر: الإشراف ٢/١٨٥، قوانين الأحكام ص/٣٦٣، بلغة السالك لأقرب المسالك ٤/ ١٧٠، جواهر الإكليل ٢/٢٥٧-٢٥٨ .

(٦) انظر: الحاوي ١٢/١٣٠، المغني ١١/٤٩٩ .

(٧) انظر: المغني ١١/٤٩٩ .

(٨) انظر: الإشراف ٢/١٨٥ .

هـو القول الثاني، وهو وجوب القصاص؛ لأن كل من انفرد بالقتل لزمه القـود، فإذا شاركه فيه من لا قود عليه لم يسقط القود عنه [١] . ولأن القاتل البالغ تعمد الفعل فلزمه القود أشبه المنفرد [٢] .

٢- إذا اشـترك العامد والمخطئ في الجناية، فهل يجب على شريك المخطئ قصاص ؟.

أمـا المخطئ فلا قصاص عليه للكتاب والسنة والإجماع [٣]. وأما شريكه فقد وقع فيه خلاف على قولين:

القول الأول: ليس على شريك المخطئ قصاص .

وهـو قول أكثر أهل العلم .[٤] وبه قال النخعي والحنفية[٥] والشافعية[٦] والحنابلة [٧].

القول الثاني: أن عليه القصاص .

وهو قول مالك[٨] وأحمد في رواية [٩].

---

(١) انظر: الإشراف ١٨٥/٢ .

(٢) انظر: الإشراف ١٨٥/٢ .

(٣) انظر: المغني ٥٠٢/١١، الشرح الكبير ٧٢/٢٥ .

(٤) انظر: المبسوط ٩٣/٢٦، الحاوي ١٢٨/١٢، تكملة المجموع ٢٩١/٢٠، المغني ٥٠٢/١١ .

(٥) انظر: المبسوط ٩٣/٢٦، مختصر الطحاوي ص/٢٣١ .

(٦) انظر: الحاوي ١٢٨/١٢، تكملة المجموع ٢٩١/٢٠ .

(٧) انظر: المغني ٥٠٢/١١، المقنع ٦٨/٢٥، الشرح الكبير ٧٢/٢٥، الإنصاف ٦٨/٢٥ .

(٨) انظـر: بلغة السالك لأقرب المسالك ١٧٠/٤، جواهر الإكليل ٢٥٨/٢، الحاوي ١٢/ ١٢٨، تكملة المجموع ٢٩١/٢٠ .

(٩) انظر: المصادر السابقة بهامش (٧) .

الأدلة:

استدل أصحاب القول الأول بما يلي:

١-أنه قتل لم يتمحض عمدا فلم يوجب القصاص كشبه العمد، وكما لو قتله واحد بجرحين عمدا وخطأ .[١]

٢-ولأن كل واحد من الشريكين مباشر ومتسبب، فإذا كانا عامدين، فكل واحد متسبب إلى فعل موجب للقصاص فقام فعل شريكه مقام فعله لتسببه إليه، وههنا إذا أقمنا فعل المخطئ مقام فعل العامد صار كأنه قتله بعمد وخطأ، وهذا غير موجب .[٢]

٣-ولأنه إذا اجتمع في النفس موجب ومسقط يغلب حكم المسقط على حكم الموجب، كالحر إذا قتل من نصفه مملوك ونصفه حر .[٣]

٤-ولأن سقوط القود في الخطأ يجري في حق القاتل مجرى عفو بعض الأولياء .[٤]

و(القاعدة) عندهم: " لا يقتص من شريك مخطئ أو شبه عمد، ويقتص من شريك من امتنع قوده لمعنى فيه إذا تعمدا جميعا " .[٥]

واستدل أصحاب القول الثاني بما يلي:

١-أن كل من وجب عليه القود إذا انفرد وجب عليه القود إذا شارك

---

(١) انظر: الحاوي ١٢٩/١١ .

(٢) انظر: الشرح الكبير ٧٢/٢٥ .

(٣) انظر: الحاوي ١٢٩/١٢، مغني المحتاج ٢٠/٤ .

(٤) انظر: الحاوي ١٢٩/١٢ .

(٥) انظر: مغني المحتاج ٢٠/٤ .

فيه من لا يجب عليه القود كشريك الأب [١] .

٢-ولأنه لو جاز أن يتعدى حكم الخاطئ إلى العامد في سقوط القود لجاز أن يتعدى حكم العامد إلى الخاطئ في وجوب القود .[٢]

٣-ولأنه لما لـــم يتغير حكم الدية بمشاركة الخاطئ، لـــم يتغير بها حكم القود .[٣]

الراجح:

هـــو القول الثاني: وهو وجوب القصاص؛ لأن شريك الخاطئ شارك في القـــتل عمـــدا وعدوانا فوجب عليه القصاص كشريك العامد، ولأن مؤاخذته بفعله، وفعله عمد وعدوان، لا عذر له فيه .[٤]

---

(١) انظر: الحاوي ١٢/١٢٨ .

(٢) انظر: المصدر السابق .

(٣) انظر: الحاوي ١٢ /١٢٨ .

(٤) انظر: المغني ١١/٥٠٣، الشرح الكبير ٢٥/٧٢ .

المبحث الخامس:

الاشتراك المتعمّد في الجناية على الواحد بالجرح أو القطع

اتفق الفقهاء على جريان القصاص فيما دون النفس ما أمكن ذلك [1] لما يلي:

١– قوله تعالى: ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ﴾ [2] .

٢– وقوله تعالى: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ [3] .

٣– ولحديث أنس ﷺ: أن الربيع عمته كسرت ثنية جارية فطلبوا إليها العفو، فأبوا فعرضوا الأرش، فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ وأبوا إلا القصاص، فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله، أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فقال رسول الله ﷺ: « يا أنس كتاب الله القصاص » فرضي القوم وعفوا، فقال رسول الله ﷺ: « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » [4] .

ومن القياس:

أن ما دون النفس كالنفس في حاجته لحفظه بالقصاص، فكان مثل

---

(١) انظر: البحر الرائق ٣٤٥/٨، قوانين الأحكام الشرعية ص/٢٣٠، المهذب ١٧٨/٢، المغني ٥٣١/١١ .

(٢) آية (٤٥) من سورة المائدة .

(٣) آية (١٩٤) من سورة البقرة .

(٤) تقدم تخريجه في صفحة (٢٢) .

النفس في وجوبه [(١)] .

واختلفوا في حكم القصاص من الجماعة ممن توفرت فيهم شروط القصاص إذا اشتركوا في الجناية على شخص واحد بجرح أو قطع عضو ونحو ذلك على قولين:

القول الأول: أنه يقتص منهم جميعا .

وبه قال المالكية [(٢)]، والشافعية [(٣)]، والحنابلة في المذهب [(٤)] .

واتفق أصحاب هذا القول على أن شرط وجوب القصاص عليهم في هذه الحالة هو اشتراكهم في اقتراف هذه الجناية دفعة واحدة على وجه لا يتميز فعل أحدهم عن فعل صاحبه، كأن يشهدوا بما يوجب قطع يده ثم يرجعوا عن شهادتهم، ويقولوا تعمدنا ذلك، أو يلقوا صخرة على شخص فتقطع طرفه، ونحو ذلك، بخلاف ما لو قطع كل واحد منهم عضو المجني عليه من جانب فلا يجب القصاص حينئذ؛ لأن جناية كل واحد منهم في بعض العضو، فلا يجوز أن يقتص منه في جميع العضو [(٥)] .

القول الثاني: أنه لا يقتص من أحدهم، وإنما عليهم دية الجناية بالسوية .

وبه قال الحسن البصري والزهري والثوري [(٦)] . وهو قول الحنفية [(٧)]،

(١) انظر: المهذب ١٧٧/٢، المغني ٥٣١/١١ .

(٢) انظر: الاستذكار ٢٣٦/٢٥، الذخيرة ٣٢١/١٢ .

(٣) انظر: الحاوي ٣٢/١٢، المهذب ١٧٨/٢ .

(٤) انظر: المغني ٤٩٣/١١ وما بعدها، شرح الزركشي ٧٧/٦ .

(٥) انظر: البيان والتحصيل ١٢٧/١٦، المهذب ١٧٨/٢، شرح الزركشي ٧٨/٦ .

(٦) انظر: البناية ١٦٠/١٢، الحاوي ٣٢/١٢، المغني ٤٩٤/١١ .

(٧) انظر: البناية ١٦٠/١٢، البحر الرائق ٣٥٥/٨، حاشية ابن عابدين ٥٥٧/٦ .

وأحمد في رواية [1] .

الأدلة:

استدل أصحاب القول الأول بما يأتي:

أ- ما جاء عن الشعبي في رجلين شهدا على رجل أنه سرق، فقطعه عليّ، ثم جاءا بآخر، وقالا: أخطأنا فأبطل شهادتهما وأخذ بدية الأول، وقال: « لو علمت أنكما تعمدتما لقطعتكما » .

فقد أخبر أمير المؤمنين عليّ ﷺ أن القصاص على كل منهما قطع يده لو تعمدا، فهذا يدل على جواز قطع اليدين باليد الواحدة [2] .

ب- ومن جهة المعنى:

١- أنه أحد نوعي القصاص فجاز أن يجب على الجماعة بالجناية ما يجب على الواحد كالقصاص على الأنفس [3] .

٢- أن كل جناية لو انفرد بها الواحد أقيد، فوجب أن يقاد فيها الجماعة إذا اشتركوا فيها كالجناية على النفوس [4] .

٣- أنه قصاص يستحق في النفس فوجب أن يستحق في الطرف قياسا على ما لو كان الجاني شخصا واحدا [5] .

٤- أن حرمة النفس أشد من حرمة الطرف، فلما أقيدت النفوس

---

(١) انظر: المغني ٤٩٤/١١، شرح الزركشي ٧٨/٦ .

(٢) انظر: الحاوي ٣٢/١٢، المغني ٤٩٥/١١ .

(٣) انظر: المهذب ١٧٨/٢، المغني ٤٩٥/١١، شرح الزركشي ٧٧/٦ .

(٤) انظر: الحاوي ٣٢/١٢ .

(٥) انظر: المصدر السابق .

بنفس فأولى أن تقاد الأطراف بطرف [١] .

وقد أجيب عن قياس ما دون النفس على النفس من عدة أوجه، منها:

أ- أن الأطراف يشترط فيها المساواة في النفع والقيمة، لهذا لا تقطع الصحيحة بالشلاء، ولا يد الحر بيد العبد، ولا يد الرجل بيد المرأة، بخلاف النفس، فإنها لا يشترط فيها غير المساواة في العصمة، لذا تقتل النفس السالمة من العيوب بقتل المعيبة، وكذا الاثنان بالواحد [٢] .

ب- أن زهوق الروح لا يتجزأ فأضيف إلى كل واحد من الجماعة المشتركين في ذلك، وقطع العضو يتجزأ بدليل أنه يمكن أن يقطع البعض ويترك الباقي بخلاف القتل [٣] .

أدلة القول الثاني:

استدل أصحاب هذا القول بما يلي:

١-أن النفس أشرف من الطرف، فلا يلزم من المحافظة عليها بأخذ الجماعة بالواحد، المحافظة على ما دونها [٤] .

٢-أن الأطراف يعتبر التساوي فيها، بدليل أنا لا نأخذ الصحيحة بالشلاء ولا كاملة الأصابع بناقصتها، ولا أصيلة بزائدة، ولا يمينا بيسار ولا يسارا بيمين، ولا تساوي بين الطرف والأطراف فوجب امتناع القصاص بينهما، ولا يعتبر التساوي في النفس إذ يجوز فيها أخذ الصحيح بالمريض، وصحيح

(١) انظر: الحاوي ١٢/٣٢ .

(٢) انظر: البحر الرائق ٨/٣٥٦، حاشية ابن عابدين ٦/٥٥٧ .

(٣) انظر: البناية ١٢/١٦١، البحر الرائق ٨/٣٥٦ .

(٤) انظر: المغني ١١/٤٩٥، شرح الزركشي ٦/٧٨ .

الأطراف بمقطوعها وأشلها [1] .

٣-أن كل واحد منهم قاطع لبعض العضو المقطوع؛ لأن ما انقطع بقوة أحدهم لم ينقطع بقوة الآخر، فلا يجوز قطع الكل بالبعض، ولا الاثنين بالواحد لانعدام المساواة، فصار كما إذا أمر كل واحد من جانب [2] .

٤-أنه يعتبر في القصاص في الأطراف التساوي في نفس القطع بحيث لو قطع كل منهم من جانب لم يجب القصاص بخلاف النفس [3] .

وأجيب عن اعتبار التساوي:

بأنه معتبر في الطرف كما في النفس لذا لم نأخذ مسلما بكافر ولا حرًا بعبد [4] .

وأجيب عن أخذ صحيح الأطراف بمقطوعها:

بأن الطرف ليس من النفس المقتص منها، وإنما يفوت تبعا، ولذلك كانت ديتها واحدة، بخلاف اليد الشلاء والناقصة مع الصحيحة فإن ديتها تختلف [5] .

٥-أن الاشتراك الموجب للقصاص في النفس يقع كثيرا فوجب قطع الجماعة بالواحد زجرا عنه مخافة أن يتخذ ذلك وسيلة إلى كثرة القتل، والاشتراك المختلف فيه لا يقع إلا في غاية الندرة، فلا حاجة إلى الزجر عنه [6] .

---

(١) انظر: المغني ٤٩٤/١١ .

(٢) انظر: البناية ١٦١/١٢، البحر الرائق ٣٥٥/٨ .

(٣) انظر: المغني ٤٩٤/١١ .

(٤) انظر: المغني ٤٩٥/١١ .

(٥) انظر: المصدر السابق .

(٦) انظر: البناية ١٦٢/١٢، البحر الرائق ٣٥٦/٨، المغني ٣٩٤/١١ .

٦– أن إيجـــاب القصاص على المشتركين في النفس يحصل به الزجر عن كل اشتراك أو عن الاشتراك المعتاد، وإيجابه على المشتركين في العضو لا يحصل بـــه الزجر عن ذلك ولا عن شيء من الاشتراك إلا عن صورة نادرة الوقوع، بعيدة الوجود، يحتاج في وجودها إلى تكلف، فإيجاب القصاص للزجر عنها يكون منعا لشيء ممتنع بنفسه لصعوبته، وهذا لا فائدة فيه، بخلاف الاشتراك في النفس (١) .

الراجح:

بعد عرض أقوال العلماء وأدلتهم في حكم القصاص من الجماعة عند اشتراكهم في قطع طرف أحد فإنه يظهر لي من أدلة أصحاب القول الأول والثاني: أنه لم يثبت في المسألة نص من الكتاب أو السنة، بل غاية ما تمسك به القائلون بمشروعية القصاص من الجماعة والحالة ما ذكر هو الأثر المروي عن علي ﷺ، وهذا قول صحابي لم يعرف له مخالف في عصره فيكون إجماعا سكوتيا، إلا أن يقال أن لازم قول من قال بعدم جواز قتل الجماعة من الصحابة – رضي الله عنهم – يقتضي ألا يجيز أولئك الصحابة – رضي الله عنهم – القصـــاص من الجماعة للواحد فيما دون النفس، وإن كان لازم القول ليس قولا .

أمـــا مـــا استدل به كل من أصحاب القولين من المعقول، فله حظ من الـــنظر لوجاهته وقوته، وإن كان بعضه أولى في الاعتبار من بعض . وبناء على ذلك فإنه يترجح لي القول: بأن يقتص من الجماعة للواحد فيما دون النفس، لما يلي:

١–ثبوت ذلك عن علي ﷺ من غير العلم بمخالف لـــه من الصحابة،

(١) انظر: المغني ٤٩٤/١١ .

وقد تقرر في الأصول أن قول الصحابي حجة إذا لم يعلم له مخالف .

٢-أن إيجـاب القصاص على الجماعة المشتركين في الجناية على الواحد في العضو أو في الجرح يحصل به الزجر عن الاعتداء على الغير .

٣-أن حفظ النفس مقصد شرعي، فكما حافظت الشريعة على النفس فإنها حافظت على ما دونها من الجرح أو العضو . والقول بعدم القصاص على الجماعة في هذه الحالة يفضي إلى تفويت مقصد الشرع في الأمر، وقد يفتح باب جعل ذلك ذريعة إلى انتشار الفساد في الأرض .

٤-أن كـل واحد من المشتركين في الجناية يصدق عليه أنه متعد على الغير فيحكم عليه حكمه . والله أعلم .

الخاتمة

بعـــد تمـــام هذا البحث أشكر الله تبارك وتعالى على ما منَّ به عليَّ من نعمـــه الـــتي لا تعد ولا تحصى، ومنها ما يسر لي من إنهاء هذا البحث، والذي أحب أن أختمه بذكر أهم ما توصلت إليه من نتائج وتتلخص في الآتي:

١- أن الشريعة الإسلامية حفظت نفس الإنسان من أن تقتل بغير حق، لذا أوجب القصاص على من اقترف جريمة القتل العمد إذا توفرت شروط القصاص، وهذا كفيل بأن يوفر للناس الأمن والاطمئنان؛ لأن من أراد القتل إذا عرف أنه يقتص منه فإنه يمتنع من هذا الفعل .

٢- أن الجماعـــة المشـــتركين في قتل الواحد يقتلون به على القول الراجح زجـــرا لهـــم ولغيرهم إذ يترتب على القول بعدم القصاص منهم كثرة القتل في المجتمع من ثم استفحاله فيه مما يؤدي إلى أن من أراد قتل آخر اشترك مع غيره ليسقط القصاص عنه .

٣- أنه إذا اشترك أب وأجنبي في قتل الولد يجب القصاص على الأجنبي .

٤- وجوب القصاص على البالغ إذا اشترك مع مجنون وصبي .

٥- أن الجماعـــة إذا اشـــتركوا في الجـــناية بجرح إنسان أو قطع عضو من أعضـــائه فإنه يقتص منهم كذلك منعا للاعتداء وزجرا عن الفساد في الأرض وتحقيقا للأمن .

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان:

بترتيب الأمير علاء الدين بلبان .
- أحكام القرآن:

لأبي بكر أحمد بن علي الجصاص المتوفى ٣٧٠ هـ .
- الاختيار لتعليل المختار:

لعبد الله بن محمود بن مودود الموصلي المتوفى ٦٨٣ هـ .

تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد . الناشر: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده – القاهرة .
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل:

لمحمد ناصر الدين الألباني . إشراف زهير الشاويش . الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ . الناشر: المكتب الإسلامي .
- الاستذكار:

لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر المتوفى ٤٦٣ هـ .

الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ . الناشر: دار قتيبة للطباعة النشر، دمشق، ودار الوغى – حلب، القاهرة .
- الأشراف على مسائل الخلاف:

للقاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المتوفى ٤٢٢ هـ .

الناشر: مطبعة الإدارة – الطبعة الأولى .

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:
لمحمد الأمين محمد المختار الشنقيطي .
الطبعة الثانية عام ١٤٠٠ هـ على نفقة محمد بن عوض بن لادن .
- الأم:
للإمام محمد بن إدريس الشافعي المتوفى ٢٠٤ هـ .
طبعة الشعب، القاهرة .
- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد:
لعلاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي المتوفى ٨٨٥ هـ .
تحقيق: محمد حامد الفقي . الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ بمطبعة السنة المحمدية، القاهرة .
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع:
لعلاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني المتوفى ٥٨٧ هـ .
الطبعة الثانية . الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤٠٢ هـ .
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد:
لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المتوفى ٥٩٥ هـ .
الناشر: دار المعرفة – بيروت .
- البناية في شرح الهداية:
لأبي محمد محمود بن أحمد العيني المتوفى ٨٥٥ هـ .
الطبعة الثانية ١٤١١ هـ . دار الفكر – بيروت .
- البيان والتحصيل:
لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المتوفى ٥٢٠ هـ .

تحقيق: د / محمد حجي . الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٤٠٤ هـ .

- تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق:
لفخر الدين عثمان بن علي الزيلعي المتوفى ٧٤٣ هـ .
الطبعة الثانية بالأوفست، دار المعرفة – بيروت .
- التعريفات:
للشريف علي بن محمد الجرجاني . دار الكتب العلمية .
- تفسير القرآن العظيم:
لعماد الدين إسماعيل بن كثير المتوفى ٧٧٤ هـ .
الناشر: دار إحياء الكتاب، عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- الجامع لأحكام القرآن:
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى ٦٧١ هـ .
الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – طبعة معاده بالأوفست .
- الجوهرة النيرة شرح مختصر القدوري:
لأبي بكر بن علي العروف بالحداد المتوفى ٨٠٠ هـ .
الناشر: مير محمد كتب خانة – كرتشي .
- حاشية الدسوقي على الشرح الكبير:
للعلامة محمد بن عرفة الدسوقي .
الطبعة الثالثة – المطبعة الأميرية ببولاق – مصر .
- حاشية رد المحتار على المختار، المعروفة بحاشية ابن عابدين .
لمحمد أمين بن عمر الدمشقي – الشهير بابن عابدين – المتوفى ١٢٥٢ هـ .

مع التكلمة لنجل المؤلف . الطبعة الثانية . دار الفكر – بيروت .

- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي:
لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي .
تحقيق: علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود .
الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، دار الكتب العلمية – بيروت .

- حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء:
لسيف الدين أبي بكر بن أحمد الشاشي القفال .
تحقيق: د / ياسين أحمد دراكه . الناشر: مكتبة الرحالة الحديثة – عمان .

- الذخيرة:
لشهاب الدين أبي العباس أحمد إدريس الصنهاجي الشهير بالقرافي .
تحقيق: د / محمد حجي . الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي – بيروت .

- روضة الطالبين وعمدة المفتين:
لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي المتوفى ٦٧٦ هـ .
الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ . إشراف زهير الشاويس . المكتب الإسلامي .

- سبل السلام شرح بلوغ المرام:
لمحمد بن إسماعيل الصنعاني المتوفى ١١٨٢ هـ .
الطبعة الرابعة ١٣٧٩ هـ . الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

- سنن أبي داود:
لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى ٢٧٥ هـ .
تحقيق: عزت الدعاس، طبع محمد علي السيد – حمص .

- سنن ابن ماجه:
لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني المتوفى ٢٧٥ هـ .
تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي . الناشر: عيسى البابي .
- سنن الترمذي « الجامع الصحيح »:
لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي المتوفى ٢٧٩ هـ .
- سنن الدارقطني:
للحافظ علي بن عمر الدارقطني المتوفى ٣٨٥ هـ .
الطبعة الرابعة ١٤٠٦ هـ . عالم الكتب – بيروت .
- السنن الكبرى:
لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى ٤٥٨ هـ .
الناشر: دار الفكر .
- سنن النسائي:
لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى ٣٠٣ هـ .
بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية السندي .
الناشر: دار الفكر – بيروت .
شرح الزركشي على مختصر الخرقي:
لشمس الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى ٧٧٢ هـ .
تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين . الناشر: مطابع العبيكان – الرياض .
- شرح السنة:
لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البيهقي المتوفى ٥١٦ هـ .
تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش . الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ .

المكتب الإسلامي .

- الشرح الكبير:

لشمس الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المتوفى ٦٨٢ هـ.

الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ . هجر للطباعة والنشر . مطبوع مع القنع والإنصاف .

- شرح النووي على صحيح مسلم:

لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي المتوفى ٦٧٦ هـ .

الناشر: دار الفكر – بيروت .

- صحيح البخاري:

لمحمد بن إسماعيل البخاري المتوفى ٢٥٦ هـ .

بتصحيح محمد ذهني . طبعة بولاق عام ١٣١٥ هـ .

- صحيح مسلم:

لمسلم بن حجاج القشيري المتوفى ٢٦١ هـ . تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي .

الناشر: عيسى البابي الحلبي عام ١٣٧٥ هـ .

- غاية الاختصار:

لأبي شجاع الحسين بن أحمد الأصفهاني الشافعي .

الطبعة الأولى عام ١٤١٢ هـ . دار الخير، وهو مطبوع مع شرحه كفاية الأخيار .

- الفتاوى الهندية:
للشيخ نظام وجماعة من علماء الهند .
الطبعة الثالثة ١٣٩٣ هـ . المكتبة الإسلامية – تركيا .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري:
لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٢ هـ .
ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي . الناشر: دار الفكر .
- الفروع:
لأبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي المتوفى ٧٦٢ هـ .
الطبعة الثانية . الناشر: عالم الكتب .
- القاموس المحيط:
لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي المتوفى ٨١٧ هـ .
الناشر: دار الجيل – بيروت .
- قوانين الأحكام الشرعية:
لأبي القاسم محمد بن جزيء المتوفى ٧٤١ هـ .
الناشر: دار العلم – بيروت .
- الكافي في فقه أهل المدينة:
لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي المتوفى ٤٦٣ هـ.
تحقيق: محمد بن محمد بن أحمد ولد ماديك الموريتاني . الناشر: المحقق عام ١٣٩٩ هـ .
- كشاف القناع على متن الإقناع:
لمنصور بن يونس البهوتي المتوفى ١٠٥٢ هـ .

الناشر: عالم الكتب – بيروت، ١٤٠٣ هـ .

- كنـــز الدقائق:

لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن حافظ الدين النسفي .

المطبعة الأميرية ببولاق لعام ١٣٦٣ هـ. مطبوع مع شرحه تبيين الحقائق .

- لسان العرب:

لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المتوفى ٧١١ هـ .

الناشر: دار صادر – بيروت .

- المبدع في شرح المقنع:

لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي المتوفى ٨٨٤ هـ .

الناشر: المكتب الإسلامي ١٤٠٢ هـ .

- المبسوط:

لشمس الدين محمد بن أحمد السرخسي المتوفى ٤٨٣ هـ .

دار المعرفة – بيروت، ١٤٠٦ هـ .

- المجموع شرح المهذب:

لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي المتوفى ٦٧٦ هـ . مع تكملته للسبكي والمطيعي.

الناشر: دار الفكر .

- المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل:

لأبي البركات عبد السلام بن عبد الله الحراني المتوفى ٦٥٢ هـ .

الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت .

- المحلى:

لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى ٤٥٦ هـ .

تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي . الناشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت .

- مختصر الطحاوي:

لأبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي المتوفى ٣٢١ هـ .

حققه أبو الوفاء الأفغاني . الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ . دار إحياء العلوم – بيروت .

- مختصر القدوري:

لأبي الحسن أحمد بن محمد البغدادي القدوري المتوفى ٤٢٨ هـ .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل:

وضعه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني المتوفى ٢٤١ هـ .

الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٣ هـ . الناشر: المكتبة الإسلامي – بيروت .

- المصباح المنير:

لأحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي المتوفى ٧٧٠ هـ .

الطبعة الأولى . الناشر: المطبعة الأميرية ببولاق .

- المصنف:

لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى ٢١١ هـ .

تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي . الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ . الناشر: المكتب الإسلامي .

- المصنف:

لعبد الله بن محمد بن أبي شيبة المتوفى ٢٣٥ هـ .

تحقيق: الأستاذ عامر العمري الأعظمي . الطبعة الثاني ١٣٩٩ هـ . الدار السلفية – الهند .

- معالم التنــزيل:

لأبي محمد بن الحسين بن مسعود الفراء البغوي المتوفى ٥١٦ هـ .

تحقــيق: خــالد عبد الرحمن – مروان سواد . الطبعة الأولى . دار المعرفة ١٤٠٦ هـ .

- المعونة:

للقاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المتوفى ٥١٦ هـ .

تحقيق: حميش حميس . الناشر: المكتبة التجارية للباز مكة المكرمة .

- المغني:

لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المتوفى ٦٢٠ هـ .

تحقيق: د / عبد الله بن عبد المحسن التركي و د/ عبد الفتاح الحلو . الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ . هجر للطباعة والنشر – القاهرة .

- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج:

لشمس الدين محمد بن أحمد الشربيني الخطيب المتوفى ٩٧٧ هـ .

مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٧٧ هـ .

- المنتقى شرح موطأ الإمام مالك:

لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي ٤٩٤ هـ .

الطــبعة الثانية طبعة معادة بالأوفست ١٤٠٣ هـ . الناشر: دار الكتاب العربي .

- المهذب في فقه الإمام الشافعي:
لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي المتوفى ٤٧٦ هـ .
الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، عام ١٣٩٦ هـ .

- مواهب الجليل شرح مختصر خليل:
لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الحطاب المتوفى ٩٥٤ هـ .
الطبعة الثالثة عام ١٤١٢ هـ، دار الفكر .

- الموطأ:
وضعه إمام دار الهجرة مالك بن أنس المتوفى ١٧٩ هـ .
ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي . الناشر: عيسى البابي الحلبي ١٣٧٠ هـ .

- المنهاج:
لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي المتوفى ٦٧٦ هـ .
مطبوع مع مغني المحتاج . مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٣٧٧ هـ .

- النهاية في غريب الحديث والأثر:
لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن الأثير الجزري المتوفى ٦٠٦ هـ .
تحقيق: محمود بن محمد الطناحي . الناشر: المكتبة الإسلامية .

- الهداية شرح بداية المبتدي:
لبرهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني المتوفى ٥٩٣ هـ .
الناشر: دار المعرفة – بيروت ١٣٩٩ هـ .

فهرس الموضوعات

المقدّمة ٣٤١

المبحث الأوّل : تعريف الجناية وبيان أقسامها ٣٤٦

- تعريف الجناية: ٣٤٦
- أقسام الجناية: ٣٤٦

المبحث الثّاني: القتل بغير حقّ ٣٥٢

المبحث الثّالث : مشروعيّة القصاص في النّفس وما دون النّفس ٣٥٥

المطلب الأوّل: في مشروعيّة القصاص في النّفس ٣٥٥

المطلب الثّاني: مشروعيّة القصاص في الجناية علىٰ ما دون النّفس ٣٥٨

المبحث الرّابع : في الاشتراك المتعمّد في الجناية علىٰ الواحد بالقتل ٣٦٠

المطلب الأوّل: اشتراك الجماعة في الجناية علىٰ الواحد بالقتل ٣٦١

المطلب الثّاني : في اشتراك الجماعة في قتل النّفس ٣٧٣

المطلب الثّاني : اشتراك الاثنين في قتل النّفس ٣٧٦

المطلب الثّالث: اشتراك اثنين أو جماعة في الجناية علىٰ الواحد بالقتل ٣٨١

المبحث الخامس: الاشتراك المتعمّد في الجناية علىٰ الواحد بالجرح أو القطع..... ٣٨٦

الخاتمة ٣٩٣

فهرس المصادر والمراجع ٣٩٤

فهرس الموضوعات ٤٠٥



مَسَائِلُ (إِذَنْ)

إِعْـــدَادُ :

د. أَحْمَد بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَد القُرَشِيِّ

الأُسْتَاذ المُشَارِك فِي كُلّيّة المُعَلّمين فِي المَدِينَة المُنَوَّرَة

مقدّمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده.

وبعـــد؛ فقد كان من جملة ما اعتنى به علماء العربية دراسة النحو العربي عامـــة، وأدوات المعاني خاصة، فقد تتبعوا أحوال الأدوات ودرسوها من مختلف جوانبها:

أصلها، عملها، شروط عملها، إهمالها، زيادتها، حذفها، أقسامها، معانيها، لغاتها، اسميتها، حرفيتها، اتصالها بغيرها، بساطتها أو تركيبها، ....

وقد سلك النحويون في دراستهم أدوات المعاني ثلاثة مناهج:

المـــنهج الأول: درس الـــنحاة الأدوات ضـــمن أبواب النحو ومباحثه ومســـائله، كأمـــثـــال سيبويه في "الكتاب"، والمبرد في "المقتضب"، والفراء في "معـــاني القـــرآن"، وابـــن الســـــراج في "الأصول في النحو"، والزّجاجيّ في "الجُمـــل"، والفارسيّ في "الإيضاح العضـــدي، وكتب المسائل"، وابن جنّى في "الـــلمع" والزمخشريّ في "المفصّل"، وابن الحاجب في "الكافية"، وابن مالك في "التسهيل" وغيرهم ممن تناول الكتب السابقة بالشرح.

المـــنهج الـــثاني: درس بعـــض النحاة أدوات المعاني دراسة مستقلة، إذْ أفردوها بكتب متخصصة تتناولها بالدراسة والاستقصاء من مختلف جوانبها، من هذه المؤلفات: حروف المعاني" للزّجاجيّ، و"معاني الحروف" للرّماني، و"الأُزهيّة" لـــلهرويّ، و"رصـــف المـــباني" للمالقيّ، و "الجنى الداني" للمراديّ، و"جواهر الأدب" للإربلّيّ، و"مغني اللبيب" لابن هشام الأنصاريّ، وغيرها.

المنهج الثالث: سلك بعض النحاة مسلكاً آخر في دراسة أدوات المعاني،

هـــذا المسلك يتمثل في دراسة أداةٍ واحدةٍ، إذْ تُدْرَسُ من مختلف جوانبها، وممن ســـلك هـــذا المنهج الزّجاجيّ في "كتاب اللامات"، وأحمد بن فارس في "مقالة كـــلاّ"، وأبـــو جعفر الطبريّ في "رسالة كلاّ في الكلام والقرآن"، وابن هشام الأنصـــاريّ في رسالته "المباحث المَرْضيّة المتعلقة بمَنْ الشرطيّة" وعثمان النجديّ في رسالة "أيّ المشددة" وغَيرهم من النحويين.

لذلـــك أردت أن أقوم بدراسة "إذَنْ" من مختلف جوانبها، والذي شجعني لدراســـتها، أنّني كنت أقرأ (باب إذَنْ) في كتاب (المقتضب) للمبرد (٢/١٢)، واستوقفني قوله: (فهذه حال "إذَنْ" إلى أَنْ نُفرِدَ باباً لمسائلها إن شاء الله)، علّق عضيمة على المسألة بقوله: (لم يُفرد باباً لمسائل "إذَنْ"، وإنّما استعرض النواصب في الجزء الرابع).

عندئذ شمرت عن ساعد الجدّ، وعقدت العزم على تتبع مسائلها في بطون أمّـــات الكتـــب الـــنحوية، وكتب أدوات المعاني، والمعاجم، والتفسير، وعلوم القرآن، والقراءات.

وبعـــد جمـــع المســـائل، ودراستها، تمّ تقسيمها على ثلاث عشرة مسألةً، يســـبقها مقدمـــةٌ، ويـــتلوها الخاتمـــة، ثم فهرس المصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

وقد جعلت هذه الدراسة بعنوان: (مسائل "إذَنْ").

أمّا المسائل التي درستها فهي على النحو التالي:

المسألة الأولى: أصل "إذَنْ".

المسألة الثانية: عملها.

المسألة الثالثة: شروط عمل "إذَنْ".

المسألة الرابعة: معناها.

المسألة الخامسة: حكم "إِذَنْ" إن وقعت بين شيئين متلازمين.

المسألة السادسة: حكم "إِذَنْ" إذا فُصل بينها وبين الفعل بفاصلٍ.

المسألة السابعة: حكم" إِذَنْ "الواقعة بين حرف العطف والفعل المستقبل.

المسألة الثامنة: حكم إلغاء عمل "إِذَنْ" مع استيفاء شروط العمل.

المسألة التاسعة: حكم "إِذَنْ" إذا وقع بعدها الماضي مصحوباً باللام.

المسألة العاشرة: إعراب الفعل المنصوب بعد "إِذَنْ".

المسألة الحادية عشرة:تشبيه"إِذَنْ"في عوامل الأفعال بـ"ظَنّ"في عوامل الأسماء

المسألة الثانية عشرة: الوقف على "إِذَنْ".

المسألة الثالثة عشرة: كتابتها.

أرجو أن أكون ما قدمته نافعاً، ولمسائل "إِذَنْ" جامعاً، والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمد وآله وصحبه.

المسألة الأولى: أصل "إِذَنْ":[1]

اختلف النحويون في أصل (إِذَنْ)، هل هي حرفٌ أو اسمٌ؟ وهل هي بسيطةٌ أو مركبةٌ؟ ذهب الجمهور إلى أنّها حرفٌ، وذهب بعض الكوفيين إلى أنّها اسمُ ظرفٍ، وأصلها "إذا" الظرفية لحقها التنوين عوضاً من الجملة المحذوفة، إذ الأصل في (إِذَنْ أكرمَك) أن تقول: (إذا جئتني أكرمُك)، حُذف ماتضاف إليه "إذا"، وعُوّض منه التنوين كما عَوّضوا في (حينئذٍ)، وحُذفت الألف لالتقاء الساكنين، ونُقلت إلى الجزائية فبقي فيها معنى الربط والسبب.

وذهب رضيّ الدين إلى ماذهب إليه بعض الكوفيين، فقال: (الذي يلوح لي في "إِذَنْ" ويغلب في ظنّي أنّ أصله "إذْ" حذفت الجملة المضاف إليها، وعُوّض منها التنوين لـمّا قُصد جعله صالحاً لجميع الأزمنة الثلاثة بعدما كان مختصاً بالماضي، وذلك أنّهم أرادوا الإشارة إلى زمان فعلٍ مذكورٍ فقصدوا إلى لفظ "إذْ" الذي هو بمعنى مطلق الوقت لخفة لفظه، وجرّدوه عن معنى الماضي وجعلوه صالحاً للأزمنة الثلاثة، وحذفوا منه الجملة المضاف هو إليها، لأنّهم لـمّا قصدوا أن يشيروا به إلى زمان الفعل المذكور، دلّ ذلك الفعل السابق على الجملة المضاف إليها، كما يقول لك شخصٌ مثلاً: "أنا أزورك"، فتقول: "إِذَنْ أكرمَك"، أي: "إذْ تزورني أكرمك"، أي: وقت زيارتك لي أكرمك،

---

(1) ينظر نتائج الفكر ١٣٤، وشرح التسهيل ٤/٢٠، وشرح الكافية للرضي ٢/٢٣٨،٢٣٥، ورصف المباني ١٥٧، والارتشاف ٤/١٦٥٠، والجنى الداني ٣٦٣، وتوضيح المقاصد ٤/١٩٠، وجواهر الأدب ٣٣٩، ومغني اللبيب ١٥، والمساعد ٣/٧٤، والتصريح ٢/ ٢٣٤، والهمع ٢/٦، والأشموني ٣/٢٩٠، والنحو الوافي ٤/٣٠٨.

وعُـوّض التـنوين مـن المضاف إليه؛ لأنّه وُضع في الأصل لازم الإضافة، فهو كـ"كلّ وبعضٍ"، إلاّ أنّهما معربان و"إذْ" مبنيّ...)[١].

ويؤكد على اسميتها في أكثر من موضعٍ بقوله: (وإذا جاز لك إضمار "أَنْ" بعـد الحروف التي هي: الواو، والفاء، وأو، وحتى، فهلاّ جاز إضمارها بعد الاسـم – يعني إِذَنْ – وإنّما لم يجز إظهار "أَنْ" بعد "إِذَنْ" لاستبشاعهم للتلفظ بها بعدها)[٢].

وقـال في موضعٍ آخر: (و"إِذَنْ" كنواصب الفعل التي لا يُفصل بينها وبين الفعـل، إلاّ أنّ "إِذَنْ" لـمّـا كان اسماً بخلاف أخواته جاز أن يُفصل بينه وبين الفعل)[٣].

بـل إِنّه رجّح اسميتها بقولـه: (وقَلْبُ نونها في الوقف ألفاً يُرجّح جانب اسميّتها)[٤].

واخـتلف النحويون أيضاً في بساطتها وتركّبها، فذهب الجمهور إلى أنّها بسيطة لامركبة من (إذْ وأنْ) أو (إذا وأنْ).

وذهـب الخليل في أحد أقواله فيما حكى عنه غير سيبويه إلى أنّها حرفٌ مركبٌ من "إذْ" و"أَنْ"، وغَلب عليها حكم الحرفية، ونُقلت حركة الهمـزة إلى الذّال، ثمّ حُذفت والتُزم هذا النقل.

وممـن ذهـب إلى هذا الرأي بعض الكوفيين، وابن مالك، فقـال: (...

(١) شرح الكافية ٢/٢٣٥.

(٢) شرح الكافية ٢/٢٣٧.

(٣) شرح الكافية ٢/٢٣٧.

(٤) شرح الكافية ٢/٢٣٨.

ولـــيس في هـــذا نصٌّ على أنّ انتصاب المضارع بعد "إذَنْ" عند الخليل بـــ"أَنْ" مضمرة، لجواز أن تكون مركبةً مع "إذْ" التي للتعليل، و"أَنْ" محذوفا همزتها بعد النقل، والقولُ به على ضعفه أقربُ من القول بأنّ "إِذَنْ" غيرُ مركبة).

ويؤكّد ابن مالك تركّبها بقوله: (والقولُ بأنّ "إِذَنْ" مركبةٌ من "إذْ" و"أَنْ" أسهلُ منه) [1].

وذهـــب أبو عليّ الرُّنديّ تلميذ السهيليّ إلى أنّها مركبةٌ من "إذا" و"أَنْ"، حُذفـــت همزة "أَنْ"، ثم حُذفت ألف "إذا" لالتقاء الساكنين، ثمّ تُعطى ما تُعطى كلّ واحدة منهما، فتعطى الرّبط كـــ(إذا)، والنّصب كـــ(أنْ) [2].

وقـــد ردّ المالقيّ على من زعم أنّ "إِذَنْ" مركبةٌ، بقوله: (وهذا فاسدٌ من وجهين:

أحدهمـــا: أنّ الأصل في الحروف البساطة، ولا يُدّعى التركيب إلاّ بدليلٍ قاطعٍ.

والثاني: أنّها لو كانت مركبةً من "إذْ" و"أَنْ" لكانت ناصبةً على كلّ حالٍ، تقدمـــت أو تأخـــرت، وعدمُ العمل في المواضع المذكورة قبلُ دليلٌ على عدم التركيب) [3].

المسألة الثانية: عملها:

اخـــتلف الـــنحويون أيضاً في عمل "إِذَنْ" إذا جاء الفعل المضارع منصوباً بعدها، ما النّاصب له؟ هل النّاصب له "إِذَنْ" أو "أَنْ" مضمرة بعدها؟.

---

(١) شرح التسهيل ٤/٢٠، وانظر شرح الكافية للرضيّ ٢/٢٣٨، ورصف المباني ١٥٧.

(٢) الارتشاف ٤/١٦٥٠، والهمع ٢/٦.

(٣) رصف المباني ١٥٧.

ذهـــب ســـيبويه وأكثر النحويين إلى أنّها تنصب بنفسها، وهو ماسمعه عن الخليـــل، قال سيبويه: (اعلم أنّ "إِذَنْ" إذا كانت جواباً، وكانت مبتدأةً عملت في الفعل عمـــل "أُرى" في الاسم إذا كانت مبتدأةً، وذلك قولك:

"إِذَنْ أجيئَك" و"إِذَنْ آتيَك")[1].

وذهـــب الخليل بن أحمد في أحد قوليه إلى أنّها ليست ناصبةً بنفسها، بل الفعل بعد "إِذَنْ" منصوب بـــ"أَنْ" مضمرة، وهو مارواه عنه أبو عبيدة.

قـــال ســـيبويه: (وقد ذكر لي بعضهم أنّ الخليل قال: "أَنْ" مضمرة بعد "إِذَنْ"، ولـــو كانـــت مما يُضمر بعده "أَنْ" فكـــانت بمنـــزلة اللاّم وحـــتّى لأضمرها إذا قلت: "عبدُ الله إِذَنْ يأتيك"، فكان ينبغي أن تَنصب "إِذَنْ يأتيَك"؛ لأنّ المعـــنى واحد، ولم يُغيَّر فيه المعنى الذي كان في قوله: "إِذَنْ يأتيَك عبدُ الله"، كمـــا يَتغـــيّر المعنى في حتّى في الرفع والنصب، فهذا مارَووا، وأمّا ماسمعتُ منه فالأوّلُ)[2].

وممـــن ذهـــب إلى مذهـــب الخليل الزّجاج، والفارسيّ[3]، ورضيّ الدين الاستراباذيّ.

قـــال الزّجاج بعد أن حكى رأيَ سيبويه ورأيَ الخليـــل: (وكلا القولين حســـنٌ جميلٌ إلاّ أنّ العامل – عندي – النصبَ في سائر الأفعال "أَنْ"، وذلك أجود، إمّا أن تقـــع ظاهرة أو مضمرة).

---

(١) الكتاب ٣/١٢.

(٢) الكتاب ٣/١٦، والنكت في تفسير الكتاب ١/٦٩٨.

(٣) ينظر رأيهما في الارتشاف ٤/١٦٥٠، والجنى الداني ٣٦٤، وتوضيح المقاصد ٤/١٩٠، والهمع ٢/٦.

وقـــال في تأويل "إِذَنْ أكرمَه": (تأويله إنْ كان الأمرُ على ما تصِفُ وَقَعَ إكْرامُه، فـــ"أَنْ" مع "أُكرمُه" مقدرةٌ بعد "إِذَنْ")[1].

أَمـــّـــا الفارسيّ فذهب إلى أنّها العاملةُ بنفسها، وهو مخالفٌ لـــما نُسب إليه، فقـــال: (وممّا ينتصب الفعل بعده من الحروف التي لاتضمر "إِذَنْ"، وإنّما تعمل في الفعل إذا كـــانت جواباً، ...)[2]، وربّما قال به في كتاب آخر، أو أنّه يقول بهما.

أَمّا الـــرضيّ فقد دافع عن مذهب الخليل وردّ على سيبويه بقوله: (ويمكن توجـــيه هـــذا القـــول على ماذكرنا) ثمّ قال: (وإذا جاز لك إضمار "أَنْ" بعد الحـــروف التي هي: الواو، والفاء، وأو، وحتّى، فهلاّ جاز إضمارها بعد الاسم، وإنّما لم يجز إظهار "أَنْ" بعد "إِذَنْ" لاستبشاعهم للتلّفظ بها بعدها)

ويؤكّـــد ذلـــك أيضاً بقوله: (فلما احتمل "إِذَنْ" التي يليها المضارع معنى الجزاء، فالمضارع بمعنى الاستقبال، واحتمل معنى مطلق الزمان، فالمضارع بمعنى الحـــال، وقصـــد التنصيص على معنى الجزاء في "إِذَنْ"، نصب المضارع بـــ"أَنْ" المقدرة؛ لأنّها تُخلّص المضارع للاستقبال، ....).

ويُبرهن بأنّها غيرُ عاملة بنفسها بقوله: (وتجويز الفصل بينها وبين منصوبها بالقسم، والنّداء، والدعاء، يُقوّى كونها غيرَ ناصبة بنفسها، كـــ"أَنْ"، و"لَنْ"، إذْ لايُفصل بين الحرف ومعموله بما ليس من معموله)[3].

أمّا ابن مالك فيرى أنّه لايوجد نصٌّ على أنّ الخليل يذهب إلىٰ أنّ الفعل

(١) معاني القرآن ٢/٦٣.

(٢) الإيضاح ٣٢٠، والمقتصد ١٠٥٤.

(٣) شرح الكافية ٢/٢٣٧، ٢٣٨.

المضـــارع منصوبٌ بـــ"أَنْ" مضمرة بعد "إِذَنْ"، وما رواه عنه أبو عبيدة لانصَّ فيه على مذهب الخليل، إذْ قال: (وما عزاه إلى الخليل من أنّ الفعل بعد "إِذَنْ" منصوبٌ بـــ"أَنْ" مضمرة، إنّما مستنده فيه قول السيرافيّ في أوّل شرح الكتـــاب: [١] "روى أبو عبيدة عن الخليل أنّه قال: لاينصب شيء من الأفعال إلاّ بـــ"أَنْ" مظهرة أو مضمرة في: كي، ولَـــنْ، وإِذَنْ ، وغير ذلك"، وليس في هذا نصّ على أنّ انتصاب المضارع بعد "إِذَنْ" عند الخليل بـــ"أَنْ" مضمرة، لجواز أن تكون مركبةً مع "إذْ" التي للتعليل، و"أَنْ" محذوفاً همزتها بعد النقل، على نحو مايراه في انتصابه بعد "لَنْ"، والقول به على ضعفه أقرب من القـــول بأنّ "إِذَنْ" غيرُ مركبة، وانتصاب المضارع بعدها بـــ"أَنْ" مضمرة؛ لأنّه لايستقيم إلاّ على أنْ يكون مابعد "إِذَنْ" في تأويل مبتدأ لازمٍ حُذف خبره، أو "إِذَنْ" قبله ليست حرفاً بل ظرفاً مخبراً به عن المبتدأ، وأصلها "إذا" فقُطعت عن الإضافة وعُوّض عنها التنوين، وكلاهمـــا في غايةٍ من التكلف، والقـــول بأنّ "إِذَنْ" مركبة من "إذْ وأَنْ" أسهل منه) [٢].

هذه آراء وأدلة القائلين بأنّ "إِذَنْ" ليست ناصبة بنفسها، وأَنّ "أَنْ" بعدها مقدّرةٌ، ماعدا ابن مالك فقد دافع عن مذهب الخليل وبيّن وجهة نظره.

أَمّا جمهور النحويين فيرون أنّها الناصبة للمضارع بنفسها، لا "أَنْ" مضمرة بعدها، وقد انتصر المالقيّ لمذهب الجمهور مدلّلا على فساد المذهب الآخر بقـــوله: (وكأنّ من نصب بإضمار "أَنْ" قاسها على "حتى، وكي، ولامها، ولام الجحود"، ولا يصحُّ القياس على ذلك؛ لأنّ حتى، وكي، ولامَها، ولامَ الجحود

(١) شرح الكتاب للسيرافي ١/٨٤.

(٢) شرح التسهيل ٤/٢٠.

إنّما تنصب بإضمار "أَنْ"؛ لجواز دخولها على المصادر، وربما ظهرت "أَنْ" مع بعضها في بعض المواضع على ما يُبيّن بعد، ولما كانت "إِذَنْ" لايصحُّ دخولها على مصدرٍ ملفوظٍ به ولا مقدّرٍ، ولايصحُّ إظهار "أَنْ" بعدها في موضعٍ من المواضع، لم يجز القياس في نصب مابعدها على ماذُكر)[1].

المسألة الثالثة: شروط عمل "إِذَنْ"[2] :

ذهب أكثر النحويين إلى أنّ "إِذَنْ" حرف ينصب المضارع بثلاثة شروط، وبعض النحاة جعلها أربعة، وبعضهم فصّل الشروط فجعلها خمسة، ومن النحاة من اشترط في نصبها المضارعَ ستةَ شروطٍ:

الأول: أن تكون "إِذَنْ" واقعةً في صدر الكلام:

أي: في أوّل الكلام؛ لأنّها حينئذٍ في أشرف محالها، فإن تأخرت أُلغيت حتماً نحو: "أكرمُك إِذَنْ" بلا خلافٍ؛ لأنّ الفعل المنصوب لايجوز تقديمه على ناصبه، أمّا إذا توسطت، أي: وقعت حشواً في الكلام وذلك بأن اعتمد مابعدها على ماقبلها، مثل أن تتوسط بين الشرط وجزائه، وبين القسم وجوابه، وبين المبتدأ وخبره، وجب إلغاؤها في الصور كلّها.

---

(١) رصف المباني ١٥٧.

(٢) ينظر الأصول ٢/١٤٨، وشرح الكتاب للسيرافي ١/٨٤، والإيضاح ٣٢٠، والمقتصد ٢/١٠٥٤، وشرح الملحة للحريري ٣٤٢، وكشف المشكل ١/٥٤٠، وابن يعيش ٩/١٤، والملخّص ١٣٨، وشرح الكافية للرضيّ ٢/٢٣٧، وتوضيح المقاصد ٤/ ١٨٧، والجنى الداني ٣٦١، وجواهر الأدب ٣٣٩، وشرح قطر الندى ٦٢، والمغني ١٦، والتصريح ٢/٢٣٤، والهمع ٢/٦، والأشباه والنظائر ٢/١٣٥.

فــإن تقدمها كلام وتمّ دونها جاز أن تستأنف بها، وتنصب ويكون جواباً، كما لو لم يتقدمها شيء، وذلك نحو قول عبدالله بن عَنَمة الضبيّ:

أُرْدُدْ حِمَارَكَ لاتُنْــزَعْ سَوِيَّتُهُ إِذَن يُرَدَّ وقَيْدُ العَيرِ مَكْروبُ[1]

قال ابن السراج: (فهذا نصبٌ؛ لأنّ ماقبله من الكلام قد استغنى وتمّ، ألا ترى أنّ قوله: "أُرْدُدْ حمارك لاتُنــزعْ سَوِيَّتُهُ" كلامٌ قد تمَّ، ثمّ استأنف كأنّه أجاب من قال: لا أفعلُ ذاك، فقال: "إِذَنْ يُردَّ وقَيدُ العَيرِ مكروبُ")[2].

الثاني: أن يكون الفعل المضارع بعدها مستقبلاً:

فــإن كــان حالاً فلا يُنصب، كقولك لمن يُحدّثك: "إِذَنْ أظُنُّكَ صادقاً" فترفع؛ لأنّه حالٌ، والفعل المنصوب لايكون إلاّ مستقبلاً.

قــال أبو عليّ الشلوبين: (وهو ألاّ تدخل إلاّ على مستقبل، فإذا أدخلناها عــلى فعــل حالٍ لم تعمل أصلاً وإن كانت متقدمة؛ لأنّه ليس في الدُّنيا ناصب يدخل على فعل حالٍ، فوجب لها هنالك الإلغاء)[3].

الثالث: ألاّ يُفصل بين "إِذَنْ" والفعل بفاصل:

أي: أن يكــون المضــارع متصلاً بها لضعفها مع الفصل عن العمل فيما

---

(١) البيت في المفضليات ٣٨٣، وهو من شواهد الكتاب ١٤/٣، والمقتضب ١٠/٢، والأصول ١٤٨/٢، وشــرح الكتــاب للسيرافي ٨٤/١، والتعليقة ١٣٢/٢، وشرح أبيات سيبويه ١٠٠/٢، والصّاحبي ١٩٨، والنكــت ٦٩٩/١، وابــن يعيش ١٦/٧، وشرح التسهيل ٢١/٤، وشرح الكافية ٢٣٨/٢، وشرح الجزولية ٤٧٨/٢، ورصف المباني ١٥٢.

(٢) الأصول ١٤٨/٢، وينظر التبصرة والتذكرة ٣٩٦/١.

(٣) شرح الجزولية ٤٧٧/٢.

بعدهـــا، فـــإنْ فُصلت بفاصل بطل عملها، إلاّ أن تُفصل بواحدٍ من اثنين، فإنّ الفصـــل بذلك كَلا فصلٍ، وهما: "القسم" و"لا"، وأجاز بعض النحويين الفصل بغير ماسبق ذكره، وهو ماسنوضحه بالتفصيل في موضعه.

وإلى الشروط الثلاثة التي سبق ذكرها أشار ابن مالك بقوله[1]:

وَنَصَبُوا بِــ"إذَنِ" الْمُسْتَقْبلاَ إنْ صُدِّرَتْ، والْفِعْلُ بَعْدُ مُوصَلاَ

الرابع: أن تكون جواباً أو في تقدير الجواب:

قـــال الزمخشريّ: (و"إذَنْ" جوابٌ وجزاءٌ، يقول الرجل: "أنا آتيك"، فتقول: "إذَنْ أُكرمَك"، فهذا الكلام قد أجبته به وصيرت إكرامَك جزاءً له على إتيانه؛ وقال الزّجاج: (تأويلها إنْ كان الأمر كما ذكرت فإنّي أكرمُك) [2].

وقـــال الســـيرافيّ: (وإنّـــمـــا أردت إكراماً تُوقعُه في المستقبل، فصارت بمنـــزلة "أَنْ" في وقوعها للمستقبل من الأفعال) [3].

وقـــال ابـــن هشام: (والأكثر أن تكون جواباً لـــ"إنْ أو لَوْ" ظاهرتين أو مقدرتين) [4].

الخامس:ألاّيكون الفعل الذي بعدها معتمداً على ماقبلها[5]:

قـــال الفارســـيّ: (فإنِ اعتمَدْتَ بالفعل على شيءٍ قبلهـــا رفعْتَ، وذلك

(١) ألفية ابن مالك ٦٠، وشرح الألفية لابن الناظم ٦٦٥، وتوضيح المقاصد ١٨٧/٤.

(٢) المفصل ٣٢٣، وابن يعيش ١٢/٩، وانظر الأصـــول ١٤٨/٢، والإيضاح ٣٢٠، والمقتصد ١٠٥٤/٢، وشرح الملحة للحريري ٣٤٢، وجواهر الأدب ٣٣٩.

(٣) شرح الكتاب ٨٤/١.

(٤) مغني اللبيب ١٥.

(٥) القائلون بهذا الشرط هم القائلون بالشرط الذي قبله.

قولــك: "أنــا إِذَنْ أكــرمُك"، تُرفع؛ لأنّ الفعل معتمد على الابتداء الذي هو "أنــا"، وكذلك: "إنْ تكرِمْني إِذَنْ أُكرمْك")[١].

السادس: ألاّ تقع "إِذَنْ" بعد حرف عطف[٢]:

فــإن وقعــت بعد حرف عطف كالواو أو الفاء، نحو: "وإِذَنْ آتيك" أو "فــإِذَنْ آتيك"، جاز فيها الوجهان: الإلغاء، والإعمال، والإلغاء أجود وأكثر، وبه قرأ القُرّاء.

المسألة الرابعة: معناها[٣]:

قال سيبويه: (وأمّا "إِذَنْ" فجوابٌ وجزاءٌ)[٤].

قــال أبــو حــيّان: (وتحرير معنى "إِذَنْ" صعبٌ، وقد اضطرب النّاس في معناها، وقد نصَّ سيبويه على أنّ معناها: "الجوَابُ والجزاءُ"، واختلف النحويون في فهم كلام سيبويه)[٥].

نعم اختلف النحويون في فهم معناها، والذي يظهر من لفظه أنّها حيثما

---

(١) الإيضاح ٣٢٠.

(٢) اشترط هذا الشرط الحيدرة اليمني في كشف المشكل ٥٤٠/١، والأندلسيّ في شرح المفصل، ينظر الأشبــاه والنظائر ١٣٥/٢.

(٣) ينظر الكتاب ٢٣٤/٤، وابن يعيش ١٣/٩، وشرح الجمل لابن عصفور ١٧١/٢، ١٧٠، وشرح الجزولية ٤٧٧/٢، وشرح الكافية ٢٣٦/٢، والارتشاف ١٦٥٤/٤، ورصف المبــاني ١٥١، والجنى الداني ٣٦٤، والمغني ١٥، والتصريح ٢٣٤/٢، والهمع ٦/٢، ودراسات لأسلوب القرآن ٦٤/١.

(٤) الكتاب ٢٣٤/٤، وينظر الصّاحبي ١٩٨.

(٥) البحر المحيط ٤٣٤/١.

توجد يكون معناها الجواب والجزاء معاً، وهذا ما فهمه الأستاذ أبو عليّ الشلوبين[١]، حيث حمل كلام سيبويه على ظاهره، وتكلّف في كلّ مكان وقعت فيه أنّها جوابٌ وجزاءٌ.

أمّا أبو عليّ الفارسيّ فإنّه فهم من كلام سيبويه أنّها قد تَرِدُ لهما، وهو الأكثر، وقد تتمحض للجواب فقط، نحو: أن يقول لك القائل: "أحبُّك"، فتقول: "إِذَنْ أَظُنُّكَ صادقاً" فلا يتصوّر هنا الجزاء[٢].

قال المالقيّ: (والصحيح أنّها شرط في موضعٍ، وجواب في موضعٍ، وإذا كانت شرطاً فلا تكون إلاّ جواباً، وهذا هو المفهوم من كلام سيبويه، لأنّه لم ينصّ على أنّهما معاً في موضعٍ واحدٍ).

وقد ردَّ ابن عصفور على شيخه الأستاذ أبي عليّ الشلوبين في تكلّفه لمعنى "إِذَنْ"، بقوله: (ففهم الأستاذ أبو علي الشلوبين هذا على أنّه شرط وجواب، وأخذ الجزاء بمعنى الشرط، والجواب جوابه فحيثما جاءت قدرها بفعلي الشرط والجزاء؛ فإذا قلت لمن قال لك: "أنا أزورُك"، "إِذَنْ أُكرِمَك"، فمعناه: إِنْ تَزُرْني أكرِمْك.

فلمّا أخذها هذا المأخذ اضطر إلى هذا التقدير في قوله تعالى: ﴿فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾[٣]، فلما قــدّر: إن كنــتُ فعلتُهــا فأنا ضالٌّ، جاءه إثبات الضلال لموسى عليه السلام؛ قال: ولم يرد إثبات الضلال لنفسه، فأثار إشكالاً

(١) شرح الجزولية ٤٧٧/٢.

(٢) التكملة ٥٦٣، وينظر رصف المباني ١٥١.

(٣) سورة الشعراء، آية "٢٠".

على فهمه، فكان انفصاله عن هذا بأنْ قال: معنى قوله: ﴿وأنت من الكافرين﴾[١]، أي: بأنعمي، فقال له موسى عليه السلام: إنْ كنتُ فعلتُها كافراً بنعمتك فأنا من الضالين، أي: من الجاهلين بأنّ الوكزة تقضي على القبطيّ).

ثـــم قال ابن عصفور: (وكلامه معترَضٌ في هذا بيِّنُ الاعتـــراض؛ لأنّــه بنى الأمـــر على أنّ " إِذَنْ" شرط وجواب، وليس كذلك، بل إنّما هي جوابٌ بـــمعنى أنّها لاتقال مبتدأة، ولابدّ أن يتقدمها كلام، فـــلا تقول أبداً:"إِذَنْ أزورَكَ" ابتداء،فهي جـــواب وتكون جزاءً، ولا يلزم أن يكون ذلك فيها مجموعاً)[٢].

وقد بيّن ابن هشام الأنصاريّ متى تكون "إِذَنْ" جواباً؟ بقوله: (والأكثر أن تكون جواباً لـــ"إِنْ" أو "لو" ظاهرتين أو مقدرتين)[٣].

وخلاصة القول إنّ "إِذَنْ" تكون جواباً وجزاءً، فقد يجتمع فيها هذان، وقد ينفرد أحدهما، فإذا قلت لمن قال لك: "أنا أزورُك"، "إِذَنْ أُكرمَك"، فهذا جوابٌ وجزاءٌ؛ وإذا قال لـــك: "أُحبُك"، فتقـــول له: "إِذَنْ أظنُّك صادقاً"، فهذا جواب لاجزاء معه، فعلى هذا لاتخلو من الجوابِ، وتكون في بعض المواضع جزاءً.

---

(١) سورة الشعرا، آية "١٩".

(٢) شرح الجمل لابن عصفور ٢/١٧٠، ١٧١.

(٣) المغني ١٥، ١٦.

المسألة الخامسة:

حكم "إِذَنْ" إن وقعت بين شيئين متلازمين[1]:

اشترط النحاة في عمل "إِذَنْ" أن تكون في صدر الكلام، فإن وقعت حشواً في الكلام بأَن اعتمد مابعدها على ماقبلها أُهملت، قال سيبويه: (واعلم أنّ "إِذَنْ" إذا كانت بين الفعل وبين شيءٍ الفعلُ معتمدٌ عليه فإنّها مُلغاةٌ لاتَنصب البتة، كما لاتَنصب "أُرى" إذا كانت بين الفعل والاسم في قولك: "كان أُرى زيدٌ ذاهباً"، وكما لاتعمل في قولك: "إنّي أُرى ذاهبٌ"، فـ"إِذَنْ" لاتصل في ذا الموضع إلى أن تنصب كما لاتصل "أُرى" هنا إلى أن تنصب، فهذا تفسير الخليل، وذلك قولك: "أنا إِذَنْ آتيك"، فهي ههنا بمنزلة "أُرى" حيث لاتكون إلاّ ملغاةً، ومن ذلك أيضاً قولك: "إنْ تأتني إِذَنْ آتِك"؛ لأنّ الفعل ههنا معتمدٌ على ماقبل "إِذَنْ")[2].

وقد حدد النحاة إهمالها في ثلاثة مواضع:

الأول: أن يكون مابعدها جواباً للشرط الذي قبل "إِذَنْ"، نحو: "إنْ تأتِني إِذَنْ أكرمْك"، فتجزم "أكرمْك" لأنّه جواب الشرط، ولا تأثير لـ"إِذَنْ".

ومن ذلك أيضاً جعل الرّضيّ البيت السابق: (أُرْدُدْ حِمَارَكَ .. إِذَنْ يُرَدَّ ..)؛ إِذْ قال: (يجوز على مذهب الكسائيّ أن يكون "لايرتعْ" مجزوماً بكون

(١) ينظر الكتاب ١٤/٣، والمقتضب ١١/٢، والتبصرة والتذكرة ٣٩٦/١، وابن يعيش ١٦/٧، وشرح الجزولية ٤٧٩/٢، وشرح الكافية ٢٣٨/٢، ورصف المباني ١٥٤، والارتشاف ١٦٥٢/٤، والتذكرة ٥٥٩، والجنى الداني ٣٦١، والتصريح ٢٣٤/٢، والهمع ٧/٢.

(٢) الكتاب ١٤/٣.

"لا" فيه للنهي لا أنّه جواب الأمر، و "يُردُّ" مجزوماً لا منصوباً بكونه جواباً للنهي كما هو مذهبه في نحو قولك: "لا تكفرْ تدخلِ النّار" أي: إنْ تكفرْ تدخلِ النّار، فيكون المعنى: لايرتعْ إنْ يرتعْ يُردُّ [(١)].

الثاني: أن يكون مابعدها جواباً للقسم الذي قبلها، إمّا مذكور، نحو: "والله إذَنْ لا أفعلُ"، قال سيبويه: (ومن ذلك أيضاً: "والله إِذَنْ لا أفعلُ"، من قِبَلِ أنّ "أفعلُ" معتمدٌ على اليمين، و"إِذَنْ" لغوٌ) [(٢)].

وإمّا مقدر، كقول كُثَيِّر عَزَّةَ:

لَئِنْ عَادَ لي عبدُ العزيز بمثْلِها ... وأمْكَنَني منها إِذَنْ لا أَقِيلُها[(٣)]

فـ(لا أقيلُها) مرفوع؛ لأنّ "إِذَنْ" لم تتصدر لكونها جواب القسم المقدر الموطأ عليه باللام الداخلة على "أَنْ" في أول البيت، والتقدير: والله لَئِنْ.

الثالث: أن يكون مابعدها خبراً للمبتدأ الذي قبلها، نحو: "أنا إِذَنْ أكرمُك"

قال المالقيّ: (وتقول في المبتدأ: "زيدٌ إِذَنْ يكرمُك"، فـ"يكرمُك"، مرفوع؛ لأنّه خبر عن "زيد"، وكذلك حكمه في خبر مايدخل على المبتدأ والخبر، من "كان" أو "إنّ" وشبههما، كقولك: "كان زيدٌ إِذَنْ يكرمُك" و"إنّ زيداً إِذَنْ يكرمُك"، و"ظننت زيداً إِذَنْ يكرمُك"؛ لأنّ المفعول الثاني في "باب ظننت" حكمه أن يكون خبراً للمبتدأ في الأصل، فهو كخبر "كان" و"إنّ") [(٤)].

---

(١) شرح الكافية ٢/٢٣٨-٢٣٩.

(٢) الكتاب ٣/١٤.

(٣) في ديوانه ٣٠٥، وهو من شواهد الكتاب ٣/١٥، وابن يعيش ٩/١٣، ورصف المباني ١٥٤، وشرح أبيات سيبويه ٢/١٤٤، والجُمل ١٩٥، وشرح الألفية لابن الناظم ٦٦٩ والمغني ١٥، والتصريح ٢/٢٣٤، والهمع ٢/٧، وشواهد المغني للسيوطي ١/٦٣، والأشموني ٣/٢٨٨،.

(٤) رصف المباني ١٥٤.

وهذه الصورة موضعُ خِــلافٍ بين البصريين والكوفيين، فمذهب البصريين أنّه لايجوز الإعمال، وفصّل الكوفيون فأجاز هشام النصب والرفع بعد المبتدأ، وأجازهما الكســائيّ بعد اسم "إنّ"، وبعد اسم "كان"، ووافقه الفراء في "إنّ"، وخالفه في "كان" فأوجب الرفع، ونصّ الفراء على وجوب الرفع بعد "ظنّ"، قال أبو حيان: (وقياس قول الكسائيّ جواز الوجهين) [1]، لذلك اختلف الفريقان في قول الشاعر:

لاتَترُكَنّي فِيهُمُ شَطِيرا   إِنّي إِذَنْ أَهْلِكَ أو أَطِيرا [2]

فتأوّله البصريون على أنّه شاذٌّ، أو إِنْ صحت الرواية فإنّه على أحد وجهين:

إمّا أن يجعل "إِذَنْ أَهْلِكَ" جملة في موضع خبر "إنّ"، وإمّا أن يكون خبر "إنّي" محذوفاً، أي: إنّي لاأستطيع، أو لا أقدر عليه، أو إنّي أُذلّ، ثم استأنف بـــ"إِذَنْ" فنصب الفعل بعد تمام الأول بخبره؛ أمّا الكوفيون فبنوا على هذا البيت مسائلهم.

قال رضيّ الدين في نهاية هذه المواضــع الثلاثــة التي تقع فيها "إِذَنْ" حشواً: (ولا يقع المضارع بعد "إِذَنْ" في غير هذه المواضع الثلاثة معتمداً على ما قبلهــا بالاستقــراء، بل تقع متوسطة في غير هــذه المواضع، نحو: "يقتلُ إِذَنْ

(١) الارتشاف ١٦٥٢/٤، وينظر التذكرة ٥٥٩، والهمع ٧/٢.

(٢) البيت بلا نسبة وهو في معاني القرآن للفراء ٣٣٨/٢، وشرح الكتاب للسيرافي ٨٦/١، وشرح الجزولية ٤٧٩/٢، وابن يعيش ١٧/٧، والمقرب ٢٦١/١، وشرح الكافية ٢٣٨/٢، وشرح التسهيل٢١/٤، ورصف المباني ١٥٤، والارتشاف ١٦٥٣/٤، والجنى الداني ٣٦٢، والمساعد ٧٦/٣، والمغني ١٦، وشرح الكافية الشافية ١٥٣٧/٣، والهمع ٧/٢، وشواهد المغني للسيوطي ٧٠/١.

زيـــدٌ عمـــراً"، و"لبِئْسَ الرجلُ إِذَنْ زيدٌ" ونحوه) [١].

المسألة السادسة:

حكم "إِذَنْ" إذا فُصل بينها والفعل بفاصلٍ [٢]:

ذهب النحاة إلى أنّه لايجوز الفصل بين "إِذَنْ" ومنصوبها؛ لضعفها مع الفصل عن العمل فيما بعدها، إلاّ أنّهم اغتفروا الفصل بالقسم، نحو: "إِذَنْ واللهِ أجيئَك"، ومنه قول حســـان بن ثابت:

إِذَنْ واللهِ نرمِيَهُمْ بحربٍ تُشيبُ الطّفلَ من قبْلِ المَشيبِ [٣]

أو الفصل بــ"لا" النافية، نحو: "إِذَنْ لاأكرمَك"، ومنه قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿فإذاً لايؤتوا النّاسَ نقيرا﴾ [٤].

وما عدا ذلك اختلف النحاة فيه، فأجاز ابن بابشاذ [٥] الفصلَ بالدّعاء، والنّداء، ووافقه الرضيّ [٦]، نحو: "إِذَنْ – يَغفِرُ اللهُ لكَ – يُدخلَك الجنّة"، ونحو:

---

(١) شرح الكافية ٢٣٩/٢.

(٢) ينظر شرح التسهيـــل ٢٢/٤، وشرح الكافيــــة ٢٣٧/٢، والمقرب ٢٦٢/١، ورصف المباني ١٥٣، والارتشاف ١٦٥٣/٤، والتذكرة ٥٥٩، والجنى الداني ٣٦٢، والمغني ١٦، والمساعد ٧٤/٣، والتصريح ٢٣٥/٢، والهمع ٦/٢، والملخّص ١٣٨.

(٣) في ديوانه ٣٧١، وهو من شواهد الارتشاف ١٦٥٣/٤، وشرح شذور الذهب ٢٩١، وشـــرح قطـــر النـــدى ٦٢، وشواهد المغني للسيوطيّ ٩٧٠/٢، والتصريح ٢٣٥/٢، والأشموني ٢٨٩/٣.

(٤) سورة النساء آية (٥٣)، وانظر مختصر شواذ القرآن ٢٩.

(٥) ينظر الارتشاف ١٦٥٣/٤، والجنى الداني ٣٦٢.

(٦) شرح الكافية ٢٣٧/٢.

"إِذَنْ – يازيدُ – أحسنَ إليك"، ووافقهما ابن أبي الربيع القرشيّ في النِّداء فقط[1].

وأجاز بعض النحويين منهم ابن عصفور[2]، والمالقيّ[3]، والأَبّديّ[4] الفصل بالظرف، أو المجرور، نحو: "إِذَنْ – يومَ الجمعة – أُكرمَك"، ونحو: "إِذَنْ – في الدار – آتيَك".

وأجاز الكسائيّ، والفراء، وهشام، الفصل بين "إِذَنْ" والفعل بمعمول الفعل، نحـــو: "إِذَنْ زيداً أُكرمُ"، و"إِذَنْ فيك أرغبُ"، ففي الفعل حينئذٍ وجهان: الرفع واختاره الفراء وهشامٌ، والنصب واختاره الكسائيّ[5].

وجمهـــور النحويين لايرون في هذا ونحوه إلاّ الرفعَ لوجود الفصل، واغتفروا الفصـــل بالقسم، وبـــ"لا" النافية كما سبق ذكره.

تنبيه: قال أبو حيّان: (لو قدمت معمول الفعل على "إِذَنْ" نحـــو: "زيداً إِذَنْ أُكرمُ" جاز ذلك عند الكسائيّ والفراء،إلاّ أنّ الفراء يُبطل عملها، والكسائيَّ يجيز الإبطال والإعمال، ولا نصَّ عند البصريين أحفظـــه في ذلك، والذي تقتضيه قواعدهم المنع)[6].

(١) الملخّص ١٣٨.

(٢) المقرب ٢٦٢/١.

(٣) رصف المباني ١٥٣.

(٤) ينظر الارتشاف ١٦٥٣/٤، والمساعد ٧٤/٣.

(٥) ينظر الارتشـــاف ١٦٥٤/٤، والجنى الداني ٣٦٣، والمغني ١٦، والتصريح ٢٣٥/٢، والهمع ٧/٢.

(٦) الارتشاف ١٦٥٤/٤.

المسألة السابعة:

حكم"إِذَنْ"الواقعة بين حرف العطف والفعل المستقبل[1]:

اعلم أنّ "إِذَنْ" إن وقعت بين حرف العطف والفعل المستقبل، كنت فيهـــا بالخيار، إن شئت أعملتها، وإن شئت ألغيتها، وهو الأكثر والأجود، وفي المسألة صورتان:

الأولى: نحو قولك: "فإِذَنْ أُحسنُ إليك" جواباً لمن قال: "أزورُكَ"، جاز فيها الوجهان، قال سيبويه: (واعلم أنّ "إِذَنْ" إذا كانت بين "الفاء والواو" وبين الفعل، فإنّك فيها بالخيار، إن شئت أعملتها ...، وإن شئت ألغيت "إِذَنْ" ...، فأمّا الاستعمال فقولك: "فإِذَنْ آتيَك، وإِذَنْ أُكرمَك" ...، وأمّا الإلغاء فقولك: "فإِذَنْ لا أجيئُك")[2].

فـــالإلغاء بالرفع على اعتبار كون مابعد العاطف من تمام ماقبله بسبب ربطِ حرفِ العطفِ الكلام بعضه ببعضٍ، فصارت "إِذَنْ" بذلك متوسطةً.

والإعمال وهو نصب الفعل باعتبار كون مابعد العاطف جملـــة مستقلـــة، والفعل فيها بعد "إِذَنْ" غير معتمد على ماقبلها، وعلى هذا الوجه خرّج النحاة

---

(١) ينظـــر الكتـــاب ١٣/٣، والمقتضب ١١/٢، ومعاني القرآن للفراء ٢٧٣/١، والكشاف ٣٧١/٢، والتبصرة والتذكرة ٣٩٧/١، والإيضاح في شرح المفصل ٢٦٤/٢، وابن يعيش ١٦/٧، وشرح التسهيل ٢١/٤، وشرح الكـــافية ٢٣٧/٢، ٢٣٩، وشـــرح الجزوليـــة ٤٨٠/٢، وجـــــواهر الأدب ٣٤٠، ورصف المباني ١٥٥، والارتشاف ١٦٥١/٤، والتصريح ٢٣٥/٢، ودراسات لأسلوب القرآن ٥٥/١، ٥٦.

(٢) الكتاب ١٣/٣.

القراءة الشّاذة في قوله: ﴿فإذاً لا يُؤتُوا النّاسَ نَقِيراً﴾[1]، وقولِه: ﴿وإذاً لا يلبثُوا خلفَكَ إلاّ قَليلاً﴾[2].

وإلى هذه الصورة أشار ابن مالك بقوله:

...، وَانْصِبْ وَارْفَعا إِذا "إِذَنْ" مِنْ بعْدِ عَطْفٍ وَقَعَا[3]

الصورة الثانية: وقوعها مع حرف العطف بعد جواب الشرط، نحو قولك: "إنْ تأتِــني آتِك وإِذَنْ أُكرمُك" جاز فيها ثلاثة أوجه، قال المبرد: (واعلم أنّها إذا وقعت بعد واوٍ أوفاء، صَلُحَ الإعمال فيها والإلغاءُ، لِمَا أذكره لك، وذلك قولك: "إنْ تأتِني آتِك وإِذَنْ أُكرمُك"، إِنْ شئت رفعت، وإِنْ شئت نصبت، وإِنْ شئت جزمت؛ أمّا الجزم فعلـــى العطف على "آتك" وإلغاء "إِذَنْ"؛ والنّصب على إعمال "إِذَنْ"؛ والرفع على قولـــك: "وأنا أُكرمُك"، ثمّ أُدخلت "إِذَنْ" بين الابتداء والفعل فلم تعمل شيئاً)[4].

(١) سورة النساء آية "٥٣"، وهي قراءة ابن مسعود، ينظر مختصر شواذ القرآن ٢٩، ومعاني القرآن للفراء ٢٧٣/١، والكشاف ٢٧٤/١، والبحر المحيط ٢٧٣/٣.

(٢) سورة الإسراء آية (٧٦) وهي قراءة أبيّ بن كعب، كما نُسبت لابن مسعود، ينظر: مختصر شواذ القرآن ٢٧، ٧٧، والكشاف ٣٧١/٢، والجامع لأحكام القرآن ١٦٢/٥، والبحر المحيط ٦٦/٦.

(٣) ألفية ابن مالك ٦٠.

(٤) المقتضب ١١/٢.

المسألة الثامنة:

حكم إلغاء عمل "إِذَنْ" مع استيفاء شروط العمل[١]:

المشهور من لسان العرب إذا وجدت الشروط المذكورة سابقاً أن تنصب "إِذَنْ" الفعل بعدها، إلاّ أنّ بعض العرب يُلغي "إِذَنْ" مع استيفاء الشروط.

قال سيبويه: (وزعم عيسى بن عمر أنّ ناساً من العرب يقولون: "إِذَنْ أفعلُ ذلك" في الجواب، فأخبرت يونس بذلك، فقال: لا تُبْعِدنّ ذا، ولم يكن ليرويَ إلاّ ماسمع، جعلوها بمنـــزلة "هَلْ وبَلْ")[٢].

وبناءً على ماحكاه سيبويه، اختلف النحويون في إلغاء عملها مع استيفاء الشروط: فذهب البصريون إلى إثبات إلغاء عملها رجوعاً إلى نقل عيسى، ووافقهم ثعلب، وخالفهم سائر الكوفيين فلم يُجز أحدٌ الرفع بعدها[٣].

وذهب ابن يعيش إلى أنّه يجب إعمالها لاغير إن دخلت في الفعل في ابتداء الجواب، و – أيضاً – ذهب إليه ابن عصفور، فقال: (وإن وقعت صدراً فالإعمـــال ليس إلاّ، وقد حُكي إلغاؤها، وذلك قليل جداً)[٤].

وذهب ابن مالك إلى أنّها تنصب الفعل غالباً، وذلك بناءً على مارواه

---

(١) ينظر الكتاب ١٦/٣، وابن يعيش ١٦/٧، وشرح الجمل لابن عصفور ١٧٢/٢، وشرح التسهيل ٢١/٤، وشرح الألفية لابن الناظم ٦٧١، والارتشاف ١٦٥١/٤، والتذكرة ٥٥٩، والجنى الداني ٣٦٣، والمساعد ٧٢/٣، ورصف المباني ١٥٣، والتصريح ٢٣٥/٢، والهمع ٧/٢.

(٢) الكتاب ١٦/٣.

(٣) الارتشاف ١٦٥١/٤، والهمع ٧/٢.

(٤) ينظر ابن يعيش ١٦/٧، وكذا شرح الجمل ١٧٢/٢.

عيسى ابن عمر[1].

أَمّا ابن الناظم فذهب إلى أنّ إلغاء عملها هو القياس؛ لأنّها غير مختصة، فقال: (وإنّما أعملها الأكثرون حملاً على "ظنّ"؛ لأنّها مثلُها في جواز تقدمها على الجملة، وتأخرِها عنها، وتوسطِها بين جزأيها، كما حُملت "ما"على"ليس"؛لأنها مثلُها في نفي الحال) [2].

وذهب بعض النحاة إلى أنّ مارواه عيسى لغةٌ نادرةٌ[3]، وذهب المالقيّ إلى أنّ ذلك شاذٌّ لايُعتبر[4].

المسألة التاسعة:

حكم"إِذَنْ"إذا وقع بعدها الماضي مصحوباً باللاّم[5]:

ذهب النحويون إلى أنّه إذا أتى بعد "إِذَنْ" الماضي مصحوباً باللام، نحو قوله تعالى: ﴿إذا لأذقناك﴾[6] فالظاهر أنّ الفعل جوابُ قسمٍ مقدرٍ قبل "إِذَنْ"، فلذلك دخلت اللام على الماضي.

---

(١) شرح التسهيل ٤/١٩، ٢١.

(٢) شرح الألفية لابن الناظم ٦٧١، وينظر التصريح ٢/٢٣٥.

(٣) ينظر الارتشاف ٤/١٦٥١، والجنى الداني ٣٦٣، وتوضيح المقاصد ٤/١٩٠، والمساعد ٣/٧٢.

(٤) رصف المباني ١٥٣.

(٥) ينظر معاني القرآن للفراء ١/٢٧٤، وشرح التسهيل ٤/١٩، وشرح الكافية ٢/٢٣٦، والارتشاف ٤/١٦٥٥، والجنى الداني ٣٦٥، والبرهان ٤/١٨٧، ١٨٨، والإتقان ١/٤٠٥، ودراسات لأسلوب القرآن ١/٦٢.

(٦) سورة الإسراء آية "٧٥".

قال الفراء:(وإذا رأيت في جواب"إِذَنْ"اللام فقد أضمرت لها"لَئِنْ"أو يميناً، أو "لو"، من ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾(١)، والمعنى – والله أعلم-: لو كان معه فيهما إلهٌ لذهب كـــلُّ إله بما خلق، ومثله: قال تعالى : ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾(٢)، ومعناه: لو فعلت لاتخذوك،وكذلك قوله:﴿كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ثم قال:﴿إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ﴾معناه: لو ركنت لأذقناك إذاً)(٣).

فنلحظ أنّ الفراء يرى أنّ اللام جواب قسم مقدر، أو جواب "لو" مقدرة.

أمّا رضيّ الدين الاستراباذيّ فلا يرى أنّ "اللام" واقعةٌ في جوابٍ لقسم مقدرٍ، إذ قال: (وإذا كان للشرط جاز أن يكون للشرط في الماضي، نحو: "لو جئتني إِذَنْ لأكرمتـــك"، وفي المستقبل نحو: "إِذَنْ أُكرمَك" بنصب الفعل، وإذا كان بمعنى الشرط في الماضي جاز إجراؤه مجرى "لو" في إدخال "اللام" في جوابـــه، كقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾، أي: لو ركنت إليهم شيئاً قليلاً لأذقناك، .... وليس "اللام" جوابَ القسم المقدر كما قال بعضهم، وإذا كان بمعنى الشرط في المستقبل جاز دخول الفاء في جزائها كما في جـــزاء "إِنْ")(٤).

---

(١) سورة المؤمنون آية "٩١".

(٢) سورة الإسراء آية "٧٣".

(٣) معاني القرآن للفراء ١/٢٧٤.

(٤) شرح الكافية ٢/٢٣٦.

وحكى الزركشيّ عن بعض المتأخرين أنّ "إِذَنْ" التي يقع بعدها الماضي مصحوباً باللام، مركبةٌ من "إذا" التي هي ظرف زمان ماضٍ، ومن جملة بعدها تحقيقاً أو تقديراً، لكنّها حُذفت تخفيفاً وأُبدل منها التنوين، وليست هذه الناصبة للمضارع؛ لأنّ تلك تختص به ولذا عملت فيه، ولا يعمل إلاّ مايختص، وهذه لاتختص به بل تدخل على الماضي، ثمّ استشهد بالآيات السابقة[1].

المسألة العاشرة: إعراب الفعل المنصوب بعد "إِذَنْ":

هذه المسألة تناولها رضيّ الدين بقوله: (ثم اعلم أنّ الفعل المنصوب المقدر بالمصدر مبتدأٌ، خبرُه محذوف وجوباً، فمعنى "إِذَنْ أكرمَك": إِذَنْ إكرامُك حاصلٌ، أو واجبٌ، وإنّما وجب حَذْفُ خبر المبتدأ؛ لأنّ الفعل لّما التُزم فيه حَذْفُ "أَنْ" التي بسببها هَيأ أن يَصْلُح للابتدائية، لم يظهر فيه معنى الابتداء حقّ الظهور، فلو أُبرز الخبر لكان كأنّه أخبر عن الفعل)[2].

المسألة الحادية عشرة:

تشبيه "إِذَنْ" في عوامل الأفعال بـ"ظَنّ" في عوامل الأسماء[3]:

شبّه النحاة "إِذَنْ" في عوْامل الأفعال بـ"ظننت" في عوامل الأسماء في الابتداء، والتوسط، والتأخير؛ لأنّ كلاً منهما يعمل ويُلغى، فإذا تقدما عملا، وإذا تأخرا أو توسطا لم تعمل "إِذَنْ" في حالة التأخر، أو إذا توسطت بين كلامين

(١) ينظر البرهان ٤/١٨٧، والإتقان ١/٤٠٥.

(٢) شرح الكافية ٢/٢٣٨.

(٣) ينظر الكتاب ٣/١٢، ١٣، ١٤، والمقتضب ٢/١٠، والأصول ٢/١٤٨، ١٤٩، وشرح الكتاب للسيرافي ١/٨٥، وابن يعيش ٧/١٧، وشرح الجزولية ٢/٤٧٦، ٤٧٧، ورصف المباني ١٥٤، ١٥٥، وجواهر الأدب ٣٣٩.

أحدهما محتاج إلى الآخر لم يجز أن تعمل؛ لأنها حرف والحروف أضعف في العمل من الأفعال.

أمّا أفعال الشك واليقين "ظنّ وأخواتها" إذا توسطت أو تأخرت فيجوز فيها الإعمال والإلغاء، ولم تقو "إِذَنْ" قوتها؛ لأنّ المشبّه بالشيء لايقوى قوة المشبّه به، فحطت عنها بأنْ ألغيت ليس إلاّ.

قال سيبويه[١]: (اعلم أنّ "إِذَنْ" إذا كانت جواباً وكانت مبتدأةً، عملت في الفعل عمل "أُرى" في الاسم إذا كانت مبتدأةً). وقال: (ولا تَفصلُ بين شيءٍ مما يَنصب الفعلَ وبين الفعل سوى "إِذَنْ"؛ لأنّ "إِذَنْ" أشبهت "أُرى"، فهي في الأفعال بمنـــزلة "أُرى" في الأسماء، وهي تُلغى وتُقدّم وتُؤخَّر).

وقال: (واعلم أنّ "إِذَنْ" إذا كانت بين الفاء والواو وبين الفعل فإنّك فيها بالخيار، إن شئت أعملتها كإعمالك "أُرى وحسبت"، إذا كانت واحدةٌ منهما بين اسمين، ... وإن شئت أَلغيتَ "إِذَنْ" كإلغائك" "حسبت"). وقال: (واعلم أنّ "إِذَنْ" إذا كانت بين الفعل وبين شيءٍ الفعلُ معتمدٌ عليه، فإنّها مُلغاةٌ لاتَنصب البتة، كما لاتنصب "أُرى" إذا كانت بين الفعل والاسم).

وقال المبرد: (اعلم أنّ " إِذَنْ " في عوامل الأفعال كـ" ظننت " في عوامل الأسماء؛ لأنّها تعمل وتُلغى كـ"ظننت"،ألا ترى أنّك تقول:"ظننت زيداً قائماً "و" زيدٌ ظننت قائمٌ"،إذا أردت زيدٌ قائمٌ في ظنّي، وكذلك "إِذَنْ" إذا اعتمد الكلام عليها نُصب بها،وإن كانت بين كلامين أحدهما في الآخر عاملٌ أُلغيت، ولا يجوز أن تعمل في هذا الموضع كما تعمل"ظننت"، إذا قلت: "زيداً ظننت قائماً"؛ لأنّ عوامل الأفعال لا يجوز فيها التقديم والتأخير، لأنّها لاتتصرّف)[٢].

(١) الكتاب ٣/ ١٢، ١٣، ١٤.

(٢) المقتضب ٢/١٠.

المسألة الثانية عشرة: الوقف على "إِذَنْ"[1]:

اختلف النحويــون في الوقــف على "إِذَنْ": فذهب الجمهور – وهو الصحيح – وعليه إجماع القُرّاء، أنّ "إِذَنْ" يُوقف عليها بالألف المبدلة من النون، تشبيهاً لها بتنوين المنصوب.

وذهب المازنّي إلى أنّه يُوقف عليها بالنون؛ لأنّها حرف، كــ"أَنْ"، ولم يُجز الوقف عليها بالألف،لئلا تلتبس بــ"إذا".وذهب المبرد إلى جواز الوجهين.

قال السيوطيّ: (الجمهور أنّ "إِذَنْ" يُوقف عليها بالألــف المبدلــة مــن النون، وعليــه إجماع القُرّاء، وجوّز قومٌ منهم المبرد والمازنيّ في غير القرآن الوقــوف عليها بالنون كــ"لَنْ" و"أَنْ")[2].

المسألة الثالثة عشرة: كتابتها[3]:

قال ابن هشام:(وينبني على الخلاف في الوقف عليها خلافٌ في كتابتها) [4].

لذلك اختلف النحويون في كتابتها على ثلاثة مذاهب:

الأول: ذهب الجمهور إلى أنّها تُكتب بالألف، وكذلك رُسمت في المصحف، ونُسب هذا القول إلى المازنيّ، قال المراديّ: (وفيه نظرٌ؛ لأنّه إذا كان يرى الوقف

---

(١) ينظر شرح الأبيات المشكلة ٨٣، والتكملة ٥٦٣، ونتائج الفكر ١٣٤، وشرح الملوكي في التصريف ٢٣٧، وشرح الكافية ٢٣٨/٢، والارتشاف ٨٠١/٢، والجنى الداني ٣٦٥، وجواهر الأدب ٣٣٩، والمغني ١٦، والإتقان ٤٠٦/١، والأشباه والنظائر ٢٠١/٢.

(٢) الإتقان ٤٠٦/١.

(٣) ينظر شرح الكــــافية ٢٣٨/٢، وشرح الجمل لابن عصفـــــور ١٧٠/٢، والجــــنى الــــداني ٣٦٦، ورصــــف المبــــاني ١٥٥، ١٥٦، والمغني ١٦، والجامع لأحكــــام القرآن ١٦٢/٥، والكواكب الدريّة ٤٦٧، والنحــــو الوافــــي ٣١٢/٤.

(٤) المغني ١٦.

عليها بالنون كما نُقل عنه، فلا ينبغي أن يكتبها بالألف)[١].

قال المالقيّ: (وعلّةُ من كتبها بالألف في الحالتين – أي من الوصل والوقف – شَبَهُها بالأسماء المنقوصة، لكونها على ثلاثة أحرف بها، فصارت كالتنوين في مثل "دَماً ويداً" في حال النصب)[٢].

الثاني: ذهب المازنيّ والمبرد وأكثر النحويين إلى أنّها تكتب بالنون، وقد رُوي عـن المبرد أنّه قال: (أشتهي أنْ أكويَ يدَ مَنْ يكتب "إذَنْ" بالألف، إنّها مِثْلُ "لَنْ وأَنْ"، ولا يدخل التنوين في الحروف)[٣].

قال المالقيّ: (فعلّةُ من كتبها بالنون في الحالتين – من الوصل والوقف – أنّها حرف، ونونها أصليّة، فهي كـ"أنْ، وعَنْ، ولَنْ")[٤].

الثالث: ذهب الفراء إلى التفصيل، وهو أنّها إنْ كانت مُلغاةً كُتبت بالألف؛ لأنّها قد ضَعُفت، وإن كانت عاملةً كُتبت بالنون؛ لأنّها قد قويت.

وقد نَسب له رضيّ الدين وابن هشام الأنصاريّ عكس ماذُكر[٥].

قال المالقيّ: (وعلّةُ من فرّق بين كونها عاملةً فتُكتب بالنون تشبيهاً بـ"عَنْ" و"أَنْ"، وكونها غيرَ عاملة فتُكتب بالألف تشبيهاً بالأسماء المذكورة كـ"دَماً" و"يداً")[٦]. ورجَّح ابن عصفور كتابتها بالنون، فقال: (والصحيح أنّها

---

(١) الجنى الداني ٣٦٦.

(٢) رصف المباني ١٥٦.

(٣) ينظر الجامع لأحكام القرآن ١٦٢/٥، والجنى الداني ٣٦٦.

(٤) رصف المباني ١٥٥.

(٥) ينظر تفصيل الرأيين في شرح الجمل لابن عصفور ١٧٠/٢، وشرح الكافية ٢٣٨/٢، ورصف المباني ١٥٥، والجنى الداني ٣٦٦، والمغني ١٦.

(٦) رصف المباني ١٥٦.

تكتب بالنون لأمرين:

أحدهما: أنَّ كلَّ نون يوقف عليها بالألف تُكتب بالألف، وما يوقف عليه من غير تغييرٍ يُكتب على صورته، وهذه يوقف عليها من غير تغيير، فينبغي أن تُكتب على صورها بالنون.

وأيضاً: فإنّها ينبغي أَنْ تُكتبَ بالنون فرقاً بينها وبين "إذا")[1].

أمّا المالقيّ فقد بيّن وجهة نظره في كتابتها بالنون تارة، وبالألف تارة، بقوله:(والذي عندي فيها: الاختيار أن ينظر: فإن وُصلت في الكلام كُتبت بالنون، عملت أو لم تعمل، كما يُفعل بأمثالها من الحروف؛ لأنّ ذلك لفظها مع كونها حرفا لااشتقاق لها، وإذا وُقف عليها كُتبت بالألف؛ لأنّها إذْ ذاك مشبَّهةٌ بالأسماء المنقوصة المذكورة في عدد حروفها، وأنّ النون فيها كالتنوين، وأنّها لاتعمل مع الوقف مثل الأسماء مطلقاً)[2].

والله الموفق للصّواب، وإليه المرجع والمآب، والله أسأل – سبحانه وتعالى – أن يجعلنا ممن إذا دُعِيَ فأجاب، وإذا كتب أو تحدث فأصاب، وأن يرزقنا فَهْمَ الحكمة وفَصْلَ الخطاب، وأن يصلي على سيدنا وقدوتنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وعلى آله والأصحاب، وتابعيهم إلى يوم المآب، وآخِرُ دعوانا أَنِ الحمد لله رب العالمين، آمين.

(١) شرح الجمل ٢/١٧٠.

(٢) رصف المباني ١٥٦.

الخاتمـــــة

الحمد لله على آلائه التي لاتُحصى، ومنها إنعامه عليّ بإتمام هذا البحث، وفي ختامه يُمكنني أن أُقدّم خلاصة موجزة لأهمّ النتائج التي توصلت إليها، فأقول:

أولاً: الرّاجح – وهو مذهب الجمهور – أنّ (إِذَنْ) حرفٌ، لا اسم ظرف لحقها التنوين عوضاً من الجملة المحذوفة، وهو ماذهب إليه بعض الكوفيين، ورجّحه رضيّ الدين الاستراباذيّ.

ثانياً: الرّاجح – وهو مذهب الجمهور – أنّها بسيطة، لاحرف مركب من (إذْ وأَنْ)، وهو مذهب الخليل، وبعض الكوفيين، ورجّحه ابن مالك؛ ولاهي حرف مركب من (إذا وأنْ)، وهو مذهب الرُّنديّ، وقد ردّ المالقيّ على الزاعمين بتركيبها.

ثالثاً: الرّاجح – وهو مذهب سيبويه والجمهور – أنّها تنصب المضارع بنفسها، وذهب الخليل إلى أنّ الفعل يُنصب بـ"أنْ" مضمرة بعد "إِذَنْ"،وتابعه الزجاج والفارسيّ، وانتصر له رضيّ الدين الاستراباذيّ، وأنكر ابن مالك نسبة هذا الرأي للخليل.

رابعاً: "إِذَنْ" تنصب المضارع بشروط ستة: إذا كانت مبتدأة، وجواباً، والفعل مستقبلاً، ولم يفصل بينها والفعل بفاصل، والفعل بعدها لم يكن معتمداً على ماقبلها، وألاّ تقع بعد عاطفٍ.

خامساً: ذهب سيبويه إلى أنّ معناها: الجواب والجزاء، واختلف النحويّون في فهم كلامه، ففهم الشلوبين أنّها لهما معاً حيثما وُجدت، وقد ردّ ابن

عصفور على شيخه، وبيّن أنّ كلامه معتَرضٌ بيِّنُ الاعتراض.

أمّا الفارسيّ ففهم أنّها تَرِدُ لهما، وقد تتمحض للجواب فقط، وهو الرّاجح.

سادساً: "إِذَنْ" إن وقعت بين شيئين متلازمين أُهملت، كوقوعها بين الشرط أو القسم وجوابهما، أو بين المبتدأ والخبر أو مافي حكمهما، والصورة الأخيرة اختلف الفريقان فيها بين الإعمال والإهمال.

سابعاً: لايجوز الفصل بين "إِذَنْ" ومنصوبها، واغتُفِر الفصل بالقسم، أو بـ"لا" النافية، وماعدا ذلك اختلف النحاة في الفصل بالدعاء، أو النداء، أو الظرف، أو المجرور، أو معمول الفعل، فجمهور النحويين يوجبون رفع الفعل؛ لوجود الفصل.

ثامناً: "إِذَنْ" إن وقعت بين حرف العطف والفعل المستقبل، فأنت بالخيار، إن شئت أعملتها، وإن شئت ألغيتها، وهو الأكثر والأجود.

تاسعاً: حكى سيبويه أنّ ناساً من العرب يُلغون عمل "إِذَنْ" مع استيفاء الشروط، فأثبت لها معظم النحاة جواز الإلغاء، وخالفهم آخرون فأوجبوا إعمالها، وحكموا على اللغة بأنّها نادرةٌ، أو شاذّةٌ لايُعتبر بها.

عاشراً: إذا أتى بعد "إِذَنْ" الفعل الماضي مصحوباً باللام، فالظاهر أنّ الفعل جوابُ قسمٍ مقدرٍ، أو جواب "لو" مقدرةٍ قبل "إِذَنْ"، وهو مذهب الفراء. أمّا الرضيّ فيرى أنّها جواب "لو" مقدرة فقط.

حادي عشر: ذهب الرّضيّ إلى أنّ الفعل المنصوب بعد "إِذَنْ" يُقدّر بالمصدر، ويُعرب مبتدأً، خبره محذوف وجوباً.

ثاني عشر: شبّه النحاة "إِذَنْ" في عوامل الأفعال بـــ"ظَنَنتُ" في عوامل الأسماء، في الابتداء، والتوسط، والتأخير؛ لأنّ كلاًّ منهما يعمل ويُلغى، فإذا تقدما عملا، وإذا تأخرا أو توسطا ففي المسألة تفصيل.

ثالث عشر: الرّاجح – وهو مذهب الجمهور وعليه إجماع القُرّاء – أنّ "إِذَنْ" يوقف عليها بالألف المبدلة من النون، وذهب المازنـــيّ والمبرد إلى أنّه يوقف عليها بالنون في غير القرآن.

رابع عشر: ذهب الجمهور إلى أنّها تكتب بالألف، وكذلك رُسمت في المصحف، وذهب المازنـــيّ والمبرد وأكثر النحويين، ورجّحه ابن عصفور، إلى أنّها تكتب بالنون، وقال الفراء: إن كانت ملغاة كُتبت بالألف؛ لأنّها قد ضعفت، وإن كانت عاملة كُتبت بالنون؛ لأنّها قد قويت، ونَسب له الرضيّ وابن هشام العكس.

وآخِرُ دعوانا أَنِ الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا ونبيّنا محمد وعلى أزواجه، وذرّيته، وصحبه أجمعين، وسلَّمَ تسليماً كثيرا.

فهرس المصادر والمراجع

١- الإتقـــان في علوم القرآن للسيوطيّ، تقديم محمد شريف سكر، ومراجعة مصطفى القصاص، ط١، ١٤٠٧هـــ، مكتبة المعارف، الرياض.

٢- ارتشـــاف الضرب من لسان العرب لأبي حيّان الأندلسيّ، تحقيق ودراسة رجب عثمان محمد، ط١، ١٤١٨هـــ، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٣- الأشـــباه والـــنظائر في الـــنحو للسيوطيّ، مراجعة فايـــز ترحيني، ط١، ١٤٠٤هـــ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤- الأصـــول في النحو لابن السراج، تحقيق عبدالحسين الفتلي، ط١، ١٤٠٥ه، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥- ألفـــية ابـــن مـــالك في النحو والصرف، ١٤١٠هـــ، مكتبة طيبة للنشر والتوزيع، المدينة المنورة.

٦- الإيضـــاح العضدي لأبي عليّ الفارسيّ، تحقيق د. حسن شاذلي فرهود، ط٢، ١٤٠٨هـــ، دار العلوم.

٧- الإيضاح في شرح المفصل لابن الحاجب، تحقيق د. موسى العليلي، مطبعة العاني، بغداد.

٨- البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسيّ، ط٢، ١٣٩٨هـــ، دار الفكر، بيروت.

٩- الـــبرهان في علـــوم القرآن لبدر الدين الزركشيّ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعرفة، بيروت.

١٠-التبصـــرة والـــتذكرة لأبي محمد الصيمريّ، تحقيق د. فتحي أحمد مصطفى عليّ الدين، ط١، ١٤٠٢هـــ، دار الفكر، دمشق.

١١-تذكـــرة النحاة لأبي حيّان الأندلسيّ، تحقيق د. عفيف عبدالرحمن، ط١،

١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٢-تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٧هـ.
١٣-التصريح على التوضيح لخالد الأزهريّ، دار الفكر، دمشق.
١٤-التعليقة على كتاب سيبويه لأبي عليّ الفارسيّ، تحقيق د. عوض القوزي، ط١، ١٤١٢هـ، جامعة الملك سعود، الرياض.
١٥-التكملة لأبي عليّ الفارسيّ، تحقيق د. كاظم المرجان، ١٤٠١هـ، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل.
١٦-توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمراديّ، تحقيق د. عبدالرحمن علي سليمان، ط١، ١٣٩٦هـ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
١٧-الجامع لأحكام القرآن للقرطبيّ، ط١، ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٨-الجمل في النحو لأبي القاسم الزجاجيّ، تحقيق د. علي توفيق الحمد، ط١، ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٩-الجنى الداني في حروف المعاني للمراديّ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم، ط١، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٠-جواهر الأدب في معرفة كلام العرب لعلاء الدين الإربليّ، صنعة د. إميل بديع يعقوب، ط١، ١٤١٢هـ، دار النفائس، بيروت.
٢١-دراسات لأسلوب القرآن الكريم تأليف محمد عبدالخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة.

٢٢–ديـوان حسـان بـن ثابت، تحقيق د. سيد حنفي حسنين، دار المعارف، القاهرة.
٢٣–ديـوان كُـثيّر عزّة، تحقيق إحسان عباس، ط١، ١٩٧١م، دار الثقافة، بيروت.
٢٤–رصـف المـباني في شـرح حروف المعاني للمالقيّ، تحقيق د. أحمد محمد الخراط، ط٢، ١٤٠٥هـ، دار القلم، دمشق.
٢٥–شـرح أبيات سيبويه لابن السيرافيّ، تحقيق د. محمد علي سلطاني، ١٩٧٩م، دار المأمون للتراث، دمشق.
٢٦–شـرح الأبـيات المشكلة الإعراب لأبي عليّ الفارسيّ، المسمى (إيضاح الشعر)،تحقيق د.حسن هنداوي، ط١، ١٤٠٧هـ، دار القلم، دمشق.
٢٧–شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، مطبعة الحلبي، القاهرة.
٢٨–شـرح ألفـية ابـن مالك لابن الناظم، تحقيق د. عبدالحميد السيد محمد عبدالحميد، دار الجيل، بيروت.
٢٩–شـرح التسهيل لابن مالك، تحقيق د. عبدالرحمن السيد ود. محمد بدوي المختون، ط١، ١٤١٠هـ، هجر للطباعة والنشر.
٣٠–شرح جمل الزجاجيّ لابن عصفور، تحقيق صاحب أبو جناح.
٣١–شـرح شـذور الذهـب في معرفة كلام العرب لابن هشام الأنصاريّ، تحقيـق محمد محي الدين عبدالحميد، دار الفكر، بيروت.
٣٢–شرح شواهد المغنى للسيوطي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
٣٣–شـرح قطـر الندى وبل الصدى لابن هشام الأنصاريّ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ١٤١١هـ، المكتبة العصرية، بيروت.

٣٤–شـــرح الكافية لرضيّ الدين الاستراباذيّ، ط٣، ١٤٠٢هـــ دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٥–شـــرح الكافية الشافية لابن مالك الأندلسيّ، تحقيق د. عبدالمنعم هريدي، دار المأمون للتراث.

٣٦–شـــرح كـــتاب سيبويه لأبي سعيد السيرافيّ، تحقيق د.رمضان عبدالتواب، ود.محمود فهمي حجازي، ود.محمد هاشم عبدالدايم، الهيئة المصرية العامة للكتب، ١٩٨٦م.

٣٧–شرح المفصل لابن يعيش النّحويّ، عالم الكتب، بيروت.

٣٨–شرح المقدمة الجزوليّة الكبير لأبي عليّ الشلوبين، تحقيق د. تركي بن سهو العتيبي، ط١، ١٤١٣هـــ، مكتبة الرشد، الرياض.

٣٩–شـــرح مـــلحة الإعراب لأبي محمد القاسم الحريريّ، تحقيق د. أحمد محمد قاسم، ط٢، ١٤١٢هـــ، مكتبة دار التراث، المدينة.

٤٠–شرح الملوكي في التصريف لابن يعيش، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ط١، ١٣٩٣هـــ، المكتبة العربية، حلب.

٤١–الصّـــاحبي لأبي الحسين ابن فارس، تحقيق السيّد أحمد صقر، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة.

٤٢–فهـــارس كتاب سيبويه صنع محمد عبدالخالق عضيمة،ط١، ١٣٩٥هـــ، دار الحديث، القاهرة.

٤٣–فهارس معاني القرآن للفراء،إعداد د. فائزة المؤيد، ط١، ١٤١٤ه، الخبر.

٤٤–الكـــتاب لســـيبويه، تحقيق عبدالسلام هارون، ط٢، ١٤٠٣هـــ، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٤٥-الكشاف لأبي القاسم الزمخشريّ، دار المعرفة، بيروت.

٤٦-كشف المشكل في النحو لعلي بن سليمان الحيدرة اليمنيّ، تحقيق د.هادي عطية مطر، ط١، ١٤٠٤هـ، مطبعة الإرشاد، بغداد.

٤٧-الكواكب الدّريّة على متممة الآجُرّوميّة لمحمد بن محمد الرُّعينّي، الشهير بالحطاب، ط١، ١٤١٠هـ، دار الكتب، بيروت.

٤٨-مختصرٌ في شواذّ القرآن لابن خالويه، عني بنشره برجشتراسر، المطبعة الرحمانيّة بمصر، ١٩٣٤م.

٤٩-المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل، تحقيق محمد كامل بركات، ١٤٠٠هـ، دار الفكر، دمشق.

٥٠-معاني القرآن للفراء، ط٣، ١٤٠٣هـ، عالم الكتب، بيروت.

٥١-معاني القرآن وإعرابه للزجاج، تحقيق د.عبدالجليل عبده شلبي، ط١، عالم الكتب، بيروت.

٥٢-المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية، إعداد إميل بديع يعقوب، ط١، ١٤١٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٣-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبدالباقي، ط٢، ١٤٠٨هـ، دار الحديث، القاهرة.

٥٤-مغني اللبيب لجمال الدين ابن هشام الأنصاريّ، تحقيق مازن المبارك، ومحمد علي حمدالله، ط١، ١٣٩٩ه، دار نشر الكتب الإسلامية، لاهور.

٥٥-المفصل لأبي القاسم الزمخشريّ، ط٢، دار الجيل، بيروت.

٥٦-المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، ط٧، دار المعارف، القاهرة.

٥٧–المقتصـــد في شـــرح الإيضـــاح لعبدالقاهر الجرجانيّ، تحقيق د. كاظم بحر المرجان، دار الرشيد، ١٩٨٢م، العراق.

٥٨–المقتضـــب لأبي العباس المبرد، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، ط٢، ١٣٩٩هـ، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة.

٥٩–المقرب لابن عصفور، تحقيق أحمد عبدالستار الجواري، وعبدالله الجبوري، ط١، ١٣٩١هـ، مطبعة العاني، بغداد.

٦٠–الملخص لابن أبي الربيع القرشيّ، تحقيق د. علي بن سلطان الحكمي، ط١، ١٤٠٥هـ.

٦١–نتائج الفكر في النحو لأبي القاسم السُهيليّ، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا، دار الرياض للنشر والتوزيع، الرياض.

٦٢–النحو الوافي، تأليف عباس حسن، ط٨، دار المعارف، القاهرة.

٦٣–النكت في تفسير كتاب سيبويه، للأعلم الشّنتمريّ، تحقيق زهير عبدالمحسن سلطان، ط١، ١٤٠٧هـ، الكويت.

٦٤–همع الهوامع شرح جمع الجوامع، للسيوطيّ عُني بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني، ط١، ١٣٢٧هـ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

فهرس الموضوعات

مقدّمة ٤٠٩
المسألة الأولى: أصل "إِذَنْ": ٤١٢
المسألة الثّانية: عملها: ٤١٤
المسألة الثّالثة: شروط عمل "إِذَنْ" : ٤١٨
المسألة الرّابعة: معناها: ٤٢١
المسألة الخامسة: حكم"إِذَنْ"إن وقعت بين شيئين متلازمين: ٤٢٤
المسألة السّادسة: حكم "إِذَنْ" إذا فُصل بينها والفعل بفاصلٍ: ٤٢٧
المسألة السّابعة: حكم"إِذَنْ"الواقعة بين حرف العطف والفعل المستقبل: ... ٤٢٩
المسألة الثّامنة: حكم إلغاء عمل "إِذَنْ" مع استيفاء شروط العمل: ٤٣١
المسألة التّاسعة: حكم"إِذَنْ"إذا وقع بعدها الماضي مصحوباً باللاّم: ٤٣٢
المسألة العاشرة: إعراب الفعل المنصوب بعد "إِذَنْ": ٤٣٤
المسألة الحادية عشرة: تشبيه "إِذَنْ" في عوامل الأفعال بـــ"ظَنّ" في عوامل الأسماء: ٤٣٤
المسألة الثّانية عشرة: الوقف على "إِذَنْ": ٤٣٦
المسألة الثّالثة عشرة: كتابتها: ٤٣٦
الخاتمـــة ٤٣٩
فهرس المصادر والمراجع ٤٤٢
فهرس الموضوعات.. ٤٤٨

حَرَكَةُ حُرُوفِ الْمُضَارِعَةِ

إِعْدَادُ :

د. عَبْدِ اللّهِ بْنِ نَاصِرِ القَرْنِيِّ

الأُسْتَاذِ المُسَاعِدِ فِي كُلِّيَّةِ اللّغَةِ العَرَبِيّةِ فِي جَامِعَةِ أُمِّ القُرَى



المقدَّمة

الحمد لله والصَّلاة والسَّلامُ على رَسولِ الله .

وَبَعْد؛ فقد اهتمَّ علماء العربيّة بلغتهم، ووضعوا نحوها وصرفها ولغتها على نحوٍ منضبط، بهر من جاء بعدهم لدقّتهم البالغة، وسرعة استواء هذه العلوم على سوقها .

وكان في جملة اهتماماتهم الكلمة المفردة، إذ تناولوها من جهة نوعها، وبنيتها، ومدلولها .

فأمّا نوعها فقسموها إلى ثلاثة أقسام: اسم، وفعل، وحرف . وأمّا بنيتها فصنفوا جميع أبنية العربيّة على اختلاف هيئاتها وأحوالها.

وأمّا مدلولها: فصنّفوا في ذلك الموسوعات الحاوية لمعاني ألفاظ العربيّة.

وكان في جملة بيانهم انقسامَ الكلمة إلى اسم وفعل وحرف انقسامُ الفعل إلى ثلاثة أيضًا: ماضٍ ومضارع وأمر . فإن قال قائل: لم كانت الأفعال ثلاثة: (ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً)؟ قيل: لأنّ الأزمنة ثلاثة، ولمّا كانت ثلاثة وجب أن تكون الأفعال ثلاثة: ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً[(١)].

ولكلّ نوعٍ منها علاماته التي يعرف بها، وميزاته التي ينفرد بها عن نظيريه.

فالفعل المضارع قسم من أقسام الفعل، ونوع من أنواعه، شُغِلَ به النّحويّون والصّرفيّون واللّغويّون .

فالنحويون تناولوا المضارع بالدراسة من حيث علامته المميزة له، وإعرابه أو بناؤه، وانتهوا إلى أمور، منها:

- علامته المميزة له نوعان:

١–نوع يرجع إلى ما يدخل عليه من عوامل، وهي صلاحيته (لأن يلي

(١) انظر شرح المفصّل ٧ / ٤.

(لـــم) نحو: لم يقم زيد ولم يشم)[1] .

٢-وآخر يرجع إلى صيغة أوزان المضارع، وهي افتتاحه بحرف من حروف (نأيت). قال الزمخشري في تعريفه: (وهو ما يعقب في صدره الهمزة والنون والتاء والياء...)[2].

وليس هذه العلامة في قوة السابقة لها؛ لأنها ليست علامةً قاطعةً، وإنما هي مساعدة.

- إعرابه:

يقرر النحويون أن حق الفعل المضارع الإعراب (لمشابهته للاسم، وبهذا أعرب، واستحق التقديم على أخويه)[3] .

واستثنوا من ذلك حالتين هما:

١-إذا اتصلت به نون التوكيد، فإنه يبنى معها على الفتح بشرط أن تكون مباشرة للفعل، لم يفصل بينها وبينه فاصلٌ، ظاهراً كان - كألف الاثنين - أو مقدراً - كواو الجماعة وياء المخاطبة - وإلا كان معرباً.

٢-إذا اتصلت به نون النسوة، فإنه يبنى معها على السكون، كما في قوله جل وعلا: ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ... ﴾[4].

أمَّا الصرفيُّون فقد شغلتهم حركة عين المضارع؛ ذلك لاختلافها باختلاف الماضي ونوعه من حيث التجرُّد والزِّيادة، ومن حيث نوعيّة حروفه في بعض الأحيان .

---

(١) أوضح المسالك: ٢٧/١ .

(٢) المفصل في علم العربية ص٢٤٤.

(٣) أوضح المسالك: ٢٧/١. والمقصود بأخويه الماضي والأمر..

(٤) سورة البقرة: ٢٢٨.

فالمعروف أنَّ أبواب الماضي الثّلاثي المجرّد ثلاثة: (فَعَل وفعِل وفعُل) وهذا التّقسيم ناتج من تغيّر حركة العين، ذلك أنَّ الفعل - كما ترى - ثلاثة أحرف . فالأوّل منها متحرّك دائمًا (إذ لايُبْدَأ بساكن [وحركته الفتحة] واختيرت من بين الحركات لخفّتِها، وآخره مبنيٌّ على الفتح لفظًا أو تقديرًا، ولم يكن ساكنًا؛ لأنّه يتّصل به الضّمائر، وبعضها ملازم للسُّكون كواو الجماعة، وألف الاثنين . والعين لا تكون إلاَّ متحرّكة لئلاَّ يلزم التقاء السّاكنين إذا سكن آخر الفعل لاتِّصاله بضمير رفع متحرِّك . والحركات ثلاث: فتحة وكسرة وضمّة؛ لذلك انحصرت أوزانه في هذه الصِّيغ الثّلاث)[1] .

أمّا الرُّباعي المجرَّد فله وزن واحد هو (فَعْلَل) نحو: (دحرج) لأن الرُّباعي أثقل من الثُّلاثي، فوجب أن يكون فيه سكون لِيُخَفِّفَ ثقَله؛ ولأنّه لو كانت حروفه كلُّها متحرِّكة كالثُّلاثي لزم اجتماع أربعة متحرِّكات متوالية في الكلمة الواحدة، وهذا مما رفض في كـــلام العرب للاستثقال.

وأما اللغويون فكان من جملة الأحكام التي يطالعها دارس العربيَّة في دراساتهم حركة حرف المضارعة، فاشتُهِر أنَّ حكمها دائر بين حالتين:

الأولى: حالة الفتح، وذلك إذا كان ماضي الفعل ثلاثيًّا أو خماسيًّا أو سداسيًّا .

والأخرى: حالة الضّم، وتختصّ بما كان ماضيه على أربعـــة أحرف .

ولا يذكر مع هاتين الحالتين حالة ثالثة . ولكنّا نجد في كتاب سيبويه مبحثًا مستقلاًّ عنوانه (كسر حروف المضارعة)[2] وذلك يشعر بخروج هذه الحالة عن القاعدة العامَّة، ذلك أنَّ النُّحاة بنوا قواعدهم على ما اطَّرد من قواعد

---

(١) المغني في تصريف الأفعال ص ٩٨.

(٢) انظر الكتاب: ٤/١١٠ .

العربيَّة، مستندًا إلى قياس صحيح، أو رَكَنَ إلى سماعٍ فصيح .

وكسر حروف المضارعة ليس مطردًا في لغة العرب، غير أنَّها وجدت لهجات عربية تكسرها .

ولما كان الأمر كذلك أردت أن أقف عندها، جامعًا كلام العلماء فيها ليسهل النَّظر في هذه الحالة، وليطلع دارسو العــربيَّة على آراء العلماء فيها.

وذكرت معها نبذة عن حروف المضارعة من حيث، عددهــا، ومكان زيادهّا، ولماذا كانت دون غيرها، وهل زيادهّا في أوائل الفعل المضارع دون غيره من الأسماء والأفعال؟

أرجو أن أكون قد حقَّقت المقصود، ووصلت إلى المراد، والله الهادي إلى سواء السَّبيل .

حروف المضارعة

حروف المضارعة هي الهمزة والنون والتاء والياء التي تكون في صدر الفعل المضارع، وزيادهما في أوله لازمة، بل هي جزء من تعريفه. قال الزّمخشري في تعريفه: «وهو مايعقب في صدره الهمزة والنّون والتّاء والياء. وذلك في قولك للمخـــاطب أو الغائبة: تفعل. وللغائب: يفعل . وللمتكلّم: أفعل. وله إذا كان معه غيره واحدًا أو جماعة: نفعل. وتسمّى الزّوائد الأربع، ويشترك فيه الحاضر والمستقبل....»[1]. فإن سألت عن أصل هذه الحروف ومن أين جاءت ؟ أجابك السّهيلي في نتائجه بقوله: « وإن كان المعنى الزّائد أولاً كانت الزّيادة المنبئة عنه أولاً، مسبقة على حروف الكلمة، كهذه الزّوائد الأربع، فإنّما تنبئ أنّ الفعل لم يحصل بعد لفاعله، وأن بينه وبين تحصيله جزءًا من الزّمان، فكان الحرف الزَّائد السَّابق للفظ الفعل مشيرًا في اللّسان إلى ذلك الجزء من الزَّمان، مرتَّبًا في البيان على حسب ترتُّب المعنى في الجنان »[2] .

فإن سألت: لم كانت هذه الأحرف الأربعة دون غيرها من حروف الهجاء؟ أجابك بقوله: (إنَّ الأصل في هذه الزّوائد الياء، بدليل كونها في الموضع الذي لا يحتاج فيه إلى الفرق بين مذكّر ومؤنّث، وهو فعل جماعة النِّساء .

دليل آخر: وهو أنَّ أصل الزِّيادة لحروف المدّ واللّين، والواو لا تزاد أولاً كيلا تشبه (واو) العطف، ولعلّة أخرى تذكر في باب التّصريف[3]، والألف لا

---

(١) المفصّل في علم العربيّة ص ٢٤٤.

(٢) نتائج الفكر ص ١١٧.

(٣) قال ابن جني في سر صناعة الإعراب ٥٩٥/٢: (ولم تزد الواو أولاً ألبتة، وذلك أنها لو زيدت لم تخل من أن تكون مفتوحة أو مكسورة أو مضمومة ، فلو زيدت أولاً مضمومة لاطّرد فيها الهمز كما همز نحو (أُقتت) و (أُعِد زيد) ولو زيدت مكسورة لكان قلبها أيضاً جائزاً وإن لم يكن في كثرة همز المضمومة وذلك نحو (إسادة) ... ولو زيدت أولاً =

تزاد أولاً لسكونها، فلم يبق إلاّ (الياء) فهي أصل هذا الباب . فلمَّا أرادوا الفرق كانت الهمزة بفعل المتكلّم أولى، لإشعارها بالضَّمير المستتر في الفعل، إذ هي أول حروف ذلك الضَّمير إذا برز، فلتكن مشيرةً إليه إذا أرز. وكانت النّون بفعل المتكلّمين أولى بوجودها في أول لفظ الضَّمير الكامن في الفعل إذا ظهر، فلتكن دالّة عليه إذا خفي واستتر، وكانت التّاء من (تفعل) للمخاطب؛ لوجودها في ضميره المستتر فيه، وإن لم تكن في أوّل لفظ الضَّمير - أعني (أنت) - ولكنَّها في آخره، ولم يخصّوا بالدّلالة عليه ما هو في أوّل لفظه - أعني الهمزة - لمشاركته للمتكلّم فيها وفي النّون، فلم يبق من لفظ الضَّمير إلاَّ التَّاء، فجعلوها في أوَّل الفعل علمًا عليه، وإيماءً إليه .

فإن قيل: فكان يلزم على هذا أن تكون الزِّيادة في فعل الغائب هاءً، لوجودها في لفظ الضَّمير الغائب إذا برز ؟

فالجواب: أنَّه لا ضمير في فعل الغائب في أصل الكلام وأكثر موضوعه؛ لأنَّ الاسم الظَّاهر يغني عنه، ولا يستتر ضمير الغائب حتَّى يتقدّمه مذكور يعود عليه، وليس كذلك فعل المتكلّم والمخاطب والمخبرين عن أنفسهم ...»[(١)] .

ويقول الكيشيُّ عن هذه الأحرف: «وإنَّما اختصّت الحروف الأربع بالمضارع لأنَّ حروف المدّ هي التي تزاد للمعاني، لكونها ناشئة من الحركات الدَّالَّة على المعاني الإعرابيّة، وحرك الألف للابتداء به فصارت همزة؛ لقرب المخرج، فأبدل من الواو تاءً كتراث وتجاه وتقًى؛ لأنَّ الواو لا تزاد أولاً بمقتضى التَّصريف،

= مفتوحة لم تخل من أن تزاد في أول اسم أو فعل ... فلو زيدت في أول الاسم مفتوحة لكنت متى صغرت ذلك الاسم فضممتها مُمَكّناً من همزها .. ولو كانت في أول فعل لكنت متى بنيته للمفعول و لم تسم فاعله وجب أن تضمها لجاز أيضاً همزها ...) .

(١) نتائج الفكر ص١١٧.

واضطروا إلى حرف رابع فتعيَّن النّون، لما فيه من الغنّة الشَّبيهة بالمدّ »[١] .

فيرى الكيشي أنَّهم لَمّا احتاجوا إلى أحرف تدلُّ على المعاني الزَّائدة في الفعل كان الأولى بذلك حروف المدّ الثّلاثة: الألف والواو والياء، فأبدل من الألف الهمزة للعلّة التي ذكر، ومن الواو التّاء؛ لأنّه لا تزاد أولاً، والياء بقيت على طبيعتها، فلمَّا اضطروا إلى حرف رابع كان النّون .

وزيادة هذه الأحرف ليست خاصة بالفعل المضارع، ولذلك لا يذكرها النحويون لتعريفه بها؛ لأنّها ليست علامة قاطعة، وإنَّما هي مساعدة . ولذلك قال ابن هشام فيها: «وإنَّما ذكرت هذه الأحرف بساطًا وتمهيدًا للحكم الذي يأتي بعدها، لا لأُعرِّف بها الفعل المضارع؛ لأنّا وجدناها تدخل في أوَّل الفعل الماضي، نحو: (أكرمت زيدًا) و (تعلّمت المسألة) و(نرجست الدَّواء) إذا جعلت فيه نرجسًا، و (يرنأت الشَّيب) إذا خضبته باليُرَنَّأ، وهو الحنّاء، وإنَّما العمدة في تعريف المضارع دخول (لـــم) عليه»[٢] . ونجد أنَّ هذه الأحرف تدخل أيضًا على الأسماء، وتجيء في أوَّلها، ويفسِّر ابن جنِّي ذلك بقوله: «فإن قلت: فهلا قُصِرَت حروف المضارعة على الأفعال كما قصرت الميم على الأسماء، وقد سمعناهم يقولون: (أفْكَلٌ، وأَيْدَعٌ، وتَنْضُبٌ، وتَـــتْفلٌ[٣]) وغير ذلك مّما في أوَّله الهمزة والنّون والتّاء والياء ؟

قيل: إنَّما زيدتْ هذه الحروف التي بابها الأفعال في أوائل الأسماء، لقوَّة الأسماء وتمكّنها، وغلبتها للأفعال فشاركت الأسماءُ في هذا الموضع الأفعالَ،

(١) الإرشاد إلى علم الإعراب ص ٤٣٩.

(٢) شرح قطر النَّدى وبلّ الصَّدى ص ٣٧.

(٣) الأفكل، على أفعل: الرعدة: ولا يبنى منه فعل. والأيدع: صبغ أحمر، وقيل: هو خشب البقم، وقيل غير ذلك. والتنضب: شجر ينبت بالحجاز، واحدته تنضبة. والتتفل: الثعلب، ونبات أخضر، وقيل شجر. انظر ذلك في اللسان (فكل، يدع، نضب، تفل) .

لقوّتها ... ويدلّك على أنَّ أصل هذه الزِّيادات - أعني: الحروف المضارعة - أن تكون في أوّل الأفعال أنَّ الأسماء التي جاءت على (أفعل) أكثرها صفات نحو: (أحمر، وأصفر، وأخضر، وأسود، وأبيض)، والأسماء التي في أوَّلها الهمزة على هذا البناء من غير الصِّفات قليلة . ألا ترى أنَّ باب: (أحمر، وأصفر، وأسود، وأبيض) أكثر من باب (أَيْدَعٍ، وَأَزْمَلٍ، وَأَفْكَلٍ)، فلمَّا أرادوا أن يكثر هذا المثال الذي في أوّله الهمز جعلوه صفات؛ لقرب مابين الصّفة والفعل . ألا ترى أنَّ كلَّ واحدٍ منهما ثانٍ للاسم، وأنَّ الصِّفة تحتاج إلى الموصوف كما أنَّ الفعل لابدَّ له من فاعلٍ)[1] .

ولذلك يقرر النحويون أنَّ علامة الفعل المضارع صحة دخول (لـــم) الجازمة على الفعل دون اختلال في التّركيب . أمَّا أحرف المضارعة فهي قابلة للدّخول على الماضي والأسماء .

الفتح والضم في أحرف المضارعة :

شغل اللغويون بالمضارع من حيث حركة حرف المضارعة. فقد اشتهر في لغة أهل الحجاز أنَّه إذا بني المضارع من ماضٍ رباعي - سواء أكان رباعي الأصول أم رباعيًا بالزِّيادة - كانت حركة حرف المضارعة منه الضَّم . فتقول: أكرم يُكرم، قطَّع يقطِّع، دحرج يُدحرج .

وإذا جاء مايشعر بمخالفته ذلك فعلى اعتبار آخر، وعليه يمكن تفسير (قراءة أبي رجاء العطاردي[2] ﴿ فاتبعوني يَحببكم الله ﴾[3] بفتح الياء .قال

---

(١) المنصف ١ / ٢٧٢.

(٢) عمران بن تيم البصري أخذ القراءة عرضًا على ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - وتَلَقَّنَ القرآن على أبي موسى، ولقي أبا بكر رضي الله عنهما . قال ابن معين: مات سنة خمس ومائة وله مائة وسبع وعشرون سنة . معرفة القراء الكبار ٥٨ - ٥٩.

(٣) آل عمران: ٣١.

الكسائي: يقال يَحِبُّ وتَحِبُّ وأَحِبُّ ... والفتح لغة تميم وأسد وقيس . وهي على لغة من قال: حَبَّ وهي لغة قد ماتت)[١] .

فنلحظ هنا أنَّ الفتح على اعتبار أنَّ الفعل ثلاثي الماضي، وليس أحبَّ الرّباعي . وهو رأي وجيه ارتضاه النَّحاس. إذ قال: ((فأمَّا فتحها فمعروف يدل عليه محبوب))[٢] . وهذا إشارة إلى اسم المفعول من الثّلاثي الذي يأتي على وزن مفعول؛ كما تقتضيه القواعد الصَّرفيَّة .

وإذا بني المضارع من ثلاثي أو خماسي أو سداسي كانت حركة حرف المضارعة الفتح. (فإن قيل: فلم فتحوا حرف المضارعة في الثّلاثي، وضمُّوه من الرُّباعي؟ قيل: لأنَّ الثَّلاثي أكثر من الرُّباعي، والفتحة أخفُّ من الضَّمة، فأعطوا الأكثر الأخف، والأثقل الأقل ليعادلوا بينهما .

فإن قيل: فالخماسي والسُّداسي أقلُّ من الرُّباعي فهلا وجب ضَمُّهُ ؟ قيل: إنَّما وجب فتحه لوجهين:

الأوَّل: أنَّ النَّقل من الثّلاثي أكثر من الرّباعي، فلمَّا وجب الحمل على أحدهما كان الحمل على الأكثر أولى من الحمل على الأقلّ .

والآخر: أنَّ الخماسي والسُّداسي ثقيلان لكثرة حروفهما، فلو بنوهما على الضَّمِّ لأدَّى ذلك إلى أن يجمعوا بين كثرة الحروف، وثقل الضَّم، وذلك لايجوز فأعطوها أخفّ الحركات وهو الفتح)[٣].

وهذا ما اشتهر في المسألة، وعليه الاعتماد في التعليم والتقعيد. غير أنَّه قد جاءت لغات تخالف هذا المشهور، من ذلك كسر حروف المضارعة .

وهذه المسألة - أعني: كسر حروف المضارعة - هي التي شغلت اللغويين؛

---

(١) إعراب القرآن للنَّحاس ١ / ٣٦٧.

(٢) إعراب القرآن للنَّحاس ١ / ٣٦٧.

(٣) أسرار العربية للأنباري ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

لأنَّ العرب تباينت في النّطق بها، وإليك تفصيل ذلك:

ما يكسر من حروف المضارعة وما يمتنع كسره:

سبق أن بيَّنّا أن حروف المضارعة أربعة: الهمزة، والنّون، والتَّاء، والياء، فهل يصح لنا أن نكسر شيئًا منها ؟

يقول سيبويه: ((هذا باب ما تكسر فيه أوائل الأفعال المضارعة للأسماء كما كسرت ثاني الحرف حين قلت: فَعِل، وذلك في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز، وذلك قولهم: أنت تِعْلم ذاك، وأنا إِعلم، وهي تِعْلم، ونحن نِعلم ذلك، وكذلك كل شيء فيه (فَعِل) من بنات الياء والواو التي الياء والواو فيهن لام أو عين، والمضاعف، وذلك قولهم: شقيت فأنت تِشْقَى، وخشيتُ فأنا إِخشى، وخلنا فنحن نِخال، وعَضِضْتُنَّ فأنتنَّ تِعْضَضْنَ وأنت تِعَضِّين))[1].

وبتأمّل هذا النَّصِّ نلحظ أنَّ الحروف التي تكسر من حروف المضارعة ثلاثة: الهمزة، والتَّاء، والنّون، وكسر هذه الحروف لايكون في صيغ الأفعال كلّها، وإنَّما يكون في مضارع (فَعِل) مكسور العين . وهذا معنى قوله: (كما كَسَرْتَ ثاني الحرف حين قلت: فَعِل) .

والمراد بذلك ما جاء على (فَعِل يفعَل) بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع .

و((ما ورد من (فَعِل يفعِل) بكسر العين في الماضي والمضارع لا يكسر منه حرف المضارعة عند أحد من العرب . وأمَّا ما سمع بالوجهين فيكسر فيه حرف المـــضارعة على لغة الفتح لا على لغة الكسر))[2] .

وبهذا يتبين أنَّ ما كان على (فعِل يفعِل) لا يكسر منه حرف المضارعة .

---

(١) الكتاب ٤ / ١١٠ .

(٢) المغني في تصريف الأفعال ص ١٤٥.

وعلة ذلك ثقل الكسر بعد الكسر؛ ولأنَّ العلّة في كسر حرف المضارعة فيما كان ماضيه على (فعِل) التنبيه على كسر العين منه، قال سيبويه: ((وإنَّما كسروا هذه الأوائل؛ لأنَّهم أرادوا أن تكون أوائلها كثواني (فَعِل) كما ألزموا الفتح ما كان ثانيه مفتوحًا في (فَعَل) وكان البناء عندهم على هذا أن يجروا أوائلها على ثواني فعِل منها))[1] .

ولما كانت العَلّة هذه لم يُكْسَرْ (في الباب شيء كان ثانيه مفتوحًا نحو ضرب وذهب وأشباههما)[2] .

أمَّا الياء الدَّالة على الغائب من حروف المضارعة فإنَّا نجدها تخرج من هذا، وتسلم من الكسر. يقول الرّضي: ((وتركوا الكسر؛ لأنَّ الياء من حروف المضارعة يُستثقل عليها، وكسر حروف المضارعة - إلاَّ الياء - لغة غير الحجازيين إذا كان الماضي مكسور العين))[3] . وقال أيضًا: ((واعلم أنَّ جميع العرب - إلاَّ أهل الحجاز - يجوزون كسر حروف المضارعة سوى الياء في الثلاثي المبني للفاعل، إذا كان الماضي على (فعِل) بكسر العين فيقولون: أنا إعلم، ونحن نِعلم وأنت تِعلم ...))[4] .

وبهذا يتبيّن أنَّ الياء ليست مِمَّا يكسر من حروف المضارعة إلاَّ في حالات نادرة، كأن تكون بعدها ياء أخرى. قال الرَّضي: ((ويكسرون الياء أيضًا إذا كانت بعدها ياءٌ أخرى))[5] .

---

(١) الكتاب ٤ / ١١٠.

(٢) المصدر السَّابق.

(٣) شرح الكافية: ٢ / ٢٢٨.

(٤) المصدر السابق: ١ / ١٤١.

(٥) المصدر السابق: ٢ / ٢٢٨.

أمَّا تعليل إخراجها من دائرة الكسر عن مثيلاتها فهو الثّقل النَّاشئ عن ذلك؛ لأنَّ الياء ثقيلة والكسرة ثقيلة، ولذلك لم ترد مكسورة في أوَّل الأسماء إلاَّ في كلمات معدودة، ذكرها ابن جنِّي في منصفه وعلَّل ذلك بالثّقل إذ قال: «وليس في كلام العرب اسم في أوَّله ياء مكسورة إلاَّ قولهم في اليد اليسرى: (يِسار) بكسر الياء والأفصح (يَسار) بفتحها. وقالوا أيضًا في جمع (يقظان): (يِقاظ) وفي جمع (يَعْر) وهو الجدي (يِعَرَة) وفي جمع (يابس): (يِباس). وإنَّما تنكَّبوا ذلكَ عنديَ استثقالاً للكسرة في الياء، وليست كالواو التي إذا انضمَّت هُمِزَتْ هربًا من الضَّمَّة فيها. فلمَّا لم يكن فيها القلب لم يستجيزوا كسرها أولاً »[1].

ولأجل هذه العلَّة تركت بعض القبائل التي تكسر حروف المضارعة الكسر في الياء. قال سيبويه: «وجميع هذا إذا قلت فيه (يفعل) فأدخلت الياء فتحت؛ وذلك أنَّهم كرهوا الكسرة في الياء حيث لم يخافوا انتقاض معنًى فيحتمل ذلك...»[2].

وقال ابن جنِّي: «وتَقِلُّ الكسرة في الياء نحو يِعلم، ويِركب استثقالاً للكسرة في الياء ... »[3].

وتعبير ابن جنِّي بالقلَّة احتراز ممَّا وقع في لغة بعض القبائل من الكسر حتَّى في الياء، كبعض كلب إذ تكسر فيها وفي غيرها .ذكر ذلك أبوحيَّان فقال: (وغيرهم من العرب [أي: الحجازيين] قيس وتميم وربيعة ومن جاورهم تكسر إلاَّ في الياء فتفتح، إلاَّ بعض كلب فتكسر فيها وفي غيرها من الثَّلاثة)[4]. على أنَّه وجد غير كلب يكسر في الجميع في بعض الأفعال خاصَّة، كما تفعل تميم في مثل (وجل) إذ تكسر مطلقًا . وسيأتي بيان ذلك - إن شاء الله .

---

(١) المنصف: ١ / ١١٧.

(٢) الكتاب ٤ / ١١٠.

(٣) المحتسب ١ / ٣٣٠.

(٤) ارتشاف الضرب ١ / ٨٨.

ويرى بعض الباحثين المعاصرين أنَّه (لا يستبعد أن تلحق الكسرة الياء كما لحقت غيرها من حروف المضارعة؛ لأنَّ الكسرة أنسب للياء من الفتحة أو الضَّمَّة فهما من مخرج واحد)[١] . وهذا ناتج عن تعليل سبب الكسر بأنَّه من قبيل ميل القبائل البدويَّة إلى الكسر، بسبب طبيعة التعجل عندهم[٢].

الأفعال التي تكسر فيها حروف المضارعة:

حدد علماء العربية القدماء نوع الأفعال التي تكسر فيها حروف المضارعة فجعلوه من الثلاثي ما جاء على (فعِل يفعَل) ومن غيره ما كان مبدوءاً بهمزة وصل أو تاء زائدة . وجعلوا علة ذلك الإشارة إلى كسر العين في (فَعِل)[٣] ثم (شبهوا ما كان في ماضيه ألف وصل بما كان الماضي منه على (فعِل) لاجتماعهما في كسرة ألف الوصل أولاً، وكسرة عين (فعِل) ثانياً، وكرهوا كسر الحرف الثاني من مستقبل (فعِل) لأن صفته السكون، وكرهوا كسر الثالث لئلا يلتبس (يفعَل) بـــ(يفعِل) فوجب كسر الأول . ثم شبهوا مستقبل ما ماضيه ألف الوصل بمستقبل (فعِل) فكسروا أوله)[٤] ثم حملوا عليه ما بدئ بتاءٍ زائدة (لأنه كان في الأصل مما ينبغي أن يكون أوله ألف موصولة، لأن معناه معنًى الانفعال، وهو بمنزلة انفتح وانطلق، ولكنهم لم يستعملوه استخفافاً)[٥] هذه تعليلات القدماء، وهي تعليلات مقبولة، استنتجوها من طبيعة اللغة والنظر في قوانينها وإن لم تقصدها العرب حين تكلمت بهذه الأفعال .

وحين تحدث علماء العربية المحدثون عن هذه القضية جعلها بعضهم من

---

(١) اللهجات في الكتاب لسيبويه ١٦١.

(٢) انظر المرجع السَّابق.

(٣) شرح الشافية ١/١٤١.

(٤) المخصص ١٤/٢١٨.

(٥) المصدر السابق.

قبيل ميل القبائل البدوية إلى الكسر بسبب طبيعة التعجل عندهم[١].

وذهب الدكتور غالب المطلبي إلى أن تعليل القدماء ليس صحيحاً بسبب وجود أمثلة من غير باب (فعِل يفعَل) من نحو (أبي، وركن، وخال[٢] وصنع). ومال إلى أن كسر حروف المضارعة في الأصل متعلق بصيغة (يفعَل) المفتوحة العين بغض النظر عن حركة العين في الماضي، وجعل ذلك (ظاهرة لغوية سامية قديمة، إذ إنه اطرد في لغتين ساميتين غربيتين هما العبرية والسريانية)[٣] .

ونلحظ هنا أن تعليل المحدثين أغفل المبدوء بهمزة الوصل والتاء الزائدة، مما يجعل الأمر يحتاج إلى نظر، على أن كل ما ذكروه لا يمكن الجزم به لافتقاره إلى الأدلة القاطعة التي تبرهن على صحته، وفساد ما ذهب إليه القدماء - في نظرهم - ومن ثم أرى تعليل القدماء يبقى الأصل، ولا يقبل الحكم بعدم صحته إلا إذا توصل الباحثون إلى تعليل تعضده الأدلة، وتُعَيِّنُ القول به البراهينُ، وقد أشار الدكتور المطلبي إلى عدم توافر هذا فقال: ((ولكننا لا نستطيع أن نذهب مذهباً يُطمأنُ إليه لاندثار هذه اللغات، وعدم وجود أدلة جازمة فيه))[٤] .

أما الأفعال التي تجري فيها هذه الظاهر فيمكن تناولها على النحو التالي:

١- ما كان الكسر فيه تنبيهًا على كسر عين الفعل الماضي منه، وذلك في (كل فعل ماضيه على (فَعِل) سالمًا كان، أو مضاعفًا، أو أجوف أو ناقصًا)[٥]، أو مهموزًا، أو مثالاً أو لفيفًا، وكان مبنيًّا للفاعل .

---

(١) اللهجات في الكتاب ١٦٣.

(٢) سيأتي الحديث عن هذه الأفعال وما رآه القدماء بشأنها.

(٣) في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية ١٩٠.

(٤) المرجع السابق.

(٥) اللهجات في الكتاب ص ١٥٦.

٢– ما كان مبدوءًا بهمزة وصل مكسورة .

٣– ما كان مبدوءًا بتاء معتادة ممّا يكون على وزن تفعّل أو تفاعل أو تفعلل وإليك بيان هذه الأحكام بالتّفصيل:

ما كان الكسر فيه تنبيهًا على كسر عين الفعل الماضي منه، ويكون ذلك في الفعل الصّحيح والمعتلّ على السّواء وفق التّفصيل التّالي:

أ) الصّحيح السّالم:

من المعلوم أنّ الصّحيح هو ما خلت حروفه الأصول من أحرف العلّة (الألف والياء والواو) . والسّالم ما سلم من الهمز والتّضعيف، وهذا النّوع من الأفعال ممّا يكسر فيه حـــرف المضارعة إذا كان ماضيه على (فَعِل) ومضارعه على (يفعَل).

وقد مرَّ بنا آنفًا تمثيل سيبويه بالفعل (عَلِم) الذي توافرت فيه شروط كسر حرف المضارعة منه . وجاء عند ابن جنّي قوله: «هذه لغة تميم أن تكسر أوّل مضارع ما ثاني ماضيه مكسور نحو: علمت تِعْلم، وأنا إعلم، وهي تِعْلم ونحن نِرْكَب »[١] .

وقد وردت شواهد في القراءات الشّاذّة والشّعر والنّثر على هذا. منها: ما نقله أبو حيّان أنّ أبا عمرو قرأ: ﴿ولا تِركَنوا إلى الذين ظلموا﴾[٢] بكسر التّاء على لغة تميم[٣]. والفعل (ركن) يأتي على (فعِل) و (فَعَل) فيقال: (رَكِن إلى الشّيء ورَكَن يَرْكَنُ ويَرْكُنُ)[٤]. فكسر التّاء هنا على أنّه من (رَكِنَ يَرْكَنُ).

(١) المحتسب ١ / ٣٣٠.

(٢) هود: ١١٣.

(٣) البحر المحيط ٥ / ٢٦٩.

(٤) لسان العرب (ركن) .

ومثل ذلك (عهد) إذ ورد في ذلك كسر حرف المضارعة في قراءة يحيى بن وثاب[1] في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ إِعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ . . . ﴾[2] .

قال الزَّمخشري: ((وقرئ إعهد بكسر الهمزة، وباب (فَعِل) كلّه يجوز في حروف مضارعته الكسر إلاّ في الياء، وأعهد بكسر الهاء ..))[3] .

ومن ذلك في النَّثر ماذكره أبو حاتم السّجستاني من أنَّه سمع حترش بن ثمال - وهو عربي فصيح - يقول في خطبته: ((الحمد لله إحمده وإستعينه وإتوكل عليه)) فيكسر الألفات كلّها[4]. وكذلك ما ذكره ابن خالويه من قولهم: (ربِّ اغفر وارحم، واعف عمَّا تِعلم إنَّك أنت الأعزُّ الأكرم)[5]، فاتَّضح مِمَّا سبق أنَّ كسر حرف المضارعة من الصَّحيح السَّالم وارد في لهجات العرب إذا كان الماضي على (فعِل) بكسر العين .

ومثلها قراءة من قرأ ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾[6] بكسر حرفي المضارعة[7] و﴿ تِقربا ﴾ بكسر التَّاءِ أيضًا[8]؛ لأنَّه من قَرِبْتُ أَقْرَبُ .

---

(١) يحيى بن وثّاب الأسدي الكوفي القارئ العابد، تابعيّ ثقة مقرئ الكوفة . توفي سنة ثلاث ومائة . معرفة القراء الكبار ١ / ٦٤، ٦٥.

(٢) يس: ٦.

(٣) الكشّاف ٣ / ٣٢٧.

(٤) انظر اللهجات العربية في التراث ١ / ٣٨٩.

(٥) ليس في كلام العرب ص ١٠٢ – ١٠٣ وبغية الآمال ص١٥٢.

(٦) المائدة: ١١٤.

(٧) نسبها ابن خالويه في المختصر ص ٤٢ إلى الأعمش.

(٨) من قول الله تعالى: ﴿ ولاتقربا هذه الشَّجرة ﴾ . سورة البقرة: ٣٥ . وقراءة الكسر لابن وثاب . انظر مختصر ابن خالويه ص ١٢، وإعراب القراءات الشّواذ ١ /١٤٩.

ب) المضاعف [مضاعف الثلاثي]:

المضاعف يقصد به ما كانت عينه ولامه من جنس، مثل شدَّ ومدَّ؛ إذ أصلهما شَدَد ومَدَدَ، جرى فيهما وفي أمثالهما إدغام لكون الحرفين من مخرج واحد بلا فصل بينهما .

وهذا النَّوع من الأفعال هو ما عناه سيبويه في الكتاب بقوله: و(عَضِضْتُن فأنتن تِعْضضن وأنت تِعَضِّين)[١] .

فالفعل (عَضَّ) من باب (فَعِل يَفْعَل) تقول: قد عَضِضْتُه أَعَضُّهُ . جرى فيه كسر حرف المضارعة، ومن ذلك قراءة يحيى[٢] والأعمش[٣] وطلحة[٤] بخلاف. ورواه إسحاق الأزرق[٥] عن حمزة[٦]: ﴿ فتِمَسَّكم النَّار ﴾)[٧]. وذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظَلموا فتِمَسَّكم النَّار ﴾[٨] .

والفعل (مَسَّ) على فَعِل ومضارعه على يفعل . تقول: (مَسِسْتُه بالكسر أَمَسُّه مَسًّا ومَسِيسًا: لَمَسْتُه، هـذه اللّغة الفصيحة . ومَسَسْتُه بالفتح أَمُسُّه

(١) الكتاب ٤ / ١١٠.

(٢) ابن وثاب وتقدمت ترجمته.

(٣) الأعمش سليمان بن مهران أبومحمّدالكوفي، مولى بني أسد ت ١٤٨هـ. انظر معرفة القراء الكبار للذّهبي ٩٦/١.

(٤) طلـحة بن مصرف أبو محمّد الهمذاني الكوفي، تابعيّ كبير، له اختيار في القراءة ينسب إليه، توفي سنة ١١٢هـ، انظر سير أعلام النّبلاء ٥ / ١٩١ - ١٩٣.

(٥) ابن يوسف الواسطي،كان فيمن أخذوا القراءةعن حمزة.توفي ١٩٥هـ. انظرطبقات القراءلابن الجزري١٥٨/١ .

(٦) ابن حبيب الزّيات، أحد القرّاء السّبعة توفّي ١٥٦هـ. انظر بمعرفة القراء الكبار ١/ ١١٨.

(٧) المحتسب ١ / ٣٣٠.

(٨) هود: ١١٣.

بالضَّم لغة)[١]. فكسر حرف المضارعة في القراءة المذكورة على اللغة الفصيحة، وبهذا يتّفق مع داعي الكسر المذكور في كلام أهل اللّغة .

ومثلها قراءة ﴿ تِمسّنا النَّار ﴾[٢] بكسر التّاء[٣].

(ضَلّ) اللغة الفصيحة في هذا الفعل (فَعَل يفعِل) وعلى هذا ليس جاريًا على قاعدة كسر حرف المضارعة، وفي قول الله تعالى: ﴿ قل إن ضللت فإنَّما أُضِلُّ على نفسي . . . ﴾[٤] قُرئ: ﴿ إضَلُّ ﴾ (بكسر الهمزة وفتح الضَّاد[٥]، وهذا على أنَّ الفعل من قولهم: (ضَلِلت أَضَلُّ) وذلك على لغة أهل الحجاز[٦].

ومثل ذلك ما جاء في اللّسان: (وكان ينشد [أي: ابن دريد] هذا البيت:

كان لنا وهو فُلُوٌّ نِربَبُه

كَسَرَ حرف المضارعة ليعلم أنّ ثاني الفعل الماضي مكسور[٧].

وذكر الجندي أنه قرئ ﴿ ونِقر في الأرحام ﴾ . بكسر النون[٨] ولم يعزه

---

(١) اللسان (مسس) .

(٢) سورة البقرة: ٨٠.

(٣) إعراب القراءات الشَّواذ ١ / ١٨١.

(٤) سبأ: ٥٠.

(٥) نسب ابن خالويه هذه القراءة لعبدالرّحمن المقرئ، وكذا أبوحيَّان في البحر .انظر مختصر ابن خالويه ١٢٣، والبحر المحيط ٧ / ٢٩٢ . وذكرها الزّمخشري في الكشَّاف ٣ / ٢٩٥ بدون نسبة.

(٦) انظر اللّسان (ضلل) .

(٧) اللّسان: ربب.

(٨) اللهجات العربية في التراث: ٣٩٣/١. والآية من سورة الحج (٥) .

إلى مصدر معين، ولم أقف عليه فيما رجعت إليه من مصادر، فإن صح ما ذكر فذلك غير ممتنع - لغةً - ويدخل في باب المضاعف.

جـ) الصَّحيح المهموز:

(أَمِنَ) فعل صحيح مهموز، ورد كسر حرف المضارعة منه في قراءة ابن وثاب[1] وأبي رزين[2] في قول الله تعالى: ﴿ مالك لاتأمنّا ﴾[3] إذ قرآ ﴿ مالك لاتيمنا ﴾ بكسر التّاء مع الإدغام. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿ تيمنه ﴾. وكذلك في مصحف أبيّ بن كعب: ﴿ تِئمنه ﴾[4] .

(ألم) أَلِمَ يأْلَمُ على فَعِل يفعَل . ولذا جاء كسر حرف المضارعة فيه في قراءة يحيى بن وثاب: ﴿ فإنهم يِيلمون كما تِيلمون ﴾ وذلك من قول الله تعالى: ﴿ ولاتهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالايرجون . . . ﴾[5] بكسر حرفي المضارعة (الياء والتّاء) .

وقد استوقفت هذه القراءة ابن جنّي من حيث إنَّ أحد الحرفين الياء . يقول ابن جنّي في هذه القراءة: «العرف في نحو هذا أن من قال: أنت تِئمن وتِئلف وإيلف، فكسر حرف المضارعة في نحو هذا إذا صار إلى الياء فتحها ألبتة،

---

(١) تقدّمت ترجمته.

(٢) مسعود بن مالك، ويقال ابن عبدالله أبوزيد الكوفي، لم يحفظ ابن الجزري سنة وفاته . غاية النّهاية في طبقات القرّاء لابن الجزري ٢ / ٢٩٦.

(٣) سورة يوسف: ١١ .

(٤) اللهجات العربية في التراث ١ / ٣٨٩.

(٥) النّساء: ١٠٤. وقرأ ذلك بالكسر ابن وثاب وابن المعتمر. انظر المحتسب ١ / ١٩٨، وشرح التسهيل ٣ / ٤٤٨، والبحر ٣ / ٣٤٣.

فقال: يألف، ولايقول: هو ييلف، استثقالاً للكسرة في الياء »[1]. أمَّا كسر التَّاء فهو جارٍ على نظائره، وذكر النَّحاس أنَّها قراءة عبدالرَّحمن الأعرج، وقال: «ولايجوز عند البصريين في (تألمون) كسر التاء لثقل الكسر فيها »[2]. ومراده أنَّ الثقل نشأ من تتابع الكسرة والياء، لا أن الكسرة مستثقلة على التاء .

(أذن) الفعل (أذن) صحيح مهموز وهو من باب (فعِل يفعَل) وقد ورد كسر حرف المضارعة منه في قراءةٍ شاذَّة في قول الله تعالى: ﴿ قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ﴾[3] إذ قرئت (إيذن) بكسر الهمزة وياءٍ بعدها «ووجهه أنَّه كسر حرف المضارعة فصارت الألف ياءً »[4] .

ومن ذلك ماجاء في قول منصور بن مرثد[5] الأسدي:

قلتُ لبوابٍ لديه دارُها   تِئذن فإني حَمْؤُها وجارُها

بكسر التَاء . وإن كان جُعِل كسر حرف المضارعة هنا بسبب حذف لام الأمر، إذ الأصل: (لتئذن)، إلاَّ أنِّي أرى أنَّه من باب كسر حرف المضارعة لأنَّ الفعل (أذِن يأذن) على (فعِل يفعَل) فقد توافرت فيه شرائط كسر حرف المضارعة . ومِمَّا يقوّي القول بأنَّه من قبيل كسر حرف المضارعة قول ابن مالك: (وليس الحذف بضرورة لتمكنه من أن يقول: ايذن)[6].

كما أنَّ كون الشَّاعر من بني أسد التي تُسْلَكُ في القبائل التي تكسر حرف المضارعة يؤيد ذلك والله أعلم .

---

(١) المحتسب ١ / ١٩٨.

(٢) إعراب القرن ١ / ٤٨٦.

(٣) الأعراف: ١٢٣.

(٤) إعراب القراءات الشواذ ١ / ٥٥٤.

(٥) إصلاح المنطق ص ٣٤٠، والمغني ص ٢٩٨.

(٦) انظر شرح الكافية الشَّافية ٣ / ١٥٧٠، والمغنى ٢٩٨.

(أثـــم)من الصّحيح المهموز وهو من باب (فعِل يفعَل)، تقول: (أَثِمَ يأثَم).
ومن ثم جاء كسر حرف المضارعة فيه وذلك في قول الراجز:

لو قُلتَ مافي قومها لم تِيثم يفضلها في حسب وميسم[1]

فنجد أنّه كسر حرف المضارعة في الفعل (تأثم) وأبدل الهمزة ياءً لمناسبة الكسر لها، وبهذا يتبيّن أنَّ أقسام الصَّحيح في كسر حرف المضارعة سواء إذا توافرت أسباب ذلك .

أمَّا المعتلّ فهو أقسام أربعة: مثال، وأجوف، وناقص، ولفيف. فالمثال ما اعْتَلَّتْ فاؤه، والأجوف ما اعتلت عينه، والنَّاقص ما اعتلت لامه، واللفيف ما كان فيه حرفا علة سواء كانا متتابعين أو فرق بينهما حرف صحيح.

د) المثال:

الفعل (وجل) فعل مثال لأنَّ فاءه حرف عِلّة، وقد ورد كسر حرف المضارعة منه في كلام العرب. يقول سيبويه: «وأمَّا وَجِل يوجَل ونحوه فإنَّ أهل الحجاز يقولون: يوجَل فيجرونه مُجْرَى علمت . وغيرهم من العرب سوى أهل الحجاز يقولون في تَوْجل: هي تِيجلُ، وأنا إيجل، ونحن نِيجل . وإذا قلت: يفعَل فبعض العرب يقولون يَيْجل كراهية الواو مع الياء، شبهوا ذلك بأيام ونحوها .

وقال بعضهم: ياجَل، فأبدلوا مكانها ألفًا كراهية الواو مع الياء كما يبدلونها من الهمزة السَّاكنة .

وقال بعضهم: يِيجل، كأنَّه لَمَّا كره الياء مع الواو كسر الياء ليقلب الواو ياءً؛ لأنَّه قد علم أنَّ الواو السَّاكنة إذا كانت قبلها كسرة صارت ياءً، ولم تكن عنده الواو التي تقلب مع الياء حيث كانت الياء التي قبلها متحرّكة، فأرادوا أن

---

(١) الكتاب ٣٤٥/٢، والخصائص ٣٧٠/٢ بدون نسبة، ونسبه ابن يعيش إلى أبي الأسود الحماني، انظر شرح المفصل ٦١/٣، ونسبه البغدادي إلى حكيم بن مُعَيَّة انظر الخزانة ٣١١/٢ .

يقلبوها إلى هذا الحد، وكره أن يقلبها على ذلك الوجه الآخر »[١].

فتجد أنَّ سيبويه نصَّ على أنَّ من العرب من يكسر حروف المضارعة الثَّلاثة - الهمزة والتاء والنون - أمَّا مع الياء فورد عن بعضهم، ولكنَّه التمس له تعليلاً غير ماكان لغيرها .

وصرَّح الأخفش بأنَّ كسر الياء في باب (وجل) لأنَّ (الواو) قد تحوَّلت إلى (الياء) مع (التاء) و (النُّون) و (الألف)، فلو فتحوها استنكروا (الواو)، ولو فتحوا (الياء) لجاءت (الواو)،فكسروا (الياء) فقالوا: يِيجل ليكون الذي بعدها (ياء)، وكانت الياء أخفَّ مع الياء من الواو مع الياء؛ لأنَّه يُفَرُّ إلى الياء من الواو، ولا يُفرُّ إلى الواو من الياء[٢].

وكسر حروف المضارعة الثَّلاثة في (وجل) جعله ابن مالك مطلقًا إذ قال: «...ويكسره غير الحجازيين مالم يكن ياءً إن كسر ثاني الماضي أو زيد أوله ياء معتادة أو همزة وصل؛ ويكسرونه مطلقًا في مضارع أبى ووجل ونحوه »[٣] .

وقال أبوحيان: «فإن كان مثل (وجل) مما هو مكسور العين وفاؤه واو فمضارعه على (يَفعَلُ) بفتحِ العين، وهي لغةُ قريشٍ وكنانة. فأهل الكسر مختلفون، فمنهم من يكسر مطلقًا، وهي لغة تميم، فتنقلب تلك الواو ياءً، ومنهم من يكسر إلاَّ في الياء فيفتح وهي لغة بني عامر ...»[٤] .

وبهذا يتضح لنا حكم كسر حروف المضارعة في الفعل المثال.

---

(١) الكتاب ٤ / ١١١ – ١١٢.

(٢) معاني القرآن ٢ / ٤١٢.

(٣) التسهيل ١٩٧.

(٤) ارتشاف الضرب ١/ ٨٨، ٨٩.

هـ) الأجوف:

جاء في قول عمر بن أبي ربيعة[١]:

مالقلبي كأنَّه ليس مني وعظامي إخال فيهن فترا

كَسَرَ حرفَ المضارعة من (إخال) وهو فعل أجوف .

ومثله قول العباس بن مرداس السّلمي:

قد كان قومك يحسبونك سَيِّدًا وإخال أنَّك سيد معيون[٢]

وكذلك قول بعض بني جَرْم من طَيِّئ:

إخالك مُوعِدي ببني حُفيفٍ وهالةَ إنَّني أنهاك هالا[٣]

و (إخال) جاء فيها كسر الهمزة كما روي هنا، وجاء فيها الفتح . قال ابن منظور: ((وفي الحديث ماإخالك سرقت، أي: ما أظنّك. وتقول في مستقبله: إخال، بكسر الألف وهو الأفصح، وبنو أسد يقولون: أخال بالفتح وهو القياس، والكسر أكثر استعمالاً))[٤]. ويقول المرزوقيُّ: ((ويقال: خِلت أخالُ. وإخالُ طائيَّةٌ، فكثر استعمالها في ألسنة غيرها، حتى صار (أخال) كالمرفوض))[٥].

وبهذا يتبيَّن أنَّ همزة (إخال) تكسرها جَرْم [بطن من طَيِّئ] ونسب التبريزيُّ الكسر إلى طيئ[٦]، ونسبه المرزوقيُّ إلى هذيل إذ قال: ((وإخال كسر الهمز منه لغة هذيل، ثمَّ فشت في غيرها))[٧] .

---

(١) ديوان الحماسة: ٢ / ٤٢٩، وشرحها للمرزوقي ٤ / ١٨٤٥.

(٢) أمالي ابن الشّجري ١ / ١١١، والمقتضب ١ / ١٠٢، وليس في كلام العرب (١١٥) .

(٣) ديوان الحماسة ١ / ١٤١، والرواية بفتح الهمزة، وجعلها المرزوقي في الشرح بالكسر.

(٤) اللسان (خيل) .

(٥) شرح الحماسة ١ / ٢٤٨.

(٦) شرح الحماسة ١ / ٢٤٢.

(٧) شرح الحماسة ٤ / ١٨٤٥.

أما الفتح في هذا الفعل فنسب إلى بني أسد، نسبه إليهم ابنُ منظور والفيوميُّ وخالدُ الأزهريُّ، وذكر أنَّه مَحْكِيُّ عن أسدٍ خاصَّةً، وكذا البغدادي[1] ولغة أسدٍ هي القياس . وبهذا تكون بنو أسد قد خالفت المشهور عنها في هذا الفعل خاصَّة دون غيره، وهذا مراد ابن هشام بالعكس في قوله: ((وكسر همزة (إخال) فصيح استعمالاً شاذٌّ قياسًا، وفتحُها لغةُ أسدٍ وهو بالعكس))[2] أي بعكس ما اشتهر عنها في كسر حروف المضارعة من غيرِ هذا الفعل .

وقد شكَّ الدُّكتور أحمد الجندي في هذا، ولم يرتض الفتحَ من بني أسد في (إخال) لأنَّ بني أسد من القبائل التي اشتهر عنها كسر حروف المضارعة،ونسب إلى ابن فارس خلطًا في هذه المسألة إذ ذكر أنَّه نسب إلى أسد فتح النُّون من ﴿ نستَعِين ﴾ وفي موضع آخر نسب إليهم الكسر في مثل (تعلمون)[3] ومن ثمَّ رجَّح أن أسد مصحفة من الأزد . وتابعته في ذلك صالحة آل غنيم[4].

وعند تأمّل ما نقله الدُّكتور الجندي يتَّضح أنَّ ابن فارس لم يخلط، ولم يخلط غيره من الرُّواة، وإنَّما نقل عن الفرَّاء أنَّ النون من ﴿ نستَعِين ﴾ (مفتوحة في لغة قريشٍ، وأسدٌ وغيرهم يقولونها بكسر النُّون). فجعل الجندي (أسدًا) معطوفة على (قريش) والحق غير ذلك . وبهذا يعلم أنَّ بني أسد خالفت المشهور عنها في هذا الفعل خاصَّة ففتحت، والتَّصحيف الذي ذكره الدّكتور الجندي مستبعد؛ لأنَّ الرّواة قالوا (بنو أسد) ثمّ إنَّ الأزد لغاقم مختلفة باختلاف قبائلهم، إذ بعضها لايحتج بلغاقم كالغساسنة وأزد شنوءة .

---

(١) اللسان والمصباح المنير (خيل) وشرح التَّصريح على التَّوضيح ٢٥٨/١. والخزانة ١١/٤.

(٢) شرح قصيدة (بانت سعاد) ص ١٧٠.

(٣) اللهجات العربية في التراث ١ / ٣٩١، ٣٩٢.

(٤) اللهجات في الكتاب ١٥٩.

و) النَّاقص:

(قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وطلحة بن مصرف: ﴿ فكيف إيسى على قوم كافرين ﴾[١] . وهذه لغة تميم يقولون: أنا إضرب[٢]).

وَ (إيسى) من (أسيت عليه أسًى . حزنت، وأسِيَ على مصيبته بالكسر يأسَى أسًى مقصورٌ: إذا حزن)[٣] فكسر حرف المضارعة منه جارٍ على مايجري في غيره مما هو على (فعِل يفعَل) . ومثل ذلك قراءة الأعمش: ﴿ولاتعثوا ﴾ من قول الله تعالى: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾[٤]. إذ قرأ بكسر التاء، قال العكبري: (ويقرأ كذلك إلاَّ أنَّه بكسر التاء، وهي لغة كنانة يكسرون حرف المضارعة)[٥]، والفعل (عثى) من باب (فَعِل يفعَل) كـ (رضي يرضى) . وذلك جاء موافقًا للقاعدة .

ز) اللفيف:

يطلق الصرفيون هذا المصطلح على الفعل الذي يكون من أصوله حرفا علة، فإن فرق بينهما حرف صحيح سمي مفروقًا، وإن كانا عين الفعل ولامه سمي مقرونًا . والفعل (وني) من هذا النّوع وهو من باب (فعِل) و(فعَل) . قال ابن القطَّاع: (ووَني ونًى ووناءً ووُنيّاً و ونَى وَنْيًا: فتر وضعف)[٦] وفي قول الله تعالى: ﴿ ولاتنيا في ذكري ﴾[٧] قرأ يحيى بن وثاب: ﴿تِنيا ﴾ بكسر التاء[٨].

(١) الأعراف ٩٧١.

(٢) إعراب القرآن ٢ / ١٣٩.

(٣) اللسان (أسا) .

(٤) سورة البقرة: ٦٠.

(٥) إعراب القراءات الشواذ ١ / ١٦٥.

(٦) الأفعال ٣ / ٣٣٤.

(٧) طه: ٤٢.

(٨) انظر مختصر ابن خالويه ٩٠ والبحر المحيط ٦ / ٢٤٥.

وبهذا يتبين مايتعلق بالفعل الثلاثي من أحكام من حيث كسر حرف المضارعة منه .

٢) المبدوء بهمزة وصل:

ذكرت سابقًا أن من جملة مايكسر حرف المضارعة منه ماكان مبدوءًا بهمزة وصل، وهذا مأخوذ من نص سيبويه؛ إذ قال في كتابه: ((واعلم أنَّ كلَّ شيءٍ كانت ألفه موصولة مـمَّا جاوز ثلاثة أحرف في (فَعَل) فإنَّك تكسر أوائلَ الأفعال المضارعة للأسماء، وذلك لأنَّهم أرادوا أن يكسروا أوائلها كما كسروا أوائل (فعَل) فلما أرادوا الأفعال المضارعة على هذا المعنى كسروا أوائلها كأنَّهم شبهوا هذا بذلك، وإنَّما منعهم أن يكسروا الثواني في باب (فعل) أنَّها لم تكن تـحرك، فوضعوا ذلك في الأوائـل، ولم يكونوا ليكسروا الثالث فيلتبس (يفعِل بيفعَل)، وذلك قولك: استغفر فأنت تِستغفر، واحرنجم فأنت تِحرنجم، واغدودن فأنت تِغدودن، واقعنسس فأنا إقعنسس))[1] .

وقال ابن جنِّي - بعد ذكر كسر ما ثاني الماضي منه مكسور - :((وكذلك ما في أول ماضيه همزة وصل مكسورة، نحو: تِنْطَلِق، و(يوم تِسْوَدُّ وجوهٌ وتِبْيَضُّ وجوهٌ ...))[2] . وحكى الكسائي: (أنت تستطيع)[3].

وقد وردت نصوص على هذا منها:

– قراءة يحيى بن وثاب وأبي رزين في قول الله تعالى: ﴿يوم تِبْيَضُّ وجوهُ وتِسْوَدُّ وجوهُ﴾[4] إذ قرآ بكسر التاء فيهما[5].

(١) الكتاب ٤ / ١١٢.

(٢) المحتسب ١ / ٣٣٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢ / ٤٧٤.

(٤) آل عمران: ١٠٦.

(٥) تفسير القرطبي ٤ / ١٦٧، والبحر المحيط ٣ / ٢٢، وإعراب القراءات الشواذ ١ /٣٣٩.

– قراءة ابن وثاب أيضًا ﴿ اِضْطَرُّهُ ﴾ بكسر حرف المضارعة سواء كانت همزة أو نونًا، وذلك من قولَ الله تعالى: ﴿ قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثمّ أضطره إلى عذاب النار . . . ﴾[1] .

إذ ذكرت المصادر أنّها قرئت بكسر حرف المضارعة[2].

– قال الفارسي[3]: ((فأما ما حكي من قولهم: ماإسطيع عليه، بكسر الألف، وأن المعنى: لاأستطيعه، فإنَّ همزة المضارعة إنّما كسرت لأنَّ همزة الوصل تلحق الماضي، وماالحقته الهمزة الموصولة، أو كان في حكم ماتلحقه، فإنّهم يكسرون أوله كما كسروا (نعلم) ونحوه)) .

– ذكر أبوحاتم السجستاني أنّه سمع حترش بن ثمال - وهو عربي فصيح - يقول في خطبته: (الحمد لله إحمده وإستعينه وإتوكل عليه) فيكسر الألفات كلّها[4].

وعلى هذا قراءة من قرأ: ﴿ وإيّاك نستعين ﴾[5] بكسر النّون .

يقول الرضي: ((وكسروا أيضًا غير الياء من حروف المضارعة فيما أوله همزة وصل مكسورة نحو: أنت تِحرَنْجِم، تنبيهًا على كون الماضي مكسور الأول، وهو همزة))[6] .

وبهذا يتضح أنَّ من جملة الأفعال التي يكسر فيها حرف المضارعة ماكان مبدوءًا بهمزة وصل مما جاوز ثلاثة أحرف كما في النّصوص المتقدّمة، تنبيهًا بذلك على كسرة همزة الوصل في الماضي .

---

(١) سورة البقرة: ١٢٦.

(٢) معاني القرآن ١/ ٨٧، وإعراب القرآن ١/٢٦٠، وإعراب القراءات الشواذ ١/٢٠٥.

(٣) كتاب الشعر ١ / ١٩٤.

(٤) سبق ص ١٦.

(٥) شرح الشافية ١ / ١٤٣.

(٦) المصدر السّابق.

٣) المبدوء بتاءٍ زائدة معتادة:

يقصد بالتاء المعتادة الاحتراز من التاء المزيدة في أول الماضي شذوذًا - كترْمَسَ الشيء من رمسه بمعنى ستره .

وهذا النَّوع من الأفعال ممّا ورد فيه كسر المضارع . قال سيبويه - بعد بيان كسر حرف المضارعة فيما أوله همزة وصل: ((وكذلك كل شيء من تفعّلت أو تفاعلت أو تَفَعْلَلْت يجري هذا المجرى، لأنَّه كان عندهم في الأصل ممّا ينبغي أن تكون أوّلَهُ ألفٌ موصولة؛ لأنَّ معناه معنى الانفعال، وهو بمنزلة انفتح وانطلق، ولكنّهم لم يستعملوه استخفافًا في هذا القبيل ...))[1] .

وقال الرَّضيُّ: ((ثُمَّ شبَّهوا مافي أوّله تاء زائدة من ذوات الزّوائد، نحو تَكَلَّمَ وَتَغافَلَ وتَدَحْرَجَ بباب انفعل، لكون ذي التاء مطاوعًا في الأغلب كما أنَّ انفعل كذلك، فتفعَّلَ وتَفاعَلَ وتَفَعْلَلَ مطاوع فعَّلَ وفَاعَلَ وفَعْلَلَ، فكسروا غير الياء من حروف مضارعاتها، فكلٌّ مأوّل ماضيه همزة وصل مكسورة أو تاء زائدة يجوز فيه ذلك))[2].

ومن هنا يتضح أنَّ ما كان مبدوءًا بتاء زائدة معتادة صحَّ فيه كسر حرف المضارعة، مع أنَّ التاء غير مكسورة تشبيهًا لتلك الأفعال بما في أوّله همزة وصل من حيث إنَّها في الأغلب تكون مطاوعة .

٤) ما جاء على وجه شاذ:

وردت بعض النّصوص مشيرة إلى كسر حرف المضارعة في أفعال لا تندرج تحت القواعد المتقدمة . من ذلك:

جـــاء في (أبى تِئْبَى) قال سيبويه: ((وقالوا: أبى فأنت تِئْبَى، وهو يِئْبَى،

---

(١) الكتاب ٤ / ١١٢.

(٢) شرح الشَّافية ١ / ١٤٣.

وذلك أنّه من الحروف التي يستعمل (يفعل) فيها مفتوحًا وأخواتها، وليس القياس أن تفتح، وإنّما هو حرف شاذ، فلمَّا جاء مجيء ما (فَعَلَ) منه مكسور فعلوا به مافعلوا بذلك، وكسروا في الياء فقالوا: يِئْبَى، وخالفوا به في هذا الباب (فعِل) كما خالفوا به بابه حين فتحوا ...»[1] .

فالفعل (أبى) من باب (فَعَلَ يفعَل) مفتوح العين في المــاضي والمضارع، وكل ماكانت عينه مفتوحة في الماضي والمضارع، فهو حلقي العين أو اللام . وماجاء منه بدون حرف حلقي فشاذ، ومنه (أبى يأبى) والأصل كسر العين في الماضي، ولكنَّهم قلبوه فتحة تخفيفًا . وهذا معنى كلام سيبويه المتقدّم .

ويقول ابن جنِّي: « فأمَّا قولهم: أبيت تِئْبى فإنَّما كسر أوّل مضارعه وعين ماضيه مفتوحة من قبل أنَّ المضارع لما أتى على (يفعَل) بفتح العين صار كأنَّ ماضيه مكسور العين حتَّى كأنَّه (أَبِيَ) ...»[2] .

وفسر ذلك أبوحيان بأنَّه (يمكن أن يكون من باب الاستغناء بمضارعه عن مضارع المفتوح العين في الماضي)[3] .

ومن هذا نلحظ أمرين:

أوّلهما: كسر حرف المضارعة فيه مع أنَّه ليس من باب (فعِل يفعَل) وذلك لمجيء مضارعه مجيءَ ما ماضيه مكسور .

والآخر: أنَّه بتقدير ان يكون من باب (فعِل) فحقُّه ألاَّ تكسر الياء فيه، إلاَّ أنَّهم لما خالفوا به في كونه مفتوحًا وكان حقُّه أن يكسر لأجل فتح مضارعه خالفوا به في كسر يائه أيضًا؛ تشبيهًا له بـــ (وَجِل ييجل) .

---

(١) الكتاب ٤ / ١١٠، ١١١.

(٢) المحتسب ١ / ٣٣٠ وانظر المخصص ٢١٦/١٤.

(٣) ارتشاف الضرب ١ / ٨٩.

ولم يذكر العلماء الأقدمون غير هذا الفعل إلى أن جاء اللبلي فذكر فعلاً آخر معه، هو (احب) يقول مشيراً إلى الفعل أبي: «هذا الحرف استثناه النحويون من الباب فقط، ولم أر أحداً استثنى شيئاً سواه، مع طول بحثي عن ذلك، ووجدت أنا آخر، وهو: حَبَبت الرجل إِحُبُهُ - بكسر الهمزة - حكاه الإمام أبو عبد الله محمد بن أبان بن سَيِّد القرطبيُّ في كتابه المسمى بالسماء والعالم»[1] .

ومن الأشياء الشَّاذَّة أفعال ورد فيها كسر حرف المضارعة وليست منطبقة عليها قواعد الكسر مثل: تِذْهب، تلحن، وإضرب .

فالمشهور أنَّ مثل هذه الأفعال لايكسر فيها حرف المضارعة مطلقًا، نصَّ على ذلك سيبويه فقال: «ولايكسر في هذا الباب شيءٌ كان ثانيه مفتوحًا، نحو ضرب، وذهب وأشباههما »[2] .

إلاَّ أنَّ الكسائي حكى أنَّه سمع بعض بني دُبَيْرٍ يقول: أنت تِلحن وتِذهب[3].

وهذا شيءٌ مخالف لما نقله العلماء من قواعد، فلا يتعدى به محلَّه .

وحكى اللحياني عن الكسائي أن ذلك في التاء والنون والألف من كل فعلٍ كان على يفعَل بفتح الماضي والمستقبل معاً وأنشد:

ذروني إذهبْ في البلاد وريقتي تسوغ وحلقي لين ولساني

لكسر الهمزة في إذهب[4].

ويأتي من هذا الشذوذ (نفرغ) في قراءة عيسى الثقفي[5] ﴿سنفرغ

(١) بغية الآمال ص١٥١.

(٢) الكتاب ٤ / ١١٠.

(٣) انظر ارتشاف الضرب ١ / ٨٨، ٨٩ وبغية الأمال ص١٥٢ .

(٤) انظر بغية الأمال ص١٥٢.

(٥) أحد أئمة القراءة والعربية – توفي سنة ١٤٩هـ. إنباه الرواة ٢/٣٧٤.

لكم ﴾[١] بكسر النون وفتح الراء. فالفعل (فرغ يفرغ ويفرغ) ومع ذلك كسرت النون.

ومثله ﴿وإنصح لكم ﴾ بكسر الهمزة، وذلك ورد في قراءة يحيى بن وثاب وطلحة، لقول الله تعالى ﴿ أبلغكم رسالات ربي وإنصح لكم ﴾[٢].

والفعل (نصح ينصح) بالفتح في الماضي والمضارع ومع ذلك كسر حرف المضارعة منه.

وشذ أيضا ما ورد في أفعال من باب (فعل يفعل) إذ ورد على ذلك قراءة زيد بن علي ويحيى بن وثاب وعبيد بن عمير الليثي: ﴿ نِعبد ﴾ بكسر النّون[٣] وهذا من أشدّ أنواع الشّذوذ في هذا الباب إذ الماضي منه مفتوح العين والمضارع مضموم .

وأشذّ من ذلك كلّه قراءة من قرأ ﴿ نِعيده ﴾ بكسر النّون[٤]. لأنَّ الفعل من (أعاد) وهو رباعي حقُّه ضمّ حرف المضارعة .

ماجاء على (فَعِلَ) ولم يكسر منه حرف المضارعة:

عرض سيبويه لـــ(يسع ويطأ) فقال: «وأمَّا يسع ويطأ فإنَّما فتحوا؛ لأنَّه (فَعِلَ يَفْعِل)، مثل: (حَسِبَ يَحْسِبُ)، ففتحوا [للهمزة][٥] والعين كما فتحوا للهمزة والعين حين قالوا: يقرأ ويفزع، فلمَّا جاء على مثال ما (فَعَل) منه مفتوح

(١) سورة الرَّحمن: ٣١ . والقراءة ذكرها ابن الجزري في غاية النِّهاية ٢: ٣٨٠.

(٢) الأعراف: ٦٢ ونسب ابن خالويه في مختصره ص ٥٠ هذه القراءة إلى ......

(٣) البحر المحيط ١ / ٢٣، وانظر إعراب القراءات الشّواذ ١ / ٩٦ .

(٤) ارتشاف الضرب ٨٩/١ .والمراد قول الله تعالى ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾الأنبياء .

(٥) في الأصل الهمزة.

لم يكسروا كما كسروا يأبى حيث جاء على مثال ما (فَعَلَ) منه مكسور. ويدلك على أنَّ الأصل في (فَعلْت) أن يفتح منه على لغة أهل الحجاز سلامتها في الياء، وتركهم الضّمّ في (يفعُل) ولايضم لضمة (فعُل) فإنّما هو عارض))[1] .

فهذه إشارة منه إلى أنَّ الفتح في المضارع كان لأجل حرف الحلق، فلمَّا عومل المضارع معاملة ما ماضيه مفتوح لم يكسر حرف مضارعته .

حكم ضمّ حرف المضارعة في غير رباعي الماضي:

سبق البيان بأنَّ حكم حرف المضارعة إذا كان ماضيه على أربعة أحرف أن يضمّ، سواء كانت هذه الأربعة أصلية أم كان فيها مزيد . ولكن هل لنا أن نضم هذه الأحرف في الخماسي والسُّداسي ؟

- ذكر الأنباري (أنَّ بعض العرب يضمّ حروف المضارعة منهما فيقول: يُنطلق ويُستخرج بضمٍّ حرف المضارعة حملاً على الرباعي)[2] ، وجعل أبوحيان ذلك من باب الشذوذ إذ قال: ((وشذ ماروى اليماني من ضمٍّ الياء في قولك: يُستخرج وهو مبني للفاعل))[3] .

وعلل الأنباري اختيار الفتح في الأفعال الخماسية والسّداسيّة بأنَّه بسبب كثرة حروفهما (فلو بنوهما على الضَّم لأدى ذلك إلى أن يجمعوا بين كثرة الحروف وثقل الضم، وذلك لايجوز فأعطوهما أخف الحركات وهو الفتح)[4].

على أنَّه وجد من القبائل من يضمّ كما سبق بيانه .

---

(١) الكتاب ٤ / ١١١.

(٢) أسرار العربية ص ٤٠٥.

(٣) ارتشاف الضرب ١ / ٨٨.

(٤) أسرار العربية ص ٤٠٤ ـــ ٤٠٥.

تخطئة من يكسر حروف المضارعة أو يضم في غير رباعي الماضي:

يتحدث العلماء قديمًا وحديثًا عن العربية الفصحى، من حيث إنَّها تلك الصُّورة الشَّاملة التي كان العرب ينظمون بها الشّعر،ويلقون بها الخطب، ويصوغون بها سائر أنواع البيان .

وقد نزل القرآن الكريم بهذه اللغة في أروع صورها، وأرقى صيغها،وأبهى بيانها . ولم يكن اللسان العربي واحدًا، فقد كان لكلّ قبيلة لسان ولحن يختلف قليلاً أو كثيرًا عن غيره، ومن ثَمَّ تحدثت المعاجم العربية عن لغات القبائل، وتحدث علماء العربية عن الفروق بين تلك اللغات، ونسبوا شيئًا من تلك الظواهر لقبائل معينة، وتحدثوا عن نزول القرآن الكريم بلغة قريش،ومن ثَمّ جعلت هذه اللغـــة هي اللغة العالية، والمثل المحتذى لغير القرشيين. يقول ثعلب: «ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس،وعجرفية ضبة، وتلتلة بهراء ...»[١].

ومن ثَمَّ علمنا أنَّ القبائل العربية كانت تختلف في طريقة كلامها من حيث الأصوات وطبيعتها، وكيفية صدورها، ومن حيث المعنى، وأحيانًا من حيث التركيب .

وقد تحدث كثير من الدارسين المحدثين عن هذه اللهجات وخصوها بمؤلفات منهم الدّكتور: إبراهيم أنيس في كتابه (في اللهجات العربية) والدّكتور أحمد علم الدِّين الجندي في كتابه (اللهجات العربية في التراث) وغيرهما. وكسر حروف المضارعة أو ضمها في غير ماكان ماضيه على أربعة أحرف من تلك الظواهر التي عني بها علماء العربية .

فما الموقف من هذه الظاهرة ؟

(١) مجالس ثعلب ١ / ٨٠.

تحدث ابن جنِّي عن اختلاف اللغات وكلُّها حجة، وذكر أنَّ اللغتين إذا كانتا في القياس سواء فليس لك أن ترد إحداهما بصاحبتها؛ لأنَّها ليست أحقَّ بذلك من رسيلتها، (أمَّا أن تقل إحداهما جدًا، وتكثر الأخرى جدًا فإنَّك تأخذ بأوسعهما رواية،وأقواهما قياسًا)[١] .

(وعلى هذا فيجب أن يقل استعمالها، وأن يتخير ما هو أقوى وأشيع منها، إلاَّ أن إنسانًا لو استعملها لم يكن مخطئًا لكلام العرب، لكنه يكون مخطئًا لأجود اللغتين ...)[٢] .

وبهذا نعلم أن تلك القبائل التي تكلمت بهذه اللهجات لاتخطأ، ولامَن سلك سبيلها في تلك الأفعال بعينها، وإن كان المختار والأعلى التحدث بأجود اللغتين، وأجود اللغتين ما اتفق مع تلك القواعد التي بنيت على الغالب والمطَّرد من كلام العرب .

الكسر في اللهجات المعاصرة

لا شكَّ أنَّ كسر حرف المضارعة ظاهرة فاشية في اللغات الدَّارجة في العصر الحاضر، لايكاد يسلم منها قطر أو قبيل .

وربَّما لو تأمَّله المتأمِّل لوجد أنَّه يمكن ضبطه بضوابط معيَّنة،فتجد مثلاً أنَّه لايكسر ما كان مضارعه على (يفعُل) بضمِّ العين، على حين تجد أنَّ كسر ماكان مضارعه على (يفعَل) أو (يفعِل) كثير، مثل: (يِلْعَبُ، يِضرب، يِصلي، يِسافر ... وغير ذلك) .

وفي بعض الجهات تجد أنَّهم إذا كانوا يكسرون حروف المضارعة مما كان

(١) الخصائص ٢ / ١٠.

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٠.

مضارعه على وزن (يفعُل) بضمِّ العين، فإنهم يكسرون حرف المضارعة ويكسرون العين إتباعًا له، فيقولون: (يِكْتِب) على حين نجد بعضًا يلتزم ضمَّ عين الفعل في المضارع ويضمّ معه حرف المضارعة فيقول: (يُكتُب) .

والتجوز في كلّ ذلك ممّا تقبله أصول اللغة؛ لأنّه يركن إلى دليل من السَّماع قويّ - على نحو مامرَّ في ثنايا هذا البحث - ولكن القواعد تبقى ثابتة، وليس لنا أن نغيِّرها، أو أن ندعوَ إلى ماشذّ وخرجَ عنها، ولكن المتكلم بما ثبت عن بعض القبائل الفصيحة التي يحتج بلغاتها ممّا خالف المشهور الغالب لايخطّأ فيما تابع فيه ما أثر، والدعوة إلى التزام أجود اللغتين التي تتفق مع ما قوي في الرواية ووافق القياس .

نتائج البحث

١- كشف البحث عن جانب من طبيعة اللغة من حيث تنوُّع حركات هيئات مفرداها تبعًا لتنوُّع المستعمل لها .

٢- الكسر في حروف المضارعة لهجة عربية أصيلة، نطقت به قبائل العرب، وأثر عنها في نصوص نثرية وشعرية .

٣- كسر حروف المضارعة جاء وفقًا لقواعد منضبطة، ففي الثُّلاثي كُسِرت حروف المضارعة تنبيهًا على كسر العين من ماضيه، ومن ثمَّ لم يكسروا إلاَّ ماكان على (فعِل يفعَل)، وامتنع الكسر فيما كان مضارعه على (يفعِل) منعًا للثّقل النَّاشئ من تتابع الكسرات، ولايعتدّ بالفاصل السَّاكن؛ لأنَّه حاجز غير حصين .

وكسر فيما كان أوَّله همزة وصل أو تاء زائدة لاعتبارات ألحقته بالأصل .

٤- لايمكن تخطئة من يكسر حروف المضارعة، لأنَّ اللغتين إذا كثرت إحداهما، وقلَّت الأخرى أُخِذَ بأوسعهما رواية، وأقواهما قياسًا، دون ردِّ الأخرى أو تخطئتها.

٥- كسر حروف المضارعة ظاهرٌ فاشٍ في اللغات الدَّارجة، لا يكاد يسلم منها قطرٌ أو قبيل، والتجوُّز في ذلك مما تقبله أصول اللغة؛ لأنَّه يركن إلى دليلٍ من السَّماع قويّ .

٦- تبقى قواعد العربيَّة ثابتة لأنَّها بنيت على الأوسع رواية، والأقوى في القياس، فليس لنا أن نغيِّرها بما شذ وخرج عنها، وخالف الكثير الغالب .

وبالله التَّوفيق .

مصادر البحث

- ارتشاف الضرب من لسان العرب
- لأبي حيّان الأندلسي . تحقيق وتعليق: د.مصطفى النماس، ط أولى١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م . مطبعة النّسر الذّهبي - مصر .
– الإرشاد إلى علم الإعراب تصنيف الإمام شمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عبداللطيف القرشي الكيشي (٦١٥ - ٦٩٥هـ)، تحقيق ودراسة د.عبد الله الحسيني و د.محسن العميري. ط.أولى . ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، معهد البحوث العلميَّة، جامعة أمِّ القرى.
– أسرار العربيَّة للإمام أبي البركات الأنباري (٥١٣ - ٥٧٧) عني بتحقيقه محمَّد بهجة البيطار، مطبوعات المجمَّع العلمي العربي بدمشق ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٧ م .
– إصلاح المنطق لابن السكِّيت (١٨٦ - ٢٤٤ هـ) شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . ط . رابعة . دار المعارف .
– إعراب القراءات الشَّواذ لأبي البقاء العكبري (ت٦١٦هـ) دراسة وتحقيق محمَّد السيِّد أحمد عزوز، ط أولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٦ م، عالم الكتب - بيروت - لبنان .
– إعراب القرآن لأبي جعفر النَّحَّاس (ت ٣٣٨ هـ) تحقيق د. زهير غازي زاهد . ط ثانية ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م، مكتبة النَّهضة العربيَّة - عالم الكتب .
– الأفعال لابن القطاع (٥١٥ هـ) ط . أولى ١٤٠٣ هعالم الكتب - بيروت .
– أمالي ابن الشَّجري لأبي السعادات المعروف بابن الشَّجري ط . أولى، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ١٣٤٩ هـ . صورة .

- إنباه الرّواة على أنباه النّحاة لجمال الدِّين القفطي (ت٦٢٤ ﻫ) تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم . ط أولى ١٤٠٦ ﻫ/١٩٨٦ م، دار الفكر العربي - القاهرة، مؤسّسة الكتب الثّقافية - بيروت .
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام (ت٧٦١ﻫ) ط الخامسة ١٣٩٩ ﻫ/١٩٧٩ م، دار الجيل - بيروت - لبنان .
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ ﻫ) مطبعة السَّعادة ط أولى ١٣٢٨ ﻫ .
- بغية الآمال في معرفة النطق بجميع مستقبلات الأفعال لأبي جعفر أحمد بن يوسف اللبلي الفهري (٦١٣ - ٦٩١) تحقيق د.سليمان العايد، مطبوعات جامعة أم القرى جامعة ١٤١١ﻫ-١٩٩١م
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ ﻫ) شرحه ونشره السيِّد أحمد صقر . ط ثانية ١٣٩٣ ﻫ / ١٩٧٣م، دار التراث - القاهرة .
- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك (٦٠٠ - ٦٧٢ ﻫ) حقَّقه وقدَّم له: محمّد كامل بركات - دار الكتاب العربي١٣٨٧ﻫ/١٩٦٧م.
- (الجامع لأحكام القرآن) للقــرطبي (٦٧١ ﻫ) ط أولى ١٣٦٧ﻫ القاهرة .
- خزانة الأدب عبدالقادر البغدادي (١٠٩٣) صورة عن الطَّبعة الأولى.
- الخصائص لابن جنّي (٣٩٢ ﻫ) تحقيق محمَّد علي النَّجار، صورة عن الطَّبعة الثَّانية . دار الهدى للطّباعة والنَّشر - بيروت - لبنان .
- ديوان الحماسة لأبي تمّام، تحقيق د. عبد الله عسيلان ١٤٠١ﻫ، جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية - الرياض.
- سير أعلام النُّبلاء للذَّهبي (٧٤٨ ﻫ) أشرف على تحقيقه شعيب الأرنؤوط،

مؤسَّسة الرِّسالة . ط . ثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ م .

– شرح التَّسهيل لابن مالك وابنه، تحقيق: عبدالرَّحمن السيد وزميله . دار هجر للطباعة والنَّشر . ط . أولى ١٤١٠هـ.

– شرح الحماسة للمرزوقي (٤٢١ هـ) نشره أحمد أمين وعبدالسَّلام هارون . ط . ثانية ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م - القاهرة.

– شرح الشَّافية للرضي النَّحوي (٦٨٦ هـ) تحقيق محمَّد نور الحسن وزميليه . دار الكتب العلميَّة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، بيروت ـــ لبنان.

– شرح قصيدة (بانت سعاد) لابن هشام الأنصاري،تحقيق: د / محمود حسن أبوناجي - مؤسَّسة علـــوم القرآن ط ٢٠، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

– شرح الكافية الشَّافية لابن مالك (٦٧٢ هـ) تحقيق: د.عبدالمنعم هريدي، دار المأمون للتراث . ط . أولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ م .

- شرح المفصَّل لابن يعيش . عالم الكتب - بيروت .

– الشِّعر (شرح الأبيات المشكلة الإعراب) لأبي علي الفارسي (٢٨٨ - ٣٧٧ هـ) تحقيق وشرح د.محمود محمَّد الطناحي. ط.أولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، مكتبة الخانجي - القاهرة .

– ضياء السَّالك إلى أوضح المسالك تأليف: محمَّد عبدالعزيز النَّجَّار،صورة.

– غاية النِّهاية في طبقات القرَّاء لابن الجزري، اعتنى به برجستراسر. دار الكتب العلمية - بيروت .

– في الأصوات اللغوية دراسة في أصوات المد العربية للدكتور غالب فاضل المطلبي، الجمهورية العراقية منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة دراسات ١٩٨٤م



مطابع مؤسسة مكة للطباعة والاعلام

مكة المكرمة . ت : ٥٢٠٣٠٥٤